جوناثان كيرتش

حكايا محرّمة في التوراة

ترجمة: نذير جزماتي



حكايا محرمة في التوراة

اسم الكتاب: حكايا محرمة في التوراة
اسم المؤلف: جوناثان كيرتش
تعـــريــــب: نذير جزماتي
تصميم واخراج الغلاف: دار نينوى
موافقة وزارة الإعلام: رقم ٧٥١٩٧
اسم المطبعة: اليازجي للطباعة
٢٣١١٢٧٩

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع
سورية — دمشق — ص ب ٧٩١٧
تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣+
E-mail: ninawa@scs-net.org

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي هاتف ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ١٣٣٤٤ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢
Email:darkitab@starnet.com.eg

جوناثان كيرتش

حكايا محرمة في التوراة

ترجمة نذير جزماتي

الفصل الأول
حكايا محرمة في التوراة

نوح العاري

التوراة الممنوعة

التوراة المنسية

التوراة المحررة

ثمة حاجة لقص القصص وسماعها

ان القصص التي أنت في سبيلك لقراءتها هي بعض القصص الجنسية الأكثر عنفاً وجلاء في كل الأدب الغربي. انها حكايا العواطف الانسانية بكل أنواعها غير المحدودة: الزنى، والإغواء، والرهق (الزنى بين الأقارب «المحارم»)، والاغتصاب، والتمثيل في الجثث، والانتحار، والتعذيب، والتضحية، والجريمة. ومع ذلك، فان كل قصة من هذه القصص مأخوذة بشكل مباشر من صفحات التوراة.

وردة فعل القاريء الذي يعرف التوراة من الوعظ العام، او من دروس مدرسة الأحد هو السؤال: «هل تعني ان ذلك من التوراة؟» وحتى القراء الذين يظنون أنهم يعرفون التوراة لايستبعد ان يكونوا غير مطلعين بصورة حسنة على هذه القصص، على وجه التحديد، لأن الحاخاميين والكهنة، والمسؤولين المرتبكين قد سعوا جهدهم لإخفاء اللغة الواضحة للنص العبري الأصلي خلف الكنايات المشوشة، أو خلف التأويل المجوج، والترجمات العالمية السيئة. ومع أن التوراة كتاب مقدس لأديان ثلاثة، فإن البعض من قصصه الأكثر اثارة قد منعت بصورة تامة من قبل رجال الدين الذين لم يكونوا مرتاحين أبداً في القول لأتباعهم ما الذي حدث في التوراة حقاً؟

وكنتيجة لهذه الجهود المبذولة في التجريف يتكون لدينا أحياناً انطباع بأن التوراة في معظمها كتاب جاف واعظ، وقائمة طويلة من التسويفات و(سوف لا) التي تدين كل السلوك الانساني باستثناء نطاق ضيق منه. انها كتاب أسود

محرم مع القليل من الكلام يقال عن الرجال والنساء الأرضيين الذين كانت حياتهم أكثر بؤساً مما نتخيل ان الكتاب المقدس يسمح به. ولكن، والحق يقال، ان التوراة تقدم بعض الاستبصارات المدهشة التي قد نتذكرها بصورة نافعة عندما نواجه أعسر القضايا أو الحلول في أوقاتنا الراهنة، بدءاً من الجدل بصدد الاجهاض، الى البحث عن السلام في الشرق الأوسط، ومن السياسات الجنسية الى السياسات العالمية.

وكن واثقاً أن التوراة العبرية تتضمن أقساماً هامة من التعاليم الأخلاقية، المنطلقة من الوصايا العشرة، ويتضخم هذا القسم لكي يضم نحو 613 فعلَ ولم يفعل. وبسبب ذلك، فان قضايا قليلة جداً لايجدها القاريء في التوراة التي هي عملياً ملف قانوني خيالي مسروق، وخرافات، وتاريخ، وسياسة، ودعاية، وشعر، وصلاة، وأخلاق، وأنساب، وقواعد صحية، وتكتيك عسكري، ونصائح باتباع الحمية، وتعاليم بشأن النجارة، بين أشياء كثيرة غيرها. ولكن، وكما سنرى، فان التوراة كنز من القصص التي تصف حياة الرجال والنساء الذين كانوا بشراً حتى النخاع الشوكي، الذين من الممكن القول انهم كانوا مشوشين، ومتصارعين، وملتوين، ومعذبين، ومعرضين لضعف الجسد، وفشل الروح، كأي شخصية من شخصيات هوميروس، وشكسبير، ودستوفسكي، أو أي شخصية في مسلسل قصص عن متاعب أشخاص القصة في الحياة، أو ممزقي الثياب، أو ملخصات لقسم من الأدب في زماننا.

وجئنا في هذه الأيام لنشارك التوراة بتذمم شديد ونسدد «ضربات انجيلية هائلة» .اننا نتوقع أن قراء التوراة من أصحاب الآفاق الضيقة لايقبلون، وهم في عليائهم، أدنى درجة من السلوك البشري غير المستقيم، وخصوصاً في المسائل الجنسية أو الروحية.ولكن، وكما سنرى بعد قليل، تصف التوراة السلوك البشري، بل تبدو انها تشجع مساحة معينة من هذا السلوك الذي يتجاوز ماتسمح به الوصايا العشر.

نوح العاري

لقد اكتشفت للمرة الاولى ما هو مخبوء في الشقوق المنعزلة للكتاب المقدس وفي زواياه عندما قررت، قبل سنوات عديدة، أن أعرف ابني الصغير على التوراة

بوصفها كتابا أدبيا، بأن أقرأ بصوت عالٍ وقبل النوم شيئاً من سفر التكوين. فاخترت الكتاب المقدس الانكليزي الجديد، بترجمته الانكليزية المحكية للنص الوقور، بهدف آن يدرك ابن الخامسة من عمره مايدور بالفعل في القصص من دون تحمل أعباء الكلمات القديمة والتعابير التي تمنح ترجمة الملك جيمس تلك العظمة، إلا أنها تجعل من الصعب أحياناً على المرء متابعتها.

بدأنا من البداية، بالطبع،وتابعنا عبر الرواية الموحية لحواء والافعى،ثم جريمة قتل هابيل من قبل أخيه قابيل. وأدركت على الفور أن سفر التكوين صقل ما لم يكن مصقولا. غير انني أكدت لنفسي بأننا سنصل في الحال الى قصة نوح والفلك. وستصرف ،مدرسة الأحد غير المعترض عليها، ذهن ابني عن الفقرات المزعجة والمربكة التي قرأناها قبل قليل. ولم يكن شيء قد أعدني لمواجهة مارأينا، بعد اللحظة المعهودة، حين خرجت الحيوانات من الفلك اثنتان تلو اثنتين.

وفي نهاية قصة نوح، بعد أن انحسر الطوفان وألمع الرب الى ارادته الطيبة تجاه البشرية برسم قوس قزح في السماء، وصلت الى مشهد لم يجد سبيله الى كتب القصص أو دروس يوم الأحد: نوح مستلقٍ لوحده في خيمته عارياً ومخموراً كبحار سكر على خمر من كرمه الخاص. ويتسلل أحد أبناء نوح وهو حام الى الخيمة ويجد نفسه يحدق النظر في أبيه العاري والمخمور:

«عندما رأى حام وهو أبو كنعان أباه عارياً سوءة أبيه.فأخبر أخويه وهما خارجا. فأخذ سام ويافث رداءه وجعلاه على منكبيهما ومشيا مستديرين فغطيا سوءة أبيهما ووجهما الى الوراء وسوءة أبيهما لم يرياها»(سفر التكوين 9 :20-22)[1]

---

(1) كل المقتطفات من التوراة هي من الكتاب المقدس حسب النص الماسوريتي (فيلادلفيا، نشر الجمعية اليهودية 1961) مالم يشر الى غير ذلك بصورة مختصرة ويشار الى ترجمة أخرى.و«الانجيل الانكليزي الجديد» على سبيل المثال، يشير الى الانجيل الانكليزي الجديد مع ابوكريفا (الأسفار التي يستبعدها البروتستانت) الطبعة الثانية (نيويورك، جامعة اوكسفورد 1970) ويمكن مراجعة الصفحة212 حيث تجد قائمة كاملة من ترجمات التوراة والاختصارات المستخدمة.أما الترجمة العربية فقد استندت بالدرجة الاولى الى «العهد العتيق» دار المشرق، ش م م ،بيروت 1986)

بعد هذا المشهد وبهذه الكوميدية، ومع أن ذلك غير مريح لأي أب رأسه مليئة بفرويد، قرأت التوراة ببطء أكثر وأنا أعيد قراءة بعض الفقرات وأسير وأنا أحذف غيرها. فبدأ ابني، وكان في الخامسة من عمره،بالاعتراض. وإذا ما توقفت طويلا امام فقرة مزعجة،محاولاً تلحينها فسوف يجلس ابني في فراشه ويسأل بسخط، «ماذا تترك؟»

ودفعني سؤاله بمعنى من المعاني الى كتابة الكتاب الذي تقرأه الآن. فقد ألفيت نفسي وأنا أقرأ التوراة لابني بصوت عالٍ، انني أفعل تماماً مايفعله الكهنوت والمترجمون بالغو الظن والخائفون عبر مئات السنين. راقبت النص لكي أوفر على المستمع الأقسام الجزلى. وهاهو سؤال ابني يجاب عليه: «القصص المجموعة في هذه الصفحات من هذا الكتاب هي قصص ألزمت بالابتعاد». وقد صدمني هذا الأمر مثلما صدمت قراء الكتاب المقدس قصة الألف سنة (التي سيتولى فيها المسيح الحكم في العالم)[1]

التوراة الممنوعة «المحرمة»

تأتي القصص التي تعاد روايتها هنا مفاجأة لكثير من القراء، وبصورة خاصة، لأنها أخفيت لقرون عديدة، من قبل الحاخاميين والقساوسة والكهنوت غير المرتاحين لصراحة رواة التاريخ التوراتي عن السلوك الانساني، الجنسي وغير الجنسي. وعندما كانت وسائل المراقبة دقيقة ومنحرفة، وهذا يفسر لم، حتى الكنيسة النظامية، وحضور الكنس لايعرفون -أغلب الظن- أن هذه القصص، الجريئة والمثلمة، يمكن ايجادها في نصها الأصلي في التوراة.

التوراة ككتاب ممنوع

منعت بعض القصص الأكثر توهجاً في التوراة في أوقات معينة وفي أماكن

---

(1) تم اكتشاف التوراة العبرية، وشرحها وتزيينها المرة تلو الاخرى من قبل أجيال متعاقبة قام بها حاخاميون وأحبار لأكثر من ألفي سنة. ونجد كثيراً من أعمالهم في التلمود، وهو مجموعة واسعة من القوانين (الشريعة) اليهودية، والأساطير، وتجميع منفصل للانجيل، وتفسير مستلهم يعرف باسم ميدراش. وعندما أشير الى«الحاخاميين»(أو أحياناً الى «الحكماء»)، فأنا أعني المفسرين من الحاخاميين الذين ظهر عملهم في التلمود والمدراش. والاستشهاد المجدد من المصادر التلمودية والميدراشية يمكن ايجاده في أعمال يشار اليها في الشواهد الأخيرة لكل فصل.

معينة. وعلى سبيل المثال بنيت خدمة الصلاة في اليهودية على القراءة العامة للتوراة، أي الكتب (الأسفار) الخمسة الاولى من التوراة العبرية، ومقاطع مختارة من كتاب العهد القديم العبري. وباعتبار أن تجمع المصلين اليهودي النموذجي كان (ولازال) لايأتلف مع العبرية القديمة التي كتبت بها التوراة، فقد ترجمت التوراة الى اللغات التي يتكلمها الناس اليهود خارج الأراضي المقدسة. وقرأت التوراة بصوت عالٍ للمصلين، كلمة كلمة، في دورة دامت سنة كاملة، من ثم تبدأ من جديد. ولكن فرض الحاخاميون، منذ وقت طويل، قواعد صارمة صممت بوضوح لمنع المصلين التابعين لهم من سماع أو ادراك بعض فقرات الكتاب المقدس[1] وعلى سبيل المثال، فان السلطات الحاخامية رسمت مرة بصورة صحيحة إغواء سرية يعقوب بلهة (أمة راحيل) من قبل أول ابن له راوبين (سفر التكوين 22:35) والوصف الكامل لاشتهاء الملك داود لبتشايع (سفر الملوك الثالث، صاموئيل 2:11) وهي حكاية تصور المناوقة (أي الشخص الذي يجد لذة جنسية من مشاهدة جماع يجري بين رجل وامرأة) والاغواء، والزنى، وولد الزنى، وجريمة قتل جندي مخلص وبطل بوسائل منحطة وجبانة. ومن المسموح به أن تقرأ هذه القصص بصوت عالٍ في الكنيس في الأصل العبري ولكن لاتترجم من العبرية الى لغة يفهمها تجمع المصلين أكثر. وبعض القصص، ومن ضمنها، على سبيل المثال، اغتصاب ابنة الملك داود تامار، من قبل المجنون بحبها أخيها غير الشقيق(أمنون) (سفر الملوك الثاني، صاموئيل 2:13) كانت مربكة جداً للحاخاميين الى الحد الذي لم تقرأ به القصص بصوت عالٍ أوتترجم عن التوراة العبرية(1)

وأصدر مطران انكليزي في القرن الثامن عشر اسمه بورتوس بصورة مشابهة فهرسا للانجيل كان مصمما بحيث يعرف المرء أي من الفقرات يعتبرها رجل الكنيسة الطيب ملائمة للقاريء العادي. واستخدمت نجمة للإشارة الى أقوال يسوع والأقوال الموافق عليها (المجازة) من سفر المزامير ومن نبوءة أشعيا. واستخدمت الأرقام 1و2 لتدل على الفصول المجازة الأخرى والى آيات من الكتاب المقدس. واعتبرت الفقرة من التوراة التي لاتحمل أحد هذه الرموز التي وضعها

---

(1) ونحن بدورنا اعتمدنا ،كما ذكرنا ، على ترجمة دار المشرق لعام 1986

المطران بورتوس حدا يجب أن لايتعداه قاريء التوراة العادي. وبين المطران أن نصف التوراة العبري تقريباً (وبعضاً من العهد الجديد) أكثر حرارة من أن يعطى أو يسلم. وبالطبع ، فإن مايسمى بالفهرست البورتوسي، اذا استخدم بصورة معاكسة، فإنه يعتبر وسيلة مثالية لقاريء التوراة المتطفل الذي يسعى بصورة محدودة الى القصص التي بذل المطران مساعيه لمنعها (2) وكانت بعض الجهود التي بذلت من أجل تهذيب التوراة بليدة جداً: كانت احدى النساء المغامرات سريعة الانفعال في أميركا أواخر القرن الثامن عشر خائفة من ترك أطفالها يقرؤون التوراة. فقامت بطبع طبعةٍ حذفت منها بكل بساطة «التعابير غير الملائمة» التي وجدتها في النص الأصلي. وفي الحقيقة طال مقصها الكثير « من اللغة السيئة» بحيث أنها انتهت الى قص أو ابعاد حوالي نصف النص، وبالتالي فان باقي العالم لم يعد ينظر الى نصها وكأنه كلمة الله الموصى بها. ومثل عمليات التفسير للتوراة في كل جيل من الأجيال، فان المرأة أضافت الكثير من ملاحظاتها الخاصة ومن تعليقاتها مما جعل هذه الطبعة ستة مجلدات.(3)

التوراة المكتوبة من جديد

كان بعض الحكماء والمؤلفين حتى في العهد القديم يروعون مما كانوا يجدون في التوراة الى الحد الذي جعلهم يتحركون بهدف إعادة كتابة الكتاب المقدس فتترك ببساطة الفقرات التي يجدونها فظة أو قابلة للاعتراض. وقد وجدت بعض النصوص التي أعيدت كتابتها في الترجمات الأقدم للتوراة العبرية الى اللغة اليونانية، أو الآرامية، وهي اللغة القديمة المتأخرة التي من المحتمل أن يكون يسوع تكلم بها. وعلى سبيل المثال، تمتع المترجمون الأتقياء الذين نقلوا التوراة الى الآرامية بحرية التلاعب بالنص الأصلي وكانوا يبذلون جهدهم في شرح حكايا القتل المريكة أثناء مطاردة الرب لموسى خلسة ومحاولة قتله (سفرالخروج24:4-26). وجمع مؤلفون آخرون في العالم القديم قصص التوراة وأعادوا روايتها بعد أن تركوا ببساطة جملة من الحكايا.(4)

ووجدت رواية توراتية سبيلها الى التوراة نفسها بالفعل في ترجمة أعيدت كتابتها. إلا أن السفرين الأول والثاني لأخبار الأيام الأولى، والأسفار الأخيرة في التوراة(العهد القديم) العبري صحيحة من حيث الجوهر فيما يخص

القصر التاريخي للملك داودالذي يظهر في حالة غير مهذبة في سفري صاموئيل (الملوك) الأول والثاني. وكان كاتب (سفري) صاموئيل (الملوك) نزيهاً ومعجباً بداود، فلم يترك أي تفصيل، مهما كان فيه اطناب في الحديث عن الجنس بأنواعه، أو عن جرائم الشهوة الجنسية التي لطخت تاج داود، إلا ذكره. في حين أن كاتب أخبار الأيام الأول يصر على تنظيف سمعة داود عن طريق الحذف من القصص الأكثر فسقاً. ويولي (سفر صاموئيل، على سبيل المثال، انتباهاً معقولاً، الى الحب القاتل الثلاثي مابين داود وبتشايع وزوجها 2 (صاموئيل (الملوك2) ولم يحدث أن صدر حكماً قاطعاً من خلال سفر الأيام الأول. ولقد صاح يوليوس ويلهاوزون، وهو كاتب انجيلي جرماني قديم ومهم، سمح لنا أن ندرك أن الكتاب الحقيقيين للتوراة كانوا بشراً عاديين كأن يرغبون رغبة أكيدة أن يقوموا بعملية التغطية، صاح هذا الرجل قائلاً:«انظر مافعلت أخبار الأيام الأول بداود!».(5)

«ماكتب» و«ما قيل»

كانت احدى المقاربات الأكثر غرابة في عملية تنظيف التوراة هي التي أقرت من قبل الماسورتيين Masoretes وهم جيل من الكتاب الحاخاميين الذين سعوا الى حفظ الطبعة الرسمية من التوراة العبرية في القرن الخامس(عهد المشاعية) ومن ضمن الإشارات المساعدة المضافة الى ما أطلق عليه اسم النص الماسوريتي سلسلة طويلة من التحذيرات التي تميز ما بين «ماكتب» (كيثيب) و«ماقيل» (كير)-أي، ماقام الحاخاميون بتعريفها بالقول إنها كلمات معينة يفترض أن تقرأ بصوتٍ عالٍ بصورة مختلفة عما كتب فعلياً في النص.

وعلى سبيل المثال، فان سفر تثنية الاشتراع يتضمن قائمة من الشتائم الموجهة الى الاسرائليين اذا لم يطيعوا أوامر الرب. وعندما نقرأ الشتيمة التي تظهر في سفر تثنية الاشتراع (28:30) (في النسخة الانكليزية)- «تتزوج امرأة فيطأها رجل آخر» فإن النص التوراتي يستخدم الكلمة العبرية التي تشيرالى الاتصال الجنسي، غير أن الماسورتيين نصحونا بأن نلفظ الكلمة العبرية «يستلقي» بدلاً من الكلمة «يغتصب» عند قراءة النص بصوتٍ عالٍ.

وسجل الحاخاميون القدماء الوقورون أن «المقاطع المكتوبة بتعابير غير

نظيفة تحول الى قراءات بسيطة أكثر».(6)

المترجم كمراقب

ان بعض الفقرات في التوراة أكثر فجوراً مما نتوقع لأن التعابير الاصطلاحية في النص ترجمت حرفياً بغية اخفاء معانيها. وأفضل مثال عن ذلك نجده في الحكايا المعروفة عن راعوت، حين أرسلتها حماتها الأرملة الشابة الى بيت صاحب أراضي ثري اسمه بوعز قالت لها: «اغتسلي وتطيبي والبسي ثيابك» وقالت الحماة الماكرة: «فإذا رقد فعايني الموضع الذي يرقد فيه وادخلي واكشفي جهة رجليه واضطجعي فإنه يخبرك بما ينبغي أن تصنعي» (راعوت3:4) والمشهد مربك قليلاً- لأنها، بعد كل شيء تكشف عن قدميه؟- وحتى نكتشف ما الذي فشل المترجمون في إخبارنا اياه: فان كلمة «قدمين» أو «ساقين» استعارة ترد أحياناً في التوراة كبديل عن العضو الجنسي لدى الذكر(7). ولكن ما الذي قالته نعيمي لراعوت كي تفعل مع بوعز؟ إننا ندرك الآن ان ماتطلبه من راعوت هو أن تخرج العضو التناسلي وهو نائم- وترى ماالذي يفعله الرجل عندما يستيقظ:« فإنه سيخبرك بما ينبغي أن تصنعي».

وماجرى فعلاً مابين بوعز وراعوت لازال غامضاً بسبب استعارة اخرى لم تترجم. فلقد استيقظ بوعز ووجد أعضاءه التناسلية مكشوفة وراعوت الشابة الجميلة بجانبه.«من أنتِ؟» وأجابته: «أنا راعوت أمَتك ابسط ذيل ثوبك على أمتك لأنك وليٌ» (راعوت3:9) ولكن مرة ثانية، أهمل المترجم القول لنا إن «نشر ثوب شخص معين» ماهو إلا مجاز توراتي عن الاتصال الجنسي:«لأن الرجل اذا نشر «ثوبه» فوق امرأة- حسب أديب توراتي في الشقوق واسمه مارفين اتش بوب «فلا يعني ذلك مجرد منع القشعريرة من أن تسري في جسدها بسبب البرد»(8)

وتتمثل الحبكة المفضلة الأخرى في التوظيف الذاتي للقيام بمهام المراقبين باستخدام ترجمات سيئة او بارتكاب أخطاء مقصودة. وعلى سبيل المثال، فان سفر يشوع، يتضمن قصة «العباءة والخنجر» في عصر التوراة عن جاسوسين أرسلا الى أرض كنعان قبل أن يستكشف جيش اسرائيل ا لغازي دفاعات العدو(يشوع 1:1-9) وقد تمت حماية الجاسوسين من قبل امرأة كنعانية

اسمها راحاب عرفها النص الأصلي بصراحة بأنها «بغي»، ليس لمرة واحدة، بل مرات كثيرة. وبالفعل فان الكلمات العبرية التي يمكن قراءتها تقترح أن الجاسوسين كانا ينتفعان من خدمات راحاب المهنية حين انقطع كل ذلك بسبب مرور دورية للعدو(9) ومع ذلك فان بعض اساتذة مدرسة الأحد يفضلون أن يقولوا لطلابهم الشباب سريعي التحسس إن راحاب اللطيفة والشجاعة هي «مسؤولة عن خان». والعلم التوراتي حاول أن يجعل الكذبة البيضاء الصغيرة شرعية بالاشارة الى «الخان أو الماخور قد وجدا في بناء واحد أغلب الأحيان في تاريخ الجنس البشري»(10)

والله نفسه هو أحياناً ضحية الاستعارات الرقيقة والضبابية التي تترك غير مشروحة من قبل المترجمين المرتبكين. وعلى سبيل المثال يقال لنا في سفر الخروج (18:33-23) ان موسى وحده، من بين كل البشر، سمح له أن يلقي نظرة على الرب، كلي القدرة، ولكن فقط من ورائه، واهتم الرب بأن يغطي موسى عينيه: «أما وجهي فلا تستطيع أن تراه لأنه لايراه انسان ويعيش»(20) «ويكون اذا مر مجدي اني أجعلك في نقرة هذه الصخور وأظللك بيدي حتى اجتاز»(22) والكلمة المستخدمة في النص العبري والمترجمة تستخدم اصطلاحياً أحياناً في الاشارة الى عضو الذكر التناسلي.«وحقيقة إن الرب يريد أن يرى فقط من خلفه»حسبما كتب مايلز في «الله: تعريف»:«قد تقترح أنه يخفي أعضائه التناسلية عن موسى»(11)

هل تعني التوراة ما تقول؟

وأخيراً، عندما لاتكون المراقبة التامة ولاسوء الترجمة الملبية للحاجة عمليتين، تلجأ السلطات الدينية الى الاجراء البائس في الجدل الذي يقال فيه أن التوراة لاتعني حقاً ماتقول.

ويعتبر «نشيد الانشاد» على سبيل المثال، من جانب العلماء في هذه الأيام بأنه «النشيد الذي يتعامل بوضوح وبساطة مع حب جنسي بين رجل وامرأة» (12) والحقيقة، ان من المستحيل قراءة الموضوع وفهم غير ذلك بدقة بسبب شهوانية صريحة : «ليقبلني بقبلِ فيه» في السطر الأول « فان حبك أطيب من الخمر» (نشيد الانشاد1:1). ان الحاخاميين الذين قرروا ماهي الكتب التي

تنتمي الى التوراة يناقشون مع بعضهم بعضاً فيما اذا كان ينبغي علينا أن نعتبر أن شعر الحب المتقد في نشيد الأنشاد وكأنه إلهام إلهي، ويناقش بعضهم أن سفر حياة الفجور الليلي يجب سحبه من الأسفار المعترف بها مرة واحدة والى الأبد.

ومع ذلك لم يبعد نشيد الأنشاد عملياً عن التوراة، ورجال الدين في كل من الدينين اليهودي والمسيحي اختاروا عبر القرون أن يتجاهلوا مضمونه الشهواني الواضح. وبدلاً من ذلك، أصروا بعناد على أن نشيد الأنشاد هو مجرد استعارة متقنة عن «علاقة الحب مابين الله واسرائيل» حسب المعلقين اليهود، أوعن «علاقة الحب مابين الرب(المسيح) والكنيسة» حسب المعلقين المسيحيين (14)

المراقبة الصامتة

إلا أن التكنيك الشائع أكثر من غيره في التأكيد على أننا لانعرف ما تقول التوراة عملياً عن نواحي خرق السلوك الانساني هو الصمت. واليوم، فان معظم الأناجيل غير مهذبة، ومعظم الترجمات قيد الاستخدام العام في عالم المتكلمين باللغة الانكيزية هي دقيقة الى حد كبير وغير مرتبكة، إلا أن القراء الطارئين قلما يجدون سبيلهم الى القصص«المحرمة» في الانجيل لأنهم ببساطة لايعرفون أن مثل هذه القصص وجدت، وهم لايتعبون أنفسهم في البحث عنها.

وفي الحقيقة، لازال رجال الدين في كل الأديان والطوائف يميلون الى ابعاد هذه القصص عندما يعتلون المنبر، ولازال أساتذة مدرسة يوم الأحد يفضلون قصص التوراة حيث يعرفون أنهم سيجدون حيوانات محببة ديزينية[1] ويلقون دروساً أخلاقية بسيطة. ولهذا السبب فان حتى المرأة الذاهبة الى الكنيسة النظامية أو الى الكنيس، على سبيل المثال، قلما تتعرض لاغتصاب دينا من قبل أمير مريض بالحب، وللختان الذي يتبع اغتصابها الجنسي، ولقاتل الأبرياء وسالب أموالهم في سفر التكوين(34)

ويلاحظ جوليان بيت-ريفرز، وهو عالم انساني بريطاني قائلاً: «أنا لم أسمع بذلك أبداً في الدروس الانكليكانية ولم تذكر في اي لحظة». وهو يتذكر صدمته

---

(1) نسبة الى والت (تر) ي. ديزني (1901-1966) وكان مبدعاً اميريكياً ومنتجاً لأفلام الصور المتحركة للحيوانات.(المعنى الكبير)

حين اكتشف وهو في عمر غض أن الاغتصاب والجريمة الشائعة (بين كل الذكور) ليستا السرين الصغيرين القذرين الوحيدين في التوراة: فـ«غشيان المحارم، وقتل الأخ أو الأخت، وAiliocide، وإعارة الزوجة، وتعدد الزوجات، والشذوذ الجنسي، والبغاء» كانت ضمن الآيات المنزلة بالنسبة الى الشاب المتطفل في بيته وهو وحيد مع اسرة التوراة. وعلق بيت-ريفرز قائلاً: «يبدوأن الحكم غير عادل بأن يلقى بآدم وحواء الى خارج جنة عدن بسبب مثل هذه الهفوة التافهة المتمثلة بأكل تفاحة من شجرة الخطيئة»(17)

لذا فقد حاولت في هذه الصفحات أن أجعل القاريء يرى ماكتب بالفعل في قصص تعرضت للاسكات والاضطهاد، ورووقبت، أو تم تجاهلها خلال آلاف من السنين. ويجب التأكد من أن ادراكنا للانجيل ينبغي ألا ينتهي بعين القاريء المفتوحة في قراءة القصص المروية من قبل المؤلفين التوراتيين بمثل هذه الصراحة وهذه العاطفة. ولكن يجب أن تبدأ من هنا.

التوراة المنسية

قليلون منا يزعجون أنفسهم في هذه الأيام في فتح التوراة. ولكن راوي القصص المعاصر يحيي بين الحين والآخر بعض النصوص المحرمة ويجعلها في متناول اليد للقراءة التي نسيت ما في التوراة- أو أنها في الدرجة الأولى، لم تعرف. ويعيد أندرو الويد كويد ويبر رواية أكثر القصص المألوفة في التوراة في صياغته الموسيقية في «يوسف ومعطف النوم المذهل بالألوان»، وهو ، مع ذلك، يشعر أنه مجبر على أن يضع تزييل على الاوبرا، اذا جاز القول، عندما يشير الى حادث يظهر في ترجمة للتوراة ولكن ليس في التجربة العامة للحضور.

وهكذا، فان ويبر عندما يعرض علينا الاغواء الخائب للشاب يوسف من قبل الزوجة الشبقة للسيد المصري، يشعر كاتب النص الاوبرالي أنه مجبر على التأكيد لنا انه لم يؤلف الرواية نصف المضحكة ونصف الفاجرة للغاوية الممضة التي حكمت على يوسف بالسجن لأنه لم يرضخ لسحرها.

«ان كل القصة هناك في الفصل التاسع والثلاثين» من سفر التكوين حسب ما ورد على لسان راوي قصة «يوسف ومعطف النوم المذهل بالألوان»(18)

وقد يكون رواة قصص آخرون اقل ورعاً عندما فتشوا بين النفايات عن خيط

مؤامرة من الكتاب المقدس. ويصف موردخاي رخلر عصابة من «قساة القلوب يعرضون عملاً غريباً» في مسرحية أرض همستيد اليباب في «سانت أريين هورسمان». وهي رواية انطلقت من لندن في السنوات الستين المتأرجحة، عرفتنا على كاتب تلفزيوني مغامر عرف تماماً أين يجد أفكار قصة تهز (شباك المنفذين والمشاهدين أيضاً)، كعمل أصيل صاعق.

لم يسط الرجل فقط على العهد القديم في معظم أعماله الرابحة في مؤامرات بونانزا، بل كانت ليليان التي كتبها في معمعان المعركة بصورة واضحة مرة ثانية. وأدت له الثقافة اليهودية التي اشتراها بصعوبة ، أدت خدمة ممتازة لاتقدر بثمن ، حسب ما أكد له أبوه بصورة دائمة.

وتذكر موي داووده المليح: وحدث في الصباح، ان داوود كتب رسالة الى يوآب، وأرسلها بيد اوريا.

وكتب في الرسالة يقول:وجهوا أوريا الى حيث يكون القتال شديداً وأرجعوا من وراءه فيضرب ويموت. آمين(19)

وتتمثل الفكرة في قصة ريخلر، طبعاً، في أننا نعرف القليل عما يجري في التوراة بحيث لايلاحظ أحد في هوليود ان كانت العقدة منحولة، أي مسروقة، من سفر صاموئيل (الملوك الثاني). ويحدث، بصورة نادرة، أن قارئاً علمانياً يصادف احدى القصص المحرمة في التوراة، يفصل الفقرات الصعبة والمكثفة في الترجمة الانكليزية النموذجية، ويستيقظ على حقيقة أن التوراة هي احدى القراءات الساخنة.

انه «من البداية الى النهاية كتاب عن السلوك المتوحش الهدام» - حسب ما كتب ميشال فينتورا. وهو محرر صحفي انتفخ عقله تماماً بما وجده في التوراة: «نساء(يتزوجن) الثعابين، اخوة يقتل بعضهم بعضاً، شعوب تذبح عن بكرة أبيها، قبائل تهيم على وجهها في الصحراء، أطفال رضع يهجرون، وجريمة تتبع النبوءة، والنبوءة تتبع الجريمة، وراقصون يطالبون برؤوس الأنبياء». ويصل فينتورا الى استنتاج يقول ان أي مجتمع يرفع التوراة الى مركز الكتاب المقدس معرض للجنون . ومن المضحك- حسب ما يضيف- «أن نتوقع حضارة تستند الى مثل هذا الكتاب ولا يكون المجتمع غير متوحش وغير مخرب.»(20)

التوراة المحررة

تتعامل نصوص التوراة المحرمة بصورة صريحة مع الجنس والعنف، إلا أن ثمة أكثر من الصدمة المجردة وأكثر من الاثارة (الدغدغة) Titillation في هذه القصص، للعا طفة الانسانية. وبقيت مطمورة في تراب النصوص القديمة، مثلها تقريبا مثل مصنوعات يدوية في حفرة أثرية، تلك هي الكنوز من الاستبصار والالهام التي تذكرنا بالقيم الرفيعة لليهودية والمسيحية والاسلام، في الوقت الذي تسمح لنا فيه بأن نرى آثار تقاليد روحية أقدم بكثير تم تجاهلها أو كبتها من قبل الأديان الثلاثة.

وتكشف هذه المصنوعات اليدوية من الروحانية القديمة بالفعل أن التوراة ليست من عمل أصولية صارمة.ونحن شجعنا على التفكير بالله كأب إلهي يمنح بركاته لسلسلة من الرجال خلقهم على صورته- ولكننا سنلتقي هنا مع النساء اللواتي كن جريئات جداً، وقويات جداً، وواسعات الحيلة جداً، الى درجة أنهن بهرن الآباء والأنبياء الذين يفترض أنهم منارات للأخلاق التوراتية.لقد علمنا أن التوراة من عمل إله واحد حازم ورفيع المقام-إلا أننا سنجد بقايا مثيرة للاهتمام من روحانية/اكليريكية محرمة، تضم عبادة آلهات، وطقوس خصب، وحتى ضحايا بشرية. ومن المفترض أنها مرفوضة كلها من قبل أبناء اسرائيل وبعيدة عن التقاليد اليهودية- المسيحية إكراماً وإكباراً لله الواحد. و سنذكر، قبل كل شيء، بالرسالة الانسانية والمؤاساة في قلب التوراة، التوراة العبري والعهد القديم كليهما، وهي رسالة غالباً ما أعيد النظر فيها خلال القرون، ولم ينظر اليها أكثر من النظر اليها في الزمن الذي نعيش فيه.

ويدعي اليوم أصوليو الأديان الثلاثة المستندة الى الانجيل أنهم وجدوا في الكتاب المقدس عذراً آلهياً (مقدساً) مكبوتاً وما هو أسوأ بكثير. واستشهدوا بفصل أو بآية، لإدانة الإجهاض والطلاق، والشذوذ الجنسي، على وجه التحديد.وادعوا أنهم وجدوا في التوراة تبريراً إلهياً لأخذ أكثر الأراضي المتنازع عليها فوق ظهر البسيطة والاحتفاظ بها. إنهم يشعرون بأنهم يمنحون القوة من العلي القدير لكي يصدروا أحكاماً بالموت على اولئك الذين تغيظهم كلماتهم وأفكارهم. ومع ذلك فاننا اذا نظرنا الى النصوص المحرمة في التوراة، سنكتشف

ان الرجال والنساء والعشائر والقبائل، والشعوب والأمم- رغم اختلافهم في العرق والدين- تدبروا أمر تحمل بعضهم بعضاً، في المشاركة بالعيش فوق الكرة الأرضية، وفي لقاء أحدهم مع الآخر وفق طرق سليمة وحميمة. إنها خبرة محررة ان نكتشف ماتقول التوراة بالفعل عن سياسات الجنس، على سبيل المثال، إضافة الى سياسات الأمم.

الحاجة الى قص القصص والى سماعها

يتألف الكتاب الذي أنت في طريقك الى قراءته من سبع قصص مذهلة وفاحشة في التوراة.وكل القصص مأخوذة من قسم من الكتاب المقدس يعرف في العرف اللغوي المسيحي بالعهد القديم، أي التوراة العبري. وهو يعتبر مقدساً بقدسية اليهودية والمسيحية والاسلام. وكل قصة تعاد روايتها بنثر انكليزي معاصر، وكل واحدة منها مرفقة بفصل يستكشف «القصة الخلفية» للرواية التوراتية: كيف ومتى وجدت القصة سبيلها الى التوراة؟ كيف فُهمت، كيف شرحت، وماالذي قالته لنا حياة ومعتقدات الرجال والنساء الحقيقيين الذي عاشوا في الأيام التوراتية، وماذا يمكن لها أن تكشف عن عالمنا المتعب؟

لقد كان الكتّاب التوراتيون سادة قص القصص، والتوراة لازالت حية، بالدرجة الاولى، لأن قصصها قوية ولها صوت جهوري. وبالفعل فان التوراة تغذي الانسان.ويعني ذلك،أن المطالبة بها، على الأقل، مثل مطالبة جوعنا بالله. «إن الحاجة لقص القصص والى سماعها حاجة أساسية للجنس البشري – حسب ما كتب رينولدز برايس في اعادة قص القصص من الكتاب المقدس.و أما الحاجة الثانية فتتمثل في «الرب المحسوس» الذي يأتي بعد الغذاء وقبل الحب والمأوى»(21)

لذا، فان أحد أهدافي من إعادة قص هذه القصص هو تشمير أكمام القارىء الذي لايعرف، أو حتى أنه يشك في غنى (وغالباً في فحش كلام) الراوي التوراتي. أي لِم حاولت أن أفتح القصص وأشرحها، وأنقلها الى الاسلوب النثري الذي يصبح أكثر تآلفاً وقبولاً من جانب القارىء المعاصر أكثر من اللغة المضغوطة في الأصل العبري- أو، من أجل تلك المسألة، فان اللغة تكون، في بعض الأحيان، مكثفة وصعبة في التوراة في الترجمة الانكليزية التقليدية. وسمحت

لنفسي، بين الفينة والأخرى، بإضافة مشاهد، وحوار، وأوصاف ليست في الواقع من النص الأصلي لهذه القصص كما هي موجودة في التوراة. إلا أنني حاولت أن أجد بعض المصادر الموثوقة في الثقافة التوراتية أو في التوراة نفسها لتسويغ استخدام اللغة الشعرية وكما سنرى في هذا الكتاب (انظر الفصل السادس عشر)، فان تقليد إعادة قص القصص وإعادة تأويل القصص في التوراة هو تقليد قديم وشريف، وأنا لست خجلاً من اتباعي لهذا التقليد.

ولمساعدة القاريء على التفريق مابين إعادة قص كل قصة وبين القصة الحقيقية، فقد أعدت انتاج ترجمة انكليزية عن الأصل، وأكملت نص القصص كما ظهرت فعلاً في التوراة العبري، وهي مصفوفة الى جانب القصص المروية من جديد. وعندما اقتبست النص التوراتي الأصلي، بصورة عامة ،استناداً الى ترجمة انكليزية للانجيل نشرت لأول مرة من قبل جمعية النشر اليهودية في عام 1917، وهي ترجمة اتبعت بدقة ترجمة الملك جيمس الكلاسيكية التي استخدمت منذ فترة طويلة في الكنائس البروتستانية المختلفة التسميات. وأشرت، بطبيعة الحال، الى الترجمات الأخرى للانجيل. وسأقوم بتعريفك بالأمر عندما اقتطف من ترجمة أخرى.

وكما أفترض هنا، يمكن للقراء أن يدهشوا أو حتى يصدموا و-آمل- أن يتسلوا ويتنوروا بما سيجدون في زوايا التوراة المهملة والمحرمة. وهذه القصص تكشف عن تعقيدات قلب الانسان وعقله، وهي ترينا ما تشعر به الكائنات البشرية فعلاً، وماذا يفعلون حقاً. وهي تفترض أن الحياة الخيرة والصحيحة ليست مسألة طاعة بسيطة لما نتخيل من تراكيب أخلاقية في التوراة. وبهذا المعنى، آمل في استرجاع التوراة من قبل الناس الصليبيين والمراقبين الذي رموا بها في وجوهنا- بغية اعادتها الى الرجل والى المرأة الحريصين على الدنيا، اللذين يقدران العواطف من لحم ودم التي وضعت في الكتاب المقدس.

والتفت، ذات مرة، شخص قريب مني وعزيز علي، نحو قصص اسحق باشيفيش سينغر كنوع من البلسم للشفاء الذي خبره بعد قصة حبل مشوشة انتهت نهاية سيئة، وقال عن سوء حظ مغامراته الخاصة: إنني «لم اكن أعرف اناسا مثلي يقومون بأفعال مثل هذه الأفعال بصورة واقعية، حتى بدأت بقراءة

سينغر».

وما أعرفه الآن أنه يحتاج فقط الى أخذ التوراة لكي يكتشف ماعرفه سينغر: فالتوراة خارطة لقلب الانسان، لم تترك خارجه فصلاً سرياً أو فقرة مخبأة. إنها خريطة، خلقها إما البشر أو إله، ينظر الى نزواتنا الأكثر همجية بعين العطف والحنو. ولذا فان القصص المحرمة في الانجيل ليست مجرد مادة جيدة ومسلية للقراءة، بل وقبل كل شيء، يؤكد الانجيل على الخواص الجوهرية التي تجعلنا بشرا في المقام الأول..

الفصل الثاني
لوط وابنتاه

«تعالي نسقي أبانا خمراً..» «سفر التكوين 19:32»

وأخيرا صعد، بعد منتصف الليل، الى كبد السماء قمر أحمر بلون الدم القاني، وكان قبل فترة عبارة عن وهج بعيد عند الشفق، وبدا كشيءٍ مشتعلٍ يغلي فوق مياه البحر الميت، وينتشر في أرض الصحراء. ومنذ ذلك الصباح المزعج حين ارتعدت الأرض ونزلت النار من السماء، كان الجو مليئاً برائحة دخان كريهة ورماد دهني أثناء النهار. ويصطبغ القمر باللون الأحمر أثناء الليل.

راقبت الابنة الأصغر لرجل يدعى لوط، ليل نهار، من فتحة الكهف الجبلي الذي وجدوا به ملجأ. ورفضت أختها الأكبر بإصرار أن تخرج، وتسكعت في الزوايا المظلمة للكهف، تتلوى وتلف ذراعيها حول ركبتيها، وتنوس من الوراء الى الأمام، مثل طفل في مزاج متعكر، وعلى بعد أقدام قليلةٍ منها، غلب النعاس على والدهما الذي كان يقبع في فجوة من الحجر، ويرفع نفسه بين حين وآخر ليقضم شيئاً من سلة الطعام، أو ليرشف من زجاجة خمر تدبروا أمر إحضارها، ثم ينزل فينام من جديد.

لم تكن الابنة الأصغر تخاف من المغامرة في الخروج من الكهف. فانزلقت على المنحدر الصخري، وكانت تتجرأ أحياناً فتذهب بعيداً الى مسافة مرمى حجر من فتحة الكهف، ولكن ليس الى مسافة لاتستطيع معها أن تهرع الى الداخل إذا ماهددها خطر من الأخطار. كانت تبحث عن شيء أخضر يمكن لهم أن يأكلوه، وعن حيوان صغير قد يكونوا قادرين على اصطياده وذبحه -وبمشيئة الله- عن نبع قد يم يملأون جلود الماء التي حملوها من مدينة الواحة القابعة تحتهم على مسافة بعيدة.

أما أختها الأكبر فقد أصرت على القول لها: «إنكِ حمقاء يأختي الصغيرة»

كلما تكلمت معها عن استكشاف الأرض خارج الكهف، وأضافت قائلة: «ليس هناك غيرنا حياً. وهذا أمر جيد، أيضاً، لأنه لو بقي أحد ووجدنا، فهو، مثل أحد تلك الوحوش التي كانت خلف البيت- سيأخذك ويفعل بك مايشاء، ومن ثم يذبحك».

وتعود الابنة الأكبر الى صمتها، وتنوس من جديد الى الوراء والأمام.

وتعود الى القول بصورة دائمة: «ولكن لاتخافي ياأختي الصغيرة، لأنه لم يعد يعيش أحد غيرنا».

كانت الأبنة الأكبر على حق، بالطبع، بصدد نوع الرجال الذين عاشوا في سدوم. وتذكرت الفتاة الأصغر ماحدث خلف البيت، عندما كان قطيع من رجال متوحشين إزاء أي غريب يسوقه سوء حظه العاثر الى أبواب المدينة. وهم لم يكونوا أصدقاء لجيرانهم. وكانوا تجاه النساء مثل الوحوش. وتعلمت عائلة لوط الدرس مرة ثانية قبل فرارها الى الجبل.

«(1) فجاء الملاكان الى سدوم عشاء وكان لوط جالساً بباب سدوم. فلما رآهما لوط قام للقائهما وسجد بوجهه الى الأرض (2) وقال ياسيدي ميلا الى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما. ثم تبكران وتمضيان في سبيلكما. فقالا لا بل في الساحة نبيت (3) فألح عليهما جداً فمالا اليه ودخلا منزله. فصنع لهما مأدبة وخبز فطيراً فأكلا».(سفر التكوين19: 1-3)

عاد والدهما الى البيت بعد هبوط الليل مع غريبين فوق رأس كل منهما قلنسوة. فقد ظهرا أثناء غروب الشمس عند أبواب المدينة ، حيث سجد لوط لهما، ورجاهما أن يأتيا الى البيت معه ويغتسلا، ويتناولا وجبة طعام مسائية، ويبيتا الليل. رفض الملاكان طلبه في البدء وقالا: «سنقضي الليل في الساحة». إلا أن لوطاً ألح عليهما وناشدهما، كما كانت عادته عندما يواجه غرباء قد يجلبان له بعض الثروة، وأخيراً وافقا على السير معه الى البيت.

فأمر لوط النساء في بيته قائلاً: «رحبوا بضيوفنا» وأضاف بصرامة والحاح: «اغسلوا لهما أقدامهما وهيئا لهما وجبة طعام!» ثم همس لوط في اذن زوجته نفس كلمات الرجاء التي سمعتها مرات كثيرة من زوجها قبلئذ: «من يعرف متى يتحول رجل غريب في الطريق الى ملاك مرسل من السماء؟»

إلا أن الجيران في أعلى الحي وفي أسفله لم يكونوا مرحبين بالضيوف مثله. وقد لاحظ أحدهم أن غريبين يتبعان لوطاً وهو يعود الى بيته، فتجمعت عصبة من الشباب المشاكسين خارج بيته. وربما كانوا يشربون، وقلما كان ذلك مفاجئاً في سدوم. ولكن الخمر وحده لايفسر طبعهم الفظ الذي كان شائعاً في كل أنحاء المدينة. وقد استثار حضور الغريبين أهل المدينة الذين ملوا المسرات التي أصبحت مألوفة عندهم، وهي ممكنة التحقيق في سدوم: فهاهنا لحم طازج! فانضم الى الشباب، باحثون عن الغرابة غيرهم، شباباً وكهولاً، وأخذ الشغب يتحول الى غوغاء.

(4) وقبل أن يضطجعا إذ أهل المدينة أهل سدوم قد أحاطوا بالبيت من الصبي الى الشيخ جيمع القوم الى آخرهم (5) فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان قدما إليك هذه الليلة أخرجهما إلينا حتى نعرفهما (سفر التكوين19: 4و5)

وصاح أحدهم: «أخرجهما يا هذا. أخرج الغريبين نلقي نظرة عليهما!» وصاح آخر بصوت رفيع: «نعم، اخرجهما فنستطيع أن نستفزهما!»

وصاح، ليس الشباب المشاكسين وحدهم، بل الحشد كله الذي بدا هائجاً في الشوارع بصورة دائمة وهو يبحث عن الإثارة مع آبائهم وأعمامهم أيضا. ويدا لابنة لوط الصغرى، التي اختلست النظر من النافذة في الطابق الثاني، في الوقت الذي كانت أختها تنكمش مرتعدةً في فراشها، بدا لها وكأن كل شخص جلف تجمع مع أخيه خارج بيتهم.

ثم رأت والدها يخطو بجرأة الى خارج المنزل ويغلق الباب خلفه. فساد الهدوء، وكأنهم في انشداه تام، لأن لوطاً يترك الأمان في بيته ويعرض نفسه لصراخهم، ولكماتهم- والى الأسوأ من ذلك.

«لا،لا، ياأصدقائي» قال لهم لوط بصوت مهديء، وهو يسعى للفوز بحظوة عندهم بواسطة توبيخ أبوي: «لاتكونوا أشراراً الى هذا الحد!»

فصاح صوت من مكان ما في وسط الحشد، وكان صوتاً غليظاً ينم عن وجود كحول وخطر مع تهديد بعنف مفاجيء: «إننا نريد أن نستفز شخصاً من الأشخاص». فاستقبلت كلماته بالابتهاج والضحك، كما لو كانت نهيق الحمير

وأضاف قائلا: «أعطنا الرجلين!»

وكان من الصعب على الفتاة الصغيرة أن تصدق أن الرجل الذي رفع يديه في اشارة الى الصلاة وقال: «انظروا الي ياأصدقائي، إن لدي ابنتان في منزلي، وكل منهما عذراء!» هو أبوها.

«(6) فخرج إليهم لوط وأغلق الباب وراءه (7) وقال لاتفعلوا شرا يا أخوتي (8) ها أنذا لي ابنتان ما عرفتا رجلاً أخرجهما إليكم فاصنعوا بهما ما حسن عندكم وأما هذا الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما دخلا تحت سقفي.» (سفر التكوين19: 6-8)

وسرت غمغمة في الجمع، وارتجفت الابنة الصغرى. وواصل لوط كلامه قائلاً: «أرجوكم، اسمحوا لي أن أخرجهما(أي الفتاتين) لكم، وبإمكانكم أن تفعلوا- ماتريدون بهما..» وكرر لوط قوله داعيا إياهم «أن افعلوا مايسركم بابنتاي، أرجوكم، ولكن لاتلمسوا الغريبين اللذين اتخذا من بيتي ملجأ لهما!».

ومع أن مشهد اتخاذ الحشد طريقهم الى الفتاتين العذراوتين يروق للرجال فان أحدا لم يأت بحركة تدل على ذلك. وعلى العكس فقد بدا عرض لوط وكأنه أهاجهم الى حد الغضب بدل أن يهدئهم.

فصرخ أحد الرجال في وجهه قائلاً: «ابتعد عن طريقنا، فأنت غريب أيضا! وها أنت الآن تجعل من نفسك عالي المقام جداً وقوياً- هل تظن أن بامكانك أن تقول لنا ماذا نفعل، ونحن نفعل ماتريد؟ اغرب عن وجهي أيها الغريب!»

وقال رجل آخر: «إما أن تغرب أو نضاجعك أنت بدلاً عنهما!» وهاج الجمع وماج نحو الأمام وخافت ابنة لوط أن يضربوا والدها وأن يجروه. ورأت بعدئذ الباب الأمامي يفتح بسرعة، ويلقي ضوء القناديل في الداخل شعاعه على جميع الوجوه.وجاء الغريبان وأمسكا بكتفي لوط، وسحباه الى دا خل البيت بصورة مفاجئة بحيث بدا وكأنه قد اختفى.

فأخذ الحشد المتردد في خارج المنزل، ينادون ويدقون على الباب، إلا أن من الممكن القول أن تلهفهم على الدم قد بدأ يخف.وابتعد عدد قليل من الرجال وهم يضحكون ويغنون بصورة فاسقة، وأصبح الباقون بحالة سرور وهم يأخذون قوارير يشربون منها الخمر . وسمعت ابنتا لوط، بين الحين والآخر، صوت صراخ

وتحطيم، إلا أن الكلمات وجهت الى رجل واحد في الحشد ثم سمعت صرخة الم. وكان أحد الرجال مخموراً الى درجة العمى، فارتطم بالجدار، أو بزاوية بيت. وقبل مضي وقت طويل، أصبح أقوياء البنية الذي تسكعوا خارج بيت لوط مخمورين الى الحد الذي لم يعودوا معه قادرون على ايجاد الباب الأمامي إذا ما حاولوا ذلك، وبدأوا يترنحون وهم يسيرون في هذا الاتجاه أو ذاك.

ولكن لازال ثمة اضطراب هادي ء داخل منزل لوط، فوضعت الفتاة الصغرى نفسها فوق قمة السلم بحيث تستطيع أن تسمع الكلمات التي كان والديها يهمسان بها، أحدهما الى الآخر، بالحاح.

فقد سألت زوجة لوط: «من هذين الغريبين؟» وهي تنظر الى الزاوية القريبة من الموقد حيث كان الشخصان يلتفان بعباءتيهما، وظهر أنهما نائمان. وسألت الزوجة: «لِمَ جلبتهما الى هنا؟ هل لكي يحل بنا البلاء؟»

ورد لوط بوقار واحترام: «مثلما قلت لك، إنهما ملاكان، إنهما رسولا الرب الذي سيهبنا بعض الهبات التي تنبأت بها مرات كثيرة إن كنت تتذكرين، وأنا لا أستطيع أن أفعل اقل من أن أستقبلهما في بيتنا».

«تقول ملاكان!» وضحكت زوجته بمرارة وهي تقول: «انهما أقرب الى الشياطين أو المجانين».

ورد عليها لوط قائلاً: «بهدوء، بهدوء، ألم تري كيف انتشلاني من بين أيدي الحشد؟ ألم تري الضوء الذي سطع عندما فتحا الباب لانقاذي؟ ألم تري كيف أن الرجال في الساحة قد أصيبوا بالعمى؟.يجب أن يكونا ملاكين..»

(12) وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك في المدينة أخرجهم من هذا الموضع (13) فإنا مهلكان هذا الموضع إ ذ قد عظم صراخهم أمام الرب وقد بعثنا الرب لنهلك المدينة. (سفر التكوين 19: 12-13)

هست زوجة لوط (كالأفعى) قائلة: «أي رجل ذلك الذي يضحي بلحمه ودمه من أجل حماية زوج من الغرباء!».

وكرر قوله: «انهما ملاكان، هذا ما هما عليه، اصغي الى ما قالا لي: «اخرج من سدوم، أنت وأسرتك، لأن الله أرسلنا لتدمير هذا المكان! خذ زوجتك

وأطفالك، خذ أي من الناس الذين ينتمون اليك- واهرب!» هذا ما قالاه لي».

«وبالطبع فإنك ستفعل ماقالاه مع أنك لم تفعل أبداً ما أقوله لك، وأنا زوجتك، وأم ابنتيك». وقالت دون أن تنتظر من زوجها جواباً: «إذا لم تكن في الواقع تصنع قصة أخرى بكل بساطة».

«أقسم لك يازوجتي الطيبة، إن هذا ماقالاه لي. إن فاعلي الشر في سدوم كثيرون جداً وتافهون جداً في عيون الرب الى درجة أنه أرسلهما لتدمير كل المكان وكل انسان فيها، نزولاً الى آخر ورقة من العشب».

«إنك يازوجي مجنون أيضاً!»

لم تر ابنة لوط والدها قبلئذٍ في مثل هذه الحالة من الهياج الشديد. إلا أنها رأته وهو يسير نحو الأمام ونحو الوراء، ويفرك يداً بيد، ويتوقف أحياناً لينوس الى الأمام والوراء وكأنه يصلي. ثم اتجه فجأة نحو الباب.

فصرخت أمها: «إلى أين تذهب أيها المجنون ونحن في منتصف الليل؟»

فصاح أبوها: «كي أجلب بناتي المتزوجات وأزواجهن. وبذلك يمكن لهم أن يهربوا أيضاً!»

نامت ابنة لوط الصغرى في المكان الذي كانت فيه متكئة على الجدار في أعلى السلم، إلا أنها أوقظت قبل الفجر بصوت أبيها وهو عائد الى البيت. واستيقظت أمها أيضاً فنهضت واقتربت من الرجل العجوز، الذي لم يكن أقل اهتياجاً مما كان عليه الحال حين غادر المنزل قبل ساعةٍ أو ساعتين.

«(14) فخرج لوط وكلم أصهاره متخذي بناته وقال لهم قوموا وأخرجوا من هذا الموضع لأن الرب مهلك المدينة. فكان كمازحٍ في أعين أصهاره.» سفر التكوين (19:14)

وسألت الأم وفي صوتها نغمة ساخرة: «وماذا بعد؟» وسألت ثانية: «أين بناتنا وأزواجهن؟»

فقال بصوت كليل: «رفضوا أن يأتوا، وضحكوا مني كما فعلتِ أنتِ».

وظهر من صوت لوط أنه كان بائساً جداً الى حد جعل زوجته تشفق عليه، فقالت بصوت خافت: «إذن نم، وسوف نتكلم بهذا الموضوع في الصباح».

فاشتكى قائلاً: «نعتني أزواجهن بالأبله». لقد قلت لهم: «هيا هيا الى خارج

سدوم، لأن الله سيدمر هذا المكان» فقالوا: «يوجد في كل ليلة الكثير من الطعام والشراب، والكثير من الأغاني والرقص في الشوارع. وكل شخص في سدوم سعيد إلا أنت- وأنت الوحيد الذي يقول ان سدوم ستهدم».

فأخذته زوجته الى الفراش الذي أعدته قرب الموقد، ووضع رأسه على الوسادة بالقرب منها. ونام لوط وزوجته وكذلك نامت ابنتاه، وكأنهما نسوا أمر الغريبين اللذين انتظرا طوال الليل في مكان ما في بيتهم، لايراهما ولايسمعهما أحد.

وعند الفجر أيقظهم صوت غير مألوف.

«انهض» قال أحد الغريبين، وهو يدور حول لوط: «انهض، وخذ زوجتك وابنتيك واهرب».

واستيقظت في تلك اللحظة ابنة لوط الكبرى أيضاً، وتبعتها الصغرى في النزول على السلم القصير الى الغرفة حيث كان يقف لوط وزوجته أمام الغريبين.

«(15) فلما كان طلوع الفجر ألح الملاكان على لوط قائلين قم فخذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة (16) فتوانى لوط فأمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه وصيراه خارج المدينة. (17) فلما أخرجاهم الى خارج قالا له انج بنفسك لاتلتفت الى ورائك ولاتقف في البقعة كلها وتخلص الى الجبل هناك لئلا تهلك» (سفر التكوين19: 15-17)

وسألت الابنة الكبرى: «ما الذي يجري هنا ياأبي؟ وما ذا يريد هذان الرجلان؟»

أخرجاهم الغريبان وأخذا كل عضو في الأسرة من يده. وكان ملمسهما حاراً، وبدت رؤوس أصابعهما ملتهبة بحمى ويشع من عيونهما ضوء غريب.

وقال أحد الرجلين: «إن الله يشفق عليك، عليك أنت وحدك، أما الباقون فسيهلكون- سيهلك كل رجل وامرأة وطفل في سدوم، وسيهدم كل شيء في سدوم حتى آخر ورقة من العشب».

وقال الغريب الآخر: «تعال معنا الآن، وسنأخذك الى مكان آمن قبل أن نبدأ عملنا».

وبدأت زوجة لوط الكلام، إلا أن الغريبين اتجها بشكل مفاجيء نحو الباب

ومن ثم خرجا الى الشارع، واختفيا في غمامة فضية، استقرت فوق سدوم في الليل. وتبعهما لوط مسرعاً، وغاب هو أيضا بصورة مفاجئة. فأمسكت زوجة لوط الفتاتين وتبعت زوجها وخرجت من الباب. وبدا أنهم يطفون فوق الطريق في ضباب الصباح- كما في الأحلام- ومروا بالبيوت التي لازال الصاخبون ينامون فيها، الى أن وجدوا أنفسهم في ضواحي سدوم، واجتازوا بوابات المدينة على الطريق المؤدي الى خارجها. هنا توقف الغريبان والتفتا ليواجها لوط واسرته.

وقال أحدهما وهو يشير الى سلسلة من القمم السوداء والرمادية في الأفق: «واصلوا سيركم حتى تصلوا أعلى جبل. وإذا بقيتم هنا ستحرقون وتتحولون الى رماد مثل الآخرين».

وأمرهم الآخر قائلاً: «انجوا بأرواحكم ولاتنظروا الى ورائكم!»

«(18) فقال لهما لوط لا ياسيدي (19) إن عبدك قد نال حظوة في عينيك وعظمت رحمتك التي صنعتها الي بإحياء نفسي إني لا أستطيع التخلص الى الجبل فربما أدركني الشر فأموت (20) ها أن هذه المدينة قريبة للهرب إليها وهي صغيرة دعني أتخلص إليها أنما هي صغيرة فتحيا نفسي» (سفر التكوين 19: 18-20)

وسألت زوجة لوط بلهجة آمرة: «لِمَ لانستطيع النظر؟» وقد تشجعت لكونهم أصبحوا خارج مدينة سدوم. فقال احد الغريبين بلهجة أهل سدوم: «ستسقط من السماوات نار جهنم وكبريت، وسيدمر كل شيء».

فقاطعته زوجة لوط قائلة: «كل شيء حتى آخر ورقة من العشب؟»

«نعم، إن ذلك صحيح» قال الغريب الآخر مواصلاً كلام رفيقه وهو ينظر الى لوط، ومن ثم يركز نظرة قاسية وثابتةً في وجه زوجته ويقول: «ليس مسموحاً لكم ان تروا كيف تحدث، وإلا فإن أمراً خطيراً سيحدث لكم أيضاً!»

وكرر الأول قوله: «أسرعوا الى الجبل، ولاتنظروا الى الوراء!»

وسأل لوط: «هل قلت الجبل؟»

وتنهد الغريب ساخطاً وهو يقول: « نعم، الجبل!»

وقال لوط: «،لكن بالتأكيد، إذا وجد خادمكم لوط رحمة في عيونكم- وبالتأكيد وأنا خادمكم المتواضع جداً- وإذا كنتم قد نشرتم رحمتكم بصورة

واسعة بحيث أنكم ترغبون في إنقاذ حياة أحد الرجال البائسين- حياتي أنا، كما تدركون-حسن، إذن بالتأكيد ان بامكانكم نشر رحمتكم نحو الأبعد قليلاً، أليس ذلك ممكنا؟»

فقاطعه الغريب سائلاً: «ماذا؟ ما الذي تتكلم عنه؟» وقد أصبح الآن بعيداً عن أي نوع من القلق فينطلق في عمله في سدوم.

وتلعثم لوط قائلاً: «أيها السادة اللطفاء والسادة الرحماء، إنه الجبل، البعيد جدا، وأنا متأكد أنه مغطى بالأفاعي وتسكنه الوحوش المفترسة، واضافة الى ذلك، فان الصعود منهك، هذا إذا تدبرنا أمر الوصول اليه. وبالتأكيد فان من الحمق أن تنقذوا حياتي هنا والآن، لكي يصيبني الأذى وأنا في طريقي الى الجبل- وأموت بطريقة من الطرق».

فقال الغريب الآخر وهو يجهد نفسه في السيطرة على مزاجه، وهو يتكلم ببطء: «ربما لم تفهم مانريد» وأضاف وهو يتكلم ببطء ووضوح وكأنه يتكلم مع طفل: «إن شيئا رهيباً سيحدث لهذه المدن في السهل، ولكل شيء يعيش هناك، بدءاً من جيرانك أصحاب المزاج المريض حتى آخر ورقة من العشب تحت قدميك- حسب ماسبق لزوجتك ان قالت متثائبةً، وحتى اذا لم تدرك، فان بامكانك أن تنقذ نفسك فقط بالذهاب الى الجبل».

وسأل الغريب الأول: «وماذا عن كلمة «انجُ» التي لم تدركها؟»

وقال لوط وهو يساوم أكثر من أن يطلب: «انظر، ان هناك مدينة صغيرة ليست بعيدة عن هنا، لايوجد فيها غير حفرة ماء فقط، ويضع أشجار من النخيل وزرائب بائسة. انه مكان صغير، وهو ليس بؤرة فساد مثل سدوم. وأنا واثق ان الناس هناك أكثر لطفاً من السدوميين الذين كانوا وقحين جداً معكم الليلة الفائتة. لمَ لاتتركوني أذهب الى هناك؟ وفوق كل ذلك فان بامكانكم ان تروها بعيونكم فتتركون هذه المدينة الصغيرة، وبذلك فان اسرتي الفقيرة البائسة تجد لنفسها مكانا أميناً تنام فيه، فلا نسير كل تلك المسافة الى البرية ونتسلق الجبل الذي تكلمتم عنه. وبذلك نبقى أحياء بالفعل بعد كل الأمور المرعبة التي ستقومون بها، وهذا ماتريدونه، أليس كذلك؟»

فقال الغريب الأول: «حسن، حسن، سنقوم بذلك» وأضاف: «اننا سنوفر تلك

المدينة الصغيرة التي تتكلم عنها. ولكن عليك أن تذهب، وأن تذهب الآن».

وقاطع الآخر قائلاً: «لأننا لانستطيع البدء بالعمل الذي قدمنا من أجله قبل أن تذهبوا!»

فأذعن لوط وقال: «سنذهب. صدقوني، نحن طيبون بقدر ما نذهب في الحال»

(21) فقال له ها أنذا قد شفعتك في هذا الأمر ايضاً بأن لا اقلب المدينة التي ذكرت (22) أسرع بالتخلص الى هناك فإني لا أستطيع أن أصنع شيئاً الى ان تصير اليها. لذلك سميت المدينة صوعر (سفر الملوك 19 :21-22)

«(23) واذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط صوعر (24) وأمطر الرب سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء (25) وقلب تلك المدن وكل البقعة وجميع سكان المدن ونبت الأرض» (التكوين19: 23-25)

كانت الشمس عالية في كبد سماء زرقاء خالية من الغيوم عندما وصل لوط وعصبته من اللاجئين الى الواحة وعدد من البيوت الواطئة التي شكلت مدينة صغيرة، ومن ثم بدأ الشيء المرعب بصورة مفاجئة، تماماً مثلما قال الغريبان انه سيحدث. وجاء من مكان خلفهم صوت هدير الرعد، وقذف دخان ذي رائحة كريهة، واهتزت الأرض وكأنها تمشي من تحت أقدامهم، رافعة اياهم الى الأعلى، ومنزلتهم الى الأسفل، كما لو كانوا دمى معلقة بخيط.

وبدأت ابنة لوط الكبرى بالبكاء.

وسألته: «ماذا يحدث الآن ياأبي؟ ماذا يحدث لأخواتنا الطيبات وأطفالهن؟»

«ربما غيروا رأيهم» قالت الابنة الصغرى، وافترضت: «أنهن آتون وراءنا الآن».

«نعم، نعم» قالت زوجة لوط وهي لم تعد تصدر صوتاً فيه احتقار لما يدعي الغريبان انهما سيفعلان . وأضافت: «ربما كانت الصغيرة على حق، وربما كان علينا آن ننتظرهم هنا ليلتقوا بنا».

فأمرها لوط بألا تكون حمقاء، مع أن صوته المرتجف خان خوفه وهو يقول: «اننا نفعل ماقال لنا الملاكان-ونهرب!»

فضحكت زوجة لوط بمرارة وهي تتساءل«ملائكة؟» الا تزال تدعوهما

بملائكة ودم بناتك لم يزل على أيديهما؟»

ثم سمع صوت قرقعة حادة من بعيد وكأنه صدر ليسكتها، وهبت موجة من الهواء الساخن من خلفهم ولفتهم. وأصبح الهواء كثيفاً وساطعاً أمام عيونهم، وملأت رائحة الكبريت النتنة أنوفهم، وسمعت آذانهم أصواتاً جديدة، وكأنها صراخ الرجال والنساء والأطفال، وهم يتألمون ويموتون، حملتها الريح الساخنة عبر السهل في الطريق من سدوم.

«آه-ياماما» صرخت الابنة الأكبر.

وصاح لوط، وهو يسحب زوجته وابنته أن: «أسرعوا!»

«(26) فالتفتت امرأته الى وراءها فصارت نصب ملح (27) فبكر ابراهيم في الغد الى الموضع الذي وقف فيه أمام الرب (28) وتطلع الى جهة سدوم وعمورة وسائر أرض البقعة ونظر فإذا دخان الأرض صاعد كدخان أتون (29) ولما دمر الله مدن البقعة ذكر الله ابراهيم فأطلق لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي كان لوط مقيماً بها» (سفر التكوين19: 26-29)

وبدؤوا يمشون بصورة أسرع، ويلهثون في الهواء الفاسد، وفجأة أصبح الهواء ثقيلاً مع رماد أبيض زيتي، فأسرعوا باتجاه أول بيت في ضاحية المدينة الصغيرة. وسمعوا هديراً آخر من مسافة بعيدة خلفهم فصاروا يركضون خبباً، ولم يتوقفوا حتى وصلوا الى ملجأ في البيت الأول.

انحنى لوط واضعاً يديه فوق ركبتيه، محاولاً أن يلتقط أنفاسه. ودارت ابنته الكبرى حول نفسها كدمية واستلقت فوق الأرض وهي تبكي بصمت. غير أن زوجته وقفت منتصبة وقوية، وقالت بصوت عالٍ: «ربما يصل الآخرون الآن، وربما استطعنا رؤيتهم في الطريق».

«ماما، لا» صرخت الابنة الأصغر، إلا أنها تأخرت كثيراً، فقد التفتت أمها الى الوراء ونظرت، وظللت عينيها بيد، محدقة بعينين نصف مغمضتين في الضوء المؤذي الملتهب في الأفق. نظرت زوجة لوط الى بعيد وما رأته لايعلم الباقون عنه شيئاً.

اتسعت عيناها، إلا انها لم تتكلم. التوى فمها متحولاً الى عقدة هائلة، ومن ثم، عندما نظرت ابنة لوط الصغرى الى وجهها كان من الصعب عليها أن تعرفه،

وأخذت الملامح الهالكة تقسو. وأخذ الرماد الساخن الذي كان يندفع نحو الأسفل من السماء كما لو كان مطراً صامتاً يغطي رأسها وأنفها، وساعديها وكتفيها. ثم برد الرماد وأخذ يسقط بكميات أكبر وبسرعة أكثر، وقسي، وتزجج، الى أن تصندقت زوجة لوط في صدفة من الملح الأبيض الذي حولها الى نصب. وتذوقت ابنة لوط الأصغر طعم ملح لاتعرف إن كان من ذرات الملح المتساقطة على شفتيها أم من دموعها المنحدرة من عينيها، وفجأة تذوقت ابنة لوط الصغرى طعم الملح بلسانها.

وصرخت «ياأبي»، ولكن كان من الصعب على لوط أن يسمع صوتها وسط الريح الساخنة التي كانت تعصف من حولهم وهي آتية من جهة سدوم. ثم التفت وتابع نظرات ابنته وتعجب مما أصبحت عليه حالة زوجته فأحنى رأسه ببطء وتنهد.

وقا أبوهما: «كان ينبغي ألا تنظر، لقد سمعتما ماقاله الملاكان، الم تسمعا؟»

استثنيت المدينة الصغيرة التي وجدوا فيها ملجأ لهم من نار جهنم والكبريت، حسب ما وعد الغريبان، إلا أن المكان اصبح مهجوراً. ولتأمين الراحة للوط لم يجدوا جثثاً في الخيام وفي البيوت الواطئة التي تخط خطوط الطريق. ولكن لم يجدوا أيضاً أهل المدينة، لا قطيع ، ولا حتى كلباً شارداً. ربما أبيد أهل المدينة من قبل الملاكين، أو ربما هربوا قبل أن تصل المناظر والأصوات من جهة سدوم وعمورة. ومشى لوط وابنتيه على الطريق وهم في غاية الاجهاد، وخائفين، ومرهقين، وتحرقهم عيونهم وتصلبت رئاتهم لفترة وتوقف لوط رافعاً احدى يديه.

وقال لوط عند عتبة أكبر بيت: «لنتوقف قليلاً هنا، ونلتقط أنفاسنا».

إذا كان أصحاب البيت قد هربوا فقد غادروا قبل فترة وجيزة، لأن لوطاً وابنتاه وجدوا الطعام ساخناً في الصحون في المطبخ، والملابس في الصناديق، والمؤونة في حالة جيدة، والمخزن خلف البيت مليء بالخمر والحبوب، والزيت في أوان من الفخار. جلسوا الى المائدة وتناولوا الطعام في سكينة وشربوا باقتصاد، غير أن لوطاً صب لنفسه كمية كبيرة من الخمر من احدى الجرار التي وجدها في المخزن. أخذ فراشاً كبيراً كان يعود الى رب البيت، ولف نفسه بالفراش المغطى

بالغبار، ونام نوماً عميقاً، بينما بحثت ابنتاه عن أغطية، وأعدتا فراشهما ومدتاه فوق الأرض.

لم تنم أي منهما نوماً عميقاً، وحل الليل مبكراً، وكأن النهار انقلب بقوة الغيوم الصفراء الى شفق يغلي فوق سدوم ويندفع فوقها. و ظلوا يعانون، طوال الوقت، من استنشاق الروائح النتنة المحمولة مع الريح الذي يهب من ناحية سدوم، وابتلوا بالدخان المشبع بالزيت والرماد الكثيف المحمول سعه، وبالدمدمة والاهتزاز المتوالي الذي يشعر به المرء قبل أن يسمع الصوت.

واذا مانجحت احدى الفتاتين بالنوم، استيقظت مع انطلاق صوت بدا حيناً وكأنه آتٍ من شارع في خارج البيت، وبدا في حين آخر وكأنه آتٍ من السقف، وبدا في حين ثالث، وكأنه آتٍ من الغرفة المجاورة. واذا مانهضت احداهن واسترقت النظر الى الخارج، وجدت باحة المنزل والشارع من خلفه خاليين تماماً. وعندما وجدتا والدهما في المطبخ صبيحة اليوم التالي يتجرع قارورة خمر اكتشفتا انه هو أيضا قد استثارته هذه الأصوات الوهمية.

وقال: «أقسم ان هذا المكان مسكوناً، ولن نقضي هنا ليلة أخرى».

وسألت الابنة الأكبر بحزن: «ولكن الى أين نذهب؟ فسدوم مدمرة مع كل انسان فيها، بما في ذلك أمنا المسكينة!»

ففكر لوط لفترة وأخذ سحبة طويلة من القارورة، ثم هز برأسه قائلا: «الجبل»، ولفظ هذه الكلمة بصوتٍ عالٍ جعل ابنتاه تشعران بشيءٍ من السعادة.

لم يتكلم أحد عن ذلك، إلا أن ابنة لوط الأصغر فكرت بإمداد العصبة الصغيرة من الباقين أحياء ببعض المؤن من البيت.

وعندما ساروا أخيراً مجهدين الى خارج المدينة، سحبت عربة خشبية محملة بجلود مليئة بالماء، وأكياس مليئة بالطحين، وبعض الجرار الفخارية المحكمة الاغلاق. بعضها مليء بالخمر، والبعض الآخر مليء بالزيت. وحملت أختها حزمة من الأغطية والعباءات فوق ظهرها. ومشى لوط في المقدمة وهو يحمل قطعة خشب طويلة وجدها عند عتبة البيت.

وما أن ابتعدوا عن آخر شجرة نخيل وساروا في الطريق الى خارج المدينة، حتى بدؤوا يرون نتائج ماحدث في اليوم الذي تحولت فيه أمهم الى عمود من

ملح. وكانت ترى هنا وهناك على جانب الطريق جثث الرجال والنساء والأطفال ، وبأعداد كبيرة عند تقاطع الطرق. وكانت صررهم وعرباتهم مكسورة ومقلوبة، وأدوات منازلهم منثورة فوق الرمال. وفرت حيواناتهم ، وحولت الريح الساخنة بقاياهم الى مومياء.

خفض لوط وابنتاه نظرهم عند تقاطع الطرق ليتحاشوا النظر الى سدوم، والتفتوا، بدلاً من ذلك، نحو سلسلة الجبال الواطئة ذات اللون الرمادي في الأفق. وكان الجبل الأعلى فيها مليء بالصخور والقمم، ويبدا انه قريب، في حين كان عليهم أن يقطعوا مسافة كبيرة من الأرض الوعرة المليئة بالصخور المتشققة والأحجار الحادة قبل أن يصلوا الى الملجأ الذي وعدهم به الغريبان.

وبرهنت ابنة لوط الصغرى في فترة قصيرة جداً على أنها خبيرة في ايجاد الطعام والماء والمأوى حتى في المناطق المنيعة في التلال. واكتشفت كهفاً فرشوا فيه فراشهم وخزنوا مؤونتهم. وأمسكت بحيوانات صغيرة وفق طريقة الشرك التي تتألف من أغصان صغيرة ومزق من قماش أخذتها من ثيابها. ووجدت نباتاً شوكيا من الخارج وحلو المذاق ورطب في الداخل. ومع ارتفاع درجة شجاعتها استكشفت القمم الصخرية فوق الكهف، ووجدت وادٍ ضيق قدم لها كمية من التمر، ونبع ماء عميق داخل غار. وحدث بعدئذٍ ان أدركت انهم لن يموتوا حتى لو تحول باقي العالم الى رماد ملحي.

وقالت الابنة الصغرى ذات يوم: «ستكون أمورنا حسنة ياأختاه، فلدينا مايكفينا من الأكل والشرب».

«نعم، ولكن أي نوع من الحياة نعيش هنا؟» قالت الأخت الأكبر شاكية، وأضافت: «نحن وحدنا في كل هذا العالم. مات كل الناس الآخرين، فهل تعلمين ماذا يعني ذلك؟»

فنظرت الأخت الصغيرة باستغراب كبير.

وقالت الأخت الأكبر: «إن ذلك يعني، أننا لن نرى رجلاً آخر غير أبينا مهما عشنا، ولن نتزوج أبداً، ولن نحمل أطفالاً. وأبونا كهل ويهرم بسرعة، كما ترين بنفسك. وعندما يموت، نبقى وحدنا في هذا المكان البائس حتى نكبر ونموت».

فكرت الصغيرة بتنبؤات أختها الكئيبة. وصحيح تماماً أنهما لم يريا كائنا

بشريا حياً منذ الصباح الذي غادروا فيه سدوم. ولاحظت هي أيضاً أن أباها يبدو كهلا أكثر، وشعره أصبح رمادياً أكثر، ويصير، مع كل يوم يمر، أضعف.

فقالت: «أتمنى لو ان ماما كانت هنا، الا تتمنين ذلك؟»

«(31) فقالت الكبرى للصغرى إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة أهل الأرض كلها(32) تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً» (سفر التكوين19: 31و32)

فقالت الابنة الأكبر بصوت حاد ذكّر الابنة الأصغر بأمهما: «إلا انها لم تعد موجودة، ويعني ذلك انه لايوجد إلا حل واحد للمشكلة».

«وماذا تعنين ياأختاه؟»

«سنضجع مع أبينا»، أعلنت متجهمةً، وأضافت «وسيمنحنا الأطفال».

«نضجع مع أبينا؟»

«لاتتظاهري بأنك نزيهة جداً. لقد سمعت ما اعتادت النساء أن يقلن حول هذه المسألة عندما كنت تسحبين المياه من البئر. إنك تعرفين كيف يصنع الأطفال؟»

«هل تريدين أن تصنعي طفلاً مع أبينا؟» وصرخت الصغيرة «يالها من فكرة مرعبة!»

«سنصنع أطفالا لئلا نبقى وحدنا عندما يموت- وبذلك يكون هنا من يخلفنا عندما نموت» وبدت الابنة الأكبر غاضبة وهي تقول: «انه الشيء الوحيد المتروك لنا كي نفعله».

وقالت الابنة الأصغر: «سيكون لنا الأزواج المناسبون اذا عدنا الى بيتنا، فيضجعون معنا ويعطونا الأطفال، كما فعلت أخواتنا المسكينات اللواتي متن مع أزواجهن».

فضحكت الأخت الأكبر بصوت عالٍ وقالت: «هل نسيت بسرعة ماكان الرجال في سدوم يحبون؟ وعلى أية حال فقد ذهبوا كلهم الآن، ولم يبق غير رجل واحد هو أبونا».

فكرت الفتاة الأصغر لفترة وجيزة ثم أومأت براسها وقالت: «أخبريني بما ينبغي أن أعرف، وأخبريني بما يجب أن أفعل».

تدبرت الفتاة الأكبر أمر ابعاد زوج من جرار الخمر من مدينة الواحة، واحتفظت بهما مخبأتين حتى عندما نفذت مؤونة لوط وأخذ يئن في خيبة أمله بسبب الحاجة الى شيء يشربه الى جانب الماء. والآن جلبت الخمر من المكان الخفي، وظهرت في الفتحة التي ينام بها عندما كانت الشمس تغرب والظلال تتعمق في داخل الكهف. وعرفت أن الظلمة ستصبح حالكة جداً بحيث لايستطيع أحدهما أن يرى الآخر.

«(33) فسقتا أباهما خمراً تلك الليلة وجاءت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنيامها ولاقيامها»(سفر التكوين 19: 33)

فقالت بفرح: «انظر ياأبتاه، انظر ما وجدت».

«ماهو..فأنا لا أرى شيئاً».

فأعلنت انها «جرة مليئة بالخمر، من البيت في تلك المدينة الصغيرة».

«أي شيطان أتى بها؟ إنني أعرف أن عندي جرة أخرى في مكان ما، هل كنت تخبئيها عني، أيتها الطفلة المغضوبة؟»

فأجابت بدلال: «أوه، لا، كيف يمكنك أن تفكر بي هكذا؟ فأنا وجدتها مابين الصخور خارج الكهف- ولعلنا أسقطناها ونحن في طريقنا الى أعلى الجبل».

«حسن، اذن أعطني إياها».

فقالت: «هاهي،خذ ياأبتي، اشرب قدر ماتشاء».

وتوارت وهي عائدة الى الوراء لتقف في الظل في الوقت الذي سحب أبوها السدادة ورفع الجرة الثقيلة الى فمه، وشرب بشراهة، وأبدى اهتماماً فائقاً بأن لاتذهب سدى أية نقطة من المادة الثمينة. ثم دفع السدادة الى مكانها في فم الجرة.

«سأوفر بعض الخمر ليوم غد..» أعلن باستقامة «وسأجعلها المرة الأخيرة».

«كلا ياأبي، اشرب بقدر ماتريد، فالحق وجدت جرتين وليس جرة واحدة..لذا لازال عندك، ماتشربه غداً».

فسأل: «هل أخفيت جرتين؟» وتناول جرعة كبيرة، وتجشأ بصوت عال، وشرب مرة ثانية. ولأنه كان محروماً من الخمر لفترة طويلة فقد شعر أن المادة أخذت تغلي في رأسه منذ اللحظة التي لامست بها شفتيه. فغشي على عينيه، وأصيب

رأسه بدوار. ولدهشته بدت ابنته مختفية عن عينيه، ومع أنه لم يكن متأكداً لأن الكهف نفسه بدا يميل بصورة مجنونة ويغرق في ظلمة حالكة عندما سقطت الشمس. فتناول رشفة طويلة أخرى وسمح لنفسه بأن يدوخ.

سمعت ابنة لوط على بعد بضعة أقدام في الظلمة الصوت المنتظم لتنفس أبيها. فتنهدت، ثم انتزعت ثوبها وزجت بنفسها بالعمل الذي في متناول اليد. وكان أبوها ثقيلاً و من الصعب رفعه، فأخذت تلهث وقد بذلت كل قواها وهي تكافح لوضعه في مكانه. وكان والدها مخموراً جداً بحيث انه لم يتحرك عندما غادرت الكهف بعد فترة وجيزة.

«(34) فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى ها أنذا ضاجعت أبي فلنسقه خمراً الليلة أيضاً وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً (35) فسقتا اباهما خمراً تلك الليلة أيضاً وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنيامها ولاقيامها» (سفر التكوين19: 34و35)

كانت الأخت الصغرى عند فتحة الكهف، تراقب انعكاس ضوء القمر المكتمل، على صفحة مياه البحر الميت البعيدة، عندما انضمت لها في النهاية اختها الأكبر. لقد توقعت أن تبدو أختها الأكبر مشوهة الى حد ما، وملوثة الى حد ما، إلا أن ضوء القمر لم يكشف عن ندبة واضحة. ولاحظت أن أختها بدت شاحبة ومنهكة وشعرها أشعث، وليس غير ذلك.

«ما الذي حدث؟» سألت الصغرى بتطفل «ماذا قال؟»

«لم يقل شيئاً، والحمد لله» أجابت الكبرى متجهمة «كان مخموراً جداً فلم يلحظ شيئاً»

«ألم يلحظ عندما أنت؟»

فقاطعتها أختها الأكبر، وكأنها خافت أن تسمع بصوت عال، ماحدث في الكهف، وقالت: «انه حتى لم يعرف أنني كنت هناك، ولم يعرف متى غادرت» وتوقفت عن الكلام لفترة ثم قالت: «لقد فعلت ماكان ينبغي أن أفعل، وما أن قمت بالفعل حتى تركته وهو نائم كوحش».

فتجرأت الصغرى وقالت: «حسن، ان ذلك يجعل الأمر أسهل قليلاً، أليس كذلك؟»

فقالت الأكبر: «نعم يجعلها أسهل، وغداً، ياأختي الصغيرة يأتي دورك».
وبقيت الصغرى صامتة.

فقالت الأخت الأكبر: «ولكن هناك بعض الأشياء التي ينبغي أن تعرفيها، بعض الأشياء التي يجب أن تقومي بها».

«لقد قلت لي قبل قليل كيف يصنع الطفل».

«حسن، وكما يبدو، فإن هناك حاجة أكبر لكي تعرفي، وعلى الأقل، عندما يكون الرجل ميتاً من كثرة الشراب. وان هناك أكثر من ذلك». فسألت الأخت الأصغر: «ماذا تعنين ياختاه؟»

«(36) فحملت ابنتا لوط من أبيهما(37) وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب وهو أبو المؤابيين الى اليوم (38) والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بِنعَمي وهو أبو بني عمون الى اليوم» (سفر التكوين19: 36-38)

جذبت ابنة لوط الأكبر وهي الآن أعقل، اختها الأصغر الى جانبها وبدأت تشرح لها؟

وإذا تذكر لوط أي شيء مما حدث في تلك الليلتين فوق الجبل، فإنه لم يقل شيئا، حتى عندما بدأ بطنا ابنتيه بالانتفاخ، وحتى عندما أصبح واضحاً أنهما نامتا مع شخص مابعد موت آخر رجل في سدوم بفترة طويلة. وقد بقي لوط صامتاً.

وعندما ولدت ابنتا لوط، نادت الكبرى ابنها باسم موآب، الذي يعني «من الآب» ونادت الصغرى ابنها باسم بنعمي، الذي يعني «ابن عمي». إلا أن لوطاً لم يعط أي اشارة تنم عن ادراكه الرسالة التي أرادت الابنتان ارسالها اليه.

الفصل الثالث
الحياة ضد الموت

الاتصال الجنسي المقدس بين الأقربين الأدنين «الرهق» لابنتي لوط

الخير والشر في قصة لوط

مهرج مأسوي «تراجيدي»

الاتصال الجنسي بين الأقربين الأدنين «الرهق» في العالم القديم

أخت وزوجة

الجنس كسياسة

ماذا رأت سارة؟

من هو الثالث الذي يسير دائماً الى جانبك؟

حاول المدافعون في الأديان الثلاثة أن يجدوا تفسيراً للنهج الفضائحي للوط وابنتيه منذ اللحظة التي سجلت فيها قصتهم للمرة الأولى في سفر التكوين. ومع ذلك فان من المستغرب حقاً، أن يبدي لوط رغبة في القاء ابنتيه العذراوتين الى غوغاءٍ فاسقةٍ، وأن يتصل جنسياً بالأقارب الأدنين (إن لم يكن واعياً) مع ابنتيه بعد فرارهم الى الجبال ولم يعتبر رجال الدين والمعلقون أن ذلك أسوأ معصية باعتبار لوط أباً وزوجاً ورجلاً.

ولوط هو ابن أخ سيء الحظ لابراهيم، الأب (الباطريارك) و«المثال على انحراف العقيدة»(1) الذي منحه الرب بركته الثمينة والدائمة. وقال الرب الى ابراهيم: «وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك»(سفر التكوين 12: 2) ولوط على العكس، فيه شيء ما منحوس، يسير على خطا ابراهيم ويستند الى عمه العطوف في اخراجه من ورطته. ووفق احدى الفقرات الأكثر مدعاةً للاستغراب في التوراة، فان ابراهيم-وهو رجل عجوز ولطيف «كان غنياً جداً بالماشية والفضة والذهب»(سفر التكوين 13: 2) قدم كشخص قاسٍ ومتعدٍ لشن الحملات، امتطى وسار على رأس جيش لتخليص لوط من ملك عتيد أخذ لوطاً رهينة (سفر التكوين 14: 14-16) وكانت آخر وأعظم خدمات ابراهيم للوط- فعل متهور لم يقم به ابراهيم حتى عندما أمره الله بالتضحية بابنه - والفعل هو حجة الباطريارك امام ربه بالعفو عن الصالحين في سدوم وعمورة (سفر التكوين 18: 23) ومن المفترض أن يكون لوط واسرته من ضمنهم.

ويتوقف المحلفون التوراتيون-حسب ما يقال- عندما يطرح السؤال فيما اذا كان لوط صالحا بوجه عام. وتصر احدى الفرق على أن لوطاً كان مثل عمه ابراهيم «كاملاً وورعاً» حسب ما وصف أحد الحكماء (2) وينظر التقليد المسيحي الى لوط «كإنسان صالح» حسب ما قال بطرس، الذي شبهه بنوح

وناقش قائلاً، إن لوط واسرته من سدوم كان علامة على ارادة الله «بابعاد التقي عن الاغراءات» (رسالة بطرس الثانية 2: 7-9) ويصور القران لوط كمحمد(ص)، أي كنبي أرسله الله لادانة الأشرار(3) وتعتقد فرق أخرى أن لوطاً ليس أفضل كثيراً من زملائه السدوميين: وقد وصف لوط في موضع آخر في الأدب التوراتي بـ«فاسق»(4) ويفترض أنه اختار الاقامة في سدوم بالتحديد لأنه انجذب الى البذاءة السائدة.

والتوراة بالذات لم تقرر بشأن الجدارة الأخلاقية للوط، ولكن يظهر أن النوم مع ابنتيه في حالة غيبوبة ناتجة عن شرب الخمر - ليس مرة واحدة، بل مرتين- هو أقل جرائمه.

الخير والشر في قصة لوط

ان تقى لوط- أو الحاجة الى التقى- هو بين السطور ولم يجر الحديث عنه في الجدل المميز ما بين الأب(الباطريارك) ابراهيم والعلي القدير بشأن مصير سدوم، حين طرح السؤال بشأن حياة او موت لوط واسرته. وابراهيم الذي سوف يضع السكين على رقبة ابنه بأمر من الله دون أن يبدي أي اعتراض، نراه يستجمع شجاعته لكي يدخل في جدال مع الرب بشأن الخير والشر، كإشارة على التحدي لأي قارىء للتوراة يتكون لديه انطباع ان الله يفضل المؤمنين به الذين يخرسوا ويفعلوا ما قيل لهم.

بعد ظهر يوم قائظ، كما تقول القصة في سفر التكوين تجلى الرب، وزوج من الأصدقاء الحميمين عند خيمة ابراهيم (عند بلوط ممرا) في زي مسافرين عبر الصحراء، فأسرع ابراهيم ليرحب بهم فيغسلون أقدامهم ويقدم لهم وجبة طعام. وباعتبار أن قوانين الحمية التي تقف ضد مزج اللحم بالحليب لم يسر مفعولها حتى يأتي موسى بعد بضعة قرون، فإن الضيوف الإلهيين تناولوا وجبة كوشرية تتضمن لحم عجل وزبد وحليب (سفر التكوين18: 1-8).

وكان مرافقا الرب المسافرين في طريقهما لتدمير سدوم وعمورة «لأن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جداً»(سفر التكوين 18: 20). والله الذي يسير ببطء خلفهما يشعر انه ملزم بأن يفاتح ابراهيم بشأن انزال العقاب الجماعي، ظاهرياً خارج إطار الولاء للكائن البشري الذي عقده معه منذ فترة

وجيزة «عهد دهر» (سفر التكوين 17: 7). ومن جهة أخرى، فان ابراهيم، المذعن وغير المتشكي كانت لديه الجراة الوقحة لكي يجادل العلي القدير بشأن علاقة القربى التي تربطه مع أهل سدوم وعمورة، المدينتان التوأم في الإثم والغلو في السوء.

«أتهلك البار مع الآثم؟» (سفر التكوين 18: 23) قال ابراهيم للرب، وقد نصب نفسه مدافعاً عن السدوميين الذين يعيش ابن أخيه لوط بينهم.

وبعد الكثير من الشكوى ومن التملق من جانب ابراهيم الذي ساوم العلي القدير مثلما يفعل التاجر في السوق، يوافق الرب في النهاية على أنه لو وجد عدد قليل من الناس بحدود عشرة أشخاص صالحين في سدوم، فان المدينة كلها سيعفى عنها (سفر التكوين 18: 25-32) (ولهذا السبب، تقترح بعض المصادر أن (المينيان) أو النصاب الشرعي لعدد المصلين المطلوب في الدين اليهودي هو عشرة) (5) إلا أننا ملزمون بأن ندرك أن السدوميين لم يستطيعوا أن يجمعوا حتى مينيان واحد، لأن الرسولين الملائكيين تقدما لتدمير ليس فقط سدوم وعمورة، بل العديد من المدن (الأخرى) في البقعة/السهل «دون ابداء الرأفة ازاء رجل أو امرأة أو طفل» (سفر التكوين 19: 29).

وكما يحدث عادة، استثني لوط من «نار الجحيم والكبريت الشهير» الذي اجتاح باقي السدوميين، ليس بسبب الاعلان من قبل الرب أو أي شخص آخر، انهم يجب أن يكونوا صالحين «ذلك أن الصالح في هذه المدن الغارقة في الاثم، مع أنه أفضل من الباقين، كان أبعد مايكون عن الخير» حسب ما قال فيما بعد حكيم حاخامي (6) وهكذا فان مصير لوط كان فضيلة أخرى تضاف الى فضائل عمه- أو أنها كانت فضيلة رغب الله أن يقدمها الى قريب لابراهيم لايستحقها، وقد اختاره بنفسه (7) (ذكر الله ابراهيم) وتوقفت التوراة عن الكلام لتقول لنا بعدئذ أن الله «أطلق لوطاً من وسط الانقلاب»(سفر التكوين 19: 29).

البهلوان المأسوي «التراجيدي»

اذا لم يكن لوط رجلاً صالحاً ومستقيماً، فما هي، على وجه الدقة، جرائمه وجنحه؟ يعار اهتمام كبير في الأدب الديني الى صيغ الترحيب التي استخدمها لوط عند استقباله الغريبين اللذين ظهرا في سدوم عشية يوم التدمير. ولقد

طلب منا أن نصدق ذلك، وفق المصطلحات الأخلاقية، والأهم- ادب السلوك (الأتيكيت)- للمكان والزمان اللذين عاش فيهما لوط، فقام بما كان ينبغي خير قيام. وقد قال أحد المفسرين: «ان مشهد الأب وهو يقدم ابنتيه العذراوين لتحقيق رغبة ومسرة الغوغاء التي كانت تسعى جهدها لنهب منزله، لن تبدو صادمة للمشاعر القديمة لآداب المجتمع كما تبدو لنا الآن»(8)

ومما يثير الذهول أن الدارسين والحكماء في القرون الفائتة مالوا الى التغاضي عن معظم السلوك الواضح والمقيت للوط، وبذلوا جهداً وصرفوا حبرا كثيرا وهم يناقشون مثلاً، ان كان يجب توجيه لوم الى لوط بسبب مماطلته أثناء مغادرة سدوم، أو بسبب مساوماته مع الملائكة بصدد مكان اللجوء. وكان الموضوع المفضل عقد مقارنة مابين ابراهيم ولوط بوصفهما مضيافين جيدين: فقد وجدوا أن لوط كان ضعيف لأن ابراهيم هرع لملاقاة الزوار الملائكيين الذين ظهروا عند خيمته، بينما «تأخر لوط في تقديم عرضه بالذهاب بسرعة الى بيته» عندما ظهرا في سدوم(9)

واختلفت الأعذار من قبل الوعاظ والمفسرين حتى فيما يخص هذه المثالب المفترضة. وصورت ألاعيب لوط قبل مغادرتهم سدوم وكأنها سلوك محتشم يمكن توقعه من «صاحب أي بيت» وذريعة لوط المضحكة قليلاً بشأن مدينة صوعر التي استثنيت ليس بسبب رغبة لوط في الحصول على ملجأ مريح أكثر، بل بسبب «اهتمامه المفهوم بالاشياء الصغيرة والعاجزة»(10) والأسوأ، ان لوطاً انتقد لكونه «سلبي، وغندور وأبله»(11)

وعندما تصل الأمور الى سلوك لوط الأكثر غرابة (غروتسكية) والأكثر اثارة للاشمئزاز- أي رغبته في القاء ابنتيه الى الغوغاء- يقدم علماء الدين عذرين واهيين: في الأول، قيل ان القوانين القديمة كانت تفرض على لوط واجباً مقدساً يتمثل في حماية ضيوفه حتى لو تعرضت حياة اسرته وحياته للخطر. والواقع ان الضيفين انقلبا الى ملاكين. وهذا الأمر لم يكن معروفاً للوط حين قدم ابنتيه للغوغاء. وكل ماعرفناه بهذا الشأن انهما زوج من المقتحمين بلا أسماء، ليسا أكثر جدارة بترحيب لوط بفريق من المرسلين من السماء. وثانياً، طلب منا أن نصدق أن الأطفال اعتبروا وكأنهم كانوا أدنى قيمة في الزمن التوراتي مما هم

عليه حاليا، أي أنهم اعتبروا كأملاك منقولة أكثر منهم أعزاء على قلوب والديهم. لذا فقد كان الأب حرا بأن يفعل بأطفاله (وبناته خصوصاً) مايشاء.

والآن، صحيح تماماً ان قواعد اكرام الضيف الصارمة وربما المقدسة أيضاً قد سادت بين سكان الصحراء من الرحل في منطقة الشرق الأدنى القديم، وهي تسود الآن في أوساط البدو في منطقة الشرق الأدنى المعاصرة. وحسبما يبين معلم حاخامي معاصر فان «الغريب حالما يلمس حبل الخيمة، يصبح من حقه أن يطالب بحق الضيف» (12) وقد يعتمد بقاؤه على قيد الحياة في البراري على كرم وارادة البدو الرحل الطيبة الذين يلتقون مع بعضهم بعضاً بالصدفة. وكان يعتقد أن من الواجب الجليل تقديم المأوى للغريب الذي يظهر عند خيمة أحدهم. وتتطلب القواعد البدوية في اكرام الضيف، تقليدياً، تقديم الطعام والشراب والمأوى لفترة لاتقل عن ثلاثة أيام حتى لو كان المضيف فقيرا الى حد قد يعرضه ماقدمه الى الجوع (13)

ويقدر بعض العلماء الأنثروبولوجيين[1] ان واجب اكرام الضيف يتسع الى حد تقديم رفقة جنسية الى الضيوف. ولوحظت هذه الممارسة في القرن التاسع عشر في أوساط قبائل بدوية معينة مثل جماعة «ورثة ابراهيم في الوقت الراهن» ، التي كانت تمارسها في وقت متأخر من القرن المذكور أعلاه(14) واذا اعتبر لوط نفسه ملزماً بتقديم نوع مماثل من باب «كرم الضيافة» فان من الطبيعي، اذن، تقديم ابنتيه لمنح متعة جنسية للغوغاء، ولايستبعد ان يكون هذه العرض أقل قيمة في نظره، حتى لو صدمنا، لكونه غريباً غرابة (غروتسكية) أكثر من المشهد الذي قدم في التوراة نفسها.

ومن الصحيح أيضا، ان الشريعة التوراتية تمنح الأب الاسرائيلي درجة كبيرة من السلطة على اسرته، وعلى أطفاله بصورة خاصة. وكانت للأب سلطة توزيع العقوبات على ذريته، كأن يطردهم من بيته، أو حتى أن يبيعهم كرقيق أو كمحظيات لسداد الدين (15) ويمنح سفر تثنية الاشتراع الأب حق قتل ابنه المتمرد، وعلى الأقل، في ظل ظروف معينة (سفر تثنية الاشتراع 21: 18-21)

---

(1) الأنثروبولوجيا: علم الانسان، علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته تقاليده

وليس بما لايشبه أزمنة وأمكنة أخرى (بما في ذلك زماننا ومكاننا) كان الطفل الذكر يحظى بمكانة أرفع من الطفل المؤنث في العالم التوراتي وفي التوراة نفسها. فالأطفال الذكور وحدهم هم الذين يرثون الممتلكات عن أبيهم، ومن المتوقع أن تندمج الابنة في اسررة الزوج-«وهكذا، فان قوة البيت لاتقاس بعدد البنات» (16) حسب ما كتب معلم توراتي. ولهذه الأسباب مجتمعة، يعتقد بعض النقاد والمعلقين أن لوطاً لم يقم بدورفاعل ازاء ابنتيه بحيث يضع سلامتهن فوق اعتبارات واجباته ازاء الغريبين اللذين آواهما تحت سقفه.

لذا فان من المطلوب منا أن نتغاضى، لا بل أن نثني على تقديم لوط ابنتيه الى الغوغاء من أجل حماية ضيفيه. وحتى اذا كان تسليم ابنتيه «يثير اشمئزاز الأخلاق العبرية»، حسب ما كتب أحد المعلقين، فان من المفترض فينا أن لانعتبر لوط جبانا خائر القلب، بل أن نعده كـ«بطل شجاع في حلبة التزامات كرم الوفادة في موقف في منتهى الاحراج» (17) مما يشجعنا على الرؤية باعتبار العملية تمثل دعوة أرفع مقاماً من القول، بالسلامة الجسدية لأطفال امريء ما. وفوق ذلك، يلحون علينا لأن لانصدر حكماً أخلاقياً على سلوك لوط حسب ما كتب في التوراة- وهي مناقشة ساخرة للدفاع عن كتاب من المفترض أن يكون حجة حاسمة بالنسبة الى الخير والشر.

يصر غيرهارد فون راد، وهو ناقد متميز لسفر التكوين،على «أن التقديم المفاجيء لابنتيه يجب أن لا يحكم عليه ببساطة انطلاقاً من أفكارنا الغربية، بأن لوطاً كان يريد، من دون ضغط الظروف عليه لكي ينتهك كرم الوفادة، أن يكون مضيفيه أبعد من أن يمسهما أحد بسوء أكثر من حرصه على ابنتيه، هي الفكرة التي استحوذت على القاريء القديم»(18)

وما يستحوذ على القاريء المعاصر، في المقابل، استعداد لوط لأن يسمح «لمطالب المجاملة أن تقلب الالتزامات الأخلاقية للأبوة» حسب ما كتب تقريباً أحد علماء التوراة (19) وليس كافياً أن نرفع أكتافنا ونقول اننا لانستطيع أن نفهم كيف أن الرجال والنساء الذين عاشوا قبل بضعة آلاف من السنين كان يجب أن يشعروا إزاء أطفالهم. بل ان أوائل القراء لهذه القصص لم يتمكنوا من اخفاء اشمئزازهم أمام استعداد لوط لارسال ابنتيه الى عصبة المغتصبين، ولو

كان ذلك بسبب «ان أي قارئ اسرائيلي لهذا النص سيعرف» (20) ان جريمة الاغتصاب مدانة بصورة قاطعة حسب الشريعة التوراتية، وان الاسطورة التوراتية تفرض عقوبات قاسية(انظر الفصلين الرابع والرابع عشر) وتؤكد كل من التوراة ذاتها، وأحكام علم التوراة ان الأطفال اعتبروا من قبل الاسرائيليين وكأنهم ليسوا اقل من «هبة ثمينة من الله» وتحقيقاً لوعود الرب المتكررة لابراهيم، واسحق، ويعقوب بأنه «سيكثر ذريتهم» (21)

ان سلوك الكاتب التوراتي ازاء لوط لم يجر الحديث عنه بصوتٍ عالٍ، ومن الصعب اغماض عين قارئ التوراة. ولم يصور لوط لا كجبان ولا كبطل، وتم تقديمه كمهرج الى هذا الحد أو ذاك: «بهلوان مأسوي (تراجيدي) وفق كلمات أحد المثقفين التوراتيين المعاصرين، و«عنصر مضحك» أو «مهرج» أو «أحمق سلبي» حسب كاتب آخر (23) وتذكرنا المواجهات مابين لوط وجيرانه، واسرته، والملاكين المنقذين بحويصلة الخنزير، ودبدبة الهزلي، وعرض مسرحي كئيب. وكما حاولت أن اقترح أثناء اعادة قص الحكاية، فان عبثية لوط مع الملاكين المدمرين حول مصير «المدينة الصغيرة» التي تدعى صوعر هي مادة من نموذج أبوت وكوستيلو[1] وليس مسرحية أخلاقية»

وكما لاحظ أحد كتاب الدراما وقد حول قصة لوط وابنتيه الى مسرحية، فقد كان يجب قص قصة لوط وابنتيه البائستين بلكنة يديشية[2] تنتهي ب: «لذا، فما الذي حدث بعد كل هذا العمل؟ فقد كان أقرباؤهم من الغويم»[3](24)

وعندما تصل الأمور الى الاتحاد الجنسي المحرم مابين لوط وابنتيه من ناحية ثانية، يواجه القاص التوراتي الأمر باستقامة وهدوء. فلم تنتقد التوراة، كما لم ينتقد الأدب الديني لا لوط ولا ابنتيه، بل ان الأدب الديني حاول أن يبرأ صلاتهم الجنسية العارضة في ذلك الكهف الجبلي الذي يطل على سدوم المتفجرة وبالنسبة للراوي فقد اعتبر لوط بريئاً تماماً من كل ما حدث بعد أن

---

(1) أبوت وكوستيلو ممثلان هزليان من الولايات المتحدة الأميريكية في أواسط القرن العشرين

(2) اليديشية أو الييدية لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود في الاتحاد السوفياتي (السابق) وبلدان اوربة الوسطى، وهي تكتب بأحرف عبرية

(3) الغويم ، الأغراب (غير اليهود)

اخضعتاه ابنتاه لمفعول الخمر وبعثتا به الى حالة من حالات سبات المخمور: «فقد كان لوط ضحية، أكثر منه محرض على هذا الفعل الشائن» حسب قول احد المعلقين (25) واعتبرت حتى ابنتاه، كما سنرى، بطلتين أكثر منهن امرأتين استغوتا أو اغتصبتا والدهما. ويبدو أن الاتصال الجنسي مع «المحارم»، حسب ما يقترح كاتب التوراة، ليس أسوأ من انتهاك النظام الأخلاقي، وخصوصاً في حالة الحفاظ على النوع، وعلى مملكة اسرائيل، ويظهرأن مولدالمسيح مرهون بيد التقادير.

الرهق «الاتصال الجنسي بين الأقارب الأدنين» في العالم القديم

منذ أن أحل سيغموند فرويد الأب السماوي كمصدر للقانون الأخلاقي، ونحن نعلم أن نعتبر التحريم (التابو) بصدد الاتصال الجنسي بين الأقارب الأدنين (الرهق) شيئا عميقا وقويا، قديما، وكونيا، ولم كانت مشاهد الاتصال الجنسي بين لوط وابنتيه صادمة الى هذا الحد غير اللائق، عندما نواجه القصة في الكتاب المقدس؟ غير أن الحقيقة هي أن عالم التوراة (كما سنرى عند مؤلفي التوراة) نظر الى الرهق برعب أقل بكثير مما نفترض لدى قراءة فهرست (كاتالوغ) الممنوعات الجنسية في سفر الأحبار.

لم تكن العلاقات الجنسية بين الأقارب بالدم مدانة عالمياً في الأديان والثقافات في الشرق الأدنى القديم. وعلى سبيل المثال ، لم تنبث حضارة بلاد الرافدين (ميسوبوتاميا) حيث ولد ابراهيم ولوط، ببنت شفة عن الاتصا ل الجنسي بين الأقارب الأدنين مابين الآلهة إن لم يكن مابين الناس العاديين. مع أن التحريم ضد الاتصال الجنسي مابين الأب وابنته نحت في الحجر في قانون حمورابي. فقد صورت الأساطير المقدسة في بلاد الرافدين القديمة الآلهة في اتصال جنسي مع ذريتهم ومع أشقائهم (26)

وكانت قوانين وعادات مصر القديمة ، وهي المكان الذي سافر اليه ابراهيم ولوط بحثا عن المؤونة أثناء المجاعة، أكثر من منصفة: فقد سمح للالهة وللكائنات البشرية أن يندمجوا في زيجات مع الأقارب الأدنين في ظل ظروف معينة. وباعتبار أن القوانين المصرية تنقل الملكية من الأم الى أكبر بناتها، أكثر من نقلها من الأب الى الابن، فقد يلجأ الأب الى الزواج من ابنته (وقد تزوج

الابن اخته) من أجل منع ثروة الاسرة من الوقوع تحت حكم من خارج الاسرة (27)

وقديتزوج فرعون من اخته وهو يقلد اسطورة ازيس وازيريس، الأخ والأخت العاشقين اللذين عرف حكام مصر أنفسهم من خلالهما.

وتقع أرض كنعان الى الغرب من بلاد الرافدين (ميسوبوتاميا) والى الشرق من مصر، وتقع ضمن أجواء التنافس للتأثير على الحضارتين كلتيهما. والاسرائيليون الذين جاؤوا لكي يعيشوا في أرض كنعان واجهوا تقليداً محلياً يصور إله الكنعانيين ويدعى بعل في اتحاد جنسي مع اخته عنات. وفي الوقت الذي غزا فيه الاسرائيليون أرض كنعان واستقروا فيها بعد الخروج من مصر، كانت القوانين التي حفظت في الأسفار الخمسة لموسى- وهي الأسفار (الكتب) الخمسة الاولى في التوراة العبرية- ولازالت، تشجب، بصورة صريحة وواضحة، كل أشكال الاتصال الجنسي مع الأقارب الأدنين التي مورست من قبل غير الاسرائيليين.

«كصنيع أهل مصر التي أقمتم بها لاتصنعوا وكصنيع أهل كنعان التي أنا مدخلكم لاتصنعوا وعلى رسومهم لاتجروا»(سفر الأحبار 18: 3)

وهكذا تمنع التوراة بصورة صارمة الاتصال الجنسي مابين الاسرائيليين وأي قريب لهم بالدم: الأم أو الأب، والأخت أو الأخ، العمة (الخالة) او العم (الخال)، الأطفال والأحفاد،وحتى الأقرباء بالمصاهرة، وأزواج الأب أو الأم «ولن يقترب أي منكم من أي قريب من أقربائه وأن يكشف عن عريه:أنا الرب» (سفر الأحبار 18: 6-30). بهذا الشكل قدمت ترجمة الملك جيمس الألمانية الى الاتصال الجنسي مع الأقارب الأدنين باستخدام الاستعارة التوراتية العامة للاتصال الجنسي. ومن ثم، لئلا يبدأ أي امريء بالبحث عن منافذ، يبدأ (كاتالوغ/فهرست) حقيقي بالسلوك الجنسي المحرم: «عري أبوك، وعري أمك، لاتكشف.. عري أختك.. عري ابنة زوجة أبيك» وهكذا (سفر الأحبار18: 6-30).

وبالطبع طبقاً لمجرى الأحداث الموصوفة في التوراة نفسها، لم يكن لوط وابنتاه موضوعاً لأي قانون عرفي ضد الاتصال الجنسي بالأقارب الأدنين (الرهق)، طالما أن القواعد الشرعية المذكورة في سفر الخروج، وسفر الأحبار،

وسمر العدد، وسفر تثنية الاشتراع لم تنزل الى الأرض حتى كشف الله عنها لموسى بعد عدد من القرون. غير ان الثقافة التوراتية المعاصرة تزعم بصورة عامة ان كثيراً من التوراة (ان لم تكن كلها) جمعت واختصرت لكي تكتب في شكلها الراهن الذي كان سائداً حوالي 600 قبل العهد المشاعي من قبل محررين أو «منقحين» اعتمدوا على المصادر وعلى الجذور التاريخية القديمة، وأضافوا تعليقات وتفسيرات وحتى مقاطع جديدة وكاملة من عندهم، وشبلوا، أي وضعوا كيفما اتفق،كتباً جديدة ذات سلطان أحدث. ولهذا السبب فان المؤلفين والمحررين الذين جمعوا القصص التي نجدها في سفر التكوين كانت منسجمة تماماً مع لوائح الشريعة التي نجدها في سفر الأحبار، ولذا فقد بدا وكأنهم يعتبرون الرهق كفعل محرم حين كانوا يعيدون قص قصة لوط وابنتيه (انظر الفهرست: من بالحقيقة كتب التوراة؟)

ومع ذلك، فان الفعل الأول في الاتصال الجنسي بين «المحارم» المذكور في التوراة-هو فعل لوط وابنتيه- لم يستجر عقوبة من أي نوع كان. وحتى عندما انزلق رؤوبين، وهو أكبر أبناء الأب يعقوب، الى فراش سرية أبيه بلهة، لم يواجه أية تبعات من أي نوع حتى مرض أبيه الأخير، حين اكتشف، للمرة الأولى، أنه سينكر الميراث العائد له باعتباره الابن الأول «وحدث إذ كان اسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رؤوبين ذهب فضاجع بلهة سرية أبيه» (سفر التكوين 35: 22) وقال يعقوب لبنيه: «رأوبين انت بكري. فرتَ كالماء لاتفضل ولأنك علوت مضجع أبيك. حينئذ دنسته. على فراشي صعد» (سفر التكوين 49: 3و4).

وبالفعل، فان وصية توراتية واحدة على الأقل- بصدد التقليد الغريب الذي يسمى زواج الأخ من أرملة أخيه حسب الشريعة اليهودية- تتطلب عملياً اتصالا جنسياً مابين الرجل وأرملة أخيه الميت (سفر تثنية الاشتراع 25: 5-10). وسنواجه مثلاً ساخناً عن زواج الأخ من أرملة أخيه في أحداث قصة يهوذا وتامار (انظر الفصل السادس) وكقصة لوط وابنتيه- سنرى أن الكاتب التوراتي لم يقترح أقل استنكار ممكن لما هو، من الجهة الأخرى، خرق متجاوز الحد للشريعة ضد الاتصال الجنسي بين «المحارم»، بين رجل وزوجة أخيه، وبين آب وكنته كما هو وارد في سفر الأحبار (سفر الأحبار 18: 15و16).

وهكذا كشفت التوراة عن نهج تجاه زنى المحارم (الرهق) بعيد جداً عن ان يكون عرضياً عما يتوقع أحدنا من أحكام الأحبار الصارمة. لذا، فان الحاخاميين حين صرحوا أن قصة فعل رؤوبين مع سرية أبيه غير ملائمة للقراءة بصوت عالٍ في الكنيس، فربما كانوا أقل اهتماماً بالتفاصيل المريعة المتعلقة بالمواجهة الجنسية في فراش زواج يعقوب من واقع نوعية الرواية واعتدال العقوبة.

وبالفعل فان بالامكان أن نخمن ان كان فهرست (كاتالوغ) الشركاء في الجنس المحرمين قد صيغ من قبل المؤلفين المراقبين لسفر الأحبار يقول كم هي مبتذلة ممارسة الاتصال الجنسي بالمحارم (الرهق) بين الاسرائيليين. وبعد كل هذا العناء، اذا لم يكن الاتصال بين المحارم يعتبر حقيقة في الحياة في عالم التوراة، فلِم يشعر مانح الشريعة التوراتي بالحاجة الى السير الى هذا الحد من التفاصيل المضجرة؟

الأخت والزوجة

ان رغبة الوالد في تقديم ابنتيه الى الغوغاء التي تجنح نحو استخدام العنف الجنسي هي اللحظة المنفردة الأكثر ازعاجاً في قصة لوط، وهي بالفعل حدثاً مرعباً في التوراة. إلا أنها ليست القصة الوحيدة التي يرغب فيها رجل صالح رغبة أكيدة بتعريض امرأة للخطر من أجل انقاذ جلده. وعلى سبيل المثال، تقول قصة في سفر القضاة بتفصيل يدعو الى التقيؤ، ماالذي سيحدث بالتأكيد لو أن لوطا رمى ابنتيه الى الشارع (انظر الفصل الثاني عشر).

وتصور التوراة ليس مرة واحدة، بل ثلاث مرات مشهداً يقدم فيه الأب (الباطريارك) زوجته على أساس أنها أخته بغية حماية نفسه من عنف جسدي. وعلى سبيل المثال، عندما سافر ابراهيم وساراي الى مصر لكي يهربا من المجاعة في كنعان، *أصر ابراهيم على ارتداء قناع يوحي أنه أخ لساراي خوفاً من أن أي* رجل ينظر الى ساراي نظرة حب سيعمد ، في أغلب الأحوال، الى قتل زوجها أكثر من محاولته قتل اخيها لكي يأخذها الى فراشه. وجرى، بالفعل، ضم ساراي في سلك الخدمة في حريم فرعون، وأغدق الملك المصري الهدايا على ابراهيم، فقد صدق انه شقيق ساراي. وقبِل ابراهيم هبات فرعون دون تعقيب، ولم ينقذ ساره من النوم الفعلي مع فرعون غير تدخل الرب نفسه (سفر التكوين 12: 10-20).

ونجد القصة نفسها بالذات تروى في موضعين آخرين في سفر التكوين. فقد لجأ ابراهيم الى الخدعة نفسها مع أب (باطريارك) آخر قوي البنية، هو أبيملك، ملك الفلسطينيين، وحدثت النتائج نفسها -إذ تنتهي سارة الى فراش أبيملك إلا أن الله يحذره من ذلك في اللحظة الأخيرة (سفر التكوين 20: 2-10) وأبيملك،مثل سابقه فرعون، صوّر وكأنه يرتجف فرقاً أمام فكرة أنه ربما نام سهواً مع زوجة رجل آخر. وكلا الملكين وبخا ابراهيم لأنه وضعهما في مثل هذا الموقف الخطر أخلاقياً.

وعندما أدين ابراهيم لقيامه بفعل الخداع من جانب أبيملك الغاضب، اعترف ابراهيم أن سارة زوجته- إلا أنه أصر على أنها اخته غير الشقيقة أيضاً، وكأن هذه الواقعة، توضح وتمنح العذر عن خديعته. وحل ابراهيم اللغز بالقول: «انها..ابنة أبي، إلا أنها ليس ابنة أمي» (سفر التكوين20: 12) ونحن لانستطيع التأكد تماماً ان كان زعم ابراهيم الذي فات أوانه بأن ساره أخته غير الشقيقة، هو أيضا خداع آخر.إلا أن الحاخاميين والمثقفين صدقوا كلام ابراهيم وقرروا بالنسبة الى هذه الواقعة الضعيفة أن الزواج بين الأخوة غير الأشقاء مسموح به في ظل شرائع اسرائيل القديمة وناقشوا في أن زواج نصف الأقرباء الأدنين كان لايزال مقبولاً ظاهرياً حتى أواخر عهد الملك داوود، عندما ارتأت تامار ابنة داوود أن الزواج أمر يختلف عن الاغتصاب الذي تعرضت له على يدي أخيها غير الشقيق (انظر الفصل الخامس عشر).

وتبنى اسحاق بن ابراهيم وسارة الذريعة نفسها حين جعل سفره الى مملكة أبيملك برفقة رفقة زوجته. فلجأ اسحاق، مثل أبيه، الى الخداع فقال ان رفقة أخته بسبب الجبن الواضح. فقد خاف أن يقول «زوجتي» حسبما قيل لنا «لئلا يقتلني أهل المكان بسبب رفقة لأنها جميلة المنظر» (سفر التكوين 26: 7) إلا أن الحيلة فشلت عندما حدث أن أبيملك نظر من نافذة قصره ورأى اسحاق «يلاعب رفقة» (30)-وأيقن الملك الطيب أن رفقة لم تكن أخت اسحاق أبداً. وأدرك أبيملك أنه خضع للغش(ثانية!) ووبخ اسحاق لأنه استهتر بقيمه الأخلاقية، مثلما وبخ، ذات مرة، أبا اسحاق لقيامه بلعب نفس اللعبة القذرة (سفر التكوين 26: 1-10)

وانخرط المثقفون التوراتيون والوعاظ في جدل غامض لشرح السلوك المحير والجبان لابراهيم واسحاق، الذي وجده القراء دائماً «مذهلاً ومزعجاً» (31) وحتى استفزازياً (32) وظنوا أن أبا ابراهيم ربما تبنى سارة في فترة طفولةابراهيم ولم يكشف عنها، وبذلك لم تكن سارة قريبة قرابة بالدم لابراهيم (33) إطلاقاً ويستند أجرا توضيح، والتوضيح الذي وضع الآباء (البطاركة) تحت أفضل ضوء، الى التقليد المنسي منذ زمن بعيد عن شعب عُرف باسم الحوريين الذين أبدوا اهتماماً بالغاً بعلاقة الأخ-الأخت بحيث أن بإمكان رجل أن يتخذ زوجته كأخت له في نفس الوقت الذي يتزوجها به.

ولقد تبنى ابراهيم واسحاق تقليد الحوريين بتعريف زوجتيهما على أنهما أختيهما، حسب افتراض أحد المثقفين التوراتيين الموثوقين من أجل استحضار «كل.. المزايا والامتيازات» التي كانت في متناول اليد لأخت الرجل (ولكن ليس لزوجته) (34) وفي الزمن الذي جمع فيه الكتاب التوراتيون والناشرون أسطورة وتاريخ اسرائيل القديمة في ما نعرفه اليوم باسم التوراة، قيل، أنهم لم يعرفوا أو يدركوا التقليد الحوري عن الزوجةكأخت، ويبين افرايم سبيسر أن «التقليد أطلق بصورة صريحة الكثير من مخزون هذه الأحداث، إلا أن مفتاحها قد ضاع في مكان ما على مسافات متداخلة في الزمان والمكان» (35) وبدلاً من نبذ الروايات المربكة الثلاثة، حاولوا أن يفسروا ما كان يفعله كل من ابراهيم واسحاق بلغة يمكن أن يدركها قراؤهم.

ان التفسير الوحيد المفهوم عند محرري التوراة- أو، بسبب تلك المسألة، يصبح مفهوماً لنا- هو التفسير الذي يعرض علينا الآباء الآخرين كأرواح خجولة ترغب بصورة تامة أن تودع زوجاتهم (زوجات الآباء) في فراش رجال أقوياء مقابل سلامتهم الجسدية، وربما، مقابل مكافأة الملك.

الجنس والسياسات

ان اختيار شركاء الفراش حسب ما صورت في الكتاب المقدس هو أحياناً: مسألة سياسية ودبلوماسية أكثر تقريباً من حب أو شبق. ويقال، على سبيل المثال، أن سليمان جمع سبعمائة زوجة (سفر الملوك الأول :11: 3) ومن المحتمل أن الكثيرات من هذه الزيجات كان يقصد منها عقد التحالفات بين الملك

الاسـرائيلي وهـو في ذروة سـلطانه، وبـين أمـراء وحكـام الأمـم المحيطـة والأباطرة. وحتى عندمـا تتكلـم التـوراة عـن لقـاء جنسـي بـين الأقـارب الأدنـين (رهقي) بصورة صريحـة، تحتـل مركـز القلب أحيانـاً الطموحات السياسية أكثر من المغامرة الجنسية، مثلما حدث عندما انغمس ابشالوم بن الملك داوود في الطقوس العربيدية العامة مع محظيات أبيه فوق سطح القصر.

وكانت محظيات داوود تصنف تحت ما يمكن تسميته حصرا بالحريم. فقد جمـع ملـوك اسـرائيل مثـل بـاقي الملـوك في الشـرق الأدنـى القديـم، زوجـات ومحظيات بإسراف كبير، وكان الحريم رمزاً لأبهة وثراء قصر الملك. وزود المزواج سليمان (الحكيم) على سبيل المثـال، بثـلاث مئـة محظيـة إضافيـة. وقيـل لنـا بصراحـة أن أحازيـا، وهـو سليل داوود وسـليمان، قلـد الملـوك الوثنيين بفـرض الختان (أو جعلهم خصيان) لضمـان نزاهـة زوجاتـه (سـفر الملوك الثاني 9: 32) وحتـى اذا كانت الأعضاء الخاصة لرجـل ما قـد (هشـمت أو استـؤصلت) ينظـر اليه برعب مـن جانب كاتب توراتـي لما يعـرف باسـم سفر تثنية الاشتراع (سفر تثنية الاشتراع 32: 2)

وكان حارس الحريم أساسياً لأن نزاهة زوجة الملك أو محظيته تمثل رمزاً آخر يدل على سلطان الملك وقدراته. وهكذا، عندما شق المتمرد أبشالوم طريقه الى الحـرب ضـد أبيـه الملـك داوود، وطـرد الملـك مـن اورشـاليم، اختـار إشارة لافتـة للنظـر (جديـر بـالذكر أنها فرويديـة) ترمـز الـى توليـه عـرش أبيـه: فقـد أسـر ابشـالوم محظيـات أبيـه اللواتـي خلفهن الملـك الفـار وراءه ونصـب خيمـة علـى سطح القصر الملكي، حيث كان بالامكان رؤيتها من كل أنحاء اورشاليم، وواصل كل محظيـة مـن المحظيات العشـرة «علـى مـرأى كـل اسـرائيل» (سـفر الملـوك (صـاموئيل) الثـاني 16: 22). والرسـالة السياسـية لـم تخطـيء: «فمضاجعـة محظية الملك- حسبما كتب مثقف توراتي- كانت بحكم اغتصاب العرش» (36)

وعلى عكس رؤوبين الذي قد يكون أيضاً قد تحدى سلطة أبيه وذلك بنومه مـع سـرية يعقـوب، فـان أبشـالوم دفـع حياتـه ثمـن تحديـه الجنسـي- ثـم «بعدئـذ» سيتعرض للموت لقاء تمرده على الملك الحاكم، إن كان توج انقلابه في القصر أو لـم يتوجـه بطقـوس عربيدية عامـة. وواضـح أن داوود نظـر الـى النسـاء وكأنـهن

افسدن باتصالهن الجنسي مع ابنه، فنبذهن بعد استعادته العرش مع حريمه «فأقامهن في بيت حجز وكان يعولهن ولم يدخل عليهن فكن محجوزات في أيمة دائمة الى يوم وفاتهن» (سفر الملوك الثاني3:20)

ومن الطبيعي ألا يتمكن داوود من ابداء دهشة كبيرة أمام فعل ابشالوم الجنسي الجريء جداً. ذلك أن داوود نفسه، بعد كل ماجرى نام مع زوجات سلفه شاؤول، كرمز للملكية (سفر الملوك (صاموئيل) الثاني 12: 8) وبذلك ضرب مثلا لابنائه المغتلمين(الشهوانيين) والمتمردين. وعندماتوج سليمان كملك لاسرائيل بعد موت د اوود، سأل أحد ابنائه أدوناه، بأدب جم السماح له بالنوم مع محظية أبيه المفضلة، الممتعة، ولكن غير الملموسة أبيشاج (الشونمية)، واعتبر سليمان ذلك بمثابة اشارة للمطالبة بالعرش- فأرسل فاتكا لكي يغتال أخاه الوقح (سفرالملوك الأول 12:25)

ان الارتباط بعلاقات جنسية مع محظية والد امريء- وهو فعل يمكن لنا أن نشبهه بالنوم مع زوجة أب المرء- كان يعتبر انتهاكاً للتابو (المحرم) الجنسي ارتفع الى درجة الأمر الإلهي في التوراة، إلا أن جريمة هؤلاء الرجال الجريئين والطامحين-داوود، وأبشالوم، وأدوناه، وغيرهم الذين سجلت مغامراتهم في الكتاب المقدس-انما كانت خيانة أكثر منها اتصال جنسي بالأقرباء الادنين (رهق).

ماذا رأت سارة؟

ان اختفاء كلمات أربعة من الترجمة القديمة للنص التوراتي رفعت درجة الاستغراب والاهتمام بالمشهد المزعج بحيث أن التوراة نفسها سجلت حادثة تحرش الطفل القريب قرابة كبيرة، وهي اشارة صادمة الى حد أنها ربما كانت مكتوبة حرفيا خارج التوراة من قبل مراقبين حاخاميين. فهل تحرش اسماعيل، وهو الابن البكر للأب ابراهيم بأخيه غير الشقيق اسحاق وكان في الخامسة من عمره؟

كان ابراهيم وسارة لاينجبان اولاداً حسب ما قرأنا في سفر التكوين، وبسبب ذلك بعثت سارة بزوجها الى فراش خادمتها، وهي امرأة مصرية اسمها هاجر، لكي يجد رحماً خصباً. وغيرت سارة الغيورة فجأة رأيها عندما كانت هاجر في

فترة الحمل، فنفت الخادمة الى البرية. وأنقذ ملاك الرب هاجر من الموت عطشا وجوعا في الصحراء وأعادها الى مخيم ابراهيم، حيث ولدت فيه صبيا سمي اسماعيل (سفر التكوين 16: 4-16)

وفيما بعد، قدم الرب، وكان اسماعيل يكبر، وعدا مميزا لابراهيم وكان في التاسع والتسعين من عمره وكانت زوجته في التسعين من عمرها: بأن سارة ستحمل ولدا يحل محل اسماعيل كوريث لبركة ابراهيم الالهية «فقال الله بل سارة امرأتك ستلد لك ابنا وتسميه اسحاق وأقيم عهدي معه عهدا مؤبدا لنسله من بعده» (سفر التكوين 17: 19) ومميزة أخبار ضحك سارة بصوت عال- ضحكت تقريبا حرفيا في وجه الرب- وسمي ابنها اسحاق، وهذه الكلمة تمثل لعبة بالكلمات العبرية وتعني «أنا أضحك» (سفر التكوين 18: 12،12و 21: 4)

وتعرض التوراة علينا مشهدا مبهما بصورة عميقة حين نجد اسماعيل وهو في الخامسة عشر من عمره يلعب مع أخيه غير الشقيق وهو في الخامسة من عمره في وليمة احتفال بكون اسحاق فطم (أخيرا !) عن صدر أمه. إلا أن الاحتفال تخرب لأنه حدث أن سارة رأت اسماعيل يفعل شيئا ما لاسحاق، شيء مزعج جدا الى الحد الذي جعل سارة تطلب بحزم «أن يلقى» باسماعيل وبأمه في الحال الى البرية للمرة الثانية والأخيرة.

فما الذي رأته سارة بالضبط؟ وما الذي فعله اسماعيل بالضبط؟ مما استدعى مثل هذا الغضب والاهتياج من جانب سارة؟ واقتصر ماقيل لنا في الترجمات الانكليزية المعتمدة للتوراة أن سارة رأت اسماعيل «يهزأ» أو «يخدع» اسحاق الصغير- وطلب منا أن نصدق أن سارة طردت الأم والابن الى الصحراء لكي يموتا بسبب فعل هزء واحد قام به أخ مراهق حيال أخيه.

ولن تقوم سارة بما قامت به مالم تكن قد رأت شيئا أسوأ بكثير من مجرد السخرية.

والمفتاح لثورة سارة الغامضة يمكن ايجاده في الكلمة العبرية التي تستخدم عادة في التوراة في وصف مافعله اسماعيل لاسحاق: وهي كلمة (تساهاك)، التي ترجمت بـ«سخر» من قبل المترجمين في العهد الشكسبيري الذي أعطانا ترجمة

الملك جيمس. وتستخدم ترجمة يهودية أحدث، مستندة الى ترجمة الملك جيمس، عبارة «يقوم بممازحة- making sport » . وهكذا فقد منحنا امكانية الادراك من قبل هؤلاء المترجمين بأن هاجر واسماعيل قد حكم عليهما بالموت في البرية لأن المراهق سخر من أخيه الصغير. إلا ان المعنى الحقيقي لـ(تساهاك) يفترض أن شيئاً آخر قد أخفي في هذه الترجمات.

وأحد المعاني لـ«تسهاك» هو «ضحك»- لعبة باسم اسحاق- وهذا هو أحد المعاني التي اعتمدها المترجمون القدماء والجدد لاقتراحهم أن اسماعيل «سخر» أو «ضحك على» اسحاق. والذي يمانع المترجمون في جعل مانعرفه هو معنى آخر لـ«تساهاك» يتمثل بـ«يلاطف» أو «يغازل». وقد يقترح النص العبري الأصلي للتوراة أن سارة رأت عملياً نوعاً من أنواع اللعب الجنسي مابين اسماعيل وأخيه الصغير.

والحقيقة، ان نفس الكلمة العبرية المستخدمة في وصف ما كان يفعله اسماعيل لاسحاق تظهر بعد بضعة أسطر في سفر التكوين في وصف ملاطفة أو تدليل رفقة خارج نافذة ابيملك ملك الفلسطينيين. وما رآه ابيملك من خلال نافذته كان كافياً للدلالة على أن رفقة كانت زوجة اسحاق أكثر منها أخته- ولم يتلكأ مترجمو ترجمة الملك جيمس في السماح لنا بادراك المعاني الاضافية الجنسية في المشهد: انتبه «اسحاق يداعب رفقة امرأته» (سفر التكوين 26: 8).

ويتعمق غموض ما رآته سارة لدى ملاحظتنا أن عبارة كاملة سقطت من الفقرة في بعض ترجمات التوراة نفسها. وتتضمن الترجمة المعتمدة من التوراة في النص العبري الكامل- وهذا هو اسم النص الماسوريتي- وصفاً مشذباً عما كان يفعله اسماعيل عندما رآته سارة. «لاحظت سارة أن (اسماعيل) كان يلعب». إلا ان الترجمة اليونانية القديمة للتوراة وتسمى الترجمة السبعونية* والترجمة اللاتينية المعتمدة، التي ربما ترجمت عن المخطوطات العبرية، لا يستبعد أن تكون اقدم من النص الماسوريتي. إن هذه الترجمات تعطي نفس المعنى: «لاحظت سارة أن (اسماعيل) كان يلعب مع ابنها اسحاق».

ماذا نفعل ازاء الكلمات الناقصة في النص الماسوريتي للتوراة؟ لقد كان بعض

(*) سبق لنا أن تكلمنا عن هذه الترجمة التي قام بها سبعون عالماً في سبعين يوماً.

نقاد التوراة جريئين بشكل مناسب بحيث انهم افترضوا أن المراد من النص التوراتي أن يكشف أن اسماعيل كان في حالة اندماج في نوع من أنواع اللعب الجنسي مع اسحاق الصغير، إلا أن محرري النص الماسوريتي الأتقياء سعوا الى حذف الجنس المزعج من المشهد باسقاط العبارة المفتاحية «مع ابنها اسحاق». وتقترح الترجمة السبعونية الى اليونانية والترجمة الى اللاتينية حفظ النص الأصلي كاملاً وغير مشذب- وحفظت الترجمتان المذكورتان أيضاً اشارة خفية الى مارأته سارة.

والحقيقة، ان رد فعل سارة القاسي جداً مذهل وأيضاً منذر اذا كان اسماعيل فقط «يلعب» مع اسحاق، او حتى اذا كان اسماعيل عملياً «يسخر» منه. وفهم ابراهيم نفسه ان قرار سارة بطرد هاجر واسماعيل الى الصحراء هو بمثابة حكم باعدامهما، وقيل لنا ان «الأمر كان مؤلماً جداً في نظر ابراهيم ازاء ابنه» وواجهت ابراهيم مشكلة تزويدهما بالخبز والماء وليس قبل أن يكرر الله تأكيده لابراهيم بأن هاجر واسماعيل سيعيشان- «وابن الأمة أجعله ايضاً امة فإنه نسلك.»- أرسلهما الأب الطيب الى البرية (سفر التكوين 21: 11-31)

ولازال الافتراض بأن التوراة تخبيء حادث تحرش جنسي بين الأقرباء الأدنين (رهقي) ساخناً جداً عند معظم المثقفين التوراتيين. ويفسر الحاخاميون كل القصة بافتراض أن اسماعيل أحب أن يلعب بالقوس والنشاب ، وكان معتاد على تسديد سهامه باتجاه اسحاق، ويقول في الوقت نفسه، بأنه كان «يمازح» (37) وعندما يرغب حتى بعض المعلقين أن يسلموا بأن «السخرية» ليست ترجمة ملائمة للكلمة العبرية، فانهم لايزالوا يصرون على ان المواجهة بين اسماعيل واسحاق كانت بريئة تماماً.

ان «لعبه» مع اسحاق يحتاج ليس أقل من أن الولد الأكبر كان يحاول أن يسلي أخاه الأصغر، حسبما كتب افرايم سبيزر، وهو واحد من أكبر المثقفين التوراتيين المعاصرين. وأضاف أنه لايوجد «شيء في النص يشير الى الحاق أي اذى به، وهو أمر أقلق قراء كثيرين ارتبكوا، وهو يبذلون جهوداً في تفسير أسباب غضب سارة»(38)

إلا أن بالامكان أن نصل الى استنتاج مخالف، اذا ابتعدنا عن التقديرات

العادية لمسألة اللباقة الانسانية عند الأم سارة. وفوق كل ذلك، هلكت هاجر وهلك اسماعيل الى حد ما في البرية التي حكمت سارة عليهما بها. ولم ينقذ حياتهما إلا الظهور الجديد للملاك الحارس (سفر التكوين 21: 16) وما لم نفترض أن سارة غيورة جداً على بكورة ابنها الى الحد الذي يجعلها، حرفياً، تقتل من أجله- أو أنها مصابة بجنون الارتياب، حسب ما اقترح أحد المثقفين التوراتيين (39)-عندئذٍ يمكن أن نبحث عن تفسير معقول أكثر للعقاب الغاضب بعيداً عن سخرية أخ أكبر من أخيه الأصغر (40) وتقدم أربع كلمات مفقودة اختفت بشكل ما من النص الماسوريتي للتوراة تفسيراً مقنعاً لما رأته سارة: كان اسماعيل آخذاً حريته المطلقة مع أخيه الصغير الى الحد الذي جعل خالته زوجة أبيه تجد ذلك فظيعاً جداً بشكل لايحتمل.

«من هو الشخص الثالث الذي يقف الى جانبك دائماً؟»

شكل علم الملائكة Angeleology دائماً عملاً كبيراً في صفوف رجال الدين الذين أدينوا، بصورة عامة، لقضائهم وقتاً وهو يحصون عدد الملائكة التي تستطيع أن ترقص فوق رأس الدبوس. ولكن الحضور المبكر للملائكة في التوراة العبرية يمكن أن يرى كشكل قديم للمراقبة التوراتية من قبل النساخ من الكهنة الذين لم يريدوا أن يشجعوا قراءهم على أن يصدقوا أن الله معتاد على أن يدعو الى الأخلاق المجردة من دون مساعدة الكهنة وطقوسهم المعقدة. وبغية عدم تشجيع الرجال والنساء العاديين على تعليل النفس بفكرة أن الله قد يرى عند باب بيتهم ويجلس معهم لتناول العشاء، فقد أدخل النساخ، بصورة منهجية، الملائكة في النصوص التوراتية كوسطاء مابين الله والجنس البشري.

والملائكة في التوراة العبرية، كما رأينا في قصة لوط وابنتيه، لايشبهون أبداً الملائكة الأطفال الأبرياء السمان في فن عصر النهضة، أو الملائكة الرسل الذين نغني لهم ترانيم عيد الميلاد. والواقع، ان الملاكين اللذين ظهرا عند بوابات مدينة سدوم كانا يشبهان زوجاً من المتسكعين يهيمان في المدينة- ثم ينقلبان الى قاتلين للناس. وتفترض قراءة حميمة للتوراة احساساً غامضاً بشكل مستفيض، وحتى، الى حد ما، شبحياً عندما نشاهد ملاكاً في التوراة، اذ قد نكون في مواجهة مع الله وهو في هيئة مرتد، ومحتال ومدمر.

والشكلان الغامضان اللذان ظهرا عند بوابات مدينة سدوم هما من بين أوائل الملائكة الذين قابلناهم في التوراة.وقد وصفهم الكاتب التوراتي في البدء بـ«رسولين» (سفر التكوين 19: 1) ومن ثم كـ«رجلين» (السفر نفسه 19: 10) و تشير أي من الصفتين بالضرورة الى أنهما لا يحوزان على اية طاقات إلهية. ونحن نعرف أنهما يأكلان ويناماان، لأن لوط- مثل عمه ابراهيم في بلوط ممرا- يخدمهما في تقديم وجبة الطعام قبل أن يذهبا الى النوم(سفر التكوين 19: 3) وقدمت لنا معطيات تسمح لنا أن ندرك انهما سافرا الى سدوم سيراً على الأقدام، «نحو أربعين ميلاً من الطرقات الوعرة» (41) ونحن نعرف أنهما بذلا جهدا جسديا مضنياً في مناشدة أناس عاديين لأن الرجال الأشداء الذي تجمعوا خارج بيت لوط فضلوا الغريبين كدميتين جنسيتين على ابنتي لوط العذراوتين.

ويبين المثقف التوراتي الكبير فون راد، وهو ربما ينال من موطن قوة معينة عنده «إن على المرء أن يظن أن الرسولين السماويين في ريعان الشباب، يثير جمالهما الشهوة الجنسية بصورة خاصة» (42)

وإلا كيف نعرف ان اللذين قاما بالتدمير ملائكة؟ والتوراة تشير اليهما بالكلمة العبرية التي تعني رسول (مالاخ) وهي صيغة تستخدم في الاشارة الى كل أنواع البعثات، بعضها انساني/بشري، والبعض الآخر إلهي. وتشتق الكلمة الانكليزية «ملاك» حسب مانفهمه اليوم، من الكلمة اليونانية انجيلوسangelos، التي تعني بالأصل «رسول أو مراسل» لاغير، وقد استخدمت ترجمة «مالاخ» في الترجمات الاغريقية القديمة للتوراة. وعند ترجمة التوراة الى اللاتينية، عندئذٍ فقط أصبح الرسل السماويين متميزين، بصورة روتينية، عن الرسل من دم ولحم، وذلك باستخدام الصيغة اللاتينية انجيلوس angelus التي اشتقت منها الكلمة الانكليزية «ملاك» (43)

وجرى تقديم الغريبين الغامضين في قصة لوط كرسولين مبعوثين في مهمة من قبل الله، وهما مسلحين بقوى سماوية ومستعدين لاصدار الأوامر. ويأتي أول مفتاح يدل على أنهما كانا، الى حد ما، أكثر من مجرد حاملي الأنباء السيئة، عندما حاول أهل المدينة أن يكسروا باب بيت لوط بغية اغتصابهما من قبل الغوغاء- أن اصيبت الغوغاء بالعمى من قبل الغريبين (سفر التكوين 19: 11)

وتقترح الكلمة العبرية المستخدمة في النص التوراتي الأصلي أن الغريبين أبهرا المهاجمين بانفجار ضوئي فوق طبيعي «وهج يعمي منبعث من الملاكين» (44)

إلا أن الغموض فيما يخص طبيعة هذين الرسولين يتعمق عندما يصف راوي القصة التوراتية الخراب الذي حل بسدوم وعمورة: هل قام بهذا العمل القذر الملاكان أم الله نفسه؟ في البدء يعلن الغريبان أنهما سيهدمان سدوم وعمورة. «فإنا مهلكان هذا الموضع» حسب ما قالا الى لوط لأن.. «الله بعثنا لنهلك المدينة» (سفر التكوين 19: 13) وبعد لحظات يصور أن الله نفسه مدمر: «أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل البقعة وجميع سكان المدن ونبت الأرض» (سفر التكوين 19: 24-25) وعلى نحو مميز يسمح لنا المؤلف التوراتي أن نعرف بوضوح إن كان الله يتصرف، أو أنه يمد رسوليه الملائكيين بالقوة لكي يتصرفا وفق مشيئته.

أو ربما يقوم الله بالفعلين في آن معاً، ظاهراً في التبادل، لحظة كرجل (أو كعدد من الرجال) ويظهر بعدئذٍ كملاك (أو كعدد من الملائكة). ونجد ظاهرة التبدل الغريبة ذاتها لذات الله في التوراة العبرية ككل: فهل الله أو ملاك، أو مجرد انسان مهلك ذلك الذي تصارع مع يعقوب أثناء الليل وهزم من قبل يعقوب عند شروق الشمس (سفر التكوين 32: 25)؟ وهل هو ملاك أو انه الموت أو العلي القدير نفسه الذي هاجم بعنف وغضب اجرامي موسى وهو في طريقه الى مصر (سفر الخروج 4: 24-26)؟ (انظر الفصل الثامن). وكل هذه المواجهات الغريبة مابين الله والانسان تحدث قلقاً وتذمراً معيناً، ويلحق بالكاتب التوراتي صراع عصابي من كل الجهات في كل مرة يقترب بها الكائن البشري من الله.

وترتاح التوراة العبرية لأي تصوير لأي جهة مباشرة مابين الله والكائن البشري. والحق، عندما يظهر الله، بصورة مطلقة، فانه غالباً مايختار تجلياً يبدو فيه بشكل من الأشكال الأكثر شبهاً بحيلة الساحر، أو تحت تأثير خاص لقوة سحرية أكثر من الوحي المجيد لرب الكون: شجرة «تتوقد نهاراً في النار(ولكن) لاتحترق» (سفر الخروج3: 2) «نهاراً في عمود من غمام» أو «ليلاً في عمود من نار» (سفر الخروج 13: 21) أو صوت غير مجسد يسمع من طفل فقط في غرفة مظلمة (سفر صاموئيل (الملوك) الأول3: 8و9) وحتى موسى

الانسان الوحيد الذي قيل أنه تكلم بالفعل مع الله «وجها الى وجه، كما يكلم المرء صاحبه» (سفر الخروج33: 11) سمح له أن يرى الله مرة واحدة فقط، وفقط من الخلف. «أما وجهي فلا تستطيع أن تراه». وانذر الرب الرجل الذي اختاره قائلا: لأنه لايراني انسان ويعيش» (سفرالخروج33:20)وبعد اقامته بحضور الرب في جبل سيناء، عانى موسى من شيء ما يشبه الاشعاع الإلهي المحرق- فقد كان أديم وجهه(وجه موسى) مشع بضوء غامض وكان مجبرا على ارتداء برقع ليتحاشى افزاع عقول بني اسرائيل (سفر الخروج 34: 29-35).

وهكذا يتحول الملائكة لكي يصبحوا جهازا مقنعا لجماعة الكهنة التي تريد أن يقتنع اتباعها أن يعتبروا الله وكأنه لا يبدي أي اهتمام أو عطف، وهو معزول، وزئبقي المزاج، وحتى أحيانا مجرم، وخطير جدا الى الحد الذي جعله يسمح لرجل واحد في كل التاريخ أن يواجهه «وجها الىوجه». وهذا هو السبب في جعل بعض العلماء التوراتيين يقترحون أن الاشارة بمجملها سماوية وتدور حول امكانية التخفي في مايبدو لنا كائنا بشريا عاديا أو ملاكا رئيسيا مجنحا كسيف، وهو دجال زائف وجد سبيله الى التوراة. ويفترض بالكتاب الذين حافظوا على النصوص المقدسة في اسرائيل القديمة، انهم تعهدوا «تخفيف نغمة» المواجهات مابين الله والكائنات البشرية بـ«ادخال ملاك» مابين الخالق ومخلوقاته في صفحات الكتاب المقدس(45)

وترتاح المسيحية تماما، بالطبع، الى فكرة تجلي الله نفسه في شكل انسان وحتىأن يموت ميتة أبدية بأيدي مخلوقاته بالذات.وتبين عبارة «وكان الكلمة الله» في الانجيل طبقا ليوحنا (يوحنا 1: 1و14)إن «الكلمة صار جسدا وحل بيننا» . وأصر أحد الآباء الكنسيين القدامى على أن الشخص الذي زار ابراهيم هو اللوغوس (كلمة الله)، وهي التجسيد الأرضي ل كلمة الله(46)، وحقيقة أن آخرين اثنين كانا يرافقانه (الرب) نجدها في التقاليد المسيحية كأكبر عرافة بالثالوث الأقدس (47) وبعد موت المسيح وقبره، ظهر يسوع الى جانب تلميذين علىالطريق الىعمواس، يمشي ويتكلم معهما، إلا أنهما نظرا اليه كمجرد رفيق مسافر على الطريق-«هل أنت متغرب وحدك في أورشاليم؟»، الى أن كشف عن نفسه مبعوثا ابنالله.وحتى عندئذ، مثله مثل الله عند خيمة

ابراهيم، يلوذ يسوع بالصمت لكي يشارك في وجبة متواضعة- وهي عبارة عن قطعة من السمك وشيئاً من شهد العسل-مع تلاميذه (انجيل لوقا24: 18، 37، 41-43).

ومع ذلك بقي التلميذان، دون خوف أو وجل عند ظهور ابن الله في شكل رجل عادي. ولم يصب العمى أحداً بقوة الضوء السماوي، ولم يغن الملائكة الأقوياء، ولم يتوهج وجه أحد. ومع ذلك، فان تجلي الله يخيف أكثر لأنه، على وجه الدقة، عادياً جداً: «كانا مروعين ومذعورين واعتقدا أنهما رأيا روحاً» يقول العهد الجديد عن التلميذين اللذين أدركا فجأة أن يسوع كان يقف بينهما. وقال يسوع: «انظروا يدي ورجلي» «فان الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي» (انجيل لوقا 24: 38و39) ان الاحساس غير المستقر برؤية الرب كخالق للحم والعظم له صدى عمل يرمز الى قرننا المركوب بالقلق. «من هوالثالث الذي يسيردائماً الى جانبك؟» يمزح ت.س.اليوت في «الأرض اليباب» (48) مستحضرا أحياناً خبرة ابراهيم الدقيقة والمرعبة عند بلوطات ممرا، والتلميذان على الطريق الى عمواس،وكلهم لايواجهون ملاكاً، بل كانوا يواجهون الرب بالذات كشخص ثالث.

ولازال مشهد الموقف المتعجل من جانب الرب يزعج دائماً السلطة الدينية في كل العقائد. وبعد كل ماجرى، اذا كان يظن إن من عادة الله أن يظهر للرجال وللنساء من دون استخدام القنوات المناسبة للطقوس والصلوات، ويشرف عليها كلها بصورة مناسبة أمام حاخام أو قسيس أو مسؤول، فكيف لنا أن نعرف أن الشخص الذي يزعم أنه تناول العشاء من لحم عجل مشوي مع العلي القدير الليلة الفائتة كان نبياً أو مجنوناً؟ وظهر أيضاً إن القساوسة رفيعي المقام في اسرائيل القديمة، ايضا، ظهر أنهم قد أعتبروا أن وصف أي مقابلة مابين الله والانسان بصورة مباشرة، وكأنها مدمرة جداً الى حد جعل الكتاب العبريين، ربما بصورة اجبارية، يدخلون ملاكاً أو ملاكين في كل مرة اختار بها الله أن يظهر ظهورا شخصيا.

الحياة ضد الموت

اذا كانت سدوم وعمورة قد دمرتا من قبل الله نفسه، أو بواسطة جيشه من

الملائكة، أو، بانفجار غازات تحت الأرض ناتج عن ارتجاج زلزالي متفرع في منطقة معروفة منذ القدم بهزاتها الأرضية وبمخزوناتها من القار اوالبيتومين (49) حسب ما يفترض بعض المثقفين، فان قصة لوط وابنتيه تذكرنا بأن الله يصور في التوراة كإله متقلب المزاج وزئبقي، وغالبا ما يكون هداما أكثر من كونه باعثا لحياة الانسان.وابنتا لوط اللتان أغوتا والدهما، تحدتا ليس فقط تحريم الاتصال الجنسي مابين الأقرباء الأدنين (الرهق)، بل تحدتا أيضا المزاج المريض وربما الارادة المريضة للعلي القدير نفسه. إن لوط مهرج مأساوي (تراجيدي) في حين أن ابنتاه بطلتان.

واذا كان ثمة موضوع رئيس بشكل مميز ومتفرد في التوراة -موضوع متفرد أساس يمنح الحياة للرجال والنساء الذين تذكر حياتهم على صفحات كثيرة في التوراة- فهو موضوع التأكيد على الحياة والاحتفال بحمل الطفل. وتقدم الفقرات الأولى من سفر التكوين الله كخالق وكواهب للحياة: «اثمروا وأكثروا» كان الأمر الأول والمتكرر بصورة دائمة من الله الى مخلوقاته (سفر التكوين 1: 28) وبهذا الشكل أيضا يعد الله ابراهيم بذرية لاتعد ولا تحصى «انظر الى السماء وعد النجوم إن استطعت ان تعدها. قال له هكذا يكون نسلك» قال الله لابراهيم (سفر التكوين 15: 5)

وبامكاننا أن ندرك على الفور الأساس المنطقي الاقتصادي الذي يفسر سبب الهاجس التوراتي المتعلق بحمل الأطفال. فالحرب والمرض، والجوع والكوارث الطبيعية وضعت الحياة على شفير مخاطر رهيبة في العهد التوراتي، وكادت الأسرة أن تفقد أطفالها في وقت مبكر. ويزيد العدد الكبير من الأطفال الرضع الفرص في أن يعيش عدد كاف من الأطفال حتى سن النضج فيقومون بالعمل في الحقول، ويكافحون ضد أعمال السلب والنهب، ويدعمون الآباء والأمهات الكهول. وكانت الأسرة الكبيرة تمثل ضمانا اجتماعيا في عهد التوراة.

إلا أن انجاب طفل صحيح الجسم ليس مصدر غنى أو وجاهة للرجال والنساء الذين صورت حياتهم في التوراة. والأطفال هم رمز من لحم ودم للنعمة الالهية، ويعتبر العقم بلاء وعقابا.. «هب لي بنين» طلبت راحيل من الأب

يعقوب، «وإلا فأنا أموت» (سفر التكوين30: 1) ويمكن سماع الطلب الملح نفسه من أفواه الرجال والنساء في الانجيل كله. وقام الله بفعل مناقض بإنكاره الأطفال (وأحياناً قتلهم) عندما كان منزعجاً، وأنعم على الأطفال كعلامة على الفضل الالهي: وقد ابتلى الله أيوب بالسماح للشيطان أن يقتل ابناءه السبعة وبناته الثلاثة، وبارك أيوب بمنحه بديلاً عنهم عدداً من الأطفال أكثر جمالاً من الأولين (سفر أيوب 42: 13-15)

وبذلك تم تذكيرنا أن الله آخذ الحياة اضافة الى كونه واهبها، وبالكاد يحدث للمرة الاولى تدمير سدوم وعمورة ويتحول الى معاد لمخلوقاته. وأثناء نزول نار جهنم على سدوم، حكم الله على كل الجنس البشري باستثناء لوط واسرته بعدم الجدارة بالحياة. وقد أهلك كل انسان وكل شيء فوق الأرض باستثناء عنصر مختار. «أمحو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقته. الانسان مع بهائم ودبابات الأرض وطيور السماء» قال الله الى نوح وهو يكشف عن الجانب المظلم.. «نهاية كل بشر قد أتت أمامي» (سفر التكوين 6: 7و 13) ولم يكن تهديم سدوم وعمورة والمدن الأخرى في السهب هي آخر مرة يصبح فيها الله مدمراً للحياة أكثر منه خالقاً لها. «أنا أميت، وأحيي. سحقت واني أشفي» سيتفاخر الله، فيما به أمام موسى بعد قتل أول مولود في مصر. «أسكر سهامي بدم ويأكل سيفي لحماً» (سفر تثنية الاشتراع 32: 39و 42)

ورأت ابنتا لوط بأم أعينهما أن الله المرعب تجدر به زيارة الرجال والنساء والأطفال الذين خلقهم في المقام الأول.وتشهد الفتاتان أثناء قصف سدوم وعمورة وتحولهما الى ركام في الأفق البعيد، فعلاً من العنف الالهي الاستبدادي جداً والمفرط جداً، والخسيس جداً، الى حد ظهر الله معه أنه لم يكن غاضباً وحسب، بل كان شيطانياً الى حدٍ ما أيضاً:

فقد أجبرت الفتاتان على المراقبة حين حول الله امهما- وهي امرأة كان ذنبها الوحيد أنها نظرت الى الوراء لترى آثار سدوم التي كان يتصاعد منها الدخان، بعد أن قيل لها الا تفعل ذلك_ تحولت الى عمود من ملح، وبذلك زوّد (الرب) أدلاء المرحلة المقدامين في القرن الفائت أو نحوه، بشيء يعرضوه على السواح أثناء زيارتهم للبحر الميت.

لماذا نظرت زوجة لوط الى الوراء؟ تقول وجهة النظر التقليدية (وهي وجهة نظر جنسية على درجة عالية) إنها (أي زوجة لوط) كانت متطفلة جداً بشأن ما كان يحدث وراءها في سدوم الى الحد الذي جعلها لاتستطيع مقاومة الدافع الى النظر والرؤية وأن «تتجسس على الرب الغامض» حسب ما كتب أحد المعلقين (50) وافترض آخرون -أنها كانت حزينة جداً لمغادرتها سدوم، المكان الذي أحبته رغم (أو، ربما، بسبب) آثامه (51) ويشجعنا كلا التفسيرين، بالطبع، على رؤيتها كنقيصة، فيما اذا كان بسبب تطفل لاموجب له، أو كتوق لرؤية أواني اللحم في سدوم، وهي بذلك تستحق، الى حدٍ ما، مصيرها نصف الكوميدي، ونصف المأسوي (التراجيدي): موسيقى سريعة متغيرة، وتتحول فجأة الى حجر بقوة المشعوذ الالهي.

ويمكن ايجاد صورة لزوجة لوط في الأدب الحاخامي، وجدتها مريحة أكثر، وإن كانت أقل مداهنة للرب نفسه. فطبقاً للتقاليد المتناقضة مابين الحكماء، يئست المرأة من مصير بناتها الأخريات، اللواتي ضحك أزواجهن من تحذيرات لوط بخصوص المدينة الهالكة، ورفضوا أن يهربوا من المدينة، لذا ألقت نظرة واحدة نحو المدينة الهالكة، حيث كان أطفالها الأبرياء يعانون منذ أمدٍ طويلٍ من الآثمين. وتخرص حاخام قائلاً: «إن «حب الأم» جعلها تنظر الى خلفها لترى إن كانت بناتها المتزوجات يتبعونها» (52) وقارن أحد المثقفين التوراتيين المعاصرين، وهو د. آلان ايكوك، زوجة لوط مع شخصيات توراتية أخرى أطلق عليهن اسم «أبطال برسم التوقيف» - «نوح في فلكه فوق آرارات، واسحاق مربوط الى المذبح تحت سكين ابراهيم. ويسوع على الصليب» (53) وكلهم أبرياء جعلوا في حالة معاناة، رغم براءتهم، من جانب إله مقتدر تماماً على ارتكاب أفعال العنف العشوائية(54)

وهكذا تركنا مع لوط وابنتيه وحدهم، وهاتان المرأتان هما اللتان وقفتا(وحدهما) كأبطال حقيقيين في القصة. وابنتا لوط مثل زوجته لم يطلق على أي منهن اسم في التوراة- وهو إهمال كبير في كتاب تسكن مؤلفيه هواجس سلاسل النسب وإعطاء الأسماء ومعانيها- إلا أن الشابتين أظهرتا أنهما جريئتان، وباسلتان، وواسعتا الحيلة وراغبتان في تحدي التحريم على الاتصال

الجنسي مابين الأقرباء الأدنين، وتحدي رغبة الله البينة، من أجل إعادة الحياة الى المكان العاصف والخالي الذي شاهدتاه من ملجأهما في الجبل.

ويحمل مغزى معينا ان كتاب التوراة لم يصفوا إغواء الفتاتين لأبيهما بكلمة ذم واحدة. أعفيت ابنتا لوط من الأحكام الفظة التي حامت حول عدد كبير من النساء في التوراة. فبدءا من حواء وتلك التفاحة الملعونة، صورت النساء (وأدين معظمهن) كعنيدات، وغاويات ماكرات للرجال: زوجة فوطيفار «التي قالت ليوسف: ضاجعني» (سفر التكوين 39: 7) ودليلة (التي تآمر الفلسطينيون معها ضد شمشون-المترجم) (سفر القضاة 16: 5) وسالومي (التي طلبت رأس يوحنا المعمدان- المترجم) (انجيل متى 14: 6-8) (55) ولا تعدو هذه ان تكون من أهم الأمثلة. وحتى ابنة الأب (الباطريارك) يعقوب، وهي امرأة تبدو أنها ضحية اغتصاب، تلام من قبل الحكماء الحاخاميين الأكثر عداء للمرأة لالحاقها الأذى بمغتصبها(انظر الفصل الخامس). وتصل أقلية تقليدية في الأدب الحاخامي الى استنتاج مماثل بخصوص ابنتي لوط: «إن لوط مثال محذر الى الرجال لتحاشي الانفراد بالنساء، لئلا يقمن بجذبهم الى الاثم، كما فعلت ابنتا لوط» (56)

الا أن الثقل الكبير للشرح الرباني يتغافل عن السبيل الذي اتبعته ابنتا لوط في الحمل،ويركز بدلاً عن ذلك، على الباعث النبيل لهما: فابنتا لوط تعرفان أن سدوم وعمورة والمدن المحيطة قد هدمت. ولايوجد سبب للاعتقاد بأن أحدا غيرهما، الى جانب أبيهما، قد بقي حياً. فقد كانوا وحيدين في البرية الخالية في صحراء يهودا، ولم يكن بإمكانهما أن تتصورا إمكانية وجود زوج مناسب. إلا أن من الواجب الحفاظ على الحياة، حسب ماتذكرنا التوراة بصورة ملحة، حتىإذا كان الله قدم نفسه- غير مبالٍ بكل ماتحمله الكلمة من معنى، وحتى لو كان معاد بصراحة لبقاء المخلوقات التي منحها الحياة في المقام الأول. وعندما أخذت ابنتا لوط على عاتقيهما حمل أطفال، وبذلك تعيدان إسكان الأرض بالناس، مهما كان الثمن وبواسطة اية وسيلة ضرورية، ربما تجاهلن التحريم ضد الاتصال الجنسي بالأقارب الأدنين، وكان يجب أن يتجاهلنه.

والحقيقة، ان الله نفسه اعترف بطهارة ابنتي لوط بنومهما مع والديهما،

وساعدهما عمليا في عملية الاغواء عن طريق تخطيط عجائبي تمثل بتزويدهما بالخمر من كهف قريب، حسب ما ورد في قصة رواها الحكماء. «فوجدت ابنتا لوط الخمر الذي جعلتا والدهما يشرب منه». وتواصل القصة القول ان «الله جعل الخمر يوضع في ذلك المكان من أجل أن تنجح الفتاتان في تنفيذ خطتهما» (57)

خدم اغواء الأقارب الأدنين (الرهقي) للمخمور التوراتي لوط المصير الواضح للجنس البشري في طريقتين اساسيتين: الأولى، ان الفعل البسيط في حمل وتربية الأطفال هو تطبيق للأمر الجوهري إن «أثمروا واكثروا»، وهو فعل يحفظ خط الدم للوط في مواجهة الفناء. واذا لم تلد ابنتا لوط طفليه فان اسمه وخطه سينتهيان مرة واحدة والى الأبد في ذلك الكهف المنعزل مع باقي ضحايا سدوم وعمورة. والثانية والأهم، في نظر الكتّاب التوراتيين هو مولد ولدين- ولدين وحفيدين في الوقت نفسه وهو ربط حاسم بالسلسلة غير مقطوعة الحياة التي تقود بصورة مباشرة من بدء الخليقة الى المسيح.

وتقول لنا التوراة، بالمناسبة، إن ولدي ابنتي لوط قد أصبح كل منهما مؤسس لشعب، وهما عامون ومؤاب اللذين سيصبحان العدوان اللدودان للاسرائيليين. فشعب عامون الذي يعيش في شرق بلاد كنعان فيما يعرف الآن بشعب الأردن، وشعب مؤاب استثنيا بصورة خاصة من الغزو عندما أرسل الله الاسرائيليين الى أرض الميعاد في ظل علم الحرب «لاتعادِ المؤابيين» قال الله «فإني لست معطيكم من أرضهم ميراثاً» واذا «دانيت جهة عمون فلا تعادهم ولاتناصبهم العداءفإني لست معطيكم من أرض بني عمون ميراثاً لأني لبني لوط وهبتها ميراثاً» (سفر تثنية الاشتراع 2: 9و19) ومع ذلك فان هذين الشعبين سيصبحان سياسياً وجغرافياً منافسين للاسرائيليين، وسيلتقي بهما الاسرائيليون في أرض المعركة بصورة دائمة «هلموا نستأصلها(مؤاب) من الأمم» يقول النبي ارميا مهدداً مؤاب، وينذر عمون بمصير مماثل: «فتصير (عمون) تل ردم وتحرق توابعها بالنار» (نبوءة ارميا 48: 2و 49: 2)

وبسبب ذلك يفترض أحد المثقفين أن مايريد الكتّاب التوراتيون من قصة لوط وابنتيه هو نوع من «الدعاية السوداء»، ويعني ذلك، قصة بذيئة يقصد

منها التشنيع على العمونيين والمؤابيين المكروهين: وهي «نتاج الفكاهة السياسية الشعبية»-حسب تعبير المعلقين «والتي تحاول اسرائيل فيها أن تدفع ثانية لأعدائها الأقوياء الدائمين. عن كل شيء عانت منه على أيديهم (58) ونجد في مكان آخر في التوراة أنهم يشيرون الى المؤابيين والعمونيين وحدهم هم الذين يستحقون ازدراء خاصاً بين الكثير من خصوم اسرائيل: وتنص التوراة على أن الطفل من زواج مختلف مابين اسرائيلية وأدموتي أو مصري يمكن أن يقبل في أمة اسرائيل «في الجيل الثالث» ولكن الذرية من زواج مختلط مع عموني أو مؤابي ستبقى الى الأبد منفية (سفر تثنية الاشتراع 23: 4و 8و 9) (59)

غير أن الحقيقة تقول ان التوراة تحفظ دوراً حاسماً لهذين النغلين اللذين ولدا في الكهف بالرغم من أصلهما الرهقي ومن الصدامات المستقبلية مابين آحفادهما وبين الاسرائيليين. وكان مصير امرأة مؤابية اسمها راعوت أن تتزوج رجلا اسرائيليا، وقاد خطهما الدموي مباشرة الى ولادة داوود، أعظم ملوك اسرائيل (سفر راعوت 4: 18-22) وامراة عمونية اسمها نعمة ستعد بين الألف زوجة ومحظية لسليمان - ويشاء القدر أن نعمة ستلد سليمان على عرش اسرائيل (سفر الملوك الأول 14: 21) وجاء في الجذور التاريخية لكل من الدين اليهودي والمسيحي إن من بيت داوود وسليمان سيأتي المسيح.

وهكذا انقلب الكهف في الجبل الذي اتخذ منه لوط وابنتاه ملجأ، انقلب الى رحم التاريخ، وصلاتهم الجنسية المخمورة تعادل اتحاداً مقدساً يهب العالم وتعتبره التوراة منقذها الأخير. فلا التحريم ضد الاتصال الجنسي مع الأقارب الأدنين (الرهق)، ولا الخوف من الجزاء الالهي كان كافيا، للنيل من شجاعة هاتين الفتاتين الممنوعتين عن فعل مايحتاج الى فعل لحفظ بذور الأب. وما ظهر في البدء على أنه كوميديا سوداء أو دعاية سوداء يسمو فجأة الى مستوى رواية آخلاقية رفيعة، إنها الساغة* قصة صراع الحياة ضد الموت، التي تقوم فيها بنتا لوط، اللتين لم يطلق على أي منهما اسم، بدور بطولي غير مرغوب فيه.

---

* كل قصة زاخرة بالأعمال البطولية. وهي بالأصل قصة ايسلندية قديمة زاخرة بالأعمال البطولية (المورد)

الفصل الرابع
اغتصاب دينة

«أكزانية يتخذ أختنا؟» (سفر التكوين 34:31)

أيقظت يعقوب الجلبة في الجوار بعد ظهر يوم قائظ. فمشى وهو منهك نحو الباب ليعرف سبب الضوضاء. سمع صراخا حاداً صادراً عن نساء، ورأى مجموعة صغيرة من الفتيات يتجهن نحوه، يتبعهن عدد قليل من العاملين في الحقل. ورأى أخيرا امرأة أو أومراتين تكافحان لكي تحافظان على مكانهما.

يسأل يعقوب بشيء من قلة الصبر: «ما المشكلة؟» وكان قد بلغ المدخل عندما اندفعت الفتيات الى البيت.

تمتمت النساء ونحن، وبكى البعض منهن، إلا أن أحداً لم يتكلم.

سأل يعقوب: «حسن، وماذا بعد؟».

وتقدمت، بعد طول انتظار، احدى الفتيات وتكلمت بجرأة، وكانت فتاة هيفاء ذات عينين سوداوين عرفها يعقوب بصورة مشوشة كخادمة من خادمات ابنته.

«اختنا-ابنتك- دنست» أعلنت الفتاة ثم ساد الصمت وارتفع صوت بكاء النساء.

سأل يعقوب: «دنست؟ ماذا تعنين؟»

....

«خرجت دينة بنت لية التي ولدتها ليعقوب لترى بنات البلد. فرآها شكيم بن حمور رئيس البلد فأخذها وضاجعها وأذلها». (سفر التكوين 34: 1و2)

....

كررت الفتاة قولها: «دنست، من قبل شعب حمور».

عبس يعقوب، اذ لم يكن الكنعانيون الذين عاش بينهم ودودين ازاءه وازاء عشيرته، وقد انفق يعقوب كلمات معسولة كثيرة- ناهيك عن الهدايا من الطعام

والشراب والملابس، وأشغال اليد- كي يعلَم* الرجل الذي يدعى حمور، شيخ القبيلة هناك. وقد دفع يعقوب مئة من القطع الفضية لحمور مقابل قطعة من الأرض بنى فيها بيته ورعى قطيع أغنامه، إلا أنه لم يكن مرتاحاً ويقي قلقاً لأنه بقي غريباً في أرض كنعان.

سأل يعقوب: «أين دينة الآن؟» ثم طلب أن يخبروه عن كل شيء «بالضبط. أما الباقون منكم فيرجى منهم الهدوء!»

تشجعت الفتاة وقالت: «ذهبنا الى البئر الواقع داخل أسوار المدينة. ذهبنا لنرى النسوة اللواتي جئن من الريف لملأ جرارهن بالماء».

«نعم» قال لها يعقوب وهو يلح عليها لكي تواصل الكلام.

تابعت الفتاة قائلة: «مررنا في طريقنا ببعض الرجال الذين كانوا يجلسون تحت شجرة زيتون خارج بيت كبير. فصرخوا وضحكوا وسخروا منا، كلهم، باستثناء واحد منهم، حدق وحسب، ولم يقل شيئاً. هذا الرجل انتظرنا حتى عدنا. وعندئذٍ تقدم من دينة وتكلم معها بوقاحة كبيرة».

«ماذا تعنين؟»

قال: «أنتِ جميلة جداً، وأنا لم أر فتاة جميلة بجمالك أبداً» أجابت الخادمة وتعمق صوتها وهي تقلد الرجل الذي وصفته وهو يقول: «أنا لم أعرف بوجود فتاة جميلة مثلك في معسكر الاسرائيليين»

«وثم؟»

«وضع ذراعه حول كتفيها ومشى معها نحو بستان اشجار على الجانب الأخر من الطريق». وتابعت الفتاة القول: وكان يقول لها طوال الوقت: «انك فتاة جميلة جداً». وعندما وصلا الى الأشجار زلت قدم دينة ووقعت ووقع هو أيضاً- فوقها ! وبقيا ساكنين لفترة ، ومن ثم لم استطع أن أرى أنه كان يسحب ثوبها».

....

«وتعلقت نفسه بدينة بنت يعقوب وأحب الفتاة ولاطفها». (سفر التكوين 34: 3)

....

---

* هذه واحدة من الكلمات التي يبدي فيها الكاتب تعاطفه مع قوم على حساب قوم آخر (المترجم).

سكتت الفتاة، وبدت لفترة وجيزة مرتبكة وكأنها خائفة من أن تقول بصوت عالٍ مارات.

«تابعي!» طلب منها يعقوب.

«ومن ثم دنسها».

سكتت الفتاة مرة ثانية. هل كان ينبغي أن تقول كل شيء رأته؟ هل كان ينبغي أن تصف كيف، بعدئذٍ، وضع الشاب ذراعه بلطف حول دينة ومشى معها ببطء؟ هل كان ينبغي أن تذكر كيف كان الشاب يهمس في أذن دينة طوال الوقت، وكأنه كان يطيب خاطرها؟ سكتت الفتاة مرة ثانية، وهي تنظر الى الأرض بشيء من الارتباك.

«تابعي!» أمرها يعقوب مرة أخرى. رفعت الفتاة نظرها والتقطت نظرته القاسية، وتكلمت بصراحة مع الرجل العجوز.

«أخذ الشاب دينة، ورمى بنفسه فوقها، واستلقى معها.. ومن ثم أخذها الى البيت الكبير على جانب الطريق. وعندما دخلت الى البيت هرعنا الى هنا لكي نخبرك بما حدث».

فسأل يعقوب: «وهل تعرفون الرجل الذي فعل ذلك؟ هل تعرفون اسمه؟»

«لقد رأيناه قبل الآن ونحن في طريقنا الى البئر، هو واصدقاؤه». وقالت بعد فترة صمت قصيرة: «قالت النساء عند البئر أن اسمه شكيم وهو ابن الأمير.»

وفي اليوم التالي كان بالامكان رؤية مشهد غريب عند مدخل بيت يعقوب:كان حمور، أمير البلاد التي يسكن يعقوب فيها، يشق طريقه باتجاه المجمع الذي بنى فيه يعقوب وأولاده بيوتهم ونصبوا خيامهم. وكان يرافق حمور شاباً قلقاً يرتدي ألبسة الأمير مع عدد من الحراس الذين تسلحوا بسيوفٍ قصيرة تدلت على جوانبهم، وحملوا حراباً بأيديهم. إلا أن يعقوب كان مرتاحاً من تعابير وجه حمور: فقد بدا الرجل الكهل ودوداً الى حد كبير، وربما كان محرجاً لكونه يزور يعقوب في قطعة أرضه الخاصة.

....

«وكلم شكيم حمور أباه قائلاً خذ لي هذه الزوجة. وسمع يعقوب أنه قد دنس دينة ابنته وكان بنوه مع الماشية في الصحراء فسكت يعقوب حتى جاؤوا. فخرج

حمور ابو شكيم الى يعقوب ليخاطبه. وجاء بنو يعقوب من الصحراء حين سمعوا فحنق القوم وشق عليهم جداً لأنه صنع فاحشة في اسرائيل إذ ضاجع ابنة يعقوب ومثل ذلك لايصنع. فتكلم حمور معهم قائلاً إن شكيم ابني قد علقت نفسه بابنتكم فأعطوها له زوجة.» (سفر التكوين34: 4-8)

....

خرج يعقوب من بيته ليرحب بالزائر الأمير وحاشيته. وكان أولاد يعقوب وعددهم أثنى عشر ولداً لازالوا في البرية البعيدة حيث كانوا يطعمون ويسقون الماعز. وضاق صدره من الوقت الذي أهدروه في المرعى. وكان يفضل أن يستقبل حمور ومن حوله أبنائه الأقوياء .

تقدم حمور ليحيي يعقوب، تاركاً ابنه الشاب وحرسه على بعد خطوات منه. وابدى الرجلان، وكان كل منهما شيخ قومه، وداً مبالغاً به حيال الآخر، وكأن كل منهما كان يحاول أن يبز الآخر. وقدم حمور الشاب على أنه ابنه شكيم، ثم طلب من ابنه أن ينتظر في الخارج، بينما يتباحث الرجلان الكبيران مع بعضهما في بيت يعقوب. وأظهر يعقوب أنه طلب أن تجلب وجبة طعام خفيفة وأن يجري تحضير الوجبة الرئيسية، وتساءل بينه وبين نفسه عن الوقت الذي يعود فيه أولاده من المرعى.

«إن ابنتي..» بدأ يعقوب الكلام وهو لايعرف تماما كيف يواجه الشيخ بالحقيقة القبيحة .

«إنها ضيفة مكرمة في بيتي» قال حمور بلطف وإن كان قد أضاف بسرعة: «إننا جميعاً نهتم براحتها التامة»

وقبل أن يلتقط يعقوب هذه الفكرة- إذ أن ابنته، بعد كل ماجرى، كانت أسيرة أو رهينة، وليست ضيفة عند الأمير- سكت الرجلان عند سماع صراخ غاضب خارج البيت، صوت شجار، ومداخلات، وصرخة حادة من الألم. فأسرع يعقوب الخطو نحو الباب، ولراحة نفسه، فقد وجد أبناءه عائدين- ورأى أيضاً، أن شخصاً قد أوقفهم وأخبرهم،وهم عائدون من المراعي، بشأن الاهانة التي لحقت باختهم على يدي شكيم .

اصطف كل أبناء يعقوب على شكل كتيبة ممزقة الثياب أمام البيت، وفي

أيديهم عوارض خشبية طويلة، وكانوا يواجهون الرجال المسلحين الذين رافقوا حمور وشكيم الى مخيم الاسرائيليين. ووقف شمعون ولاوي- أخوي دينة الشقيقين، وكلاهما من لية زوجة يعقوب- وقفا على بعد خطوتين من اخوتهم، وهما يتهددان شكيم برفع العوارض بصورة متقطعة. ولم يستل جنود حمور سيوفهم، إلا أن الوالدين رأيا وجوه الشباب حمراء وعيونهم ملتهبة، وأدركا أن اشارة واحدة كافية لأن تدخلهم في صراع دموي.

«السلام عليكم» قال حمور وهو يخطو ببطء وتأن خارج بيت يعقوب.

وتبع يعقوب حمور، وخاطبهم هو أيضاً بصوت مهديء قائلا: «إن جارنا الطيب الأمير حمور هنا..»

«لقد سمعنا لِمَ هو هنا» همهم شمعون وقد تجرأ على مقاطعة أبيه وقال: «ونحن مستعدين لأن نفعل مايجب فعله لنثأر لأختنا».

وبدأ حمور الكلام قائلا: «أنا لا أعرف تماماً ماحدث البارحة مابين ابني وأختك، وربما لايعرف الحقيقة أي منا».

«دعني أخبرك ما فعل ابنك بأختنا اذا كنت فعلاً لم تعرف حتى الآن» ونظر شمعون بقسوة الى شكيم وهو يتكلم، إلا أن يعقوب أشار عليه بالسكوت.

«هاهو الأمر الذي جئت لأقوله: عاد ابني الى بيتي في آخر النهار وهو بحالة انفعال شديد، ووصف لي فتاة قابلها في الطريق. وقال إنها أجمل من أي امرأة رأتها عينيه قبلئذ، وقال لي: «احصل لي على هذه الفتاة لكي تكون لي زوجة». لهذا جئت لعندكم اليوم، يايعقوب، إني أتكلم بكل تواضع: إن روح ابني شكيم علقت بابنتك، وأنا أتوسل اليك أن تعطيها لكي تكون زوجة له».

....

«وصاهرونا أعطونا بناتكم وخذوا بناتنا. وأقيموا معنا وهذه الأرض بين أيديكم اقيموا بها واتجروا وتملكوا» (سفر التكوين34: 9و10)

«وقال شكيم لأبيها واخوها هبوني حظوة في عيونكم وما تقترحون علي أؤده لكم .اكثروا علي المهر والعطايا جدا فأعطيكم كما ترسمون لي وأعطوني الفتاة زوجة» (سفر التكوين34: 11و12)

....

ضحك لاوي بمرارة قائلا: «وبذلك دنس ابنك اختنا، والآن يريد أن يتزوجها».

فألقى حمور نظرة عطف على لاوي وارتسمت اصغر ابتسامة على وجهه. ثم تكلم مع والد لاوي.

«أنتم غرباء في أرضنا، وتعيشون مابيننا فوق قطعة أرض كانت لي» قال حمور برقة لم تخف النقد غير المحكي، وتابع القول: «ولكن اذا تزوجت ابنتك ابني- اذا أعطيتم بناتكم لرجالنا، وأخذتم بناتنا لرجالكم، فلن تعودوا غرباء، وستصبح أنت واحد منا»*

ولم يخطيء يعقوب في فهم مغزى دعوة حمور، إلا أن لاوي ثابر على توجيه الاهانات الى الشيخ. وهس الشاب لاوي كالأفعى قائلا: «ربما نستطيع أن نفعل شيئا آخر لبناتكم الى جانب الزواج منهن، وربما تكون لدى ابنك فكرة عما أعني».

ورد حمور مرة ثانية على لاوي وهو يوجه خطابه الى يعقوب وقال: «اذا تزاوجتم معنا فان بامكانكم أن تعيشوا معنا وكأنكم ولدتم في المنطقة ولستم غرباء وحسب، والأرض ستفتح ذراعيها لكم، وبامكانكم أن تتنقلوا بحرية من مكان الى آخر، وبامكانكم أن تبيعوا محاصيلكم وبضائعكم، وبامكانكم أن تشتروا الأرض التي ترغبون بشرائها».

....

«فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور بكيد ومكروا بهما لأنه دنس دينة أختهم. وقالوا لهما: «لانستطيع أن نصنع هذا أن نعطي أختنا لرجل اقلف لأنه عار عندنا» (سفر التكوين 34: 13و14)

....

وتكلم الآن شكيم نفسه، وبدا أن أولاد يعقوب يتوترون من أي صوت يصدر عن الشاب القلق والملحاح. قال شكيم ليعقوب وأبنائه: «أرجو ان تسمحوا لي بأخذ

---

* يجب أن نلاحظ أن الكاتب الأميريكي، رغم ثقافته وحيدة الجانب، يقدم صورة الكنعانيين في معظم الأحوال، إن لم يكن في كل الأحوال، بصورة ايجابية .وترتدي هذه الفقرة أهمية كبيرة جداً ليس بالنسبة لنا، بل بالنسبة لهم في أميركا خصوصاً. (المترجم).

ابنتكم، وإنا سأدفع المهر الذي تطلبوه، ولايهم كم هو الثمن، فأنا سأدفع- إذا سمحتم بإعطائي إياها لتكون زوجتي».

تقدم شمعون الى الأمام ليقابل شكيم وجهاً لوجه، وبدا أن الرجل يجفل من الغضب الشديد المرتسم على وجه شمعون.

صاح شمعون: «اذن، فأنت ترغب في أن تدفع مقابل مافعلت بأختنا وكأنها بغي؟»

إلا أن لاوي وضع نفسه مابين شمعون وشكيم، واضعاً يداً على كتف كل منهما، وأخذ يتكلم ببطء، وحتى بطلاوةٍ.

قال لاوي: «إن مايريد أخي قوله هو اننا لانستطيع أن نفعل ماتطلبون، حتى لو أردنا ذلك. فنحن لانستطيع أن نعطي أختنا بالزواج الى رجل لم يختتن- فهذه هي شريعة شعبنا ولايمكن التفكير بفعل أمر آخر».

وبدا أن شكيم قد تشوش بكلمات لاوي، ونظر الى أبيه. وكان شمعون أيضاً متشككاً إزاء ماقال أخوه، وكأنه ظن أن أخاه قد أصيب بالجنون على حين غرة.

وبين حمور «إن من عادة الرجال عند هؤلاء الناس أن يقطعوا القلفة».

«أن يقطعوا القلفة؟» سأل شكيم، وهو متشكك وخائف الى حد ما «كيف تفعلون هذا الأمر؟»

«كيف، أعتقد بالسكين» أجاب حمور بابتسامة صغيرة «وأتمنى أن تكون حادة».

ونظر كل من الابن والأب الى يعقوب، الذي أبدى موافقته بشيءٍ من المهابة.

....

«لكننا بهذا نوافقكم تصيرون مثلنا بأن يختن كل ذكر منكم. فنعطيكم بناتنا ونتخذ بناتكم ونقيم عندكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تقبلوا منا أن تختتنوا نأخذ أختنا ونمضي. فحسن كلامهم عند حمور وشكيم ابنه» (سفر التكوين15:34- 18)

....

وواصل لاوي حديثه بجدية تامةٍ فقال: «إذن سنعطيك أختنا زوجة لك، ولكن بشرط أن تكون مختتناً، عندما تأخذها الى فراش الزوجية».

وبدا شكيم غير مصدقٍ ومريضاً ، وبدا ذلك مسلياً ليعقوب ومشجعاً للاوي وحده.

وقال شكيم مصمماً: «لا مانع عندي».

وتابع لاوي حديثه قائلا: «أرجو الا تسيء فهمي، ليس أنت وحدك، بل كل رجل من شعبكم يجب أن يختتن أيضاً. عندئذٍ فقط سنعطي نسائنا ليكن زوجات لكم، وعندئذٍ فقط نأخذ نساءكم ليكن زوجات لنا، وعندئذٍ فقط نسكن معكم على هذه الأرض، ونصبح شعباً واحداً».

ولو أن شكيم سمع القرقرة* بين الأبناء الآخرين ليعقوب، لما أبدى أدنى موافقة، ولم يستطع حمور ان يخفي تكشيرة.

وكشر شمعون، ايضاً، وبدا وكأنه أدرك فجأة اللعبة التي كان يلعبها أخوه. والآن جاء دور شمعون للاشتراك في اللعبة.

فألقى كلمة على شكيم جاء فيها: «ولكن إذا رفضت أن تفعل مانطلب، في هذه الحالة، نأخذ اختنا الحبيبة- تلك الجميلة! ونذهب».

«بل سنفعل ماتريدون» قال شكيم بصوت بدا متهدجاً، وكأن الخوف والاشتياق كانا يتصارعان في حنجرته وهو يتكلم.

....

ولم يلبث الفتى أن صنع ذلك لأنه كان قد شغف بابنة يعقوب. وكان هو أوجه جميع أهل بيت أبيه. فلما دخل حمور وشكيم ابنه باب مدينتهما خاطبا أهلها قائلين: إن هؤلاء القوم مسالمون لنا فيقيمون بالبلد ويتجرون فيه والأرض واسعة الأطراف امامهم فنتخذ بناتهم أزواجاً ونعطيهم بناتنا. ولكن بهذا يوافقنا القوم على أن يقيموا معنا ونصير شعباً واحداً يختتن كل رجل منا كما هم مختتنون. أفلا تصير مواشيهم ومقتنياتهم وجميع بهائمهم لنا. فلنواطئهم على هذا فيقيموا معنا (سفر التكوين 34: 19-23)

....

ضحك شمعون بصوتٍ عالٍ عندما وصفت خادمة دينة من جديد المشهد الذي شهدته قبل يوم من ظهور حمور في السوق وخاطب القوم قائلاً:

---

* أي الضحك بضحك مكبوت (عن سفه) استهجاناً أو تشفياً (المغني الأكبر)

«كلكم تعرفون الغريب الذي يدعى يعقوب وجماعته، فهم أصدقاؤنا». وكررت الفتاة كلمات حمور وقلدت صوته الحصيب وهو يقول: «لنتركهم يعيشون معنا ويتنقلون بحرية في البلاد- فالأرض واسعة تكفينا كلنا».

وألح شمعون قائلاً: «نعم، وماذا بعد؟»

«حسن، رأى الأمير أن الجمع غير مستعد للشغب- الى هذا الحد والى هذه الدرجة!- لذا فقد قال: «لنتزوج بناتهم، وليتزوجوا بناتنا». وبدا بعض الرجال في الحشد يسخرون قليلاً- أعتقد أنهم كانوا يتخيلون نساءنا أيضاً- ثم قدم لهم الأمير الأنباء السيئة قائلاً: «إلا أن هؤلاء الناس سيوافقون على أن يعيشوا معنا ويصبحون شعباً واحداً معنا بشرط واحد: يجب على كل رجل منا أن يختتن مثلهم».

وسأل لاوي: «وما الذي حدث عندما سمعوا ذلك؟»

لم يحبوا سماع ذلك أبداً، وبدؤوا يتذمرون، ولم يعد صوت حمور هادئاً وعميقاً كما كان قبل قليل».

ثم رفعت الفتاة صوتها لكي يصير صريراً حاداً مصورةً بذلك الطريقة التي ناقش بها حمور قومه: «إذا تزاوجنا مع هؤلاء الغرباء، فان قطيعهم يصبح لنا! وبضائعهم تصبح لنا! وكل ماعلينا أن نفعله هو الموافقة على الاختتان هنا والآن».

....

«وسمع لحمور وشكيم ابنه من خرج من باب مدينته واختتن كل ذكر منهم كل الخارجين من باب المدينة (سفر التكوين 34: 24)

....

ضحك كل الأخوة بصوتٍ عالٍ عندما قلدت الفتاة بصفاقة التعابير الفظيعة التي رأتها على وجوه قوم حمور، وأظهرت تمثيلياً كيف غطى بعض الرجال في الحشد الأجزاء الخاصة بهم بأيديهم وكأنهم كانوا يريدون حماية أنفسهم من سكين الخاتن. وأشارت الى كيف أخذ الأمير حذره بصف الحراس حول السوق المزدحم بحيث يدرك جمهور الرجال أنه لايوجد أمامهم أي خيار آخر».

وواصلت الفتاة القول: «وهكذا انتهى كل الرجال الأشداء والقادرون الى

اتفاق تام مع الأمير الطيب، واختتن كل منهم في الوقت المحدد».

وسأل شمعون، وهو يخون مشاعر القلق عنده، لأن كل شيء يعتمد على الجواب: «كل منهم؟» وأضاف: «هل مر كل رجل منهم من تحت السكين؟»

أحنت الفتاة رأسها بوقار ثم انفجرت في ضحك داعر مع شمعون ولاوي وباقي الأخوة.

ومشى شمعون ولاوي مع الخادمة الى أعلى الهضبة في اليوم التالي لعملية الختان الجماعية عند بوابة المدينة. وهناك لم يكن ثمة مايقطع حديثهم ولا من يسمعهم. وأصغى الأخوان الى الفتاة وهي تصف موقع الأرض، والممر الذي يتبع إذا أراد أحدهم أن يقوم بزيارة الى بيت حمور الكبير، والبيوت الأخرى التي تضم الآخرين الذي يرتاحون من عناء مناو شاتهم مع سكين الجراح.

وفي اليو م الثالث نهض شمعون ولاوي قبل الفجر، وتمنطقا بسيفيهما القصيرين وشقا طريقهما بهدوء الى خارج المخيم، ولم يشعر بهما إلا الخادمة التي رآتهما يذهبان، وعادت هي الى النوم لفترة ساعة أو نحوها، قبل أن يبدأ عمل يومها الطويل.

عرف شمعون ولاوي أن كل رجل باق في مدينة حمور- ومن ضمنهم حمور نفسه، وابنه شكيم- كان في الفراش، لايزال ملفوفاً بالأربطة والأضمدة في المكان الذي قطعته سكين الجراح. ولم يكن الرجل الناضج المكتمل الذي اختتن قبل فترة وجيزة في حالة تسمح له بالنهوض ومغادرة الفراش والسير في المدينة- فكل خطوة تسبب له آلاماً لفترة أخرى. وعلى كل ذلك حسب الشقيقان حساباتهما.

واستل شمعون ولاوي، عند أول بيت واجههما ، سيفيهما، ودفعا الباب بأكتافهما فانفتح محدثاً صوتاً أيقظ فقط خادمتين كانت تفترشان الأرض قرب الموقد. نظرت الفتاتان دون أن تريا شمعون ولاوي بوضوح، وهما يبحثان عن الغرفة التي ينام فيها رب البيت. وما ان لاحظت الفتاتان في المطبخ السيفين اللذين يحملهما شمعون ولاوي، حتى بدأتا بالعويل، وهكذا، عندما وجد لاوي أخيرا رجلاً بلحية سوداء فوق كومة من الفرش في غرفة خلفية، وكان الشخص المسكين قد استيقظ للتو متخوفاً، أجهز عليه لاوي بضربة واحدة في عنقه.

وتم تكرار العملية الوحشية نفسها في الدار الأخرى، في الخيمة، والكوخ،

والمنزل، وكان شمعون ولاوي يتجولان في شوارع مدينة حمور ويؤديان عملهما بانتظام ومنهجية. كانا راعيين، عرفا كيف يذبحان المخلوق الحي بسرعة واقتدار. أما الآن فقد وضعا خبرتهما في عمل جديد، رغم كونهما ينظران الى ضحاياهما نظرة أدنى، الى حد ما، مما كانا ينظران الى الحيوان الذي يذبحانه لمائدتهما.

وكان ينهض من فراشه، بين الحين والآخر، واحد من رجال حمور، ويمسك بعصا أو بسيف في محاولة يائسة منه للدفاع عن نفسه، إلا أن الرجلين المسلحين كانا دائما أكثر استعداداً من رجل في فراشه وأجزائه الخاصة نازفة وتعلوها طبقة من الأضمدة. وقد ذبحوا حتى شروق الشمس كل الرجال الذين ختتنوا باستثناء رجلين في طول المدينة وعرضها. وكان البيت الأخير عائد لحمو وشكيم اللذين كانا مستيقظين ونشيطين إلا انهما لايتوجسان شيئاً، وكانا يتأنيان وينتظران دعوتهما الى الفطور من قبل أحد الخدم.

....

«وكان في اليوم الثالث وهم يتألمون أن ابني يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينة أخذا كل واحد سيفه ودخلا المدينة آمنين فقتلا كل ذلك» (سفر التكوين 34: 25)

....

«وحمور وشكيم ابنه قتلاهما بحد السيف وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا» (سفر التكوين 34: 26)

....

وكان حمور نصف ناهض في فراشه عندما رأى شمعون ولاوي على عتبة باب الغرفة، ووصلا اليه قبل أن يصرخ. وكانت ضربة واحدة بنصل السيف الحاد على رقبته كافية لاسكاته الى الأبد. وظهر شكيم وراءه، يجأر كالثور، إلا أنه لم يبق غير الخدم يسمعون صوته. وبضربة أخرى من النصل سقط شكيم صريعاً هو الآخر.

بحث شمعون ولاوي في البيت، من غرفة الى غرفة، وقد غطت كل منهما طبقة من الدماء المتناثرة، وكانا يتنفسان بصعوبة، الى أن وجدا دينة في غرفة نوم مزينة، بصورة باذخة، أقيمت الى جانب المنزل حتى يوم العرس. نظرت أختهما اليهما بتعابير رعب لم يرياها قبلئذ، ولا حتى في وجوه الضحايا و وجوه

الذين شهدوا عمليات التقتيل.

«تعالي ياأختاه» قال شمعون وهو يأخذها من يدها ويذهب نحو باب البيت، «فلقد جئنا لكي نأخذك الى البيت».

اغتاظ يعقوب وتلعثم وهو يراقب الموكب المتجه نحو المجمع. وتساءل: «ماالذي يمكن أن يفعلوا الآن؟ ما القصاص الذي سينزل به بسبب المجزرة التي ارتكبت بحق حمور وبحق قومه؟ واذا مات حمور ورجاله، وأخذ الأطفال والنساء أسرى، فان الكنعانيون لازالوا، في هذه الأرض، أكثر بكثير من الاسرائيليين. وهم بالتأكيد لن يصفحوا عما جرى.

عاد شمعون ولاوي قبل بضع ساعات، وهما يقودان أختهما الباكية التي كانت تسير بينهما، فحياهم اخوتهم بالصراخ والضحك. غير أنهم احتفلوا بصورة مقتضبة، قبل أن يرسل الأبطال الدمويين أخويهما، مرة ثانية، الى المدينة مع أوامر بانزال قصاص أكبر بقوم حمور.

....

«ثم دخل بنو يعقوب على القتلى وغنموا ما في المدينة من أجل تدنيس أختهم. وأخذوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الصحراء. وسبوا وغنموا جميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وسائر ما في البيوت» (سفر التكوين 34: 27-29)

«فقال يعقوب لشمعون ولاوي قد أشقيتماني واخبثتما ريحي عند أهل الأرض والكنعانيين والفيرزيين وأنا في نفر معدود فيجتمعون علي ويقتلونني فأهلك أنا وبيتي»(سفر التكوين 34: 30)

....

أمر شمعون اخوته المستعدين: «خذوا غنائم المدينة، لأنهم دنسوا أختنا».

وكان لاوي أكثر تحديداً: «خذوا أغنامهم وأبقارهم، خذوا كل ما تجدون في المدينة، وكل ماتجدون في الحقول» وأمرهم بأخذ «ثروة القوم، وصغارهم، وزوجاتهم أيضا».

وكان الأخوة يعودون من يوم الغزو وهم يدفعون أمامهم قطيعاً من أنواع عديدة من المخلوقات: الأبقار التي تخور، والنساء اللواتي ينتحبن، والأطفال

الذين يبكون- وعربات محملة بالألبسة والمفروشات، والأواني الفضية والصيغ من الذهب المشغول، وجرار الخمر وجرار الزيت وكل ثروة مدينة أصبحت خاوية على عروشها.

ولو أن شمعون ولاوي توقعا الثناء من والدهما، لكانا قد أصيبا بخيبة أمل في ساعة انتصارهما. فقد نظر يعقوب المهموم اليهما- الى ملابسهما والدم يقطر منها، والى النساء الأسيرات، وثرواتهن- واحمر وجهه غضباً وخوفاً.

وعنف يعقوب أولاده سائلاً: «هل تعرفون ما نوع المأزق الذي سببتم لي؟» وصار ينوس الى الأمام والى الوراء أمام بيته وهو يقول: «لقد سببتم لنا كلنا مشكلاً كبيرا. لقد جعلتم اسمي ملوثاً امام شعب هذه البلاد، الكنعانيين والبيرزيتيين. فاليوم قتلتم مئة منهم، ولكننا لانزال قلائل وهم كثيرون. ألم تفهموا أنهم يجمعون بعضهم الى بعض ضدي ويذبحونني بسبب مافعلتم؟ سيحطمونني أنا وبيتي!».

وأسكت شمعون بقوة غضب أبيه، غير أن لاوي تكلم عنه وعن أخيه بصوت كأنه كان صادراً عن مراهق متبرم أكثر من محارب يشتهي الدماء.

فقد صاح: «ماذا كنت تريد منا أن نفعل؟ هل كان ينبغي أن نسمح لهم أن يتعاملوا مع اختنا كعاهرة؟»

....

«فقالا أكزانية يتخذ أختنا؟» (سفر التكوين 34: 31)

....

الفصل الخامس
«انظر أي بلاء يلقى فوق كراهيتك»

الأمر الغريب لدينة وشكيم

مغتصب، أم غاوٍ، أم خاطبٍ.

العقاب الغريب لجريمة الاغتصاب

«فيكون عهدي في أبدانكم»

« لقد أحببت الغرباء»❖

اعتقادان

رمح واحد

محكمة الضمير التوراتية

«من أجل شرف أختنا»

صوت واحد لم نسمعه في وصف التوراة لاغتصاب دينة، هو صوت دينة نفسها. فبينما يلقي فريق الرجال الكلمات ويتماحكون، ويتآمرون مع بعضهم، وضد آحدهم الآخر، لم يكلف أحد منهم نفسه مشقة سؤالها إن كانت تريد أن تتزوج شكيم أو أن تراه مذبوحا. ويذكرنا صمت دينة، وهو أمر غريب جدا واستفزازي جدا، بأن كاتب التوراة يخفي أكثر بكثير مما يكشف لنا في قصه لحكاية دينة وشكيم.

ويجري تقديم جملة واحدة لتوضيح دور دينة في الشأن المأسوي: «وخرجت دينة بنت لية..لتنظر بنات البلد» (سفر التكوين 34: 1) وحتى هذه القطعة الصغيرة من الذكاء تعذبنا لأنها تقربنا من الموضوع ثم يتم الابتعاد وبالنسبة الى الحكماء الحاخاميين المتجهمين الذين فسروا وزخرفوا قصة دينة، فقد كان مشهد امرأة طليقة في الريف مزعجاً وخطراً. وفي الحقيقة، لم يكن باستطاعتهم أن يحرروا أنفسهم من الإلماح الى أن المرأة بطبيعتها غاوية، أو أنها، في أحسن الأحوال، ضحية غرورها وتطفلها. وهكذا، فقد افترض أحد الحاخاميين العقلاء القدماء ان دينة غامرت في الخروج من خيمة أبيها «وتزينت كعاهرة» (1) وظن حاخام آخر أن شكيم استأجر فريقاً ماجناً من النساء المرتدات ليغنين ويرقصن، ويلعبن في الشوارع بغية اغراء دينة بالخروج من مجمع يعقوب، وبذلك يستطيع أن يغتصبها.

«ولو أنها بقيت في البيت، لما حدث معها شيء». وواصل الحاخام عظته قائلا:

«إلا أنها كانت امرأة، وكل النساء يحببن أن يعرضن أنفسهن في الشارع» (2)

ويتراجع القراء المعاصرون، بالطبع، أمام مثل هذا الكره للنساء. إلا أن

الحاخاميين القدماء، بصرف النظر عن مدى شبقهم الجنسي الذي يظهر لنا الآن، كانوا يجيبون على كل شيء غير عادي في النص نفسه. فإن امرأة في العصر التوراتي، شابة وغير متزوجة وتعيش بين الغرباء، تغامر بالخروج من مخيم والدها، وتبحث عن رفقة من النساء في المحلة، كان فعلاً جريئاً وشجاعاً: فقد كانت دينة تتحدى أدب السلوك(البروتوكول) القاسي والضيق الذي يتحكم بحياة زوجات وبنات الآباء. والواقع أن ناقدة أنثى اسمها ايفا شيريس وصفت مشوار دينة باعتباره «خروجاً» ويعني ذلك قضاء يوم في الريف. إلا أنها تفترض أن دينة كانت مشغولة بشيء جريء أكثر: «فعل جريء استلزم شخصية فردية وهدف» حسب ما كتبت شيريس. إن دينة تتمرد على الأخلاق التقليدية وتدافع عن ذاتها الخاصة والأصيلة.

وكانت مغامرة دينة جريئة وخطيرة جداً في عيني الكاتب التوراتي، الى الحد الذي جعلها لاتظهر تقريباً في قصتها الخاصة بها. ومع ذلك لازال بامكاننا أن نسمع صدى خفيفاً لصوت دينة في نص التكوين 34. ويصر بعض القراء على أن القصة تهمس بكلمات قصة حب مقموع أكثر من كونها رواية دموية عن الاغتصاب والثأر. ويناقش آخرون قائلين ان الأبطال الحقيقيين في قصة دينة هم الأخوين البارعين في استخدام السيف اللذين افنيا قوماً عن بكرة أبيه وبعد أن طال حجب سفر التكوين 34 من قبل الوعاظ ومن قبل معلمي مدرسة يوم الأحد، ينطوي هذا السفر على معانٍ جديدة وملحة في عالمنا المضطرب، حيث لازال يواجه أحفاد يعقوب الأبعدين أمثال حمور المعاصرين في الأراضي المقدسة.

مغتصب، أم غاو، أم خاطب؟

لم تترجم أي من الكلمات او العبارات التي استخدمت من قبل المؤلف التوراتي في وصف مافعل شكيم لدينة ترجمة أمينة لتعني «الأغتصاب». فالتوراة تخبرنا أنه «رآها، وأخذها وضاجعها» وفقاً للترجمة الانكليزية المعروفة. ومن ثم يضيف المؤلف التوراتي عبارة مدسوسة أخرى، وهي، «وأذلها» (سفر التكوين34: 2) لذا فان بامكاننا أن نسأل: هل اغتصب شكيم دينة فعلاً؟ أم أن شيئاً أكثر دقة جرى مابين الأمير الشاب المصاب بالحب وابنة يعقوب المغامرة؟

ترجمت الكلمة العبرية «اناه» في بعض كتب التوراة باللغة الانكليزية

بـ«أذل/أخنع» وترجمت في ترجمات أخرى بـ«سفه/أساء» (4) أو «نجس/ دنس» أو «جلب العار/ أخزى» في اشارة الى خبرة «تجريد المرء والحط من منزلته أو من قدره»، ومن خلال ذلك «تفقد الفتاة توقع زواج شرعي تماماً» لأنها، في أغلب الأحوال، لن تكون عذراء(5) ويترجم المترجم المتميز للتوراة افرايم سبيسر الذي يريد أن يجعلنا نعرف أن الكلمة العبرية تتضمن التهديد أو حتى استخدام العنف الجسدي، يترجم الكلمة بـ«نام معها بالقوة» التي ربما تكون استعارة محرجة، إلا أنها تفترض معادلاً وظيفياً للاغتصاب (6) وتصر الداعية النسائية الاستاذة في التوراة ايفا شبيريس على ترجمة النص العبري ببلاغة أكبر فتقول: إن «شكيم» عذبها(7)

وفي الوقت الذي لم تستخدم في أي ترجمة من الترجمات الانكليزية للتوراة كلمة «اغتصاب» فان بعض المعلقين يصرون على أن من غير الممكن التقاط أي معنى آخر من النص التوراتي. وطبقاً لناقد التوراة فان «التكرار الثلاثي» لأفعال و «نظام تصاعد العنف» بأنه أخذها واضجع معها، وأذلها- «تبطل فكرة الاغواء». ويصر الناقد نفسه على ان العبارة العبرية تترجم عادة بـ«اضجع معها» كان ينبغي أن تترجم في اللهجة المثلمة في الشارع (أي اللهجة العامية) بـ«ضاجعها»(8)

ومازالت، الجملة التالية في النص التوراتي تؤكد لنا أن شكيم وقع فورا وبقوة، وبشكل مؤثر في حب ضحيته. ومرة ثانية يستخدم المؤلف التوراتي خيطاً من الأفعال ويعتبره شيئاً أساسياً: «وتعلقت نفسه بدينة. وأحب الفتاة ولاطفها» (سفر التكوين 34: 3) بعد أن سجل اللقاء الجنسي في جملة واحدة، لفت الراوي انتباهه الى الهم الحقيقي في قصته: الهيام بدينة من قبل شكيم، والمباحثات التفصيلية لعقد الزواج، والجهود الماكرة لأخويها لمنع الزواج من أن يتم، والمجزرة التي توجت جهودهما.

وهكذا فان التوراة نفسها تسمح باحتمال أن يكون شيء آخر غير الاغتصاب قد احتل مكاناً. وعلى سبيل المثال، فان راوي القصة يستخدم، فيما بعد، كلمة «دنس» في وصف مافعل شكيم لدينة: «وسمع يعقوب إنه قد دنس دينة ابنته» (سفر التكوين 34: 5). واستخدمت الكلمة «دنس» في مكان آخر في التوراة في

وصف العلاقات الجنسية المحرمة أكثر من استخدامها في العلاقات الجنسية القسرية: في «زنا الزوجة الضالة» (سفر العدد 5: 12-14) على سبيل المثال، أو في «معاشرة كاهن لعاهرة» (سفر الأحبار 21: 12-14) (9) ويمكن ادراك الاشارة الى «تدنيس» ابنة يعقوب من قبل الأمير الشاب المتيم لتعني ان الاثنين لم يكونا متزوجين عندما أحب أحدهما الآخر.

وكان الكاتب التوراتي، من أجل أن يرفع من شأن مشاعر شكيم التي يشعر بها حيال دينة، بل، ومن أجل أن يقدسه، يقطع الحديث، لكي يشير الى أن شكيماً «يتعلق» بدينة. وتستخدم هذه الكلمة بالمعنى نفسه في فقرة وحيدة أخرى في التوراة العبرية - في وصف قصة الخلق في سفر التكوين، حين يخلق الله آدم وحواء، ومن ثم يبارك الرابط بينهما كتعبير عن النظام الطبيعي للحياة البشرية: «ولذلك يترك الرجل أباه وامه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً» (سفر التكوين 2: 24)* ويمكن قراءة الاشارة غير المباشرة في قصة دينة وشكيم الى رجل وامرأة وكأنها مصادقة على نية شكيم الطيبة حيال دينة، سواء اقترب منها في البدء كمغتصب أم، كغاو، أم كخاطب.

تتبع بعض المثقفين آثار كل من الاغتصاب والاغواء في النص التوراتي. ويكمن التناقض الظاهري في واقع أن أقدم الخيوط في الرواية التوراتية هي من عمل مؤلفين متميزين، يعرف أحدهما باسم «اليهوى» لأنه أو لأنها يدعو الألوهية بالاسم الصحيح «ياهويه»، ويدعوه الآخر بـ«الألوهي» لأنه يدعو الألوهية وفق الكلمة العبرية «ألوهيم». وهي صيغة قد تعني حرفياً «الآلهة» (انظر الملحق: من بالحقيقة كتب التوراة؟) إن خلط ترجمتين منفصلتين لقصة دينة من قبل المحررين أو المنقحين الذين جمعوا النصوص مع بعضها والتي نعرفها باسم الكتاب المقدس، قد تفسر لنا لِمَ تشدد جملة في سفر التكوين 34 على تسفيه شكيم لدينة بينما تشدد الجمل التالية بالذات على حبه لها. وحل احد المثقفين التوراتيين شيفرة نص 34 في سفر التكوين بطريقة تفترض أن اليهوى كان يصف اغتصاباً، والألوهي كان يصف إغواء، وإن مايمكن تسميته

---

* هنا تستخدم كلمة يتعلق cleave المترجمة بـ«يلزم» في النسخة التي نستند اليها باللغة العربية والمعنى واحد تقريباً في الموضعين (المترجم).

باسم المنقح خاط الوصفين مع بعضهما في رواية طموحة ظهرت في التوراة (11)

لذا فان الوصف التوراتي لدينة وشكيم قد أبقى على روايتين مأثورتين منفصلتين ومختلفتين تماما من التاريخ الأقدم للاسرائيليين. وكان أحد المأثورين قصة حب طاهر قديم- غزل شكيم ودينة ومباحثات الزواج التي تبعت ذلك، مابين الوالدين والاسرتين، ولايستبعد ان تكون قد ادت الى زواج ناجح والى نهاية سعيدة. أما المأثور الآخر، فهو قصة حرب/الصراع المسلح مابين عشيرة يعقوب والسكان الأصليين الكنعانيين الذين سعى الأوائل للحلول محلهم. وطبقاً لبعض المثقفين، فان الكاتب التوراتي خلط القصتين وقلب اللقاء بين دينة وشكيم من علاقة غرامية رومانتيكية (خيالية) الى اغتصاب قسري بغية تبرير قتل الشكيمينيين (12)

و يقترح أيضاً الاغواء بدل الاغتصاب في فقرة في سفر يهوديت، وهو عمل أبعد من لائحة الأسفار المعترف بأنها تؤلف الكتاب المقدس، إلا أنها ألحقت في بعض الأناجيل المسيحية باعتبارها جزءاً من الأبوكريفا* (أو من اللائحة الثنائية بالأسفار المعترف بها حسب المصطلح الكاثوليكي). تدعو يهوديت الرب باسم جدها شمعون، وباختصار تتذكر مذبحة شكيم وقومه. وبمعنى معين تعزو الى الله تقديس العنف ضد شكيم بمنحه شمعون نفس السيف الذي استخدمه «لينتقم من الغرباء الذين بنجاستهم كشفوا عذراء للخزي» (سفر يهوديت 9: 12)(13). والفقرة نفسها، حسب ما ترجمت في الانجيل الأميريكي الجديد غاضبة أكثر في وصف معاملة دينة بيدي شكيم الذي أدين بـ«وقاحة فك زنار الفتاة، وعرض أشياءها الخاصة بصورة فاضحة، وانتهك حرمة جسدها بصورة شائنة». ويلاحظ ان يهوديت، وهي تدين شكيم لأنه «أخزى» و«أهان» و«دنس» دينة، فهي لاتؤكد أنه اغتصبها فعلاً. وبعض عبارات يهوديت- مثل «فض غشاء البكارة» يستدعي نوعاً من الاغواء لطيفاً وان كان شديداً أكثر من اغتصاب بالقوة.

ومع ذلك، تثير احدى المحذوفات الفظيعة من النص التوراتي أيضاً، اسئلة

---

* Apocrypha: أربعة عشر سفراً تلحق أحياناً بـ«العهد القديم» من الكتاب المقدس، ولكن البروتستانت لايعترفون بصحتها(المورد)

مربكة أكثر حول النوايا، الطيبة أو المريضة، لكل الشخصيات في الرواية. فبعد تسجيل اللقاء مابين شكيم ودينة في أوائل سفر التكوين 34، لم يقل السفر لنا شيئا عن دينة أو عن أماكن وجودها حتى انتهاء النص التوراتي تقريباً، حين نكتشف، لأول مرة، أن دينة- حسب ما يظهر - كانت تعيش في بيت شكيم منذ لقائهما الأول. فهل كانت سجينة أو رهينة عند شكيم، حسب ما يرغب تفسير توراتي تقليدي أن نصدق؟ أو حسب، مايجرؤ بعض المثقفين على طرحه: فهل كانت ضيفة راغبة وربما كانت عاشقة أيضاً للشاب المتيم بها(14)

لم تقدم التوراة جواباً عن مكان اقامة دينة الغامض. واذا كانت دينة، من جهة ثانية،مأخوذة كرهينة في بيت شكيم أثناء مباحثات الزواج مابين حمور ويعقوب، فاننا، اذن، قد نبدأ برؤية حمور وكأنه أكثر مكراً مما تقترح كلماته المتملقة، وتأخذ توسلاته الودية من يعقوب معنى مظلماً ومشؤوماً، اذا بقيت دينة، بالحقيقة، تحت رحمة ابنه. ويبدو الانتقام الذي سينزله أخويها بحمور وبقومه، بطريقة أو بأخرى، أقل غلواً، اذا هم، بالحقيقة، أذعنوا لعرض زواج شكيم تحت، التهديد، غير المحكي، بارتكاب عنف أكبر مع اختهما.

وخادعة أكثر الاشارة الى أن دينة بقيت في بيت شكيم لأنها وقعت في غرامه. وسيرغب العلم المعاصر أن يعلل الاشارة بأن دينة سعت في محاولة منها نسيان شكيم، وهو رجل «لطيف وعاشق»، حسبما كتبت ناقدة التوراة ايفا شيريس التي تنظر الى (دينة) كشخص ذي قيمة (15) ومع أن النص لايقدم بينة صلبة عن دوافع دينة، فان أثراً خفيفاً للفكرة نفسها يمكن ايجاده في شرح لحاخام قديم ظن من النص التوراتي ان شمعون ولاوي وجدا ان من الضروري أن يجرا اختهما الى خارج بيت شكيم بعد قتل خطيبها. «فعندما تكون المرأة صديقة حميمة لشخص غير مختتن «كتب الحكيم، وهو يدغدغ مايمكن أن يكون درجة معينة من الغيرة الجنسية» فانها تجد من الصعب عليها أن تنتزع نفسها منه»(16)

ولكن اذا تذكرنا تأكيدات شكيم الملتهبة عن حبه ورغبته الملحة بالزواج من دينة، فقد يغرينا ذلك بالتفكير بأن كلا الاثنين -شابين، وغير متزوجين، وكل منهما من قبيلة مختلفة عن الأخرى- أغرم أحدهما بالآخر بصورة عميقة جداً الى حد أنهما تجرءا على الارتباط ببعضهما بنوع من أنواع اللقاء الجنسي

المحرم. ولو أن دينة أقامت في بيت شكيم بعد اللقاء الأول انطلاقاً من الاختيار أكثر من الالزام، فقد ندرك، اذن، أن الاثنين عاشقين، لامغتصب ولا ضحية.

والواقع أن بعض المثقفين أظهروا أن اغتصاب دينة أقحم في النص التوراتي من قبل كاهن أو ناسخ بدافع خفي. وطبقاً للحكمة المتعارف عليها باسم علم الانجيل الحديث، فان محرري التوراة جليوا جدول عمل ايديولوجي جاف لبعض الأوقات للقيام بمهمة جمع واعادة رواية الروايات والجذور التاريخية للاسرائيليين، وينهش قلبهم الارتياب بغير الاسرائيليين وكراهية الآلهة والآلهات التي يعبدونها. وبالنسبة الى هذه السلطات الدينية، فان منظور الزواج من غير اسرائيلي والمخاطرة بأن واحد من الشعب المختار قد تغريه زوجته بعبادة إله جبلي راعد، أو إلاهة خصب داعرة، يشكل تهديداً جدياً لحياة اسرائيل. لذا فان المحرر المجهول للفصل 34 من سفر التكوين ربما سعى الى تلطيخ سمعة شكيم- وتقديم عذر عن مجزرة قومه التي قام بها شمعون ولاوي- وذلك عن طريق ادانته (ادانة شكيم) بجريمة العنف الجنسي*

وربما كانت جريمة شكيم ودينة الحقيقية اذن، وقوع كل منهما في غرام الآخر،

---

* شكيم هو اسم الأمير المتيم في الفصل 34 من سفر التكوين واسم مكان مهم في التاريخ التوراتي. ويقع مقام شكيم القديم على بعد واحد وأربعين ميلاً الى الشمال من اورشاليم، قرب المدينة الحالية نابلس في الضفة الغربية لنهر الأردن. وهي المكان الأول في كنعان الذي ظهر فيه الله لابراهيم ووعده بالأرض لذريته(سفر التكوين 12 : 6و7) وباختصار كانت شكيم عاصمة مملكة اسرائيل الشمالية، وأصبحت، فيما بعد، مركزاً طقسياً مهماً للسامريين، وهم قوم يقبلون كتب مقدسة يهودية معينة وطقوس معينة إلا أنهم يفصلون أنفسهم عن الاسرائيليين فيما يخص الشؤون المتعلقة بثقافة العصور القديمة. ويرى بعض المثقفين التوراتيين في الشخصية التي تدعى شكيم رمزاً مجازياً يرمز الى المكان الذي يدعى شكيم، وهم يبينون أن الفصل 34 من سفر التكوين هو مجرد وصف للصراع مابين الكنعانيين والاسرائيليين على السيادة على المنطقة في الأزمنة القديمة. إلا أن قصة دينة وشكيم غنية جداً وطنانة رنانة جداً-« وهي أكثر القصص الانسانية النابضة بالحياة (في) سفر التكوين كله» حسب المثقف البريطاني جوليان بيت ريفرز- الى حد أن من غير الممكن صرف النظر عنها على أساس أنها مجرد استعارة.

رغم واقع أن أحدهما كان اسرائيلياً والآخر لم يكن اسرائيلياً** وربما ماحدث فعلاً مابين شكيم ودينة كان على الأغلب علاقة غرامية رومانسية محرمة أكثر من كونه اغتصاباً أو اغواء. وهو تعبير «عن الحب البريء مابين شابين كانا مستعدين لأن يندمجا ثقافيا وسياسيا ودينيا» (17) حسب ما تفترض مثقفة نسائية معاصرة- أو لنكتب بطريقة أخرى، انها قصة رجل وامرأة تحدى حب أحدهما للآخر بجرأة القبليين المتنافسين القدماء، وانتهت بكارثة حلت بكل من الاسرتين.

«انظر أي بلاء ألقيته فوق كراهيتك» كتب شكسبير عن زوج آخر من العشاق سيئي الحظ من بيتين متنافسين. وتنطبق الكلمات التالية على الاسرائيليين والحوريين بالاضافة الى آل مونتاغ وآل كابوت: «إن السماء تجد وسائل لكي تقتلوا افراحكم بالحب».

العقاب الغريب لجريمة الاغتصاب

حتى لو كان شكيم مغتصب، فان اقتراحه بالزواج أقل غرابة مما يبدو للوهلة الأولى اذا ماقيمنا العقاب الشاذ على جريمة الاغتصاب في ظل القانون التوراتي. فطبقا لسفر تثنية الاشتراع، فان أي رجل يطأ فتاة بكراً «فأمسكها وضاجعها» يجب أن يدفع لوالدها خمسين من الفضة- ويتزوج المرأة التي أخطأ بحقها (سفر تثنية الاشتراع 22: 28و29). ولتجنب إضافة الشتم الى الأذى، بالطبع،

** وصف والد شكيم حمور بأنه «حوري» في النص الماسوريتي للتوراة. ووردت كلمة «حوري» في الترجمة السبعونية للتوراة، وهي ترجمة يونانية قديمة. ويقترح بعض المثقفين التوراتيين أن حمور وعشيرته كانوا حوريين بالفعل، أي ينتمون الى شعب من شعوب الشرق الأدنى القديم. وكانت تقع بلاده الأصلية في الشمال والغرب من كنعان. ويبن مثقفون آخرون أن يعقوب وأبناءه كانوا يرتبطون بما كان يطلق عليه اسم هابيرو (عابيرو) وهم شعب غامض، أعتقد، ذات مرة، أنهم غزاة من البدو طافوا في العالم القديم. ومما يثير الفضول بصورة خاصة، هو ذكر العابيرو بالارتباط مع غزو مدينة شكيم في رسائل (تل) العمارنة ، وهي حقيبة للمراسلات الدوبلوماسية المصرية يعود تاريخها الى فترة القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ومع ذلك، فان العلم التوراتي الأخير لم يعد يعرَف العبرانيين بأنهم عابيرو، وهي صيغة تَفهم الآن على أنها تشير بصورة عامة الى شعب لا أرض له، كان يتألف من قبائل وأمم عديدة قل عددها الى مستوى الهائمين، واللاجئين، والمرتزقة، والرقيق، في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم.

فان المغتصب يلزم بالزواج من ضحيته في حال موافقة المرأة وأسرتها على ذلك (18) وتقضي التوراة بأن المغتصب لايسمح له أبدا بأن يطلق ضحيته التي تحولت الى زوجة، وهذا الزوج لايماثل الزوج في زواج عادي.

وربما صيغ سفر تثنية الاشتراع بعد فترة طويلة من الأحداث التي وصفت في سفر التكوين، إذ أن من المفترض أن تكون قد شغلت حيزاً، غير أن قوانين مماثلة وجدت في كل مكان في منطقة الشرق الأدنى، وهي تعود الى فترة القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وبالفعل تقترح مجموعات القوانين في آشور القريبة إن رجلاً قد يطالب عمليا بزوجة بدفع نفسه فوقها، وهي ممارسة تجرح مشاعرنا في الوقت الراهن، إلا أنها توحي بأن دافع شكيم (إن لم يكن اسلوبه) يمكن أن يكوم شريفاً أكثر، نوعا ما، مما يسمح لنا النص التوراتي أن نفهم.

والأكثر من ذلك، يمكن رؤية القانون الذي يجبر المغتصب على الزواج من ضحيته، انه قانون ايجابي تماما، بل انه اجراء تقدمي، على الأقل، في البيئة الاجتماعية لعالم دينة التي عاشت فيه فعلاً. ونتوقع من المرأة في الأزمنة التوراتية أن تبقى تحت سلطة المذكر في كل الأوقات:فقد عاشت في بيت أبيها حتى تزوجت وكأنها طفلة وفتاة بريئة. وما أن تزوجت حتى عاشت مع زوجها وأملت بشوق، أن تحمل وتربي أطفاله. واذا ماترملت، اعتمدت على أطفالها الذكور، الذين ورثوا أملاك أبيهم (21) ولم يكن مسموحاً لها بدور آخر تلعبه. وامرأة مثل دينة-لم تكن متزوجة بعد ولم تعد عذراء- لم تعد مؤهلة للزواج، وتحمل أو تربي اطفالا، وتحصل على رزقها، أو أن تشترك بعلاقة جنسية بصورة آمنة.

لذا فان الاشارة الى الزواج كعقاب على الاغتصاب يمكن أن ترى كتعويض. فالضحية الآن «سلعة معطوبة» في عيون مجتمعها، ولم تعد مقبولة كزوجة او أم لأي رجل باستثناء الغاصب. وعلى هذا الاساس ينتظر منه أن يعالج الأذى الذي ألحقه بها- ويمعنى ما- ألحقه بأسرتها وبقبيلتها بشكل عام- وذلك بالزواج منها. وبالطبع، فان التوراة لاتوحي أن يسأل أي من المهتاجين دينة إن كانت تريد الزواج من شكيم. إلا أنهم لم يسألوها أيضاً إن كانت تريد رؤيته ميتاً. ويقتلهم شكيم، أنكر أخوة دينة المنتقمون عليها حتى امكانية الزواج. وبذلك حكموا عليها بحياة العزلة والوحدة (22)

ولم تقل لنا التوراة عما حدث لدينة بعد ليلة المجزرة في بيت شكيم. وكل ماعرفناه أن دينة لازالت في بيت يعقوب الى حين. وبعد سنوات عديدة لحقت يعقوب كل عشيرته الى مصر، حيث توّج ابنه المفضل يوسف مستشاراً لفرعون (سفر التكوين 46: 10) ويقدم الأدب القديم الذي يربط نفسه بالتوراة صورة غريبة غرابة (غروتسكية)* أو أخرى، وخاتمة تهكمية بالرواية التوراتية: فقد يكون شمعون قد عرض الزواج على أخته (المدنسة) طبقاً لصورة تأمل ساخنة جداً رسمها حكيم حاخامي. أو ربما تزوجت من قسيس مصري رفيع المقام وولدت ابنة تزوجت يوسف فيما بعد، حسب مصدر تقليدي آخر (23) ولكن الحدس الأقرب الى الواقع أن الباب أغلق دون دينة في بيت أبيها أو في بيت أحد اخوتها، وعاشت كعمة عانسة ذات ماضٍ أسود، بلا حول ولا قوة، وخارج الحياة في ظل يأس مطبق.

«فيكون عهدي في أبدانكم»

كانت رغبة شكيم في الزواج من دينة حارة جداً الى الحد الذي عرض أن يدفع ثمن-الكلمة العبرية هي موهار (مهر) يدها. وتترجم الكلمة موهار بـ(مهر) أو (ثمن العروس) أو (هدية الزواج) أحياناً. ولم تذكر هذه الكلمة في التوراة إلا في ثلاث مواضع: في قصة دينة، وفي سفر الخروج، حيث يذكر أن الشخص الذي يراود جارية بكراً عن نفسها يجب أن يتزوجها وان يدفع نقوداً مثل مهر الأبكار (سفر الخروج 22: 15و16). وتذكر أيضاً في سفر صموئيل (الملوك) الأول، حيث دفع ثمن العروس بصورة شاذة. إلا أن من المهم من جهةٍ، تودد داوود لابنة الملك شاول (24) وكما سنرى، فان ثمة ارتباط قويٍ، وان كان غريباً، مابين اغتصاب دينة وتودد ابنة شاول: فالقصتان تقلبان الطقس المهيب للاختتان الى موهار غروتسكي (غريب)، و تقلبانه، بالوقت نفسه، الى حيلة معقدة وقذرة.

فالموهار، حسب ما تبين بوضوح قصة شكيم، هو شيء له قيمة يقدم الى والد

---

* grotesque الغَرَتسك قطعة من الفن الزخرفي تتميز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة أو خيالية متناسجة مع رسوم أوراق نباتية أو نحوها مما يحيل كل ما هو طبيعي الى بشاعة أو الى حالة كاريكاتور (المورد)

العروس من جانب صهره المنتظر. وخمسون شكلاً+ هو ثمن العروس المفروض دفعه من جانب من اغتصب فتاة بكراً ويلزم بالزواج منها (سفر تثنية الاشتراع22: 29) إلا أن التوراة لاتنبث ببنت شفة بخصوص الثمن المتعارف عليه في ظل ظروف عادية. وتوحي العديد من القصص التوراتية أن بإمكان الرجل أن يدفع ثمن العروس الى خطيبته إما عملاً يؤديه أو بضائع بدلاً من النقود وعندما وقع أبو دينة يعقوب في حب راحيل، الابنة الأصغر والأكثر جمالاً لرجل اسمه لابان، عرض يعقوب الشاب أن يقدم عمل سبع سنوات لعمه والد زوجته في المستقبل كثمن للعروس. إلا أن يعقوب ضُلل لكي يخدم فترة ثانية من العمل عندما سلل لابان المخادع ابنته الأكبر فالأقل وسامة، لية، الى فراش الزوجية بدلاً من راحيل (سفر التكوين26: 18و19).

ويعد فترة نواجه في التوراة داوود، ملك اسرائيل في المستقبل، كبطل حرب يسعى الى الزواج من احدى بنات الملك المتوج شاول. ومثل يعقوب يُحتال على داوود لدفع ثمن العروس بصورة شاذة، أي أن يدفع بصورة غريبة الثمن سلعاً وليس نقداً. وكان هذا الأمر مصمماً من جانب الملك الغيور بغية تكليف داوود حياته بالذات.

وكان شاول يحسد داوود ويرتاب به حين طلب المحارب الشاب منه احدى بناته لكي يتزوجها. «قتل شاول ألوفه وداوود ربواته- غنت النساء الاسرائيليات في مديح داوود عندما كان يعود من حملة مجيدة ضد الفلسطينيين (صاموئيل(الملوك)18: 7) وأعلن يوناتان بن شاول عن حبه لداوود «تعلقت نفس يوناتان بنفس داوود» (صاموئيل (الملوك) 18: 1) * وكذلك كانت روح ابنة شاول ميكال. وللتخلص من داوود المحبوب جداً من الشعب والذي يرتفع بنظرهم ويتقدم كل يوم، خرج الملك العجوز الماكر بخطة غادرة مثل تلك الخطة التي

+ المبلغ حسب ماذكر في سفر تثنية الاشتراع في التوراة هو خمسين من الفضة(المترجم)

- أي مئات الألوف(المترجم)

* عندما قتل فيما بعد يوناتان وشاول في معركة مع الفلسطينيين- اختار شاول أن يقضي على حياته بيده فيتجنب الأسر من قبل «هؤلاء غير المختتنين»- القى داوود خطاباً تأبينياً شهيراً أعلن فيه عن يوناتان: رائع كان حبك لي، يتجاوز حب النساء «-وهذا البيت من الشعر ألهم الكثير من التأمل عن تكيف داوود الجنسي» (2صاموئيل(الملوك)1: 26)

نفذها أخوة دينة بشكيم».

وعد شاول بأن يقدم يد ميكال زواجاً لداوود، ولكن شرط أن يكون قادراً على دفع ثمن العروس بصورة عجيبة جداً- فالمهار الذي طلبه شاول هو «مئة قلفة من الفلسطينيين». وواضح أن شاول قد اعتمد على الفلسطينيين الذين سيقاومون الختان: «وكان شاول قد أضمر أن يلقي داوود في ايدي الفلسطينيين». إلا أنه لم يدخل في حسابه مهارة وشجاعة المحارب الشاب، وتصميمه المطلق على الزواج من ابنة الملك، وميله الى ايماءة المعركة التي تخطف أبصاره+ وجلب داوود، الذي كان دائما أكثر من ناجح ،مئتي قلفة، كل منها انتزعت انتزاعاً من صاحبها، وادعى أن ميكال زوجته (صاموئيل (الملوك) الأول 18: 22-29)

ومما يلفت النظر في كلتي القصتين أن الطقس المقدس للختان قد تمت مقاربته باستخفاف كبير، بل بصورة منحرفة جدا، وعلى انه مداعبة وحشية أكثر منه سر مقدس جليل. وباستطاعة المرء أن يقول بصعوبة من خلال قصص الختان-أي الازالة الجراحية لقلفة القضيب- انه الرمز الوحيد الأهم للتعريف بالاسرائيليين، وانه بقي كذلك بالنسبة الى اليهود الى يومنا هذا.

وبالفعل، فان الختان هو حرفيا العلامة التي تم بواسطتها ضمان التعاقد المشؤوم مابين الله وابراهيم: ظهر الله لابراهيم، ووعده بأن يجعله «أبا جمهور الأمم» (سفر التكوين17: 5) ويخضع ابراهيم وكل أحفاده للختان (انظر الفصل التاسع). «فيكون عهدي في أبدانكم عهداً مؤبداً» وقضى الله أن «أي أقلف من الذكور لم يختن القلفة من بدنه تقطع تلك النفس من شعبها اذ قد نقض عهدي» (سفر التكوين 17: 13و14)

وعندما لفت المؤلف التوراتي الذي صاغ سفر صاموئيل الانتباه الى ثمن العروس الغروتسكي (الغريب) الذي طلبه الملك صاموئيل، كان يسعى الى تبيان كم كانت كراهية شاول للشاب داوود عميقة وغريبة الأطوار. فمسألة ارسال داوود لجلب مئة قلفة فلسطينية، كان يضعه بالطبع في طريق محفوف بالمخاطر. وكان شاول يأمل، أن يحرر الفلسطينيون الملك الغيور من الشاب المزعج داوود مرة

+ ينبغي أن نغض الطرف قليلاً عن الماحات الكاتب المستوحات من التوراة فيما يخص الكلام عن البطولات التي لا أساس لها..من أجل استيعاب النقد الجدي لما هو أهم(المترجم)

واحدة والى الأبد. والحق، ان التوراة نفسها تخبرنا أن نجاح داوود المدهش في تنفيذ مهمته اخذها شاول نفسه على أنها علامة على عطف الله على داوود ونذير شؤم بالنسبة له.

وجعل المؤلف التوراتي الذي قص قصة دينة المسألة مختلفة، اذ استخدم هذا المؤلف الختان للنيل من «الآخر»: شكيم وقومه. ويبدو أن راوي القصة يقول أن هاهنا قبيلة مختلفة جداً عن الاسرائيليين، بحيث أن من الضروري اجراء ختان جماعي بغية تطهيرهم قبل أن تخطب ابنة واحدة من اسرائيل الى الأمير. ومع ذلك، فان مشهد «الزواج الخارجي» كان بغيضاً جداً على اخوة دينة الى الحد الذي جعلهم يشعرون أنهم مجبرون على القيام بمذبحة لمنع هذا الاتحاد المحرم. ويمكن رؤية سخرية قاسية في واقع أن شمعون ولاوي شعرا بأنهما حرين في قلب شعائر الختان المقدسة الى شكل من أشكال التعذيب والخداع بغية منع الزواج من الانعقاد بصورة نهاية.

وبالنسبة الى القارىء المعاصر (والى عدد معين من مفسري التوراة) فان استخدام الطقس المقدس في جعل الرجال عاجزين، وبذلك يصبح من السهل أكثر قتلهم، ليس حيلة قذرة وحسب، بل انها تدنيس للمقدسات. وينطوي الختان الجماعي المطلوب من قبل اخوة دينة، في أحسن الأحوال، على نوع من العدالة الفظة- فقد جرح شكيم وكل الذكور من قبيلته في نفس العضو الذي استخدمه شكيم في «تدنيس» الفتاة في الدرجة الاولى. إلا أن المؤلف التوراتي الذي أعاد قص قصة دينة واخواتها لم يكن يطلق فكاهة سادية* على حساب شكيم. وبالاحرى، كان يذكر قراءه بما كان يعتبر من جانب القيادة الدينية *القائمة بمثابة تهديد جدي لبقاء الاسرائيليين الحقيقي: المتمثل باغراء الآلهة* الغريبة واغراء شركاء الفراش من الغرباء.

«لقد أحببت الغرباء»

مع ان سفر التكوين سعى لوصف الأحداث الماضية منذ زمن بعيد جداً- قبل وقت طويل من استعباد الاسرائيليين من قبل فرعون، وقبل وقت طويل من

* السادية، انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء إما بانزال صنوف العذاب بمحبوبته، أو/و الابتهاج بالقسوة المفرطة (المورد)

خروجهم من مصر تحت قيادة موسى، وقبل وقت طويل من غزوهم واقامتهم في كنعان- ربما وجدت قصة دينة وشكيم طريقها الى الكتاب المقدس في شكلها الراهن، قبل 400سنة من المشاعية البدائية، عندما جمعت الخيوط الأقدم للأسطورة، وللمعتقد، وللقانون الاسرائيلي في عمل نعرفه الآن باسم أسفار موسى الخمسة.

وفي تلك اللحظة من تاريخ اسرائيل، وفق الحكمة المعروفة للعلم التوراتي المعاصر، فان الكهنة والنساخ الذين جمعوا وحرروا التوراة في حالة يأس من مصير الاسرائيليين التعيس. فـ«المملكة المتحدة» لداوود وسليمان سقطت وتحولت الى ركام قبل عدد من القرون، وصارت مآثر هذين الملكين العظيمين والقويين مادة للأسطورة. وتم غزو المملكة الشمالية، والمعروفة باسم اسرائيل، من قبل الامبراطور الآشوري في عام 722 قبل المشاعية البدائية، وتشردت القبائل الشمالية-«القبائل الاسرائيلية العشرة التائهة» وتحطمت. وغزا الامبراطور البابلي المملكة الجنوبية المعروفة باسم «يهودا» في عام 587-586 قبل المشاعية البدائية، ودمر هيكل سليمان في اورشاليم تدميرا تاما، ورحلت طبقة حكام المملكة الى بابل. وسمح لعدد قليل بالعودة الى اورشاليم في بعض الأحيان حوالي عام 538ق.م.ب، عندما تعرضت الامبراطوريةالبابلية نفسها لغزو جيوش الامبراطور الفارسي. وبعد انتهاء النفي البابلي على وجه التحديد، وبعد عودة الاسرائيليين الى كنعان، ضمت الكتابات المقدسة والمعارف التقليدية (الكلاسيكية) الى بعضها في كتاب نعرفه الآن باسم التوراة، على الأقل، حسب اجماع علم التوراة المعاصر.

وعندما عاد أمراء وكهنة اسرائيل القديمة الى كنعان، وجدوا أرضا وحضارة ومجتمعا في أزمة عميقة. ولم يعدبالامكان تقديم الأضاحي الى يهوه لأن الهيكل كان مدمرا، وأرض كنعان مليئة بعشائر وقبائل منافسة تعبد الإلاهات وآلهة غريبة. وكان الاسرائيليون مثبطي الهمة ومحبطين بسبب محنتهم التي دامت لأمد طويل. لذا فقد جربوا أن يدمجوا الغرباء بهم، وبأن يتزوجوا منهم، ويعبدون آلهتهم، فيبجلون أحيانا مجموعة من الأشجار و«أمكنة مرتفعة» وأحجارا وأعمدة، وصورا منقوشة على الذهب والفضة. وينتفعون أحيانا من

الخدمات الجنسية التي كانت تقدمها بغايا الهيكل، أو يشاركون في الطقوس الرومانية التي كانت تقام تكريما لباخوس، إله الخمر. أو ربما كانوا يقدمون أضاحي بشرية أيضاً. وكان الكهنة والنساخ الذين جمعوا وصنفوا وحرروا وأعادوا كتابة النصوص التي شكلت جزءاً كبيراً من التوراة يستبد بهم بصورة جلية الافتتان بآلهة غريبة ونساء غريبات. وكلا الأمرين اعتبرا من قبلهم بمثابة تهديد للوجود الحقيقي للاسرائيليين. فاستخدموا النصوص المقدسة كسلاح بلاغي للتملق، وللتزلف، وللتهديد، والتحذير، أو ببساطة لافزاع الشعب المختار لكي يتجنب جيرانه في كنعان فلا يتزوجون إلا من رفاقهم الذين يعبدون يهوه.

ويمكن ايجاد الكثير من الذخيرة البلاغية في كتابات الأنبياء، القدامى والمعاصرين، الذين أضيفت رؤاهم وايحاءاتهم الى أسفار موسى الخمسة لايجاد قلب التوراة العبرية حسبما نعلم. ويمكن للمرء أن يفتح الأسفار البلاغية على وجه التحديد، كيفما اتفق، ونجد بعض الكراريس الدينية ملتهبة العيون ومتقطعة الأنفاس عن موضوع العبادة الوثنية، او التزاوج أو كلاهما معاً وبالفعل عومل اثم الارتداد عن الدين واثم الاختلاط الجنسي بصورة متبادلة من جانب العديد من الأنبياء، اذ استخدم أحدهما كاستعارة عن الآخر في التوراة كلها. وصور كل بلاء اسرائيل- الغزو والشتات، والاستلاب، والتدمير في الأسفار النبوية وكأنها عقوبة أنزلها الرب بالشعب المختار بسبب كفره الروحي والجسدي.

وتبجحت اسرائيل الداعرة والوقحة أمام الاله الغاضب والغيور في سفر إرميا قائلة: «لقد أحببت الغرباء، ووراءهم سأذهب» (نبوءة إرميا 2: 25) وأجاب الرب كالرعد: «لأني طهرتك ولم تطهري ولن تطهري فيما بعد من نجاستك الى أن أريح فيك حنقي» (نبوءة حزقيال 24: 13)

لم يكن شجب الزواج من غير الاسرائيليين في التوراة مجرد مجاز. ونرى في مشهد متميز في سفر عزرا أن الكاهن يدعى بـ«كاتب ماهر في توراة موسى» (سفر عزرا 7: 6) عندما عاد الى اورشاليم من النفي في بابل ويكتشف، وقد امتلأ قلبه رعبا، ان «الذرية المقدسة قد خلطت نفسها مع شعوب الأرض». وبعد أن جلس على التراب ممزقاً رداءه ومقتلعاً شعره مثل رجل ينوح، رفع عزرا نفسه، ونفض الغبار عن نفسه، وقرر أن يفعل شيئاً بخصوص «مقت الزواج المختلط». لذا فقد

قـاد احتفـالاً شـعبياً تم فيـد طـلاق الرجـال الاسـرائيليين الخسيسـين والذيـن ينحبـون أمـام النـاس مـن النسـاء غـير الاسـرائيليات اللواتـي اتخـذن زوجـات لـهم «لنبتن الآن عهداً من إلهنا على إخراج النساء وأولادهن» حث الكاهن الصارم وهو يمـزق إربـا عـددا لايحصـى مـن الزيجـات المختلطـة (سـفر عـزرا 10: 3) «فتجلـد واعمل» (سفر عزرا 10: 3و4).

ان كلمة عزرا المشجعة «فتجلد»- تردد صدى الكلمات التي قالها موسى الى يشوع (سفر تثنية الاشتراع 30: 23) وقالها العلي القدير نفسه (سفر يشوع 1: 6) عشية غزو كنعان بالذات، عندما عبر الاسرائيليون نهر الاردن وشنوا حرب غزو أرادوا منها أن يحرروا أرض الميعاد من شعوبها الأصلية (انظر الفصل السابع). وطبقا للتوراة، فان الله نفسه يصادق على حملة حرق الأرض تحت الكنعانيين وهي أقل ترويعا بتفاصيلها وأكبر كثيراً بحجمها من مصير الرجال والنساء والأطفال البريئين الذين جعلوا يدفعون ثمن جريمة شكيم، مهما كانت جريمته.

بطنان، ورمح واحد

تنذر مجزرة شكيم وشعبه حسب ما رويت في سفر التكوين بالمجازر الموجودة في الأسفار التالية في التوراة، وهي نوع من «التصفية العرقية» المقصود منها تطهير أرض الميعاد بإزالة المتعبدين من النساء والرجال للإله الزائف الذي يجد به الاسرائيليون ضلالاً مبيناً وفي الوقت الذي نصل فيه الى قصة (الساغا) البطولية للخروج من مصر- الاسطورة القومية المثيرة للاسرائيليين وحجر الزاوية في التوراة نفسها- نجد قصة توراتية رديئة جداً هي مرآة صورة دينة وشكيم. انها القصة التي يكون فيها ضحية الاغواء أمير اسرائيلي من قبيلة شمعون، والغاوية امرأة مدينية. وتختلف القصتان عن بعضهما في طريقة أساسية وحاسمة: كان الأب يعقوب مكروباً ونادماً على الانتقام الذي قام به ابناؤه أصحاب الرؤوس الحامية ضد شعب شكيم، إلا أن موسى والإله نفسه أقر على وجه الخصوص العقاب الذي أنزل بالمدينيين وحدثت قصة الأمير الاسرائيلي وحبيبته المدينية في البرية أثناء تجول الاسرائيليين بعد خروجهم من مصر. ويجابه موسى الذي بقي معلقاً مابين إ له غريب الأطوار والاسرائيليين الذين ينحبون، حادثة أخرى من الارتداد من جانب الشعب المختار، الذين «يرتكبون الآن الزنا مع بنات مؤاب» ويضحون على أضرحة آلهتم (سفر العدد 25: 1-9) وباصرار من العلي القدير يصدر موسى حكماً بالموت على الاسرائيليين الذين تعلقوا بأضرحة غريبة أو بأسرة غريبة- وسيقضي على نحو أربعة وعشرين اسرائيلياً بالبلاء الذي ينزله الله بالشعب المختار (سفر العدد 25: 9) وبحملة تأديبية ضد الغرباء الذين أغروهم هناك.

وعند تلك اللحظة بالضبط، أقبل رجل وقح الى مخيم الاسرائيليين مع صديقته المدينية في عهدته (وقيل لنا بالمناسبة، انه أمير قبيلة شمعون. وبذلك يكون حفيد مباشر لشقيق دينة ومنتقم). وبينما كان الآخرون يتملكهم الرعب،فان الأمير والمرأة المدينية التي «خدعته» يتراجعان بصفاقة الى الخيمة حيث كان موسى والعلي القدير يلتقيان وجهاً لوجه. وظهر من وسط الجماعةرجل اسمه فنحاس قام بطعن كليهما برمح بضربة واحدة من سلاحه (سفر العدد 25: 7-9و14) وترك لخيالنا ماكان يفعل الرجل والمرأة بالضبط

عندما طعن كل منهما في بطنه برمح واحد، إلا أن هناك شكل واحد للمواجهة الجسدية مابين الرجل والمرأة من المستحسن أن نفسرها*

كان قتل الأمير الاسرائيلي وعشيقته كافياً لايقاف البلاء الذي كان سيخرب مخيم الاسرائيليين باعتباره عقاباًإلاهياً بسبب «زناهم»، إلا أن المجزرة لم تنته بعد. لم يرض موسى باعدام مغرية واحدة، ويظهر أنه تغاضى عن حقيقة أن زوجته وأصهاره كانوا مدينيين، فأرسل فينحاس وأصدقاءه بسلاحهم الكامل في مهمة قتل مايمكنهم أن يقتلوا منهم. فقتل كل الرجال المدينيين، وأخذوا كل النساء والأطفال أسرى- غير أن قرار توفير المنساء و«أطفالهن الصغار» انقلب ليصبح شفقة مريبة.وكان موسى مندهشاً ومنزعجاً من القادة الذين عينهم لأنهم جلبوا هذا العدد الكبير من أسرى الحرب مع السلب الذي اعتادوا عليه والنهب. فأصدر ببرود أمراً صدمنا أن نسمعه من فم رجل أنزل معه من جبل سيناء الوصايا العشر.

«هل استبقيتم الاناث كلهن؟» تشكى موسى وهو واضح الاغتياظ من منظر العدد الكبير من الغاويات اللواتي من المحتمل أن يغوين الرجال الاسرائيليين، ومن العدد الكبير من الأفواه المدينية التي تحتاج الى غذاء «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال». وواصل اصدار أوامره قائلاً: «وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها». وسمح بأن تبقى على قيد الحياة فقط البنات العذارى. وقرر موسى أن يسلمهن لرجاله المحاربين يتمتعن بهن (سفر العدد 31: 15—18).

وقد جاء قتل المدينيين وكأنه مفاجأة مروعة لمعظم قراء التوراة الطارئين بسبب رجال الدين على وجه التحديد في كل من اليهودية والمسيحية وفضلوا أن يركزوا على الفقرات الألطف في الكتاب المقدس. إلا أن الحقيقة البينة هي أن التوراة توفق مابين كل من الحب والكراهية، والشفقة والانتقام، والحياة والموت، وغالباً ماتوفق بين هذه الأمور في الفقرات ذاتها. وعلى سبيل المثال، فاننا نجد في

---

* استحضر حاخام ارثوذكسي (اصولي) في اسرائيل مؤخراً مثال قتل الأمير الشمعوني وهو يشجب اليهود المعاصرين الذي يتزوجون من غير اليهود. والملاحظات الثانوية للحاخام كانت واضحة بشكل كاف للمستمعين له، ومن ثم أنتقد لدعوته غير المباشرة لقتل اليهود في الزواج المختلط. لذا فبامكاننا أن نرى أن التوراة ليست رسالة ميتة في الجدل الدائر حول الأخلاق في عالم محتدم، وخصوصاً في أرض التوراة.

سفر الأحبار الكثير من الوصايا الصارمة والمحددة التي يستشهد بها الأصوليون من مختلف العقائد في هذه الأيام، ومن ضمنها، على سبيل المثال،الأحكام ضد الشذوذ الجنسي (سفر الأحبار 18: 22)** والشعوذة (سفر الأحبار 19: 31و20 : 6و7)+

يدين المؤلف الكهنوتي لسفر الأحبار على أوسع نطاق كل الشعائر والطقوس التي ينظر اليها على أساس أنها مقدسة من قبل السكان الأصليين لكنعان: «ولاتجروا على رسوم الأمم الذين أنا طاردهم من بين أيديكم» (سفر الأحبار 20: 23) ومع ذلك، نجد في سفر الأحبار أيضاً عقيدة انسانية وشفوقة تعتنق بوصفها تعليم أخلاقي أساسي في الديانة المستندة الى التوراة.

«وليكن عندكم الغريب الدخيل فيما بينكم كالصريح منكم وكنفسك تحبه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر: أنا الرب إلهكم» (سفر الأحبار 19: 34)

لقد علمنا- وعلينا أن نأمل ونصلي- إن مثل العدالة، والرحمة، إن اللطف الرقيق هو الذي يجب أن يعتنق من جانب المؤمنين بالأديان المستندة الى التوراة. ويلخص هيلل الاستاذ اليهودي المحترم في القرن الأول من ع.م حكمة التوراة بالقول: إن «ماهو مكروه منك لاتفعله لجارك». وذهب يسوع في الناصرة الى أبعد من ذلك حين قال: «أحبوا أعداءكم وأحسنوا الى من يبغضكم، وصلوا من آجل من يعنتكم ويضطهدكم» (متى5 :44)وحتى اذا كان التاريخ قد بين أنه غالباً مايقال مثل ذلك أكثر من أن يمارس، فان مايسمى بالعصر الذهبي يبقى حجر الزاوية للجذور التاريخية اليهودية- المسيحية. وحسب ما كتب سينثيا اوزيك فاننا «بنينا فوقها كل فكرة في الحضارة الأخلاقية» (25)

ومع ذلك لانستطيع أن نخترق المعاني العميقة في قصة دينة وشكيم مالم نتبين خوف واشمئزاز الغريب الذي يحترق في قلب بعض الكتاب الشبحيين الورعين، وعلى الأقل، الذين سربوا الخرافة والأسطورة الاسرائيلية الى الكتاب

** « والذكر فلا تضاجعه مضاجعة النساء إنها رجاشة»

+ «ولا تميلوا الى أصحاب التوابع والعرافين، وأي انسان مال الى أصحاب التوابع والعرافين.. جعلت وجهي ضد ذلك الانسان، وأي رجل أو امرأ' كان صاحب توابع او عرافاً فيقتل قتلاً بالحجارة يرجم دمه عليه».

الذي يعرف باسم التوراة. ويقدم اغتصاب دينة في سفر التكوين واغواء الأمير الاسرائيلي في سفر العدد على أنهما قصتين أخلاقيتين، وليس على أساس أنهما قصتين وحشيتين. والمقصود منهما تحذير قراء التوراة من اغراء الآلهة، والإلاهات الغريبة، وفوق ذلك، تحذير الرجال والنساء الذين يعبدونهم. ولأن المنقحين الذين سربوا هاتين القصتين الى التوراة وأدخلوا تلفيقاتهم عليهما، بأن الوحشية في كل من القصتين ليست في القتل الجماعي للرجال والنساء والأطفال، بل بالفعل الوحيد فعل الاغواء من قبل الغريب الذي سبق فعل القتل.

محكمة الضمير التوراتية

يمكن قراءة التوراة على أنها، ضمن أشياء أخرى كثيرة، كتيب عن بقاء أمة من الخارجين. والأب (الباطريارك) يعقوب، مثل أباه وجده والأجيال التي لاتعد من أحفادهم، هو «غريب في أرض غريبة» حسب ما قال موسى، واعتنق استراتيجية ستنقلب في أغلب الأحيان(إن لم يكن دائما) الى استراتيجية مؤثرة على حفظ الحياة والعلائق، والهوية والمصير، ضد الغزاة والمفتشين* وضد منظمي المذابح. وهو (اي يعقوب) حين يوبخ ولديه الظامئين الى الدم قائلاً لهما: «لقد اسقيتماني واخبثتما ريحي عند أهل الأرض» (سفرالتكوين 34: 30)- كان يعقوب يبين تفضيله الدبلوماسية على الحرب، والتسوية على المواجهة، وأن يتعاونوا ويفلحوا في تدبر الأمر، على المقاومة ضد القوى المحتملة.

واشتكى يعقوب، وهو سيد في فن السياسة الواقعية، بأنه «في نفر معدود» وأوضح أن اهتماماته بالكنعانيين ذرائعية أكثر منها مبدئية: فاذا اجتمعوا «عليّ يقتلونني فأهلك أنا وبيتي» (سفر التكوين 34: 30)

وعلى النقيض من ذلك كان شمعون ولاوي محاربين اندفعا بإحساس قوي من الخوف أكثر من التقدير البارد للقوة العسكرية النسبية. ولكن بدا أيضاً أنهما يؤمنان أن عشيرتهما المحصنة يجب أن ترد على العنف بعنف أكبر إذا كان عليهم أن يبقوا خارجيين في أرض كنعان. وتستبق فعل الانتقام استراتيجيات البقاء التي لوحظت بين القبائل البدوية في الشرق الأدنى المعاصر. واذا ماهوجم

---

* في محاكم التفتيش (المترجم)

بدوي منفرد، إن كان رجلاً أم امرأة، من قبل أعضاء قبيلة منافسة فان اقرباء الضحية يشعرون أنهم ملزمون بإنزال عقاب هائل لاينسى بكل القبيلة بغية منع الهجمات في المستقبل، وإلا، حسب ما كان يعتقد، فان العشيرة أو «مجموعة الثأر الدموي» حسب ما تترجم كلمة «عشيرة» باللغة العربية (حرفيا) سينظر اليها على أنها ضعيفة ومترددة، ويتعرض كل أعضاء العشيرة للأذى والاعتداءات (26) ويبدو أن أولاديعقوب مثلهم مثل البدو يؤمنون بأن الشرف والردع كليهما يجعلان أخذ الثأر من شكيم أساسياً في طريقة سترهب بصورة قاطعة باقي الكنعانيين.

إن التعارض مابين يعقوب وأولاده- وهو تعارض مابين الأجيال، والقيم والفلسفات، والاستراتيجيات- تم التعبير عنه في الكلمات اللاذعة التي قالها شمعون ولاوي ليعقوب بعد أن وبخهما بسبب مذبحة شكيم. وبالنسبة الى الأب يعقوب، فان خطوبة دينة الى الرجل الذي «دنسها» يعتبر صفقة شريفة ستجلب بركة السلام والازدهار. وبالنسبة الى أولاده، فقد اعتبر السلام من دون شرف، وبيع مخز، وتفوقوا بعذر بدا ينطبق على يعقوب أكثر من انطباقه على حمور: «هل ينبغي أن تعامل أختنا كعاهرة؟»

وزنت «محكمة الضمير التوراتية»، حسب ما كتب أحد المثقفين، افعال شمعون ولاوي ووجدتها خفيفة. وأصدر يعقوب نفسه الحكم وهو على فراش الموت، وكان يحتبس بركته عن شمعون ولاوي، معلناً لهما أنهما ابنين وخلفين حقيرين لأنهما تصرفا، بالتحديد ، بطيش كبير وافراط لا لزوم له، وأنكر عليهما اي حصة في أرض الميعاد.

1-شمعون ولاوي أخوان

2-سيوفهما آلات جور

3- مجلسهما لاتدخله نفسي

4-وفي مجمعهما لاتتحد ذاتي

5- لأنهما في سخطهما قتلا انساناً

6-وفي رضاهما عرقبا ثوراً

7-ملعون سخطهما فإنه شديد

8-وملعون غضبهما فإنه قاس
9- أقسمهما في يعقوب.
10- وأبددهما في اسرائيل. (سفرالتكوين 49: 5-7)

استحسنت التقاليد مثال يعقوب واعتنقته. إنه صوت موسمي للنضج «فهو وضع بتعقل فن الحكم فوق الجميع»: اذ «ويخ مثل هذا الدين الصبياني الذي سيهدد حياته نفسها(حياة الدين) أكثر من تهديده الحقائق الجريئة» (28) وبالفعل، مهرت طريقة يعقوب ألفي سنة من تاريخ اليهود، وترى أن مثاله الأخلاقي والعملي ينطلق في خط طويل بدءاً من الأشخاص المحترمين مثل ميمون، وهو فيلسوف يهودي مشهور، اشتغل طبيباً في القصر عند الوزير في مصر، ويقال، ان ريتشارد قلب الأسد، وحتى حاييم وايزمان (الذي هو) «جورج واشنطن الصهيونية» كافح في حربه من أجل وطن لليهود في فلسطين في كواليس الصالة البيضاء (وايت هول) وأمن أول موطيء قدم في الوقت الراهن في تربة الأرض المقدسة على شكل وعد بلفور، وبالقلم أكثر من السيف.*

ثم، وخلال عقد واحد في أواسط القرن العشرين، بدا أن التاريخ يناقض حكم محكمة الضمير. فقد أفشلت طريقة يعقوب المجتمع اليهودي في ألمانيا وفي باقي أوربا أثناء الهولوكست** حيث أثبتت استراتيجيات البقاء التي دامت ألفي سنة عدم جدواها في مواجهة التقتيل الجماعي المصنع. فالبعض كانوا حذرين بشكل مناسب- ومحظوظين بشكل مناسب- في الفرار من أوربا في الوقت المناسب ليتجنبوا اسوأ افراط للهولوكست. وسلحت أقلية بطلة نفسها وقاومت في

---

* والحقيقة ، لم يستخدم أي قلم أو أي سيف، بل استخدت عمالة مكشوفة من قبل «التنظيم الصهيوني» الذي أصبح يهودياً بعدما كان انكليزياً مسيحياً، في صالح الامبريالية العالمية وكانت على رأسها الامبريالية البريطانية ثم صارت الامبريالية الأميريكية، وضد مصالح اليهود في كل أرجاء العالم (انظر في هذا الصدد كتابنا «الامتداد العالمي للصهيونية واسرائيل» (المترجم)

** Holocaust المقصود بها قصة ابادة اليهود في بعض دول اوربا الشرقية من قبل النازيين الألمان بزعامة هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية 1939-1945 والكلمة مشتقة من اسم المحرقة Holocaust الذبيحة التي تحرق وفق التقاليد اليهودية القديمة(المترجم)

الغيتوات+ وفي الغابات وحتى في معسكرات الموت. إلا أن العدد الأكبر من اليهود الأوربيين هلك، جزئياً على الأقل، لأنهم زعموا أن الألمان كانوا على درجة من التحضر لاتسمح لهم أن يقتلوا بدم بارد ستة ملايين رجل، وامرأة وطفل- وفيما بعد ، زعموا أن الديموقراطيات الغربية على درجة من التمدن لاتسمح بها.❖

ان المشهد الذي يرمز الى فشل طريقة يعقوب هو واحد مما وصف لي ناج من المحرقة (الهولوكست) رآه بأم عينيه: مشى حاخام من شيتيل في بولندا في الشارع مع توراة بين ذراعيه لاستقبال قوات العاصفة في الرايخ الثالث. فقد كان الرجل العجوز قد استدعى خبراته أثناء الحرب العالمية الاولى، حين انقلب المحتلون الألمان الى أكثر لطفاً وكرماً بكثير من الفلاحين البولنديين أو الحكام الروس مطلقي الصلاحية الذين حكموهم. ءاثبتت افتراضات الحاخام أنها كانت خاطئة بصورة فادحة. ومثل الملايين من اخوته، دفع ثمن خطأه.[1]

بدأت محكمة الضمير التوراتية وكأنها حرضت بالآلام الناتجة عن الهولوكست، بإعادة النظر في التناقض مابين يعقوب وأبنائه. وافترض العلم التوراتي في فترة ماقبل الحرب، وهو علم عنصري إصلاحي صريح، ان شمعون ولاوي، هما «البطلين الحقيقيين» وليس يعقوب في التكوين 34 لأنهما، على وجه التحديد استلا سيفيهما وخاضا غمار الحرب ضد شكيم للثأر من تدنيس أختهما. وعلى سبيل المثال، تأثر ناقد توراتي معاصر فأشار الى أن سفرين إضافيين معترف بهما منن قبل الكنيسة- أي الكتابات الدينية في عهد التوراة

+ Ghettoالحي اليهودي في بعض بلدان اوربا (المترجم)

❖ واضح أن الكاتب قد وقع في فخ المبالغة بأعداد اليهود الذين زعموا أن الهولوكست قضى عليهم. ونحن كعرب وقفنا ونقف ضد اضطهاد اليهود في أي مكان في العالم.ومن ناحية أخرى لم يشر الكاتب الى أن تآمر الارستقراطية اليهودية(الصهيونية) على اليهود انفسهم بهدف الوصول الى الغايات المتفق عليها بين الزعامات الصهيونية وقادة الامبريالية العالمية هو الذي خلق الهولوكست وهو الذي قذف باليهود الى الأفران والخ.. في وقت أغلقت فيه الامبريالية العالمية كل الطرق باستثناء طريق واحد كان يؤدي الى فلسطين.

1 ليس من حق أحد ممن تجاوز خبرة الهولوكست أن يعتبر نفسه مؤهلاً لكي يقيم ثانية شخص أو نهج الأبرياء الذين وجدوا أنفسهم في قبضة النازيين الألمان وعملائهم. ونحن قد نتأمل في دروس التاريخ، أي أننا غير مخولين بلوم ضحايا الجريمة العامة عن المصير المأسوي الذي أنزل بهم، وليس في نيتي أن أفعل ذلك(المؤلف)

التي أبعدت عن التوراة العبرية نفسها- يقدمان تاريخا مناقضا يستأصل الترجمة «الرسمية» لمجزرة شكيم حسب ما سجلت في سفر التكوين. وتبين لنا وصية لاوي ملاكاً هابطاً من السماء لكي يسلم لاوي سيفاً ودرعاً: «انتقم من شكيم من أجل دينة، وانا سأكون معك، لأن الرب أرسلني». ويفترض سفر يهوديت، كما رأينا أن الله نفسه زود شمعون بسلاح إلهي(29) وكان الله الى جانب المحاربين، أكثر من كونه صانع سلام، حسب ما يعتقد التاريخ المناقض.

ووصلت المقاربة الاصلاحية لاغتصاب دينة الى تصاعد تدريجي في عمل احد النقاد للتوراة، وهو مير سيرنبرغ، الذي أصر بجراة على أن يعقوب «الشخصية الأقل تعاطفاً في الرواية «وهو مدان بـ«الأنانية» و«الجبن»، و«بسوء الأخلاق» ايضا، لأن اهتمامه المذكور الوحيد بصدد مذبحة شكيم يخدم الذات كلياً وكتب ستيرنبرغ» ان المذبحة ملومة فقط بسبب تبعاتها». وناقش هو على العكس، بأن شمعون ولاوي هما «البطلان الحقيقيان» في التكوين 34. فاهتمامها-حسب مافهم ستيرنبرغ- كان عفيفاً وتستحوذ عليهما غاية واحدة، وهي، إصلاح الخطأ الذي أصاب أختهما وكل أسرتهما». ويختتم ستيرنبرغ ماكتبه بالقول: «ان موقفهما المتمسك بالمثل العليا، وغير المهادن، جعلهما من أكثر الشخصيات تعقيداً، وتشويقاً، وجذباً في القصة»(30)

وعلى خلفية المحرقة (الهولوكست) بالطبع، يبدو أن ولدي يعقوب اللذين شهرا سيفيهما يحملاننا على الانتباه أكثر من والدهما الذرائعي المسالم. وللسبب نفسه، فإن محاربي المقاومة الذين وقفوا وقفة بطولية ثابتة ضد النازية في شوارع ومجاري (غيتو) فارصوفيا، حتى لو انتهى بهم أمواتاً مثل ضحايا غرف الغاز. إلا آن السؤال الحقيقي، السؤال العنيد، هو، ليس كيف يموت الانسان، بل كيف يعيش، وهو السؤال الذي لازال يسأل- ويجاب عليه- في شوارع أورشاليم(القدس) وتل أبيب والخليل ونابلس في زماننا هذا.

إن الكلمات المعيبة لشمعون ولاوي-« هل ينبغي لأختنا أن تعامل كعاهرة؟»- قد تحرك الدم وتهز الروح، وخصوصاً في ضوء التاريخ القريب. إلا أنها تنقلب لتصبح سؤالاً يسأل في زمن يستعد به الرجال والنساء في الأراضي التي لازلنا ندعوها بالأراضي المقدسة، لأن يمتشقوا سيوفهم، كل منهم حيال الآخر، لأن كلا

منهم يواصل اعتبار الآخر غريباً.

دفاعا عن شرف اختنا

تقر التوراة أن شيئاً ما اقنع باقي الكنعانيين لئلا يثأروا لأنفسهم من الاسرائيليين لقتلهم شكيم، حسب ما خاف يعقوب من أن يفعلوا. ونجد تفسيراً في الفقرة التي تتبع قصة دينة في سفر التكوين: أمر الله يعقوب وعشيرته فجأة، بأن يتركوا المكان حيث سفك دم شكيم وشعبه، وأن ينصبوا خيامهم في موضع آخر من أرض كنعان. وطهر يعقوب منزله بإصدار أمر بإبعاد أي صنم أو أية معدات لعبدة الأصنام. ومن ثم اتجهت العشيرة نحو مخيم جديد في مكان يسمى بثيل. وانقلب خوف يعقوب من أن الكنعانيين سيحشدون قواهم ضد الاسرائيليين، الى خوف لا أساس له.

وقيل لنا في التكوين: انهم «ثم ارتحلوا فحل رعب الله على أهل المدن التي حواليهم فلم يسعوا وراء بني يعقوب» (سفر التكوين 35: 5)

ان الانطباع العام الذي تحدثه هذه الفقرة هو أن طقوس التطهير التي قام بها يعقوب وعشيرته، وهي فعل طاعة للعلي القدير، استمالت الرب، في جعل موقف الكنعانيين حرجاً: فـ«الرعب من الله» هو الذي ردع الكنعانيين عن الثأر لأنفسهم ممن قتل أبناء بلدهم. إلا أن القاريء المعاصر قد يغريه أن يدرك أن رعب شمعون ولاوي كان يجب أن يفعل شيئاً ما حياله- ولهذا السبب، فان اسلوب ولدي يعقوب المحاربين يهدد بأن يلقي بظله على اسلوب يعقوب في الحساب التفاضلي الأخلاقي والسياسي عند متخذي القرار المختلفين- العربي واليهودي كليهما، في الشرق الأوسط المعاصر.

ويمكن رؤية شيئاً ما أقرب الى شمعون ولاوي، على سبيل المثال، عند رواد الصهيونية السياسية في أواخر القرن التاسع عشر، الذين نظموا وحدات الدفاع الذاتي في مدن وقرى روسيا: «يجب الرد على العنف بالعنف»، أعلن بيان احدى العصابات اليهودية القديمة. وظهر قائد حركة أخرى استدعى ذكرى دينة عندما كتب ان الدفاع الذاتي المسلح لم يكن أقل من (حرب) دفاعاً عن شرف أخوتنا، ودفاعاعن شرفنا القومي، ودفاعاعن مستقبلنا كأمة (31) وقام المحنكون في تلك المناوشات المبكرة بدور نمووذجـي_ وفي بعض الأوضاع، قاموا بدور قادة في

الهاغاناه، الجيش السري للحركة الصهيونية في فلسطين، التي أقيمت لحماية المجتمع اليهودي ضد العنف العربي، وفيما بعد تقدمت على سبعة شعوب عربية أعلنت الحرب على اسرائيل حالما أعلنت الدولة اليهودية الصغيرة استقلالها عام 1948. وبالنسبة الى الرجال والنساء الذين كافحوا لخلق وطن يهودي، وبالنسبة خصوصا الى الناجين من الهولكست، فان مصير الشعب اليهودي الآن تسرب الى ايدي مايسميه مناحيم بيغن «نمط جديد من الكائن البشري.. لم يعرف في العالم أبدا من أكثر من 1800 سنة، وهو اليهودي المقاتل» (32)

ولفترة تزيد على نصف قرن من قيام اسرائيل كدولة، وطنت اسرائيل نفسها على الاعتماد على السيف لحماية وحفظ نفسها ضد عداء جيرانها العرب. وربما كان محرجا أكثر، للعرب الذين يعيشون مابين اليهود في اسرائيل نفسها وفي الأراضي التي ضمتها اسرائيل أثناء حرب الأيام الستة. وغيرت السطوة العسكرية لقوات الدفاع الاسرائيلية كليا صورة اسرائيل من صورة داود الى صورة جوليان. وفرضت نفسها مؤخرا طريقة يعقوب في اسرائيل . واجبر المقاتلون اليهود على أن يتعلموا ثانية متى وكيف يجلسون ويتحدثون.

وذو مغزى كبير أن اسحاق رابين_ وهو ضابط محنك من الهاغاناه كشف عن نفسه المرة تلو الأخرى، في ميدان المعركة في كفاح اسرائيل من أجل الاستقلال والبناء- ذهب للحصول على جائزة نوبل للسلام، على وجه الدقة، بسبب اصراره على تحقيق السلام مع حركة التحرير الفلسطينية. وترأس رابين قوات الدفاع الاسرائيلية أثناء حرب الأيام الستة، إلا أنهم سيتذكرونه أكثر لأنه تصافح مع ياسر عرفات. وذو مغزى كبير أيضا أن رابين مثال اليهودي الجديد: جندي ورجل دولة، رجل يعرف متى يشعل الحرب ومتى يحل السلام، أنه مزيج قوي من يعقوب ومن ولديه المقاتلين.

إلا أنه ذا مغزى أيضا أن رابين سقط صريعا ليس بيد عربي بل بيد رجل اسرائيلي أصر علىأنه دعي من قبل العلي القدير لكي يقتل الرجل الذي يحل السلام مع الغريب. ويظهر اغتيال رابين تماما كم كان مثال شمعون ولادي غادرا جدا- كل ما احتاج اليه اسقاط شخص شامخ مثل رابين هو شاب صغير مع مسدس محشو، تدبر أمر اقناع نفسه بأن الله أعطاه اياه وطلب منه استخدامه.

ويستطيع المرء أن يسمع تقريبا السؤال الوقح الذي طرحه شمعون ولاوي على يعقوب-«هل كان ينبغي لاختنا أن تعامل كعاهرة؟» على لسان القاتل الذي اغتال اسحاق رابين.

وتسمح لنا قراءة حميمة للتكوين 34 بأن نرى أن التوراة تقدم رؤيتين للغريب ومقاربتين للتعامل معه: احداهما تحرضنا على القيام بالحرب، وتشجعنا الأخرى على صنع السلام وحتى، كما قد توحي قصة دينة وشكيم بصورة سرية ، صنع الحب. وقال رب موسى للاسرائيليين: «وقد اشهدت عليكم اليوم السماء والأرض بأني قد جعلت بين أيديكم الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختاروا الحياة لكي تحيوا أنتم وذريتكم».. وكأنه يوحي أن الاختيار الصحيح هو واضح جدا بحيث أن الأبله وحده، أو عديم الوجدان، سيختار الاختيار الخاطيء. إلا أن التوراة ليست دائما واضحة بهذا الشكل ومستقيمة في تعليمها الأخلاقي، وحدث كثير من الأذى في القرون والوف السنين، على وجه التحديد، لأن احد أفراد فرقة الأحامس[1] يستطيع أن يجد دائماً فصلاً أو آية تبرر حتى المادة الأكثر غرابة (غروتسكية) في العقيدة أو في خطة العمل.

وفي الحقيقة، ليس مهما كم يظهر لنا انتقام شمعون ولاوي من شكيم مفرطا، فالتوراة توحي أن طريقة يعقوب وطريقة القاتلين ملائمتين، كل منها في وقتها. «لكل أمر أوان». ونقرأ في الفقرة الاحتفالية في سفر الجامعة «للحب وقت وللبغض وقت، للحرب وقت وللصلح وقت» (سفر الجامعة3: 1-8) ومن المأسوي أن لاتقول لنا التوراة ابدابوضوح او بتأكيد، كيف ومتى نختار بينهما. ان القطعة المحيرة من التكوين التي تظهر فيها قصة دينة، مثل الكثير في التوراة، يمكن أن تستخدم لاثبات هذا الاختيار أو ذاك.

---

1 والمفرد أحمس، من اليهود ضد الرومان (المغني الأكبر)

الفصل السادس
ثامار ويهوذا

.... «فسأل أهل موضعها وقال أين البغي التي كانت عند العينين على الطريق. قالوا ماكانت ههنا قط بغي». (سفر التكوين 38: 21)

إتكأت ثامار على جذع شجرة زيتون عند مفترق الطريق قرب مدخل القرية. وكان وجهها محجوبا بصورة متقنة، ووضعت بين ثدييها صرة فيها شيء من البلسم والمر شحذتها من احدى نساء القرية. وأخذ قيظ الظهيرة يجعل جسمها يتعرق تحت ردائها القطني الأزرق. وانتشرت رائحة المر والليمون والبرتقال الصادرة عن الأماكن الخاصة في جسمها وخضبت ردائها.

راقبت الطريق بعينين شبه مغمضتين منتظرة الرجل الذي يدعى يهوذا. فقد تناهى الى سمعها أنه كان في سبيله الى حفل في تمنة. واعتمدت على انها ستلفت نظره لدى مروره بها. واذا حدث ذلك فانه لن يتمكن من أن يعرف ثامار كنته. بل سيظن انها مومس عادية، وأكثر من ذلك، فان رغبته ستتحرك ويطلب منها الوصال في بستان الزيتون القريب.

وكان كل شيء يتوقف على مافكرت به ثامار بينها وبين نفسها.

........«وكان في ذلك الوقت يهوذا انفرد عن اخوته فنزل برجل عدلامي يقال له حيره» (سفر التكوين 38: 1) ورأى يهوذا هناك بنت رجل كنعاني اسمه شوع فتزوجها ودخل بها» (تكوين 38: 2)

وكان يهوذا قد جاء الى المنطقة قبل سنوات قليلة، وعاش كاسرائيلي وحيد مابين شعب كنعان الأصيل. وسعى لأن يترك مسافة بينه وبين أبيه المتصلب، شيخ القبيلة يعقوب، وعدد من اخوته الذين يتنافسون على ارضاء الرجل العجوز.

وكان مشهده وهو يقيم كغريب وسط الكنعانيين مقبولا له أكثر من الاقامة

في بيت أبيه. وكان ابن يعقوب المفضل، يوسف، قد هوجم من قبل بعض الحيوانات البرية حيث يرعى قطعان الرجل العجوز- أو هكذا قال اخوته الى يعقوب عندما عادوا من الهضاب القريبة حاملين ثوبه الملطخ بالدم. وكان اخوته يعزون والدهم ويتنازع أحدهم مع الآخر وهم يظهرون حزنهم، غير أن كل واحد منهم كان يراقب الآخر بعين قلقة: فهل يقول أحدهم للأب الحزين ماحدث بالفعل في المكان الذي اختفى فيه يوسف؟

لذا ارتحل يهوذا مبتعدا عن موضع أبيه في الريف الجبلي قرب مدينة الخليل، وانتقل ليعيش في الأراضي الواطئة حيث كان الكنعانيون يعتنون بحقولهم وبقطعانهم. ونصب يهوذا مع بعض من رجاله خيامهم في المرعى العائد لحيرة، قرب قرية عدلامي. وعندما اقترب حيرة ورجاله من الأرض التي احتلها الاسرائيليون وفي نيتهم امتلاكها، حياهم يهوذا برفع احدى يديه ووضع اليد الأخرى على السيف القصير الذي كان يتدلى من وسطه.

.... «فحملت وولدت ابناً فسماه عيرا، ثم حملت أيضاً وولدت فسمته اونان. وعادت أيضاً فولدت ابناً وسمته شيلة. وكان في كازيب حين ولدته.» (سفر التكوين 38: 3- 5)

وفي النهاية لم يسع حيرة الى طرد يهوذا وعصبته من الاسرائيليين من المرعى. وعملياً، رأى فرصته لجني الفائدة من هذا اللقاء. وحسب حسابه ورأى أنهم مثل القادمين الجدد، سيرغبون في طلب النصيحة لشراء الأرض والبضائع. لذا عقد حيرة صداقة مع الغريب وعرض عليه أن يبيعه منازل وحقولاً وقطعان. وأصبح يهوذا بعد فترة قصيرة سيد أرضه: وهي عبارة عن قطعة ارض مفتوحة، مزروعة بأشجار الليمون والبرتقال، وامتلك قطيعاً من الأغنام وآخر من الماعز. وبنى يهوذا بيتاً، وحفر بئراً، وأقام جداراً من الحجر ليحدد حدود أرضه. وزرع الحقول حنطة، وترك الماشية ترعى العشب في الوديان. وقبل مضي وقت طويل سمع أقرباؤه الفقراء بثروته، وأخذت خيامهم تظهر كالأزهار البرية حول المخيم. واقترن يهوذا بامرأة كنعانية، وهي ابنة صاحب أرض مجاورة اسمه شوع- وأنجبت ثلاثة أولاد ولم يلبث يهوذا حتى أصبح شيخاً هرماً يحف به الاسرائيليون المطيعون الذين بذلوا جهداً في كسب عطفه وحمايته رغم أنهم

كانوا في خدمة يعقوب.

وأرسل يهوذا الهدايا الى بيت أبيه في الخليل كاشفاً عن ثرائه: أنسجة كنعانية، وآنية فضية مشغولة، وغزال أو شاة- وبقي يهوذا يفضل الاقامة داخل جدران منزله ولم يرغب بمواجهة أبيه وهو يحمل عبء المعرفة الآثمة بشأن مصير يوسف الخادم في مصر- أو ربما، وعلى الأرجح أن يكون ميتاً.

ومرت الأيام، ويهوذا يواصل الاعتماد علىمعرفة حيرة باللهجة الغريبة عليه يتكلمها سكان المحلة الأصليين، وعلى اسدائه النصح بصدد طرائقهم في صنع كل شيء، بدءاً من جز الغنم وانتهاءً بحفر البئر. إلا أن يهوذا تعلم أنه لازال عليه أن يبقى تحت رحمة الاسرائيليين أصحاب اللحى البيضاء الذين علقوا أنفسهم كالعلق بخيمته، وذكروه، باستمرار بواجباته كشيخ مسؤول عن عشيرة «فالشريعة تنص على (كذا)» كانت اللازمة الموسيقية المملة، وكانوا يدفعونه بصورة متواصلة إما في هذا الاتجاه أو ذاك.

وأصر الكهول على «أن عبادة بعل مكروهة في عيني الرب». ولذلك منع يهوذا الكنعانيين الذين يعيشون في المخيم من التضحية لآلهتهم.

وصاح الكهول قائلين: «ان الكنعانيين قوم فاسقين يغوون شبابنا ويحولون صبايانا الى بغايا». فمنع يهوذا الاسرائيليين من زيارة مومسات المعبد اللواتي كن يقدمن أجسادهن بمثابة تضحية من أجل عبادة عشتار الهة الخصب، في المدن الكنعانية المزدهرة.

وتشكى الكهول قائلين: «يجب أن يتزوج ابنك البكر لكي تبقى عشيرتك باقية الى الجيل التالي». وذكروا يهوذا أن الحفيد يصبح حالة نادرة طالما أن زوجته قد كفت عن اعطائه أولاداً. وهكذا أخذ يهوذا يبحث عن زوجةٍ لابنه. وتحدث يهوذا في الأمر مع حيرة، ومالبث صديقه حتى ظهر على باب بيت يهوذا مع عرض يقدمه. وقال حيرة: «لقد وجدت زوجة مناسبة لابنك الأول، وهي زهرة كنعانية جميلة! وبامكان ابنك أن يثق بامرأة جميلة وذات رحم خصب».

«ربما كان عليّ أن أرسل الى بيت أبي سائلاً عن امرأةٍ من قومنا؟» ضحك يهوذا مازحاً وبين «أن ذلك مايقوله الكهول».

وهس حيرة قائلاً: «انهم جواسيس أبيك». وهذا ماكان يظن به يهوذا في قرارة

نفسه. وواصل حيرة كلامه قائلاً: «واذا ماسمحت لأبيك ان يلتقط زوجة لابنك، فانك تضع بذلك جاسوسة في فراشه. ومن الأفضل بكثير أن تختار ثامار».

وسأل يهوذا: «ثامار؟» فالاسم يعني «ثمرة التمر» وذكر ذلك يهوذا بالواحة حيث عقد هو واخوته صفقة مع أصحاب القوافل الذين حملوا يوسف معهم الى مصر.

.... «واتخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها ثامار» (سفر التكوين 38: 6)

وبين حيرة أن «ثامار هي المرأة التي اكتشفتها لكي تصبح عروساً لابنك الأول، واسمها ينطبق عليها. فهي تزهر حتى في الصحراء، وستحمل أحلى الثمار».

ولم تكن ثامار، منذ اليوم الأول لوصولها الى المخيم، مثل النساء الاسرائيليات اللواتي وجدت نفسها فجأة بينهن كعروس لابن يهوذا البكر. فباقي الصبايا بقين صامتات عندما مر يهوذا من أمام خيمة النساء. سحبن الأحجبة على وجوههن وتابعن يهوذا بنظراتهن، حتى اذا ما أصبح خارج مدى السمع، انطلقن في الثرثرة والقهقهة.

أما ثامار، فعلى العكس، تجاهلت شيخ القبيلة- أو هكذا بدت- وواصلت حديثها بصوت كان- بشكل ما- عالياً جداً، وقوياً جداً. ومع أنها، كمرأة متزوجة، لم تكن مهتمة بحجابها، سمحت بجرأة لعمها-والد زوجها- أن يرى وجهها غير المحجب، وأحياناً ابتسمت، أو حتى أنها ضحكت اثناء وجود جماعة من الرجال!

استشاط بعض الشباب غضباً من ثامار، في حين أعجب غيرهم بجرأتها ولكن بصورة سرية. ولكن اذا ما لاحظ يهوذا أن كنته أجرأ من الأخريات- وعملياً، اذا رأى يهوذا الشابة ذات العينين السوداوين بالصدفة، فانه لم يظهر أنه رآها أو لاحظ وجودها.

وليس بعد زواجها من عير بوقت طويل، انقلبت ثامار الى موضوع شفقة بدل الغضب والاهتياج. فهي كزوجة لعير، الذي كان مقرراً أن يصبح شيخ القبيلة حين يؤون الأوان، تصبح هي أم العديد من الأولاد الأقوياء. ولكن زوجها غادر المخيم ذات يوم في مهمة، ولم يزعج أحد نفسه في الافصاح عن طبيعتها لثامار، ولم يعد أبداً. ووجدت ثامار، الزهرة الكنعانية الجميلة ، نفسها أرملة بلا أطفال

في وسط الاسرائيليين.

ولم يتكلم أي امريء في هذا الأمر ممن يعرفون المصير الذي آل اليه ابن يهوذا الأول، وكان يهوذا نفسه صامتاً ازاء هذا الموضوع- إلا أن ثمة اشارة لفضيحة كانت تكمن وراء هذا الاختفاء الغريب.«فقد كان شريرا في عيني الرب». هذا كل ماكان الكهول راغبون في قوله، «ان الله أماته».

.... «وكان عير بكر يهوذا شريرا في عيني الرب فأماته الرب» (سفر التكوين 38: 7)

وكأن ذلك يفسر كل شيء ! واشتكى الاسرائيليون كل منهم الى الآخر. فما الذنب الذي اقترفه عير على وجه التحديد بحيث أنزل فوقه غضب الرب؟ هل ضحى الى آلهة الكنعانيين وذهب في لهيب الحمل المضحى به؟ أو، من المعقول أكثر، أن يكون قد وجد في فراش لايمت له بصلة، وعانى، بسبب ذلك، من غضب أب منتقم أو زوج؟ أما ثامار التي عرفت تماماً أن درجة حرارة زوجها لم ترتفع في الفراش، لم تفكر كثيراً في أي من التفسيرين. ولعلها فكرت بينها وبين نفسها، أنه وقع ميتا بضربة من أحد الشباب الكنعانيين الغاضبين الذين لم يشاركوا حيرة تعاطفه مع الغرباء الذين يعيشون بينهم.

استدعى يهوذا ثامار لعنده مرة واحدةً بعد موت عير. ولاحظت أن عمها لم ينظر اليها أبداً، وكان يتجنب النظر اليها وكأنه مرتبك، إلا أن الرجال الكهول الثلاثة الذين كانوا يحومون حول كرسيه درسوها بتطفل وازدراء صفيق. وأعلن يهوذا بشيء من الخشونة: «سوف لن ننساك، وسيقوم ابني الثاني بما هو ملزم بفعله».

فقالت:« أنا آسفة ياعمي، غير أنني لم أفهم ماتقول».

-«هدوءا ايتها الفتاة!» هس أحد الكهول.

«بالطبع لم تفهم، انها فتاة جاهلة وثنية فقيرة» بدأ الكلام عجوز آخر. وعندما استأنف الكلام قائلا: «ان الشريعة تنص على.. » توقف عن الكلام، وحرر حنجرته بصوتٍ عالٍ وتكلم مدمدماً بنبرة رتيبةٍ بدت وكأنها قصف رعد من بعيد. «سيأتي اونان الى خيمتك، ويضطجع معك، ويؤدي واجبه باعتباره أخاً لزوجك» قال ذلك صاحب اللحية الشائبة مستخدماً كلمات عبرية طنانةٍ رنانةٍ

من الشريعة في وصف المصير الذي ينتظر ثامار الأرملة.

«ومع أنك لن تتزوجي اونان ابداً، فان الطفل الناتج عن اتحادك به سيعتبر ابن حقيقي من زوجك المتوفي. وسيأخذ الطفل اسم زوجك الميت ويأخذ ميراثه ايضا».

.... «فقال يهوذا لاونان إدخل بامرأة أخيك فتزوجها واقم نسلاً لأخيك» (سفر التكوين 38: 8)

.... «وعلم اونان أن النسل لايكون له فكان اذا دخل على امرأة أخيه أفسد على الأرض لئلا يجعل نسلاً لأخيه» (سفر التكوين 38: 9)

«وهكذا، يصبح بإمكانكِ أن تبقى بيننا وتربي الطفل» قال الرجل العجوز الأول بصوتٍ بدا منعشاً بالمقارنة مع الآخرين.

«كفى!» قال يهوذا، وسمح لنفسه باختلاس نظرةٍ من الوجه المغطى، وأضاف قائلاً: «بإمكانك أن تذهبي يابنتي».

راقب الكهول ثامار وهي تخرج من البيت ثم اقتربوا برؤوسهم من بعضهم بعضاً من خلف يهوذا. وقال أحدهم:

«فلنصلي من أجل أن تثمر هذه الولادة أكثر من الولادة الاولى». وقال آخر: «من أجلها ومن أجلنا أيضاً».

حملق اونان من ظل الخيمة حيث سلمه أبوه مهامه. وكان قد استحم قبل قليل، ومسح نفسه بالزيت الطيب، وتزين بلباس العرس، واستلقت هي فوق المنسوجات المكومة فوق الأرض- وهي تشكل الفراش ذاته الذي استلقت فوقه ذات مرة مثيرة اهتمام أخيه الأكبر.

«إذهب اليها» طلب يهوذا من ابنه الثاني «وخذ محل أخيك بين ساقيها». وعندما شد اونان جلد وجهه لدى سماعه هذا الاقتراح، ضحك يهوذا بصوتٍ عالٍ وقال: «لن يكون الأمر بهذا السوء، ثق بذلك!»

ولاحظ اونان أثناء تمهله ثوب أخيه المألوف والمعروف، لازال معلقاً كواحدٍ من الأثواب في الخيمة.

وسأل بصوتٍ أجش: «هل أنتِ مستعدة؟» فهزت ثامار برأسها موافقة دون أن تتكلم.

فقال وهو يقترب من فتحة الخيمة: «أما أنا فلا».

كانت ثامار فاتنة بشكل كبير- لم يخطيء اونان في ملاحظة العينين الداكنتين المشعتين من وراء الخمار حتى عندما كان عير حيا يرزق- وكانت فكرة مضاجعة أرملة أخيه تعذبه لأنها محرمة في ظل اية ظروف أخرى. إلا أن يهوذا فسر موضحا النتائج المباركة للحظة من المتعة مع ثامار. ولم يستطع اونان أن يحرر نفسه من فكرة أنه في سبيله لفعل شيء ليس في صالح ثروته الخاصة.

فكر اونان في البدء أن موت أخيه كان ضربة حظ. فقد كان عير متعجرفا جدا، وكسولا جدا، يفرض نفسه دائما على اخوته لأنه كان ثريا، لأنه ولد قبلهم. والآن، وقد مات عير، وكان اونان هو الذي أصبح يرث أراضي يهوذا ومنازله وقطعانه وكأنه الولد الأكبر. وهو سيصبح الزعيم الثاني، وسيصبح المحل الذي يحتله يهوذا محله في يوم من الأيام.

واذا ماقام اونان بواجبه في خيمة ثامار، ونجح في جعل ثامار تحمل طفلا، فان حق الولادة لأخيه الميت لاينتقل الى اونان، بل ينتقل الى الرضيع الذي أوجده هو مع أرملة أخيه، والنغل الصغير الفاجر سيكبر ليعامل أبيه الحقيقي كخادم لا أكثر!

« اللعنة!» قال اونان بصوت عالٍ.

«سيدي؟» نادته ثامار. وهي حتى اذا ماخافت منه، فلن تظهر ذلك.

«ماذا تريدين؟»

«تعال الي» قالت ثامار بصوت عذب «وأنا سأساعدك..»

حدق بها اونان في الضوء الخافت في أواسط الصيف، ولاحظ أن ثامار قد خلعت خمارها وثيابها وتمعن في شكل صدرها، وانحناء وركها، وساقيها النحلين. وأخيرا اقترب ، وانزلق الى جانبها، وأخذ يلمسها.

لم تقل ثامار شيئا، بل حاولت أن تتوقع ماكان يرغب به صهرها، إلا أن اونان دفع يدها الناعمة عنه وأمسكها بشيء من الخشونة، وكأنه كان غاضبا. ولكز اونان جسد ثامار بتطفلٍ وحشي، ومن ثم إمتد، وثامار مذهولة، وأخذ يعبر عن رغبة ملحة.

رأى اونان نظرة الدهشة في عيني ثامار.

«اذا أردت من أن أقوم بواجبي» قالها وهو يشجعها على اتخاذ القرار «اسمحي لي أن أكون» وصمت للحظة ثم قال: «فقط، على ظهرك! اسمحي لي..»

لم ترتجف ثامار مثلما ارتجفت هذه المرة لدى دخوله فيها، وشعرت بنوبة توتر تجتاحها أكثر من شعورها بفورة نشاط ومتعة، وتقطعت أنفاسها تحت ثقل جسمه الساكن. غير انها شجعته بيدها الرخصة التي لامست رقبته من الخلف وبكلماتها العذبة ذاتها التي همست بها ذات مرة في أذني أخيه.

وواست ثامار نفسها بالفكرة الوحيدة التي كانت تفكر بها بصورة واضحة تماماً حتى عندما كان اونان يعمل فوقها: سيؤمن الولد لثامار موقعاً مناسباً في مخيم الاسرائيليين. إن ولداً من صلبها سيضمن لها مكاناً في بيت يهوذا، ومقعداً على مائدته، وفرصة لكي تعيش، وحتى لكي تزدهر. وقالت لنفسها، ان ولداً لي هو الحياة نفسها.

كان اونان متقطع الأنفاس من فرط سعادته، إلا انه حذر نفسه من مغبة الاستسلام لنزوة تقضي عليه.

«آه!» بدأ يتأوه «آه، آه-»

«نعم، نعم، نعم» قالت ثامار بلطف.

ابتعد قليلاً عن جسدها بأمر من دماغه، وانسل الى الوراء ساحباً نفسه منها، ثم أمسكت بخناق كل منهما دهشة للحظة مزعجة- صب ماعنده في ثلاث دفقات مرتعشة، وسفح بذرته على أرض الخيمة في دفقة من الرغبة الضائعة.

صرخت ثامار حالما أدركت مافعله بـ«لا»، إلا أن الوقت كان متأخرا جداً. وبدأت تنتحب، وكانت دموعها حارة وغاضبة: «أيها الخنزير..»

اصطبغ اونان باللون الأحمر خجلاً، ولم يعد يستطيع أن يفكر بأي شيء آخر يمكن أن يفعله بغير صفعها على وجهها لتسكت. إلا أن الضربة الضعيفة الطائشة لم توقف غير دموعها، وبقيت تتكلم: «أيها الخنزير!» قالتها مرة أخرى.

نهضت ثامار ولملمت ثوبها ولفت به وسطها لكي تغطي به عريها، ودارت ظهرها له. ثم ارتدت ملابسها بسرعة في زاوية مظلمة في خيمتها في الوقت

الذي كان فيه اونان يراقبها. وأخيراً نهض هو الآخر، وسار باتجاه باب الخيمة، ثم توقف عند العتبة ونظر الى المخيم.

«عاهرة» قالها كمن يبصق، مع أن ثامار كانت أبعد كثيراً من أن تسمعه. واصابته حمى في اليوم التالي، وكأن ثامارتمنت أن تصيبه، ولم يسمح له المرض أن يتحرك. وغرق المخيم في تلك السكينة الغريبة التي تميز حدوث المرض. هل هو الطاعون؟ ومن سيقع مريضاً ويموت؟ وما التقديمات والتضحيات التي يجب تقديمها، على وجه التحديد، من أجل حفظ صحة الآخرين؟ وبدا وكلأن الأطفال اختفوا في الخيام والمنازل وحول المخيم، وكأنهم يتحاشون ازعاج الشاب المريض بصوت لعبهم، وحتى يهوذا نفسه لم يعد يراه أحد لفترة سبعة أيام.

...........« فقبح مافعله في عيني الرب فأماته أيضاً» (سفر التكوين 38: 10)

واخيرا انسلت الكلمة من بيت يهوذا بأن اونان مات. وانتقل الهامسون، بعدئذٍ من خيمةٍ الى أخرى وكانوا أكثرتحديداً في القول بأن يد اله اسرائيل، الألوهية التي يعرفها الاسرائيليون باسم يهوه، قد صرعت إبنين من أبناء يهوذا. فما الشر الذي صنعه اونان واستدعى أخذ روحه من قبل اله اسرائيل المنتقم الجبار؟ وهل لعبت ثامار دورا في موت رجلين ذهبا الى فراشها؟

استدعى يهوذا ثامار الى منزله للمرة الثانية. وكان هناك ايضاً كبار العشيرة، وكان بينهم حيرة. تكلم يهوذا بهدوء:

«إن بيت يهوذا سيقوم بواجبه مرة ثانية ازاء ثامار. وسيرسل ابنه الأصغر الى خيمتها حالما يكبر بشكل كاف. وحتى يحين ذلك الوقت فانها ستعود الى قريتها وتنتظر».

وطلب يهوذا من حيرة أن يأخذها الى والدها.

وأضاف أحد الكهول قائلاً: «وذكره أنها يجب أن تعيش وفق سبيل جدير بامرأة أرملة ومخطوبة».

تابع يهوذا بنظراته تجاوز صديقه القديم وكنته عتبة بيته، ثم أنتابه فجأة شعور مبهم.. فقد شعر أن لهجة الكنعانيين وألبستهم وطقوس عبادتهم، وكل طرائقهم غريبة وغامضة وخطيرة. وشعر أن ثامار القاسية جداً والكئيبة مخلوقاً أقرب لأن تكون عنكبوتاً من أن تكون امرأة. وأخذ على نفسه عهداً: أن يمنع ابنه

الثالث، ابنه الأخير، من السقوط في فراشها الملوث.

وقال الى الرجال أصحاب اللحى البيضاء: «لتبقى أرملة في بيت أبيها» واستخدم العبارات القديمة في اللغة العبرية قائلاً: «خوفاً من أن يموت شيلة مثل أخويه».

..............فقال يهوذا لثامار كنته: «أقيمي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني لأنه قال لعله يموت هو أيضاً كأخويه. فمضت ثامار وأقامت في بيت أبيها» (سفر التكوين 38: 11)

«ولما طالت المدة ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا وسلا يهوذا بعدها وصعد الى جزاز غنمه في تمنة هو وحيرة صاحبه العدلامي» (سفر التكوين 38: 12)

مرت سنة، وبدت لحية شيلة تنمو- أو هكذا علمت ثامار من اشاعات الناس الذين يمرون في قرية والدها- إلا أنها لم تستدع الى مخيم الاسرائيليين. وكانت تمشط شعرها الأسود الطويل كل صباح وكل مساء، وكأنها تعد نفسها لخطيبها. ثم لاحظت في أحد الأيام، أن بضع خصل شعر فضية ظهرت فوق صدغيها. وأقسمت ثامار ذات يوم أنها لن تنتظر أكثر ماهو حق لها: ولد ومكان في بيت يهوذا.

ولم يمض طويل وقت حتى بلغها على لسان أحد الرجال في قريتها وكان يرعى قطعان الاسرائيليين، أن زوجة يهوذا قد ارتاحت. فباتشاع لم تعطه غير شيله، ومؤخراً انتفخ بطنها انتفاخاً فاسداً، وعانت لفترة طويلة ثم ماتت، وخضع يهوذا لطقوس الحداد مع أن باتشاع كانت كنعانية مثل ثامار.

قال الراعي الى والد ثامار: «الآن وقد انتهى من احدى نسائنا، فقد انطلق مع صديقه الوفي ليسكر مع آخرين».

أصغت ثامار الى الحديث الجاف وهي تعمل بالابرة والخيط في ثوب أزرق عتيق. وقال أبو ثامار: «ربما سيجد أخرى لكي تصبح زوجة له». وقال الراعي بخبث: «انه سيجد نساء كثيرات في تيمنة».

وكما تعرف ثامار، فان الرعاة في تمنة- وعدد غير قليل من أصحاب الأراضي الذين استأجروهم- يجتمعون لجزصوف أغنامهم، وعندما يجمعون الصوف وينتهي العمل الشاق، يقيمون احتفالاً يدوم لبضعة أيام. وهناك تجد الخمور

والعاهرات، ويتمتع الرجال بالخدمات والبضائع. وفكرت ثامار أن حيرة يعرف كيف يواسي يهوذا حاد الطبع بطريقة حيوية أكثر مما يسمح أصحاب اللحى البيضاء.

وسأل ابو ثامار الراعي: «ومتى ستعود الى العبرانيين؟»

«ليس قريباً» أجاب الرجل «ذلك أن يهوذا يغادر الى تمنة في فترة ثلاثة أيام، ولن يعود قبل أن يطلع القمر الجديد. وأنا سأبقى هنا حتى ذلك الحين ، اشرب مع جماعتي على سبيل التغيير.»

ولازالت ثامار تغرز الابرة بصعوبة في القماش الأزرق في حضنها. وظهر تحت اصابعها، وهي تقوم بعملها، جسم قاس معلق بخيط فضي أنيق وكأنه سحر.

وعندما كان يهوذا يسير في الطريق الى تمنة والى جانبه حيرة رأى شخصاً من بعيد، امرأة ترتدي ثوباً أزرق وتستند الى شجرة زيتون عند المفرق. وجعلته حرارة الشمس، بعد ظهر ذلك اليوم ووقع خطواتهما، في حالة من النعاس. وحتى حيرة صار صامتاً والشمس تسقط اشعتها مباشرة فوق الراس. وهكذا ظهرت المرأة الخادعة على جانب الطريق وكأنها في حلم.

.... «فخلعت ثياب إرمالها وتغطت بالخمار وتنقبت وجلست في مأتى العينين على طريق تمنة اذ رأت شيلة قد كبر ولم تزوج به. فرآها يهوذا فحسبها بغيا لأنها كانت مغطية وجهها» (سفر التكوين 38: 14و15)

وليس قبل الاقتراب من المفرق رأى يهوذا أن الشخص كان امرأة شابة نحيلة بشعر أسود طويل، تغطي وجهها كمرأة متزوجة، إلا أنها تلبس كعاهرة عمومية. وعندما اقترب أكثر شم يهوذا رائحة عطر المرأة، ورأى العضلات القوية لربلة فخذها وهي تستلقي في ظل الشجرة، وتخيل، وهو في حالة خدر عام، أن عينيها الداكنتين تشعان بضوء معين.

«حيرة، ياصديقي الطيب، أظن أنني سأريح قدمي لفترة ونلتقي فيما بعد» قال يهوذا لصاحبه عندما اقتربا من مفترق الطرق.

«يجب أن نواصل سيرنا اذا كنا نريد أن نصل الى تمنة قبل حلول الليل» عنف حيرة يهوذا بلطف. ثم رأى نظرة يهوذا الجائعة، فضحك بصوت عالٍ وضرب يهوذا على ظهره وقال:

«كن صبورا، ياصديقي، وبعد فترة قصيرةٍ سيكون بامكانك ان ترتاح مع سبع نساء في وقت واحد».

إلا ان يهوذا كان قد انتحى جانباً وأخذ يخطو باتجاه المرأة الملثمة. فوقف حيرة، وهز كتفيه ونادى يهوذا قائلا:

«سأنتظرك عند المنعطف. لاتتأخر».

وعندما اقترب يهوذا، بقيت الفتاة متجمدة في مكانها وصامتة، تلف ذراعيها من حول ركبتيها، وعنقها مائل قليلاً نحو الأرض. ولولم تكن مرتدية ملابس عاهرة عمومية، لظن يهوذا أنها خائفة من رجل غريب يتجه نحوها .

قال يهوذا بصوتٍ أجش: «دعيني أضطجع معك ايتها المرأة!»

.................«فمال اليها الى الطريق وقال هلم أدخل عليك لأنه لم يعلم أنها كنته. فقالت وماذا تعطيني حتى تدخل علي؟» (سفر التكوين 38: 16)

«قال أبعث بجدي معز من الماشية. قالت أعطني رهناً الى ان تبعث» (سفر التكوين 38: 7)

ولم تجب الفتاة، وتساءل يهوذا للحظة إن كان قد اخطأ في تصوره لها كمومس. ولكنه، وقد شعر بألم الاهتياج العصبي في تجويف معدته، ولم يستطع أن يتجاهل جوعاً ملحاً وغامضاً. إنها بالطبع عاهرة! الثوب المغري الذي ترتديه، ورائحة العطر القوية التي تفوح من جلدها، والقلادة المعلقة مابين ثدييها انما تعود الى امرأة غير محتشمة.

«اسمحي لي أن اضطجع معك» طلب يهوذا ثانية.

وعندما نظرت الفتاة أخيراً الى وجه يهوذا، سألت بصوت واضح وواثق:

«ماالذي تعطيني اياه ، بعدئذٍ، مقابل اضطجاعك معي؟»

أدهش تبلد أحاسيسها يهوذا-وادهشه أكثر ادراكه انه يساوم عاهرةً جلفةً مثل العامل في الحقل. فماذا يقول أصحاب اللحى البيضاء؟ ومع ذلك فقد شعر بالدوار الى حد ما، وهو يتخيل لحظة المتعة التي عرف أن من غير الممكن تجاهلها بصرف النظر عن الثمن الذي تطلبه الفتاة.

قال: «جدي صغير من القطيع». وقال في نفسه: «انه ثمن كبير، بالمقارنة مع مايعرف عن أن أجر العاهرة لايتجاوز ثمن رغيف خبز أو مايعادله من النقود

النحاسية. غير أنه أراد أن يترك انطباعاً لدى الفتاة عن ثروته وكرمه، حتى لو كانت قد لبست أكثر من عاهرة عمومية. وتذكر يهوذا أن المرأة ستكون متقدة أكثر اذا عرفت أنه غني وقوي. وعلى العموم، فقد كان حيرة هو الذي يحمل كيس نقوده، وهما في طريقهما الى تيمنة، وهو لايملك أي نقد يقدمه لها.

وسألت: «أين الحيوان الصغير؟» وصار صوتها الآن أجرأ وآمراً أكثر من ذي قبل، وهي تتحسس كم كان متحمساً لاشباع رغبته من جسدها. وقالت أنها لاترى الحيوان.

«هل تظنين أنني راعٍ؟» سأل وهو ساخط ولحوح «لقد تركته مع الآخرين الذين يرعون قطعاني. إلا أنني سأمسك جدياً سميناً عندما أعود الى البيت، وأرسله اليك.»

_ ومالذي يدريني أنك ستبهج نفسك الآن، ومن ثم تنساني؟

..........«قال أبعث بجدي معز من الماشية. قالت أعطني رهناً الى أن تبعث. قال ماالرهن الذي أعطيكيه. قالت خاتمك وعمامتك وعصاك التي بيدك» (سفر التكوين 38: 17و18)

«ماذا؟» سأل يهوذا وقد استثير بصورة مفاجئة «هل تظننين أنني محتال؟»

درست ثامار وجه يهوذا: عينيه الغائرتين، وجلده المتغضن، ولحيته السوداء الداكنة، وخديه المتورمين وقد اصبحا حمراوين من الخجل. وكان بإمكانها أن ترى أنه كان غاضباً، إلا أنه كان أيضاً بأمس الحاجة لها بحيث أنها لم تعد ترتاب في امكانية الحصول على ماتريد منه.

«اعطني رهناً حتى ترسل الجدي» طلبت ثامار متلاعبة، وأضافت: «وأنا سأعطيك ماتريد».

«رهن؟» وتساءل يهوذا مرتبكاً: «هل تمزحين؟»

« شيء ذو قيمة» وضحت ثامار، وهي تهز كتفيها بحيث اهتز صدرها قليلاً تحت قماش فستانها، «أحتفظ به حتى ترسل ماوعدتني به».

كان العرض سخيفاً، لا بل مضحكاً، إلا أن يهوذا لم يضحك، وسأل بالحاح: «ماذا أستطيع أن أرهن؟»

- أعطني خاتمك.

رفع يهوذا يده ولمس القسم الزجاجي المعلق حول رقبته.

وكررت ثامار القول: «تعطيني خاتمك، وعصاك أيضاً كرهن على الجدي. ومن ثم أمدد ساقاي من أجلك».

واذا سكت يهوذا لفترة طويلة فانما لكي يفكر في الأمر ملياً، ويدرك مبلغ المخاطرة والتهور في تسليم الخاتم الى مثل هذه العاهرة العمومية. فقد كان الخاتم الوسيلة التي استخدمها يهوذا في مهر اسمه على لوح فخاري أو على لفافة بيبروس يحضرها حيرة احياناً لتوثيق شراء قطعة أرض جديدة أو بيع محصول الموسم من الصوف. انه العلامة الرئيسية على الشخصية والسلطة. وبدا أن الطريق الى تمنة والعودة منها أطول من دون عكاز، غير أن يهوذا كان يفكر فقط في رائحة العطر التي تفوح من جسد الفتاة- كان يفكر فقط بالمكان الظليل مابين ساقيها وهو يقف أمامها في الجو الحار المليء بالغبار.

.... «فأعطاها ودخل عليها فعلقت منه» (سفر التكوين 38: 18)

«موافق» قال يهوذا، تاركاً الرباط الجلدي للعصا يقع على الأرض الى جانب الفتاة. ثم سحب الحبل من فوق رأسه ورماه عند قدميها وهو يقول: «هلمي بنا!»

تناولت ثامار الحبل وأحكمت قبضتها حول الخاتم. ثم وقفت على قدميها وقادت يهوذا نحو العمق في حقل الزيتون على سفح الهضبة التي تشرف على مفترق الطرق. واستلقت على الأرض تحت شجرة كبيرة ورفعت أطراف ثوبها لتكشف عن كعبها وركبتها وفخذها- ثم توقفت وانتظرت.

عض يهوذا على شفته السفلى وأخذ يتنفس من أنفه وهو ينحني فوق التربة المرصوصة. ومد يده ليلمسها بلطف كبير جعلها تفكر للحظة قلقة إن كان يهوذا يعرف تماماً انها ليست مومس.

« أيها السيد»، صرخت عندما شعرت بإصبعه تلامس جسدها. لم يكن هدفها أن تحصل على أية متعة، إلا أنها أخذت فجأة تبدي اهتماماً بجوع غريب يخصها هي «آه، أيها السيد..»

لمسها يهوذا برقة أخذتها على حين غرة. وعندما استسلمت لملاطفته الملحة، فكرت ثامار قائلة لنفسها: «آسفة أن الأولاد لم يتعلموا مايعرفه الأب بشكل جلي».

وهمست قائلة: «هل أنت مستعد الآن أيها السيد؟»

انحنى أكثر فوق جسدها وبدأ يتحرك حركة قصيرة وقوية ومنتظمة. مرة، ومرتين، وثلاث مرات، وأيضا وايضا.

ومن ثم عندما تجاوبت معه بالحاح مماثل، سقط خمارها وانكشف وجهها. هل كان سيعرفها؟ وتساءلت ان كان سيستثار إن عرفها؟ وهل أخذ يثابر بعزيمة أكبر لأنه عرفها؟

وعندما استنفد كل منهما الآخر، وبعد أن استلقى على الأرض بجانبها عجلت ثامار بتثبيت الخمار على وجهها مرقثانية، وحملت أفكارها فوق أجنحة، وكأنها صلوات: «تمسكي» قالتها الى البذرة التي كانت في طريقها لأن تزرع نفسها داخل رحمها.

استلقى يهوذا الى جانبها لفترة طويلة أخرى، يهزها بلطف بساعده القوي. ثم وقف على قدميه، ونظر اليها وقال ممازحا وبصوت عال: «سيظن الناس في الطريق انني شحاذ من دون خاتمي وعصاي».

وقالت هي: «اذن يجب أن ترسل لي جديا كما وعدت. وتأكد أنه صحيح الجسم وقوي».

استندت ثامار الى جذع الشجرة العتيقة وراقبت يهوذا وهو يبتعد مسرعا، ويسير منتصبا لأن ليس لديه عكازا يتكيء عليها، ولفت ذراعيها فوق بطنها.

.... «ثم قامت فمضت ونزعت خمارها ولبست ثياب إرمالها» (سفر التكوين 38: 19) «وبعث يهوذا بجدي معز مع صاحبه العدلامني ليفتك الرهن من يد المرأة فلم يجدها»(سفر التكوين38: 20)

عاد يهوذا من تمنة بروح معنوية مرتفعة. فالقطيع تكاثر، وكان محصول الصوف كبيرا ومن نوعية جيدة، وأخذه حيرة الى الأزقة والحواري المضاءة خيامها بالمصابيح، وتذوق أقوى الخمور، ولحم الغنم المدهن، والنساء المغريات. وكان بالامكان رؤية يهوذا وهو يمشي بخطوات سريعة في المخيم ولايستطيع أصحاب اللحى البيضاء مجاراته.

وقال أحد الكنعانيين الذين يخدمونه على المائدة: «لم يعد يهوذا حاد الطبع». ومع ذلك لم ينس يهوذا الفتاة عند المفرق، وبدأ يعذب نفسه بفكرة أنها

قد تظهر على باب بيته طالبة ماهو مدين به لها. ويا للفضيحة التي ستحدثها، ليس بين النساء الثرثارات في المخيم وحسب، بل وسط أصحاب اللحى البيضاء، بصورة خاصة أيضاً. وباعتبار أنه يعرف انه سيتكلف قليلاً في فك رهنه، فقد طلب من حيرة أن يأتي الى غرفته.

وسأله يهوذا بصوت منخفض:« ألا تذكر المراة عند مفترق الطرق قرب العينين؟»

«لبغي التي أعطيتها خاتمك وعكازك؟» وعيره حيرة مضيفاً: «نعم ياصديقي، فأنا نسيت كيف أصبحت تيساً عجوزاً طائشاً».

فاعترض يهوذا قائلاً: «انها لم تكن بغياً عاماً، بل كانت مومس من مومسات المعبد.»

ضحك حيرة بصوتٍ عالٍ وقال: «ماالذي تعرفه عن نساء المعبد، ياصديقي العبري؟ وهل قدمت تقدمةً الى بعل قبل أن تصلي مابين ساقيها؟ كلا يايهوذا بن يعقوب، لاتخطيء، لقد كانت بغياً، وهذا كل شيء. والأمر الآن هو أن العاهرة تحتفظ بخاتمك.»

«اصغي الي، وافعل ما أقوله لك» قال يهوذا بجد، وأضاف: «خذ جدياً من القطيع. امسك واحد يكسو اللحم عظامه. ثم خذه الى البغي عند العينين، واسترجع خاتمي وعكازي.»

رسم حيرة صورة ابتسامة على وجهه وقال: «سأرسل بالطبع أحد رجالي..»

«كلا ياصديقي القديم، يجب أن تذهب أنت بالذات».

«أنا؟» بهت حيرة وهو يسأل: «هل تتوقع مني أن أذهب وأبحث عن عاهرة من العاهرات وفوق ظهري جدي؟»

فقال يهوذا متشكياً: «ان رجالك سيلقون ضوءاً على كل المسألة. وستسمع الطنين على الفور في خيم النساء. أنا بحاجة اليك في هذه المهمة. هل فهمت علي؟»

هز حيرة برأسه وهو يكشر. ودلت الانعطافة البسيطة التي رسمت على فمه انه فهم الأمر بصورة جيدة.

.... «فسأل أهل موضعها وقال أين البغي التي كانت عند العينين على

الطريق. قالوا ماكانت ههنا بغي» (سفر التكوين38: 22) «فرجع الى يهوذا وقال لم أجدها وأهل الموضع أيضاً قالوا ماكانت ههنا قط بغي. فقال يهوذا لتذهب بما عندها لئلا يلحقنا خزي فاني قد أرسلت الجدي وأنت لم تجدها» (سفر التكوين38: 23)

سمع يهوذا حوالي غروب الشمس في اليوم التالي لذهاب حيرة الضجة التي ترافق دائماً وصول زائر الى المخيم. فامتنع يهوذا عن الاسراع في الخروج من المنزل للقاء حيرة، وانتظره بدلاً من ذلك على عتبة الباب.

رأى يهوذا من مسافة بعيدة نوعاً ما أن حيرة يحمل شيئاً حول رقبته يشبه شالا أسود. ولخيبة أمله رأى أنه الجدي الذي اختاره حيرة من القطيع ليعيد به رهن يهوذا.

فطلب قائلاً: «لِمَ عدت به بدلاً من خاتمي وعكازي؟»

سألت عن المرأة عند العينين، إلا أنني لم أجدها!

من سألت؟

الرجال في العينين. سألت عن المكان الذي يمكنني أن أجد فيه مومس المعبد جالسة عند مفترق الطرق، وقالوا لي، أنه لايوجد مومس معبد هناك.

أقفلت حنجرة يهوذا، فهو يعرف بصورة تامة أن المرأة التي تتمسك بخاتمه وعكازه كرهن لم تكن عاهرة عامة، ولم تكن مومس معبد. وضايقه أن يكون حيرة قد سأل عن امرأة أخرى. فتساءل يهوذا: «ولكن ماذا تقول اذا لم تكن المرأة مومس معبد فعلاً؟» فضحك حيرة بصوتٍ عالٍ وقال: «هاأنت تعترف بذلك!»

«اللعنة عليك ياحيرة» تمتم يهوذا وهو يقول: «لأنك تمزح معي بهذا الأمر».

«لاتقلق ياصديقي» قال حيرة «فالمرأة ان كانت مومس معبد أو عاهرة عامة- ذهبت منذ أمد بعيد، وخاتمك وعكازك ذهبا معها. فانس كل شيء يتعلق بها».

ولكن المسألة مسألة شرف.

وأنت وفيت بوعدك، أليس كذلك؟

وسمح يهوذا لنفسه بأن تهدأ فقال: «أنت على حق، فأنا أرسلت الجدي، وماالذي أستطيع أن أفعله أكثر من ذلك؟ فلتحتفظ بالرهن الى ماشاء الله،

وليس بإمكان أحد أن يزعم أنني حنث بوعدي».

وقال حيرة شاكياً: «يجب أن تعطيني شيئاً أشربه أو أن أروي عدداً من الروايات التي تخصني».

أخذ يهوذا صديقه الى المنزل ولوح بيده الى أحد الخدم، وقال في نفسه أن العاهرة تملصت بشكل مناسب، وأنه سيطلب من حيرة في الغد أن يرتب مع الحرفيين في القرية أمر صياغة خاتم جديد وصنع عكاز جديد ايضاً. وماذا اذا كانت كلفة هذه المواد أكثر من ثمن الجدي الذي بعث به ليحل محل الرهن الضائع؟ ومع ذلك فان الحقيقة تقول أن المومس قد ابتعدت عن مشهد الفضيحة في بيت يهوذا.

فكر يهوذا بين الحين والآخر بالمومس التي كانت تجلس على جانب الطريق، إلا انه فكر بالقطيع وبالمحاصيل، وبمطالب ابناء عمومته الملحة، وفي اصلاح جدران منزله. وواصل يهوذا القول لنفسه، ليس غير حيرة عرف ماحدث عند تقاطع الطرق، وبالتالي فان سره محفوظ في مكان أمين. وطالما ان أحداً لايجرؤ على الكلام في حضور يهوذا، فهو لم يشك في أن المخيم وخيم النساء غارقة في التأمل- على الأقل لفترة اسبوع بعد عودة حيرة مع الجدي فوق كتفه.

وعملياً، فان القصص الهامة بشأن الموضوع الذي حث يهوذا على ارسال حيرة الى العينين بالدرجة الاولى، قد حلت محلها فضيحة جديدة وملحة أكثر من غيرها. فقد رحلت احدى العجائز الى قرية والد ثامار لحضور حفل عرس، وعادت الى مخيم يهوذا بأكثر الأخبار أهمية. إن ثامار تحمل بطفل. وثرثرت محدثة جلبة وهي تقول أنه «يجب أن يكون شيلة الصغير قد انزلق الى جانبها». وأضافت عندما ضحكت الأخريات، بأنه «قام بواجبه بعد كل ما جرى».

طبعاً، لم يكن بالامكان أن يكون شيلة هو الفاعل، فلم يبلغه أحد بوعد يهوذا- والحق أن يهوذا كان لايزال خائفاً من الشؤم الذي يسمع في النكات الغليظة التي يرويها أصدقاؤه ويذكر فيها اسم ثامار.

.... «بعد مضي أشهر أخبر يهوذا وقيل له قد باغت ثامار كنتك وهاهي حامل من البغاء» (سفر التكوين38: 24)

ويقول بعضهم الى البعض الآخر: «انها قتلت ولدين من أولاد يهوذا، فلم

يخاطر الأخير بحياته؟»

وصلت الكلمة بصدد ورطة ثامار الى يهوذا على شكل تحذير مهموس من قبل ام فتاة تخيلت شيلة صهراً لها. فقد همست المرأة في اذن أحد أصحاب اللحى البيضاء: «أن ثامار لعبت دور العاهرة في بيت أبيها، وهاهي تحمل نغلاً في بطنها».

وقال يهوذا شاكياً عندما تكرر ذكر القصة أمامه: «وماالذي يجب عليّ أن افعله؟»

«احرقها» أجاب أحد الكهول «فهذا هو ماتنص عليه الشريعة بالنسبة الى الزنى».

«هل تريدني أن أضع ثامار في النار؟» وسأل يهوذا أيضاً: «هل أنت جادّ؟»

وبدأ الرجل الكهل يقول: «ان الشريعة تنص..»

وقال يهوذا مدافعاً الى حد ما: «دع المرأة وحالها». ووجد يهوذا نفسه يرد على المطالبة بوضع جسد الفتاة الجميل في النار. وأدرك الآن أن أحداً لايتوقع منه أن يرسل شيلة الى فراشها. وواصل مرافعته قائلاً: «لتقيم في بيت أبيها وتربي النغل».

«اخرجها، بحيث يمكن حرقها» وهدد أحد الكهول بقوله: «وإلا فانهم سيضحكون عليك».

أدرك يهوذا أن من غير الممكن الاطمئنان الى تجاهل هذا التهديد لسلطته. وفوق ذلك، فهو لم يستسغ فكرة الاشاعات التي تدور مادامت ثامار ونغلها يعيشان في قرية مجاورة.

فأخذ يهوذا يلين وهو يقول: «حسن، اذن، أدعوها الى بيتي».

وهكذا حدث أن جلبت ثامار من بيت أبيها وسلمت الى مخيم يهوذا من قبل الكهول وستة شباب استدعوا للخدمة. وكان بامكان كل شخص في الطريق أن يرى أن القصة حقيقية بشكل جلي: فقد كان بطن ثامار منتفخاً، وهي تحمل ابناً، بالتأكيد، ولكن إبن من هو؟

.... *« فقال يهوذا أخرجوها فتحرق» (سفر التكوين 38: 24)*

رافقت ثامار أمها التي سارت الى جانبها وانتحبت وبكت دون توقف، كما

صحبها رجل أو رجلان من أبناء قريتها، اللذين سمح لهما بالمجيء شرط أن يتركا عصيانهما وسيوفهما وراءهما. إلا أن والدها- حسب ما كان يهمس بين الاسرائيليين- رفض أن يدخل مخيم الاسرائيليين ويقبل بالاهانة المتمثلة بالمحاكمة أمام يهوذا.

نكست المرأة رأسها وهي تسير الى جانب ابنتها، غير أن الضوضاء المثيرة التي احدثتها لم تفارقها طوال الطريق حتى وصلت الى باب بيت يهوذا. أما الرجلان من قوم ثامار فقد ألقيا نظرات قلقة ذات اليمين وذات اليسار وهما يمران بين صفي الاسرائيليين الذين تجمعوا لمشاهدة المشهد الفضائحي لثامار الحاملة والكئيبة. في حين أن ثامار التي ارتدت لباس الحداد رفعت رأسها عالياً وتطلعت الى الأمام ولم ترتعش أو تستريح فتسدل ذراعيها.

وأخيراً دخل الموكب الباحة أمام بيت يهوذا، وتركت ثامار تحت الحراسة خارج البيت في الوقت الذي اندفع فيه الكهول الى الغرفة حيث كان يهوذا ينتظرهم وهو يجلس على كرسي له ظهر عالٍ. واندفعت الى داخل الغرفة، بعدهم امرأة عجوز واحدة، ومن ثم نفر قليل من الشباب، ودخل أخيراً عدد من المتفرجين، ولم يقم أصحاب اللحى البيضاء بردعهم. وشعروا أن الحضور سيجبر يهوذا على اتخاذ القرار اذا ما أظهر شيئا من التهاون.

قال أحد الكهول: «إن العاهرة في الخارج، وأن حقيقة ارتكابها الزنى واضحة جلية»، وسأل آخر ماالذي سيفعله يهوذا الذي سمع تمتمة وضحكاً مكتوماً صادرا عن الجمع الذي يموج من حوله.

سأل يهوذا: «وماذا تقول ثامار؟» فأجاب أكبرهم سناً وكأنه يشخر: «لم تقل شيئا، لأنها لاتجد ماتقوله، لذا احرقها!»

ومع أن المكان كان بارداً فقد شعر يهوذا بشيء من الحرارة يسري في جسمه، وانتشر العرق البارد فوق حاجبيه، وأخذ جلده يخرشه تحت ثوبه الصوفي. فمسح بضربةٍ عنيفةٍ وسريعةٍ من يده اليمنى العرق عن جبهته، ثم مسح يده من فوق الكم.

وشجعه أحد الكهول قائلاً: «قل الكلمات!» ثم همس يقول: «ان الشريعة تنص على..»

وحدثت في تلك اللحظة جلبة في الجهة الخلفية من الغرفة. وتفرق الجمع لكي يروا شخص ام ثامار وأحد الرجال من قومها وقريتها. وكانت الأم تنظر الى أسفل وتشع من حولها هيئة البؤس والتشوش والاثم. ووقف خلفها شاب يحمل صرة تحت ابطه، إلا أن يهوذا لم يكن يستطيع أن يرى ماهو ملفوف في البطانية الرمادية الكبيرة.

فهس أحد الكهول قائلا: «ابتعدي أيتها المرأة، فليس لك شغل هنا».

رفع يهوذا يديه لاسكات الرجل العجوز، وأسكت الجميع بالقاء نظرة قاتمة واحدة. فتقدمت المرأة الكنعانية ثلاث خطوات الى الأمام أثناء سريان حالة السكوت، ثم ركعت على ركبتيها، ولامست جبهتها الارض. وانزل الشاب الصرة بعناية ووضعها على الأرض أمام كرسي يهوذا، وركع هو الآخر على ركبتيه.

وصاحت المرأة العجوز بصراخ مذعور: «أرجو أن تصغي ايها السيد!»

«نعم؟» وشجعها يهوذا بالسؤال عما تريد أن تقول.

-أرسلت بنتي معي رسالة

-تابعي

رفعت المرأة رأسها قليلا وانتصبت قامتها إلا أنها بقيت راكعة.

«طلبت مني ثامار أن أقول هذه الكلمات لك: إن والد طفلي هو الرجل الذي تعود له هذه الأشياء».

نهض يهوذا عن كرسيه وركع أمام المرأة العجوز وتناول الصرة ليجد الاسطوانة المنقوشة فوق شريط من الجلد المهترىء وعكاز ملفوفة بالجلد.

وبقي يجول، للحظة مجنونة، في فكر يهوذا سؤال عن الكيفية التي وضعت فيها المرأة العجوز يدها على الرهن الذي أعطاه للعاهرة على جانب الطريق. ومن ثم، وبعد لحظة أخرى، انجلى له كل شيء.

وسأل أحد أصحاب اللحى البيضاء «لمن الخاتم؟» مرتين، ثم سأل: «لمن العكاز؟»

.... «فبينما هي مخرجة بعثت الى حميها فقالت من الرجل الذي هذه الأشياء له أنا حامل. وقالت أثبت لمن هذا الخاتم والعمامة والعصا» (سفر التكوين 38: 25)

.... «فأثبتها يهوذا وقال هي أبر مني لأني لم أزوجها لشيلة ابني ولم يعد أيضا يعرفها.» (سفر التكوين 38: 26)

ارتفع صوت امرأة أجش من بين الجمع وهي تقول: «يجب أن يحرق هو أيضا!»

لم تتكلم المرأة العجوز، وكان صوت يهوذا هو الصوت المرتفع في الغرفة الباردة.

«لن يحرق أحد هذا اليوم» قال يهوذا وقد دهش ليس أقل من الآخرين وقال:

«إن ثامار على حق، وأنا على خطأ- وكان يجب علي أن أرسل شيلة الى فراشها».

وساد الصمت في الغرفة، وانتظر الكهول المشاكسون لكي يسمعوا كلمات يهوذا:

«ان الخاتم والعكاز لي» وأضاف: «والطفل أيضا».

الفصل السابع
المرأة التي فرضت نفسها على التاريخ

ثامار كمومس على جانب الطريق

«فلا تستبق فيها نسمة»

المومس المقدسة

«كيس مر مابين ثديي»

«هبني طفلاً وإلا فانني أموت»

التقليد الغريب بشأن «زواج الأخ من أرملة أخيه»

الخيط الأحمر

تسرع راوي سفر التكوين- أو أن الاحتمال الأرجح، أن يكون أتى محرر في وقت لاحق، وحاول أن يبرد وينظف القصة (1) - بغية التأكيد لنا أن يهوذا لم ينم مرة ثانية مع كنته: اذ «لم يعد يعرفها» (سفر التكوين 38: 26) غير أن ثامار لم تختف عن الراوي التوراتي. فهي ولدت توأما من الذكور، وهما بيريز وزيرا. ولاحظت التوراة أن بيريز كان سلف خط طويل من الأشخاص المبجلين، ومن ضمنهم داوود وسليمان، ووفقا للعهد الجديد، عيسى في الناصرة. وهكذا فان ثامار الشابة العنيدة التي مثلت دور العاهرة بغية اغراء حماها بالذات، هي جدة الملوك والأنبياء والمسيح.

ومع ذلك، لازالت شخصية ثامار-الكنعانية الغاوية والمحتالة الجنسية، والشابة التي تأبى الخضوع للسلطة الأبوية / الباطرياركية الصارمة التي تعيش في ظلها - ترسم بكامل شخصيتها تقريبا في الأدب التوراتي عبر القرون، بسبب مغامرتها الجنسية في الطريق الى العينين على وجه التحديد. وكانت جريئة جدا، ومثيرة، ومغرية. ولدى تعرض رجال الدين الأدباء لقصتها في التوراة، كافحوا لكي يفسروا الاتصال الجنسي بين ثامار وحماها، على أنه اتصال محرم بصورة جلية في مواضع اخرى من التوراة مثل (سفر الأحبار 18: 15). ولازال الاتصال قريب جدا من الرهق (الاتصال الجنسي بين المحارم) جدير بأن يصدمنا.

وثمة تفسير مفضل في التقاليد التاريخية الحاخامية يقول أن الغرض من رواية ثامار ويهوذا التي قفزت فجأة في سفر التكوين وسط قصة يوسف في مصر، هو أن تقدم الوجه الآخر للحكاية التي ستتلوها مباشرة. انها فشل اغواءيوسف من قبل زوجة فوطيفار، السيد المصري الكبير الذي بيع اليه يوسف كرقيق.

وبينما يخضع يهوذا لاغراء ثامار على جانب الطريق في كنعان، يشيح الشاب التقي بوجهه عن الدعوة الحارة: «ضاجعني» من قبل زوجة فوطيفار في القصر المصري، بتحفظ بارد جدا يقول: «كيف أصنع هذه السيئة العظيمة واخطأ الى الله» (سفر التكوين39: 7-9)

ويشجعنا الحاخاميون على الاعتقاد أن يوسف يقدم صورة الرجل الذي يفترض به أن يكون طيباً: يحسن التصرف ازاء الأغواء الجنسي من جانب امرأة محترمة، ويقول: «كلا» حتى لوكانت تعني إقامة دائمة في سجن فرعون. آمايهوذا، فعلى العكس، يفترض أن يكون مثالاً مؤسفاً عن الضعف الجسدي والفشل الروحي. ومع ذلك فان هذاالتنفسير ينوء بثقله. فيوسف يقود شعبه الى المكان الذي سيستعبدون فيه ويسحقون الى حد ما، في حين أن جماع يهوذا الفحل والولودة ثامار سيجلب أعظم ملوك اسرائيل القديمة، وفي النهاية سيجلب المسيح.

وتشير ثامار المرأة الى كيف تستطيع اسرائيلية أو كنعانية أن تسمو فوق العداء الحاد والدموي أحيانا مابين المتخاصمين على الأرض التي لازلنا نحب أن نطلق عليها اسم الأراضي المقدسة. وهي تسمح لنا أن نرى الخط المميت الذي يواجه نساء عهد التوراة اللواتي لم يخضعن لسيادة الرجل، إن كان أباً أو زوجاً. وفوق ذلك فان ثامار امرأة ذات ارادة قوية جداً، وعاطفتها تشتعل متوقدة، شقت طريقها الى التاريخ من خلال فعل حب جسدي محظور.

لاتستبق فيها «نسمة»

ربما كان كون ثامار كنعانية أكثر احراجاً للسلطات الحاخامية من واقع أن يهوذا نام معها وأصبح أباً لولدين منها. وكان أحد أعظم المواضيع في التوراة العبرية، كما رأينا قبل قليل، هو الادانة الصريحة للزواج من خارج الأسباط الاثنى عشر الاسرائيلية. والكنعانيون هم المحرمون بصورة صارمة أكثر من باقي الأزواج والعشاق. «لاتصاهرهم، إبنتك لاتعطها لإبنه وابنته لاتأخذها لإبنك» (سفر تثنية الاشتراع 3: 7)*

---

* تجري الأحداث الموصوفة في سفر التكوين افتراضياً قبل استعباد الاسرائيليين عند فرعون، والخروج من مصر، وغزو كنعان، في الوقت الذي كان فيه يعقوب والأولاد يتجولون في

يؤدي الخوف والكراهية اللذين ينظر من خلالهما الى الكنعانيين في التوراة الى بروز مظاهر فظة ومكررة. فقد قيل لنا في سفر التكوين أن الله وعد ابراهيم وأحفاده بكنعان، إلا أننا نكتشف في سفر الخروج أن كنعان لم تكن جنة خالية من الناس« تجري من تحتها أنهار الحليب والعسل». فبعد أن يقضي الاسرائيليون اربعين عاماً قاسية في البرية (الصحراء)، يعبرون، في النهاية، نهر الأردن الى «أرض الميعاد»، وكان المكان يغص بالقبائل والعشائر التي عاشت هناك قبل وقت طويل من الخروج: «الحيثيون والأموريون والكنعانيون والفريزيون والحوريون واليبوسيون» مع غيرهم (سفر يشوع 12: 7)

وكان الحل الالهي يتمثل باعلان حرب غزو- أي أن بامكاننا أن نستخدم بسهولة تعبير «تطهير عرقي» بل «استئصال»- ضد سكان أرض الميعاد الأصليين. إن مجزرة المدينيين التي عرضنا لها في سفر الأعداد كانت مجرد حملة تصحيح ظامئة الى الدم في أرض كنعان ذاتها. وطبقاً لشرائع الحرب المنصوص عنها في سفر تثنية الاشتراع، فان الغزاة الاسرائيليين مطالبون بأن «يعرضوا السلام» على المدينة المحاصرة، واذا تجاوب معهم سكان المدينة بـ«الجنوح للسلم» فان حياتهم يجب أن تحفظ وأن يسمح لهم بالعيش كـ«خاضعين» للاسرائيليين. غير أن هذه الشرائع بالنسبة الى الزواج لاتطبق في المدن البعيدة. وأقرت استراتيجية مختلفة كلياً في مدن أرض الميعاد ذاتها وفي المدن الكنعانية قبل الخروج. «واذا تقدمت الى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً الى السلم. واذا أجابتك الى السلم وفتحت لك فجميع الشعب الذين فيها يكون لك تحت

كنعان. ووفق التاريخ التوراي ذاته، فان سفر ثنية الاشتراع والشرائع ضد الزواج المختلط لم تكن معروفة ليهوذا لأنها لم تكن قد كتبت بعد، أو انها لم تنزل إلا بعد قرون. ولكن، وحسب ما رأينا قبل قليل، فان من المحتمل أن سفر التكوين قد كتب من قبل محررين عملوا في وقت ما بعد العام 400 ق.م.ب. وكان الكاتب التوراتي الذي أعاد قص حكاية يهوذا وثامار مطلعاً وعلى بينة من الشرائع في تثنية الاشتراع. ويوحي الأدب التوراتي أن سفر التكوين 38 يصف أرض كنعان وظروف الاسرائيليين في فترة متأخرة كثيراً عما يشير اليه النص، أي بعد فترة طويلة من الخروج من مصر وغزو كنعان، عندما تحول التعايش المتعثر بين الاسرائيليين والكنعانيين في أرض الميعاد من مجرد حقيقة تاريخية الى حقيقة يومية، لايمكن تجنبها أو تجاهلها.

الجزية، ويتعبدون لك. وان لم تستلم لك بل حاربتك فحاصرها. واذا أسلمها الرب الهك الى يدك فاضرب كل ذكر بحد السيف. أما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك. وكل غنيمة أعدائك التي اعطاها الرب اليك. هكذا تصنع بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن اولئك الامم. أما مدن اولئك الأمم التي يعطيكها الرب لك إلهك ميراثاً فلا تستبق فيها نسمة. بل إبسلهم إبسالاً الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفريزيين والحوريين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك، كيلا يعلموكم أن تصنعوا مثل رجاستهم التي صنعوها لآلهتهم فتخطأوا الى الرب الهكم».

ويعود الفضل الى الله في الانتصارات الاولى التي حققها الاسرائيليون على أعدائهم في ميدان القتال: «ثم وردت بكم أرض الأموريين الساكنين في عبر الأردن فحاربوكم فسلمتهم الى أيديكم وملكتم أرضهم ومحوتهم من قدامكم» (سفر يشوع24: 8) إلا أن أرض الميعاد لم تطهر من سكانها الأصليين. وبالتالي فان التوراة تبين أن الله يسحب عملياً حظوه من الاسرائيليين لأنهم أغروا على «ترك الرب وعبدتم آلهة غريبة» (سفر يشوع 24: 20) وبذلك انقلبت كنعان لكي تصبح أرضاً يعيش فيها رجال ونساء من قبائل وعقائد مختلفة، جنباً الى جنب- ليس مثل بلادنا، أو لهذا السبب، كانت أرض الميعاد في زمننا على الشكل التالي- وأجبر الاسرائيليون على اقامة نوع من السلام مع القبائل التي يهزموها في الحرب. وتقسم أرض الميعاد مابين قبائل اسرائيل: حسب ماتقول لنا التوراة، ولكن تبقى أيضاً القبائل الأصلية المتنوعة التي سكنت البلاد (ومن ضمنهم الكنعانيين) يعيشون ويعملون بين الغزاة الاسرائيليين كنوع من طبقة عاملة غير مسلحة أو حتى كأرقاء. «ولم يستطع بنو منسى أن يتملكوا هذه المدن فعول الكنعانيون على أن يقيموا في هذه الأرض. ولما قوي بنو اسرائيل ضربوا على الكنعانيين جزية ولم يطردوهم» (سفر يشوع 17: 12و13).

لم كانت التوراة عدائية الى هذا الحد تجاه الكنعانيين وتجاه الأخرين ممن سكنوا في أرض الميعاد؟ ذلك أن الحقيقة الجيو- سياسية تتمثل في أن الاسرائيليين كانوا يأملون في نقل هذه الأقوام من أرض وطنهم- أو على الأقل أن

يحكموهم- بعيدا تماماً عن أي فائدة أخلاقية تجاه أرض كنعان المغزوة وتجاه السيادة الوطنية/القومية للاسرائيليين. وسمح حتى العلي القدير، دون وجه حق، بإزاحة الكنعانيين وباستغلالهم: «واعطيتكم أرضاً لم تتعبوا فيها ومدناً لم تبنوها فاقمتم بها، وكروماً لم تغرسوها وانتم تأكلوها» (سفر يشوع 24: 13)

وكما رأينا قبل قليل تحت سطح قصة دينا وشكيم، فان أسباباً، اخرى، مظلمة أكثر، تفسر خوف واشمئزاز الكنعانيين الذي نجده في مجموع التوراة. فالكنعانون يجب أن يسحقوا-حسب ماورد في التوراة-بحيث أنهم لن يعلموا الاسرائيليين «أن يصنعوا مثل رجاستهم التي صنعوها لآلهتهم فتخطأوا الى الرب إلهكم» (سفر تثنية الاشتراع 2: 8)

ومثل هذه الرجاسات لاتقتصر على صنع آلهة مزيفة (الانغماس في عبادة باخوس حيث تعبد الآلهة المزيفة)، بل انها تشمل أيضاً الترغيب (وهذا محرم بصورة صارمة) الترغيب على ممارسة طقوس الاتصال الجنسي مع المومسات المقدسات كفعل من أفعال عبادة الآلهة.

وعندما يعلن الرب، بصورة تهكمية، أنه لن يساعد، بعد ذلك، الاسرائيليين في ميدان القتال بسبب الالحاد، وكان العلي القدير متنبهاً الى الاغراءات التي تواجه شعبه المختار ستصبح جذابة أكثر «ولذلك قلت أيضاً أني لاأطردهم من وجوهكم، بل يكونون الى جنبوبكم وتكون آلهتهم لكم وهقاً» (سفر القضاة 2: 3)

وانقلب الكنعانيون، اثر ذلك، لكي يصبحوا المنافسين الاستراتيجيين والدينيين للاسرائيليين. وهذا هو السبب الذي جعلنا نجد قصصاً في كل أنحاء التوراة يقصدمنها السخرية من الكنعانيين ووصفهم بأنهم غير جديرين بالسيادة على أرضهم.وثمة حادثة غالباً ما يتم تجاهلها في قصة نوح (التكوين 9: 22-24) وتبين هذه القصة،على سبيل المثال، أن أحد أبناء نوح وهو حام، كان جلفاً وغير محترم ومتوحش، تجرأ على أن يتلصص فيرى سوءة أبيه وهو عار عندما كان الرجل العجوز غارقاً في نومه مخموراً، ويبلغ الأمر الى إخوته الذين أبدوا احتراماً كبيراً فلم ينظروا الى أبيهم عارياً. وقيل لنا بوضوح من قبل راوي

التوراة أن حام هو «أبو كنعان»*

وعندما اتضح أن الكنعانيين وباقي الأقوام في أرض الميعاد لايمكن تصفيتهم، حذر الاسرائيليون بصورة حازمة من الزواج المختلط مع الغرباء بصورة عامة،ومع الكنعانيين بصورة خاصة،وهددوا بعقاب ديني اذا اقترنوا بغيرالاسرائيليين والاسرائيليات : «لاتقطع معهم عهداً ولاتأخذك بهم رافة. ولاتصاهرهم إبنتك لاتعطيها لإبنه وإبنته لاتأخذها لإبنك. لأنه يغوي إبنك عن اتباعي فيعبد آلهة أخر فيشتد غضب الرب عليكم ويبيدكم سريعاً» (سفر تثنية الاشتراع:2: 4).

وثمة الآن تهكم لاذع ضد ما نصت عليه الشريعة بصدد الزواج المختلط الذي شغل حيزا كبيراً من التوراة. وقد قام عدد كبير، في الواقع، بالزواج من خارج الأسباط الاثنى عشر، وتصور بعض أكثر القصص الهاماً في التوراة، الزيجات المختلطة الناجحة: فابن يعقوب المحتفى به والمفضل يوسف تزوج من ابنة الكاهن المصري الأعلى (سفر التكوين 46: 2) وتزوج موسى امرأة مدينية، صفورة، التي لعبت دوراً حاسماً في تاريخ الاسرائيليين بطلبها من الرب نفسه أن يحفظ حياة زوجها (سفر الخروج 4: 24-26) وراعوت، وهي امرأة مؤابية اغوت ومن ثم تزوجت رجل اسرائيلي، وهي مثل (ثامار) سلف مباشر للملك داود، وبالتالي، المسيح. ووقع داود نفسه في حب بتشابع التي كانت متزوجة من حيثي. ومن المرجح أن لايكون اسرائيلياً(سفر صاموئيل (الملوك) الثاني 11: 3) (3) وابنهما سليمان تدبر أمر جمع نحو سبع مئة زوجة، من بينهن عدد كبير من الغريبات اللواتي يعبدن آلهة مزيفة. «وأحب الملك سليمان نساء غريبات كثيرات». وحسب ما أكدت التوراة على الاعتراف فان «أزواجه ملن بقلبه الى اتباع آلهة غريبة.» (سفر الملوك الثالث11: 1-4) وهكذا فان رأي التوراة متضارب بصورة عميقة، فيما يتصل بموضوع الزواج من غير الاسرائيليين والاسرائيليات. وتدين التوراة بصراحة الزواج المختلط بصورة نظرية، إلا انها لاتدينه بصورة عملية وبصورة مثابرة.

---

* واقترح، على الأقل، ناقد توراتي معاصر أن مواجهة حام مع أبيه هي حادثة اتصال شذوذ جنسي مع المحارم، وليست مجرد عدم احترام من جانب الابن لأبيه.

وكما رأينا في الفصل الخامس، فان الكراهية المرة والدموية أحيانا للغريب التي وجدناها في فصول معينة من التوراة يمكن تتبع أثرها عند الكهنة والكتاب الذين أملوا وحرروا كثيرا من صفحات التوراة بعد مضي زمن طويل على سلسلة الغزوات الأجنبية التي مزقت ودمرت الاسرائيليين تقريباً. وعندما عمل هؤلاء المحررون أو المنقحون في النصوص التي تناولت احداثا قديمة في الماضي، وجدوا أن خطرا يحيق بمن بقي من الشعب الاسرائيلي، أي من الأحياء الذين يرثى لهم، والذين كانوا في يوم من الايام في مملكة مجيدة، ثم صاروا يعيشون تحت رحمة الفاتحين الأجانب الذين يتنافسون على أرض كنعان نفسها. وكان الزواج المختلط بالنسبة الى هؤلاء الرجال، من غير الاسرائيليين والاسرائيليات يشكل تهديداً جدياً، مثله مثل الغزو أو النفي. ويبدو أنهم دسوا مخاوفهم من الأجانب في النصوص القديمة.

ولازال منقحو التوراة مجبرون على التعامل مع حقائق التاريخ القديم- وهو غني جدا بالأساطير والمعارف المكتسبة عن طريق الخبرة- ويرسمون بوضوح الزواج المختلط من قبل بعض أعظم الأنبياء والملوك في اسرائيل. وهكذا فان التوراة مجبرة على التوفيق مابين تقليدين مختلفين، أحدهما يجيز، وحتى أنه يبارك الزواج من غير الاسرائيليين والاسرائليات، وآخر، يدينه بصورة حازمة ويحرمه. وهذا، من ناحية، حقيقة أن موسى تزوج من صفورة، وهي امرأة مدينية، اعتبرت أساسية جدا الى الحد الذي لايمكن تجاهلها، وهي مهمة جدا في تاريخ اسرائيل الى الحد الذي لايجوز التنديد بها. فقد صورت صفورة في سفر الخروج بمثابة بطلة، أنقذت عمليا حياة موسى حين عمد الرب نفسه الى قتله. ومن ناحية أخرى، يجري تذكير القراء بأن الله لايشجع مثل هذه الزيجات حين تتعلق بالاسرائيليين العاديين. وكما رأينا قبل قليل، فان المنقحين أدخلوا امورا مخيفة وخبيثة نوعاً ما عن أمير طعِنَ مع عشيقته المدينية، كعقوبة على ارتكابهما جريمة ممارسة الجنس (سفر العدد 25: 1-9و17)

وقامت بفعل مماثل قصة ثامار ويهوذا التي تضرب مثالاً مربكاً ومتناقضاً، على الأقل، مع الصيغ الشرعية غير الملتبسة في التوراة. وحتى وإن كانت ثامار اسرائيلية، فان مؤامرتها المتقنة الحبك لإغواء حماها بتمثيلها دور المومس، كان

بمثابة ضربة قاسية لاحدى الوصايا العشر التوراتية التي نصت على منع الرجال من النوم مع كناتهم. غير أن واقع كونها كنعانية لم يجعل منها غاوية وتتصل جنسياً مع المحارم وحسب، بل أنها غريبة أيضاً، والتوراة تكون أحياناً قاسية على الغرباء أكثر من قسوتها على الذين ينغمسون بممارسات جنسية محرمة *

العاهرة المقدسة

كان الكتّاب التوراتيون مسكونون تماماً بالاغواء إلا أنهم يحرمون شخص المومس. والتوراة رصعت بذكر الزنى الصريح والمجازي. فالنبي هوشع، على سبيل المثال، يقول أنه دعي من قبل الرب، لكي يخرج ويتزوج من مومس وهو كما يظهر فعل ذلك بنشاط وربما بشيء من الحماس، مع أنه أصر على أن موضوع اتحاده المحرم انما هو من اجل توبيخ زملائه الاسرائيليين بسبب جحودهم الروحي بعبادة آلهة غريبة. «انطلق فاتخذ لك امراة زنى وأولاد زنى فان الأرض تزني عن الرب» (نبوءة هوشع 1: 2)

وتسمح لنا التوراة أن ندرك أن العهر كان شائعاً بشكل كبير في اسرائيل القديمة، مع أن العهر مابين النساء الاسرائيليات قد أدين في مثل هذه العبارات القوية: «لاتبذل إبنتك للفجور كيلا يفجر أهل الأرض فتمتلىء الأرض فواحش» (سفر الأحبار 19 : 29).

ومنع الكهان تحديداً من الزواج من المومس وإلا فالموت حرقاً، وهي العقوبة

* يحتج أحد الادباء المعاصرين قائلاً، اننا يجب أن نعتبر ثامار وكأنها اسرائيلية مشيراً الى أن سفر التكوين لايقول صراحة أن ثامار كنعانية. وطبقاً لوجهة النظر التصحيحية، فان الدرس الحقيقي الذي تقدمه ثامار يتمثل في ان ابناء يهوذا الثلاثة «نصف الاسرائيليين» اي أنهم نتاج زواج من امرأة تعرف بصورة صريحة بأنها كنعانية- وقد تقرر مصيرهم من قبل العلي القدير، فلم يكونوا قادرين على أن يصبحوا آباء لأي طفل. وفقط حين اقترنت ثامار بيهوذا نفسه أنتجت مولوداً اسرائيلياً صحيح الجسم. وهكذا فان «نقاء الدم الاسرائيلي» هو الموضوع برمته في سفر التكوين 38، وفق القراءة التصحيحية. ويتضمن التلمود قصة تبدأ من نفس المقدمة وتصل الى استنتاج مماثل: او ان زوجة يهوذا، وهي امرأة كنعانية كانت تدبر مكيدة بغية منع ابنائها من تلقيح ثامار لأنها على وجه التحديد «لم تكن امراة كنعانية»، إلا أن الرأي العام العلمي، ومعنى النص نفسه، يوحيان أن ثامار خارجية مضللة وليست اسرائيلية.

التي اقترحت لثامار ومنصوص عنها في الشريعة بحق ابنة كاهن تنقلب الى زانية (سفر الأحبار 21: 7و9و14)

وتؤكد قصة ثامار على أن ثمة نوعين، على الأقل، للزنى قد يواجههما الرجل الاسرائيلي في أرض كنعان القديمة :

العهر العام «الزنى، طبقاً للأصل العبري» أو «الزنى في المعبد» او «التعبدي» (كديشا) (3) الذي كانت الممارسات الجنسية منتشرة تحت ظله في أوساط الكنعانيين باعتبارها شكل من أشكال عبادة آلهات الخصب.ووصفت ثامار من قبل الراوي التوراتي بانها مومس عامة (زنى) حين أخبرنا للمرة الاولى كيف موهت نفسها لتظهر كمومس بغية اغواء حماها. إلا أن يهوذا أشار حين أرسل صاحبه الكنعاني، حيرة، لكي يبحث عن المرأة التي احتجزت خاتمه وعكازه، الى المرأة بالكلمة العبرية(كديشا) التي تعني مومس بدلاً من مومس عامة.

وترجمت عبارة «كديشا» بكلمة مومس «مقدسة» أو «تعبدية» ، ويعني ذلك كله آنها «أمراة مقدسة». وكان يفهم من ذلك أنه يشير الى امرأة جعلت من نفسها متعة للقادمين الى مكان التعبد الوثني- ربما في معبد عشتار الإلاهة البابلية للحب، أو عشتروت، الإلاهة الكنعانية للخصب. وكان «الاتصال الجنسي المقدس» يفهم على انه شكل من اشكال الصلاة يجرى المرء عليها «بحصاد وفير وازدياد في عدد رؤوس القطيع» (4) وقد تم تشجيع مثل هذه الاشارات المدغدغة من قبل المواد التاريخية للمؤرخ الاغريقي هيروتس، الذي كتب مقرراً أن المسؤولات الثريات البابليات كن ملزمات أيضاً بقوة القانون، بتأدية الخدمة كمومسات، على الأقل، لمرة واحدة: «وكانت النساء الطويلات والجميلات لايلبثن أن يتحررن «حسب ما كتب بخبث»، أما القبيحات فقد كان عليهن أن ينتظرن أمدا طويلا جداً قبل أن يطبقن القانون» (5)

ويفترض المؤرخون الأحدث والفطنون الذين درسوا النصوص القديمة والحقائق الاركيولوجية الأخرى من مواقع في كل أنحاء الشرق الأوسط، أن «كيديشا» كانت عملياً نصف زوجة، أو مرضعة، أو مغنية، أو ربما ساحرة أكثر منها مومساً. ويلاحظ الناقد التوراتي ماير.ي.غروير «أن من المؤلم أن العالم عانى من المعلمين غير القادرين على تصور أي دور تعبدي للمرأة في القديم ان

لم تندمج في صلة جنسية» (6) وطبقا للمصححين في الدراسات التوراتية فان «الاتصال الجنسي المقدس»- اذا ما كان قد حدث فعلاً- كان الى حد ما، اقل من ان يكون «تهتكاً على كل المستويات» حسب ما صوره الأنبياء التوراتيون، بل كان فعلاً صدفيا لطقس عن اتحاد جنسي بين كاهن وكاهنة في يوم مقدس في فصل من الفصول، أو ربما أثناء انتشار الوباء او الجفاف أو حدوث مجاعة«(7) وهكذا فان كيديشا قد يراد منها، حسب ما يوحي الكاتب التوراتي في سفر التكوين 38- العبارة الفنية للزنى التعبدي، واستخدمت من قبله كمرادف شعري لـ« مومس عامة أو مومس في بستان» (8)

وبالنسبة الى القاريء المعاصر، فان الاشارة الى ثامار كمومس مقدسة بدل عاهرة عامة قد توحي بأن المؤلف التوراتي كان يحاول أن يمنح شرفاً ويرفع من قدر يهوذا مع المرأة. وقد نتصور أن زيارة الى مومس معبد كانت تفهم وكأنها أرفع مرتبة من شراء خدمات جنسية من عاهرة، وخصوصاً في عيني صديقه الكنعاني. ولقد دعينا الى ادراك أن القاص التوراتي كان يحاول أن يضع أفضل وجه لعبث يهوذا مع العاهرة على قارعة الطريق.

وبالطبع، ليس ثمة مقدس بخصوص مجريات الأمور على جانب الطريق مابين يهوذا وثامار. انها صفقة من اقدم الأنواع وأكثرها دنيوية، الجنس مقابل المال. وتبين لنا الرشاقة في تناول الحديث مابين ثامار ويهوذا أن عاهرة تساوم وهي تحتال بشأن الأجر. وبالفعل فان الرهن الذي يقدمه يهوذا الى ثامار- عكازه وخاتمه* هو بصراحة صيغة موازية لضمان وعده في الدفع لها مقابل الخدمات الجنسية التي قدمتها «وهي نوع معادل في الشرق الأدنى (القديم)

---

* إن خاتم يهوذا الموصوف في النص في سفر التكوين 38 بـ«خاتمك وحبلك» هو شيء قد يكون المرء كان يرتديه في العهد التوراتي حول رقبته فوق شريط الثوب أو أنه معلق بسلسلة. والخاتم بالذات كان عبارة عن اسطوانة من الفخار (الطين المشوي) أو من الحجر المنحوت محفورة فيه أحرف اسم الرجل أو رموز أخرى تشير الى هويته. وفي الزمن الذي كانت فيه الوثائق القانونية تتألف من لوحات فخارية، كان الخاتم الاسطواني يدار فوق طين طري بغية طبع اسم حامله أو رمزه على الوثيقة، ومن ثم، عندما أصبحت اللفائف البيروسية واسعة الاستخدام، ضغط الخاتم ليصبح على شكل كرة من الفخار (bulla) (أي يشبه ختم البابا على منشور ما، وكان الختم يربط بشريط ملفوف حول الرقبة).

لبطاقة تأمين شخصية وفق لغة العالم التوراتي المعاصر روبرت التر»(9)

ولكن اذا كانت تصدمنا الاشارة الى أن ثامار كانت مومساً ونحن نبذل جهداً لتجميل مقابلته لها، فان العكس صحيح أيضاً بالنسبة الى قاريء التوراة قبل الفي سنة. فكل من تعامل مثلما فعل الاسرائيلي مع المومس المقدسة لم يكن يقوم بمجرد طيش جنسي، بل قام بفعل ارتداد عن العقيدة- ارتكاب حماقة ضد الشريعة الالهية وانتهاك فظ لمشاعر الاسرائيليين. وعندما استخدم حيرة عبارة مومس معبد ويقصد ثامار، كان يهوذا قد فعل بالضبط ماتدينه التوراة بوصفه أسوأ انتهاك يمكن تصوره، وهو عبادة إلاهة وثنية عن طريق الارتباط باتصال جنسي مع تلك المومس للألوهية المقدسة.

وبالفعل فان أحد العلماء يفترض أن الاستخدام السيء لعبارة مومس مقدسة في سفر التكوين 38 هو افضل برهان على أن القصة ذاتها بالأصل حدثت مع الكنعانيين اكثر من كونها حدثت مع الاسرائيليين (10) وكما سنرى (انظر الفصل لحادي عشر)، فان بعض قراء التوراة يذهبون الى حد اقتراح أن ثامار كانت بالفعل كاهنة من طائفة الخصب الكنعانية، تسعى لاغراء أولاديهوذا بالابتعاد عن إله آبائهم. إلا أن الواقع الحقيقي يتمثل بأن قصة ثامار ويهوذا قد شقت طريقها الى الكتاب المقدس، وتغلبت على الجهود التي بذلتها السلطات الدينية المتأخرة من أجل اعادة كتابة تاريخ اسرائيل و تنبؤنا بأمر هام ومفاجيء بشأن درجة القدرة على التسامح حيال مغامرة جنسية، انتشرت،على الأقل، في وسط كتاب ومحرري التوراة.

«كيس مر مابين ثديي»

توحي قصة ثامار أن شيئاً غير عادي لم يحدث بشأن المقابلة، وحتى بشأن انتشار الفجور في الأراضي المقدسة في أيام الأباء. وتؤكد بعض فصول التوراة على ان الفجور كان شائعاً الى الحد الذي جعل سعر خدمة العاهرة قلما تجاوز سعر رغيف خبز (سفر الأمثال 7: 11و12) وحتى في المراكز المقدسة حيث كان يحتشد الحجاج (نبوءة هوشع 4: 14). وبالفعل فان من المحتمل ان يهوذا ظن أن ثامار مومساً لأنه رآها جالسة علىمفترق الطرق، وهو مكان ربما كان نموذجياً لترويج تجارتهم في عهد التوراة. «وفي رأس كل طريق بنَيتِ مستَعلاكِ ودنست

جمالك وفرجتِ رجليك لكل مجتاز وأكثرت فواحشك.» (نبوءة حزقيال 16: 25)

ومع ذلك تثير قصة ثامار أسئلة كثيرة: فعلى وجه التحديد كيف عرف يهوذا آن ثامار مومس تبحث عن شغل؟ وقد نتساءل: هل تم تضليله بالفعل بواسطة التمويه الذي اعتمدته ثامار؟

لقد قيل لنا أن ثامار ارتدت خمارا، وكان وسيلة أساسية في إخفاء حقيقتها عن حميها. ولكن حسب المعطيا ت المعروفة بخصوص الطرقات العامة في الشرق الأدنى (القديم)، فان النساء المتزوجات وحدهن- وليس المومسات- كن محجبات أمام الجمهور (11) واذا صدقنا ان يهوذا ضلل الى حد الاعتقاد أن ثامار كانت عاهرة، فاننا نعرف أنه كان من الواجب أن تستخدم زينة أخرى ولباس آخر يشيران الى أنها مومسا ويثيران شهية يهوذا الجنسية. وربما كانت ملحقات معينة أو بعض التزيينات الأخرى على وجهها ومن يحول عنقها هي التي كانت تقوم بها المومس في العهد التوراتي وتعلن من خلالها ان بالامكان أن تكون شريكة جنسية بأجر. وعلى سبيل المثال، فان النبي هوشع تكلم عن زوجته الفاجرة بأنها «تنزع زناها من وجهها وفسقها من بين ثدييها، لئلا أجرد ها عريانة» (نبوءة هوشع 2: 4) مماحدى ببعض المعلقين لأن يقولوا بأن المومس كانت «تعرف باشارات أو علامات تدل على مهنتها، بعضها يوضع على الوجه، والبعض الآخر يوضع بين الثديين». وبامكاننا أن نتخيل أن ثامار ارتدت زينة أو علقت خاتماً في أنفها، أو علقت بعض الأشياء حول عنقها بحيث أن يهوذا اعتبر ذلك علامات تدل على العهر(12)

ويوحي نشيد الأنشاد ، وهو كتاب شعري عن الحب الجنسي وجد سبيله بطريقة ما الى التوراة، بنوع المرأة التي تضع حول عنقها رمزا يدل على القابلية الجنسية: «حبيبي باقة مر لي. بين ثديَي مبيتَه» (نشيد الأنشاد1: 12) ويؤكد التلمود على آن «النساء الداعرات» كن يضعن مزيج من البلسم والمر في أحذيتهن، فتثير رائحتها رغبة الشباب (13)

وما نعرفه على وجه التحديد أن يهوذا ظن أن المرأة التي رآها في الطريق الى تمنة مرغوبة جنسياً- وبالامكان ممارسة الجنس معها. وكان ارملاً أنهى، قبل وقت قصير، فترة الحداد الطويلة على زوجته المتوفاة، وكان بحاجة الى صحبة

جنسية. ويتوهج النص المتبقي من سفر التكوين بالانفعال الجنسي في اللحظة التي التقيا فيها. وقد نظن أن التنكر في هيئة مومس هو عذر شفاف، قدمته ثامار أو ربما قدمه الراوي التوراتي لتبرير الطلب الجنسي الفظ الذي طلبه يهوذا من ثامار: «هل تمارسين الجنس معي؟» هذاهو طلب يهوذا الذي يمكن أن يفهم في لغة بسيطة، مع أن معظم الترجمات تستخدم لغة مجازية مزينة: «اسمحي لي بالنوم معك» (حسب طبعة التوراة) أو، «اسمحي لي أن أدخل فيك» (حسب طبعة أخرى).

وبامكاننا أن نتخيل أن يهوذا، عملياً، عرف ثامار من وراء الخمار، باعتباره كان دائم التشوق لها، حتى منذكانت زوجة ابنه، و انتهز المناسبة لارواء ظمئه منها. ولا يستبعد أن يكون التنكر في هيئة مومس لايعدو أن يكون لعبة لعبها كل منهما بعد وضع الترتيبات، أو بموافقة ضمنية، ان كان بتقديم «انكار معقول» لممارستهما الحب أولاثارة مشاعر أحدهما الآخر. واذا كان الأمر كذلك، فان بالامكان قراءة قصة يهوذا وثامار ليس كرواية معللة، بل كقصة حب جنسي إنزلقت بطريقة ما الىصفحات التوراة.

«هب لي ولداً وإلا فاني أموت»

إن موضوع المرأ ة كغاوية موضوع قديم قدم حواء، وكلمات يهوذا تستدعي صورة الأرملة السوداء* التي تجامع ومن ثم تقتل،، وهي كناية تلخص خوف بعض الرجال من المراة القوية: «أقيمي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني لأنه قال لعله يموت هو أيضا مثل أخويه» (سفر التكوين38: 11)

قد تزعج قصة ثامار القراء المعاصرين الذي لايرتاحون الى بطلة سلاحها المختار هو جنسها، إن كان بسبب أنهم وضعوا على جانب طريق الجماع الممتع، أو انهم اغتاظوا بسبب تصوير ثامار كغاوية ضللت رجلاً قوياً لكي يعطيها طفلاً. والقصة بالنسبة للبعض فضائحية، لأنها صريحة جنسياً. وبالنسة الى البعض الآخر فانها قصة «جنس». ومع ذلك، فاننا اذا أدركنا ماخاطرت به ثامار بالفعل عندما أغوت يهوذا لكي يمارس الحب معها، فان القصة تكون قد اتخذت منحى دراميا مشحوناً ومعنى ملحا بأن ثامار يجب أن تحمل طفلاً ذكراً، وانها كانت

---

* نسبة الى انثى العناكب الاميريكية التى تأكل ذكرها (المترجم)

ستذهب الى أقصى قدر من الاغراء في زي عاهرة بغية تحقيق ذلك. ولِمَ كانت ثامار على هذه الدرجة من اليأس؟ ولِمَ كان يهوذا وباقي عشيرته معادون لفعل الاغواء وممارسة الحب المحرم؟

والجواب يكمن في مأزق النساء في العهد التوراتي: فالمرأة كانت تعرف وتقيم بقابليتها وقدرتها على انجاب الأطفال. والمرأة التي لاتنجب أطفالاً كانت تعتبر امرأة ملعونة من قبل الرب. ونواجه في التوراة المرة تلو الأخرى نساءً كانت مسألة الانجاب بالنسبة اليهن مسألة حياة أو موت. والأمهات الاسرائيليات- سارة، وراعوت، وراحيل - لسن أكثر من أمثلة بارزة. وقد صرخت راحيل بيعقوب قائلة: «هب لي ولداً وإلا فانني أموت» (سفر التكوين 30: 1).

ويمكن ادراك حالة الالحاح من خلال واقع أن تعريف المرأة، وتحديد مكانها في المجتمع، وكانت حياتها نفسها تعتمد، بكل معنى الكلمة، على الرجال الذين تنتمي اليهم: أولاً، أبوها، ومن ثم زوجها، وفيما بعد، أولادها. وكانت المرأة مجبرة على أن تعتمد على أطفالها في دعمها اذا مات زوجها لأن الأرملة لاترث بصورة عامة أملاك زوجها المتوفي في الشرق الأدنى (القديم). وفي ظل الشريعة التوراتية، فان أملاك الرجل تنتقل مباشرة الى أطفاله (انظر سفر تثنية الاشتراع 21: 16و17) أو اقربائه الآخرين (المحارم) (انظر سفر العدد 27: 8-11) وامراة بلا أطفال مثل ثامار، لم يكن لها مكان مقبول ومريح في المجتمع الذي تعيش فيه. وكانت لاتستطيع أن تندمج بعلاقة جنسية بصورة مأمونة، وتحمل وتربي أطفالاً، أو أن تحصل على رزقها من خارج الحدود الضيقة المذكورة (14)

والحقيقة، أن امرأة مثل ثامار لم تكن تتجرأ على الارتباط بعلاقة جنسية، وكانت تعتبر وكأنها تهدد المجتمع والنظام الأخلاقي لمجتمع التوراة بحيث انها تزال لا أكثر ولا أقل. فالمرأة غير المتزوجة التي تنام مع رجل تواجه الموت في ظل الشريعة الصارمة (انظر سفر تثنية الاشتراع 22: 12) وكذلك تفعل الزوجة التي تضل خارج فراش الزوجية (انظر سفر الأحبار 20: 10) ومن الملاحظ أن عقوبة المرأة غير المتزوجة التي تورطت بنشاط جنسي محرم يفترض أن يكون مكانها «في بيت أبيها» وكأنهم يجعلون الأمر بحيث أن امرأة بدون حام ذكر معترف به-ان كان أباً، أو زوجاً، أو ابناً بالغاً- كان ينظر اليها بوضوح، أن من

الخطير جدا أن يسمح لها بأن تعيش وحسب.

وبالنسبة الى ثامار المرأة الكنعانية التي اقترنت بقبيلة زوجها، فان أزمة عدم انجابها مؤلمة جداً. فالخارجية يجب أن تحمل أطفالاً بغية الحصول على مكان في اسرة زوجها(15) واذا ترملت قبل أن تنجب أطفالاً، فمن المحتمل، في تلك الحالة، أن تبقى غريبة في عيون عشيرة زوجها. ولهذا السبب، وجدت ثامار نفسها في خطر داهم. فهي لاتستطيع أن ترث أملاك زوجها، ولا تستطيع الاعتماد على وراثة أطفالها، ولا تستطيع أن تعود مرتاحة الى دار أبيها، ربما باستثناء كونها عانس معزولة ومنسية. ان ثامار الأرملة والتي لاأطفال لها «غير منسجمة» ولاتنتمي الى أي مكان (16)

وهكذا فان فخ ثامار ليهوذا على الطريق الى تمنة كان من فعل امرأة شجاعة وواسعة الحيلة رفضت أن تقبل بصورة سلبية المصير الذي قررته الأبوية في اسرائيل القديمة لأرملة من دون أطفال. ولم تكن مجرد غاوية غشت حماها بغية اعطائها أطفالاً بتمثيلها دور المومس، بل، كانت امرأة وقفت من أجل حقوقها القانونية بالاسلوب الوحيد المتاح في زمانها ومكانها.

التقليد الغريب في «الزواج» حسب العادة اليهودية التي تلزم آخا المتوفي من غير عقب على الزواج من أرملته

يجب علينا، بغية فهم قصة ثامار، أن نلقي نظرة الى الوراء على التقليد الغريب في العهد التوراتي المسمى ييبوم بالعبرية ويعرف بالانكليزية بصورة عامة باسم زواج المصاهرة «leviate» اي وفق العادة اليهودية التي تلزم أخا المتوفي من غيرعقب على الزواج من أرملته. وكماسنرى، فان العبارة نفسها هي، مع ذلك،كناية منمقة أخرى. فزواج المصاهرة ليس زواجاً حقيقياً على الاطلاق، بل، انه نوع من صلةجنسية معترف بها خارج اطار الزوجية وهي عملية قد تشبه «عملية الاستيلاد» توكل الى الصهر ازاء زوجة أخيه الأرملة.

وlever كلمة لاتينية تعني «الصهر»، ولذا كان «زواج المصاهرة» -حسب العادات- إلزام الرجل باستيلاد أرملة أخيه الميت اذا مات الأخ دون أن يترك وريثا ذكرا. والطفل المولود من «زواج المصاهرة» لايعتبر من نسل أبوه الحقيقي (البيولوجي)، بل أنه طفل يسمى باسم الأخ الميت و هو يرث- على وجه

الحصر- أملاك الأخ الميت (18) وهكذا فان زواج المصاهرة يؤكد أن ثامار، اذا استولدت بنجاح، كانت ستحصل على مركز في بيت زوجها الميت (19)

ومع أن التوراة تتكلم عن عادة الزواج مابين الأرملة وصهرها(20) ، فان المسؤولية الأساسية للصهر هي أن يزرع ذريته في رحمها. وفي الحقيقة، فان سفر التكوين 38 لايخبرنا أن ثامار تزوجت اونان، أو شيلة، أو يهوذا، أو أي انسان آخر. وكل مانعرفه أن يهوذا «لم يعد يعرفها» إلا انه اعتبر أن طفلها وريثه الشرعي (سفر التكوين 38: 26) .

وترسم قصة ثامار صورة أرملة شابة حريصة على حقوقها في ظل تقاليد المصاهرة الى الحد الذي جعلها تتحول الى حميها لكي يستولدها عندما ظهر أن صهريها غير قادرين على تنفيذ المهمة. إلا أن اختيارها لشريكها ليس صادما تماما اذا ما أخذنا بالاعتبار أجواء العهد التوراتي. اذ كان بالامكان تأدية واجب المصاهرة من قبل رجال الاسرة غير الصهر (21) ويصور لنا سفر راعوت، على سبيل المثال، الخطة المحكمة للشابة الأرملة لكي تضع نفسها تحت حماية قريب أبعد عن زوجها الميت من أخ زوجها أو حميها. إلا أن ثمة فرق مابين الاستيلاد الذي هو حق المرأة وفق تقاليد المصاهرة، وبين الزواج الذي، إما أن ليس لها شأن فيه، أو أن لها فيه شأن قليل.

وكتب أحد الأدباء أن «الزواج قد يأتي، وربما يكون مرغوبا من جانب الأرملة على أقل تقدير. ولكن من خلال منظور عادة المصاهرة، وعلى الأقل بالنسبة الى هذه القصة، فقد كان بامكان ثامار أن تتوقع حملاً بطفل فقط» (22)

ولم تكن ثامار الوحيدة التي نظرت الى واجب المصاهرة وكأنه شيء مقدس تقريبا. وينص سفر تثنية الاشتراع على أن الرجل الذي يرفض أن يؤدي واجبه ازاء أرملة أخيه الميت يستحق الازدراء والاهانة. وتقوى المرأة المجنى عليها وحدها على أن «تخلع نعله من رجله وتتفل في وجهه» (سفر تثنية الاشتراع 25: 9) ولازال مغزى هذا الطقس موضوع نقاش بين العلماء (23) إلا أن مصيرا مشؤوما أكثر تعرض له اونان، الذي سحب نفسه ودفق ذريته على الأرض بدل أن يستولد الأرملة حسب ماتتطلبه الشريعة.

وتبجح أديب توراتي قائلا: «أن يهوه هو الاله الذي قتل المصاهرين

المحتالين». وقد ورد اسم اونان تحت بند العادة السرية، بسبب فقط قراءة خاطئة عالمية لقصة التوراة من قبل وعاظ انكترا الفيكتورية الذين كانوا مأخوذين بالشرور الخيالية للعادة السرية. وقد التقط حراس الأخلاق في القرن التاسع عشر، وكانوا يولون اهتماماً في كسب شيء من السلطة التوراتية الخفيفة من أجل ادامة العادة السرية، التقطوا اونان كمثال معلل لارتكاب الخطأ اذا ما الحق المرء الأذى بنفسه.»

ولكن ليس ثمة أدنى علاقة مابين العادة السرية وماتم تصويره في سفر التكوين 38. فاونان قام بفعل قطع الجماع ليتجنب استيلاد ثامار. وقد تعرض للموت بسبب تقصيره في أداء الواجب، فدفق ذرية الانسان على الأرض، خصوصاً في سعيه لتحاشي أداء واجب المصاهرة. وهذا الفعل هو فعل انتهاك فظ لثقافة، تقيم تقييماً أرفع من أي شيء آخر، حمل الطفل وحفظ اسم الانسان من خلال نسله. وبالحقيقة وصف التوبيخ الذي وجهته الأرملة الى صهر ممتنع في التوراة بقولها: «قد ابى أخو زوجي أن يقيم لأخيه الميت اسماً في اسرائيل ولم يرضني زوجة.» (سفر تثنية الاشتراع 25: 7)

وبالنسبة الى القاريء المعاصر، يوحي واقع دفق اونان ذريته على الأرض أنه كان مدفوعاً بالشعور بالذنب، أو مرتبكاً، أو مكبوحاً أخلاقياً. وعندما نَقيم الغرض الحقيقي من وراء زواج المصاهرة، بصورة عامة، ندرك أن اونان قد انطلق من مواقع الطمع المجرد. فقدكان يعرف حق المعرفة انه اذا قام بواجبه يفقد قسماً من ميراثه الخاص بتقديمة وريثاً لأخيه الميت. ولذلك رفض أن يأخذ شريكته في الجنس الى هزة الجماع التي قد تنتج طفلاً.

وحتى لو كان رجال الدين قد تجنبوا قصة ثامار لعدد كبير من القرون وهم يكتبون مواعظهم، فان راوي القصة التوراتي جعل الأمر جلياً بأننا نريد أن نرى ثامار امرأة شجاعة تغامر بالموت حرقاً بالنار من أجل المطالبة بما كان لها حقاً. وقتل اونان «الصهر المراوغ» بغضب الهي لأنه لم يمارس الحب معها، إلا أن يهوذا لم يعان من أي عقاب على الاطلاق لنومه مع كنته في ظل ظروف الاغراء، لأنه بالضبط، أدى الواجب الذي أهمل أدائه ابنه. واذا مالحق بيهوذا أي لوم، فلأنه تأخر في وضع رجل في فراش ثامار لتنفيذ مانص عليه التقليد القديم بخصوص

زواج المصاهرة.

لقد أعلن يهوذا وهو لايخفي استخفافه بعادة المصاهرة: «هي أبر مني لأني لم ازوجها لشيلة ابني» (سفر التكوين 38: 26).

الخيط الأحمر

لاتنتهي قصة ثامار ويهوذا حسبما رويت في سفرالتكوين 38 في اللحظة المهيبة حين أعلم يهوذا الآخرين بأنه هو والد الأجنة في رحمها. وتابع الراوي التوراتي كلامه عن حادثة غريبة عن ولادة جنين. واذا كانت المقابلة بين ثامار ويهوذا قد قرأت أحياناً بوصفها قصة جنسية خيالية مضاف اليها حيلة بارعة في النهاية، فان مشهد الولادة ينتهي بانعطاف غريب أكثر.

وكما ظهر فيما بعد، فان ثامار الحامل لم تكن تحمل طفلاً واحداً، بل طفلين. ويقال لنا، أثناء المخاض، أن أحد الطفلين دفع يده الى خارج الرحم. وقد ربطت القابلة المتنبهة الى قدوم الأول، خيطاً أحمر حول اليد الطرية لكي يعرف الجنين الذي كان الأول في الخروج من الرحم، في حال انسحبت اليد الى الوراء أثناء الولادة.

«ولما ولدت أخرج أحدهما يده، فأخذت القابلة قرمزاً فعقدته عليهاوقالت هذا خرج أولاً» (سفر التكوين38: 28)

واختفت اليد الطرية عن النظر فعلاً، وتلقت القابلة أولاً الطفل من دون خيط أحمر حول يده. وسمي الطفل بيريز - وتعني الكلمة بالعبرية «المقتحم» لأنه اقتحم رحم أمه قبل أخيه. وتلقت القابلة تالياً زيرا، الطفل صاحب الخيط الأحمر حول يده. وفنياً كان زيرا هو المولود الأول، وهو المدعو لوراثة اسم أبيه وأملاكه، إلا انه صار المولود الثاني. وسمي بيريز في التوراة بسلف داود، الملك المبجل الذي أسس القدس كعاصمة لاسرائيل الموحدة، وسليمان الذي بنى المعبد في المدينة المقدسة، وأخيرا، المسيح في العهد الجديد (انظر الفصل الخامس عشر).

وهكذا تجسدقصة يهوذا وثامار أحد المواضيع الثابتة إلا أن التوراة تغفل أحياناً أمر استيلاء الأخ الأصغر على حقوق المولود الأول. فقد طرح ابن ابراهيم المولود أولاً اسماعيل جانباً في صالح أخيه الأصغر اسحاق، من أم أخرى

(انظر سفر التكوين 17: 15-22) وابن اسحاق المولود ثانياً يعقوب، لجأ الى حيلة بارعة بغية سرقة بركة الولد الأول من أخيه الأكبر عيسى (انظر سفر التكوين 27: 1-30). ومن بين الأولاد الاثنى عشر ليعقوب، فان يهوذا هو الذي استخدم اسمه في تسمية الشعب اليهودي، وهو الذي ساد خط (دمه) في تاريخ اسرائيل. ونرى كذلك أيضا، في سفر التكوين 38، ان المولود الثاني بيريز ساد على أخيه التوأم، اذا لم نذكرأولاد يهوذا الثلاثة من زوجته الكنعانية.

ويجري تذكيرنا من خلال هذه القصص أن التاريخ التوراتي لايتشكل دائماً بيد الله،بل، أن مصير الاسرائيليين قد تقرر في أغلب الأحوال من قبل رجال ونساء عنيدين ممن قاموا بمبادرات ودوافع خاصة، وغالباً بطرق جريئة وصادمة لكي يؤكدوا أن ذريتهم ستعيش وأن أحفادهم سيرثون الوعد المبارك من قبل العلي القدير بمثل هذه العبارات الطموحة للشعب المختار. ولم يقم أي من هؤلاء الرجال والنساء في هذه القصص بفعل أكثر جراة وتهوراً من ثامار نفسها.

وبالطبع، فان بالامكان تشبيه ثامار بنساء أخريات في التوراة ممن صورن كمغامرات جنسياً وكن، مع ذلك، مجقات بكل معنى الكلمة. ومثل ثامار ابنتا لوط وراعوت المؤابية لجأن الى الفراش من أجل تأمين أطفال لأنفسهن وتأمين البقاء لأحفادهن البعيدين. وتشبة ثامار بصورة غريبة امراة كنعانية أخرى تصرفت ببسالة من أجل بقاء الاسرائيليين وخدمة لهم ولمصيرهم. انها راحاب الشخصية الأصيلة ذات القلب الذهبي، والتي أنقذت حياتها بفضل خيط أحمر مشابه لذلك الخيط الذي استخدم في ولادة طفلي ثامار.

لقد رويت قصة راحاب في سفر يشوع الذي أرخ لغزو كنعان من قبل الاسرائيليين اثر الخروج من مصر. فقبل أن يشن الاسرائيليون هجومهم، أرسل جاسوسان لم تذكر اسماؤهما، لكي يتسللا الى مدينة الخليل ويكتبا عن الدفاعات. إلا أن الجاسوسين توقفا أثناء تنفيذ مهمتهما لكي يزودا أنفسهما بخدمات مومس محلية (زنى) اسمها راحاب. وقد قوطعا عن التنفيذ عندما أرسلت دورية من قبل ملك الخليل ظهرت عند البيت. فأخفت راحاب صاحبة القلب الطيب الجاسوسين ومن ثم سمحت لهما بالهرب. وبغية مكافأة راحاب

فقد تعهد الجاسوسان أن تحفظ حياة راحاب واسرتها عندما ينتقل الجيش الاسرائيلي الى الهجوم، ونصحاها بأن تعلق خيطاً أحمر في نافذتها كعلامة للجيش الاسرائيلي الغازي (انظر سفر يشوع 2: 1-19).

وللتأكيد على التشابه بين ثامار، المومس الكنعانية المزيفة، وراحاب المومس الحقيقية، وسع الشيوخ النص التوراتي بالتصور أن ولدي ثامار، بيريز وزيرا هما الجاسوسين غير المسميين في سفر يشوع، وباقتراحهما ان خيطاً أحمر يعلق في نافذة راحاب كعلامة للجيش الاسرائيلي المهاجم، وكان ذلك الخيط يشبه تماماً الخيط الذي لفته القابلة حول يدزيرا.

ويوحي العهد الجديد أيضاً بتشابه مباشر مابين ثامار وراحاب: فيسوع الناصرة ينسب،كما في انجيل متى،الى أربعة نساء في التوراة بوصفهن الجدات المباشرة:

ثامار،وراحاب، وراعوت، وبتشايع (متى1: 1-5) والملاحظ ان أياً من النساء الأربعة لم تكن اسرائيلية وقد تزوجن برجال اسرائيليين وارتبطن بنهج جنسي تتناوله الألسن بالسؤال، ومن ضمن ذلك أفعال زنى الاغواء. ولازالت ثامار مزعجة جداً للسلطات الحاخامية الصارمة التي درست وشرحت التوراة وسعت لأن تنسب كل سلسلة الأحداث الى يد العلي القدير. وتصور الحاخاميون ثامار بأنها سليلة الكاهن الأكبر شيم بن نوح،وهي قد منحت القدرة على التنبؤ بقوة «روح القدس». وعرفت بالتأكيد انها مرسلة لكي تصبح «ام خيط الدم الملكي لداود، وأحفاد أشعيا». وعندما أدت دور المومس لكي توقع يهوذا بالشرك، تجاهلها الرجل الطيب، إلا أن «الله» (أرسل) الملاك الذي عين على شهوة الحب، لكي يجبر يهوذا على الالتفات الى الوراء ويضع نفسه في حالة عناق مع ثامار.

وفيما بعد، ووفقاً لروايات حاخامية، استدعيت ثامار الى محكمة للعدل، حيث تقرر مصيرها من قبل محلفين تألفوا من شبح اسحق، ويعقوب مرة ثانية، ويهوذا نفسه. ومالت ثامار الى الدفاع عن نفسها دون أن تهاب من تجريم يهوذا لها. ولذلك بين يهوذا أن ثامار الحامل كانت خاطئة وتستحق الحرق.

ويحثت ثامار، من أجل انقاذ نفسها، في اللحظة الأخيرة، عن الرهانات التي

تثبت براءتها- خاتم يهوذا وعكازه-إلا أنها لم تجدهما، فقد خبأهما الملاك الشيطاني، بغية منع ولادة داوود. لذا أرسل الله الملاك ميكائيل لكي يضع الحقائق الثابتة أمام المحلفين. فاعترف يهوذا، وقد واجهته الحقيقة، ليس بأبوة طفلي ثامار، بل أيضاً ببيع يوسف كرقيق، وتطوع أخوه رؤوبين(معترفاً بالخطأ) ومتأثراً بروح الاعتراف، فتسلل الى فراش محظية أبيه بلهة.

وجعل يهوذا يبين من جانب راوي القصة الحاخامي أن «من الأفضل أن أحترق بالنار التي يمكن أن أخمد فيها من أن أرمى الى نار جهنم»، وهو يخبرنا أيضاً أن يهوذا تزوج، فيما بعد، من المرأة التي أخطأ بحقها، وقال: «الآن أعترف بأن ثامار بريئة».

وسمع صوت سماوي يقول: «كلاهما بريئين. انها ارادة الله التي يجب أن تنفذ(26)»

تخفي الرواية حسب ما رويت من جانب الحاخاميين قلقاً معيناً وجلياً بخصوص امرأة من لحم ودم رفضت بوضوح أن يغلق الباب دونها وتبتعد. إلا أن ترجمتهم للقصة تحول ثامار الى دمية تعمل خيوطها بقوة محرك دمى إلهي. والذي يجعلها مميزة جداً ويجري ذكرها على كل شفة ولسان ومقبولة من جانب القارىء المعاصر.. هو واقع أن ثامار لايمكن أن يتلاعبوا بها، ولايمكن أن يخوفوها أو يتجاهلوها.

وامتدح توماس مان عزيمة ثامار التي لاتقهر وهو يعيد قص حكاية ألف عام أو نحوها فيما بعد في «يوسف المدخر» وفي كتاب رواية «يوسف واخوته» الذي اعتمد فيه على الروايات التوراتية. وتخيل مان ثامار شابة كنعانية «موهوبة» روحاً وجسداً، بسحر وغموض «استرياAstraea » التي جلست على قدمي الأب العبري يعقوب وتعلمت منه أن الله إختار الاسرائيليين شعباً له ووعدهم. والبطل الذي يجب أن ينهض في يوم من الأيام من الذرية المختارة .. هو أمير السلام المسيح. وصممت ثامار على أنها ستكون تلك المرأة التي تحمل ابناً يحمل اسم يهوذا وخط دمه، وأن رحمها سيكون «رحم الخلاص» أي المكان الذي تزرع فيه «الذرية المختارة» وتنمو وتزدهر وقررت ثامار أن «تقحم نفسها في تاريخ العالم» مهما كلف الأمر(27) بقوة أمومتها- حسب ما كتب مان في «يوسف

المدخر» و«مثلت دور المغرية والمومس على قارعة الطريق، لئلا يغلق الباب دونها وأذلت نفسها دون أن يرف لها جفن لكي ترتقي»(28)

وحتى في كلمات سفر التكوين 38 المحسوبة والمقتصدة ذاتها، فإن ثامار العنيدة التي لاتقهر ليست أقل شأناً من المنقذ الذي ضمن بقاء الشعب اليهودي . وفي النهاية، أمنت ولادة المنقذ. والكلمة «يهودي» نفسها مشتقة تحديداً ومباشرة من «يهوذا». ومن خلال بيت داود زودت الاسرائيليين بأعظم الملوك *وبالخط الدموي الذي سينتج، في النهاية، منقذاً.*

إلا أن القبيلة كانت ستواجه الانقراض المبكر لأنه لم يكن بامكان أي ولد من أولاد يهوذا أن يزرع ولداً في رحم ثامار. وكان الشعب اليهودي سيضمحل بعدئذ، لولا شجاعة ثامار وتصميمها. وبقيامهابدور المومس، انقذت قبيلة يهوذا- وايضاً الشعب اليهودي- من الفناء.

وهكذا فان قصة ثامار ويهوذا تشي بحقيقة ملحة وأساسية لم تكن في يوم من الأيام وثيقة الصلة بالموضوع أكثر من الآن. فالله أمر الاسرائيليين أن يطردوا أو أن يقتلوا الكنعانيين، إلا أن الاسرائيليين كانوا مضطرين، بحكم الظروف التاريخية، أن يعيشوا جنباً الى جنب الكنعانيين. واليوم يجب أن يجد الصراع العربي اليهودي سبيلاً لعيش أحدهما الى جانب الآخر، فوق سطح الأرض الدامي، حيث التقى يهوذا وثامار للمرة الاولى. وهذا الأمر ليس أقل راهنية مما كان عليه قبل ثلاثة آلاف سنة. ولنكن واثقين بأن التوراة تقدم أمثلة كثيرة ودموية عن الحرب والارهاب اللذين مورسا من جانب كل من الاسرائيليين وغير الاسرائيليين، إلا أن قصة ثامار مثل باقي الأمثلة الساطعة في التوراة، تشي بأنه يجب ويمكن للعدوين القديمين أن يجدا سبيلاً للعيش مع بعضهما بعضاً*

---

* تجاهل الكاتب الحركة الصهيونية وليدة عصر الامبريالي وشريكة الدوائر الامبريالية، وخلط الامور بحيث يبدو أن الصراع يتحدد مابين الاسرائيليين والكنعانيين في الأساطير، في حين أن الصهيونية تستغل هذه الاساطير لكي تمارس استعماراً، في حين يخوض الشعب العربي الفلسطيني معارك تحرير أرضه ووطنه الذي يعترف بهما له التاريخ والاسطورة معاً.

الفصل الثامن
صِفورّة وموسى

«ولما كان في الطريق في المبيت التقاه الرب فطلب قتله» «سفر الخروج 4: 24»

ألقت ألسنة اللهب بظلالها على جدران الخيمة التي كان ينام فيها زوج صفورة ورضيعها. وكانت صفورة مستلقية فوق كومة من الفرش التي شاركها بالنوم فوقها زوجها وابنها، إلا أنها بقيت مستيقظة. وكانت تنظر الى الأشكال التي بدت أنها ترقص وتقفز على القماش المشدود.

وليس قبل ذلك الصباح وقفت صفورة في مجمع اسرتها مدين وأخذت الإذن بالوداع من والدها وأخواتها الست.

وأبوها كاهن المدينيين، لم يكن أقل اتزاناً ووقاراً فيما لو كان يترأس اقامة صلوات للآلهة التي لاتنتهي مطالبها، مع أن صفورة لاحظت شيئاً من الحشرجة في صوته عبر عن الحزن. وبكت أخواتها بصورة صريحة وبقي يطن في أذنيها الى أمد بعيد صوت عويلهن، وهي تحمل طفلها الرضيع بين ذراعيها، وتسير وراء زوجها الذي كان يتقدمها على الطريق الصخري باتجاه مصر.

ووجدت نفسها بعدئذٍ وحيدة مع زوجها وطفلها في واحة صغيرة بعيدة عن دارها. وكانا قد شقا طريقهما بصعوبة من شروق الشمس الى مغربها، وكان زوجها يسوق حمارين محملين. وطلع القمر قبل فترة وجيزة وكانا قد وصلا الى حفرة مليئة بالماء الموحل تحف بها شجرتا بلح قزمتان استخدمتا كمأوى ينام فيه المسافرون على طريق القوافل عبر الصحراء. وكان ثمة نار خامدة فوق الحافة البعيدة للبحيرة، وكومة من روث الجمال، وقطع متناثرة من جرار خمر

مكسورة- وكل مايدل على أن أحدهم قد توقف هنا- إلا أن من غير الممكن رؤية انسان حي. وفي لحظة قد تهب الرياح وتعصف في الواحة مثيرة زوابع من الرمل، ثم يعود كل شيء، الى ماكان عليه، هادئا.

........« ولما كان في الطريق الى المبيت التقاه الرب فطلب قتله. فأخذت صفورة صوانة فقطعت قلفة ابنها ومست رجليه وقالت أنك لي عروس دم»
(سفر الخروج 4: 24و25)

جمعت صفورة قليلاً من عيدان الشجر، وأشعلت النار، وحضرت وعاء من الثريد في الوقت الذي كان زوجها يسقي الحمارين ويربطهما، ويفك حزمة الخيمة وينصبها. ومن ثم انضم اليها والى الرضيع قرب النار لتناول وجبة سريعة. وتناولا طعامهما دون أن ينبثا ببنت شفة، وكأنهما أسكتا بقوة مخاطر الرحلة المتعبة التي قاما بها. وعندما كان الرضيع يضطرب بين حين وآخر، كانت صفورة تفك ازرار ثوبها وتعطيه ثديها بغية تهدئته. وعندما كانت النار لاتزال مشتعلة في الحفرة الصغيرة مثل شمعة خافتة الضوء وسط الظلمة الحالكة في الصحراء، تراجعا الى خيمتهما لقضاء الليل فيها. ولم تلبث صفورة حتى سمعت صوت التنفسين المنتظمين لزوجها النائم ولطفلها، وكان أحدهما عالي الصوت، في حين كان الآخر خافتا.

واجتذبت الظلال على جدار الخيمة نظر صفورة ومنعتها من النوم. ففكرت في الحكايا التي سمعتها عندما كانت طفلة من امرأة من عشيرة أبيها، حين كانت عجوز شمطاء تروي الحكايا المرعبة بصوت يشبه فحيح الأفاعي. واستعادت صور القصص- صور الآلهة التي طلبت مسرات لاتحكى من فتيات لم يكن قد عرفهن رجلا، وشياطين وضعا افواههم فوق أفواه البريئات وامتصوا الحياة منهن بينما كن نائمات، ومخلوقات سمينة ذوات روائح كريهة انبثقت من البحيرات وابتلعت الرجال الأقوياء حتى وصلوا الى أقدامها.

ارتجفت صفورة وكأنها في نوبة حمى، ثم لفت طرف اللحاف حول كتفيها لكي تدفئ نفسها من هواء الصحراء البارد. وألقت نظرة على زوجها وهو نائم واحدى يديه تلتف حول الرضيع النائم. فقد كان رجلا طيبا، إلا أنه كان هادئا بصورة غريبة، وبدا وكأنه يحتفظ في صدره بأسرار كثيرة وعظيمة.

كان يتصرف مثلما يتصرف أمير مع أن يديه الخشنتين وذراعيه وساقيه المفتولة تخص بالتأكيد راع يرعى القطعان فوق أقسى المنحدرات الجبلية. وهو يتكلم بلغة مهذبةٍ لأمير، إلا أنه لايتكلم كثيراً لأن الأمر يحتاج منه الى جهد كبير بغية ابقاء تلعثمه طي الكتمان. وبدا اسمه وكأنه من مكان قصي في مصر، ولكنه كان يصر على أنه لم يكن مصرياً. وفوق ذلك، كان يبدو بصورة جلية أنه غريب بين المدينيين. وعندما ولد ابنهما الأول، اصر على تسميته جيرشوم، وهي كلمة تعني« غريب» باللغة الأصلية لزوجها.

وتذكرت صفورة اليوم الذي التقت به مع زوجها للمرة الاولى، وبدا يوماً بعيداً عن هذه اللحظة. فقد كانت صفورة وأخواتها يأخذن قطيع والدهن الى بئر تبعد قليلاً عن المجمع، حيث اعتدن على جر الماء للغنم وملء الجرار للبيت. وبدأن يملأن الأجران. وعندما امتلأت الأجران ظهر راعيان صاخبان فوق الهضبة، وكانا يقودان قطيعاهما، فدفع أحدهما بنات تيرو السبعة جانباً. وقال الأوقح لصفورة وهو ينظر شذراً: «سنشرب ونسقي حيواناتنا في الأول، ثم نقضي وقتاً ممتعاً معكن بعدما نشرب».

وكانت صفورة وأخواتها قد رأين الشابين من قبل- الشاب الطويل، صاحب الوجه المجرم المليء بالبثور الذي لم يتكلم أبداً، والقصير السمين، صاحب أنف الخنزير، الذي كان يعنفهن ويلمسهن بصورة مهينة. وكما في السابق، بدأت بنات تيرو بالابتعاد عن البئر بغية ترك مسافة مابينهن وبين اللذين يعذبانهن. وكن يجبرن أحياناً على الانتظار طوال النهار في منحنى وادٍ قريب خارج مرمى بصر الراعيين، ويصغين الى صوت نهيق الرجل القصير وهو يضحك، حتى يمل الرجلان من اللعبة ويبتعدان.

ولكن في اليوم الذي لاينسى، سمع صوت غريب بصورةٍ مفاجئةٍ، عندما كانت صفورة تبعد أخواتها عن البئر وصدر الصوت من البقعة الظليلة تحت صخرة بارزةٍ، ورأين رجلاً يحمل عصا ويخرج من الظل.

«إرجعا!» صرخ الصوت على الراعيين من دون أي تلعثم ستلحظه صفورة، فيما بعد في اللحظات الهادئة «واتركا الفتيات يسقين قطيعهن».

فنظر الجميع- بنات تيرو والراعيان المستأسدان- الى فوق مدهوشين. ورؤوا

شابا لاتدل أسماله البالية والوسخة على قوته، وقف مفتخرا منتصب القامة وكأنه أمير مصر وان كان من الغريب تماماً أن يكون قد سافر وحيداً في بلد مضطرب وكأنه هارب من ملاحقة. وطرد الراعيان بإشارة واحدة من عصاه التي رفعها عاليا بقبضةٍ محكمةٍ. ومن ثم سحب ماء أكثر بكثير من البئر الذي كان فيه القطيع يشرب. وما أن يفرغ دلو حتى يسحب غيره بذراعيه القويين. وعندما عادت بنات تيرو الى البيت كن يقهقهن ويتهامسن عن الغريب الذي أنقذهن من المعذبين القدامى.

وسأل تيرو: «كيف حدث أن رجعتم باكراً هذا اليوم؟»

«أبعد مصري الراعيين اللذين يضايقاننا دائماً عند البئر» أجابت أصغر بنات تيرو «وأكثر من ذلك، فقد سحب لنا الماء» قالت الأخرى. وقاطعتها الثالثة قائلة: «وسقى القطيع».

فهز تيرو برأسه، ومسد لحيته الطويلة، ونظر الى صفورة، كبرى بناته، نظرة حادة، وسألها: «أين هو الآن؟ لِمَ تركتِ الرجل يذهب؟ إطلبي منه أن يكسر رغيفا!»

وهكذا جاء الغريب الى بيت صفورة وكسر خبزاً مع الكاهن ومع بناته السبعة، وقبل عرض تيرو بأن يقيم معهم ويرعى الغنم. ولم يتكلم الرجل بضع كلمات مع أي من الفتيات، ولكنه رافق تيرو في مشاوير طويلة في الريف، وعرف تيرو الكثير عنه: كيف ولد من رقيق اسرائيلي في مصر إلا أنه نشأ في قصر فرعون نفسه، وكيف شهد ضرب الرقيق من قبل منفذ أوامر فرعون، وكيف قتل ذلك المسؤول وفر الى برية ميدين خوفاً من غضب فرعون ومن العقوبة الأكيدة التي ستنزل به.

وقدم تيرو الى الغريب الملجأ الأمين في أرض ميدين، وقدم له، بعد فترة وجيزة، يد كبرى بناته ليتزوجها. عند ذلك الوقت عرفت صفورة اسم الغريب، الرجل الذي كان سيصبح زوجها والد أطفالها. فقد كان يسمى موسى. وقطعت ضجة مفاجئة من خارج الخيمة على صفورة أفكارها. فقد سمعت فحيحاً وقعقعة تشبه قعقعة الأفعى التي تتقوس لكي تلدغ، فسرت قشعريرة في جسدها. وجلست جفلة وأخذ قلبها يطرق بقوةٍ وسرعةٍ.

وهمست: «ياموسى!» إلا أن زوجها لم يستيقظ وتنفس الطفل بصوتٍ مسموع ثم عاد هادئاً كما كان.

وسمعت صوت حفيف الجسد بالثياب وكأنه شخصٌ ما أو شيءٌ ما يقوم بحركة على جدار الخيمة من الخارج، وتصورت أنها رأت انتفاخاً بارزاً يتحرك ببطء ولكن بثبات نحو باب الخيمة، وتناهى الى أذنيها صوت تنفس ثقيل يشبه الصفير- صوت تنفس متَعب- إلا أن هذا التنفس لم يصدر عن زوجها ولا عن طفلها. وذكرتها الرائحة الكريهة المندفعة الى الخيمة بدخان الشحوم الذي صدر عن المذبح عندما ضحى والدها بكتلة من اللحم الدامي للآلهة.

وصاحت ثانية: «يازوجي!» إلا أنه لم يستيقظ ايضاً.

وتذكرت وقتئذٍ القصة الغريبة التي رواها زوجها عندما ذكر للمرة الاولى أن عليه أن يعود الى مصر، وطلب منها أن ترافقه. فقد كان موسى يرعى قطعان تيرو على سفوح الجبال في البرية عندما رأى مشهداً غريباً. وكان المشهد عبارة عن شجرة عليق تحترق بالنار إلا أنها لم تحترق كلها. ثم سمع صوتاً وكأنه صادر عن شجرة العليق، صوت أعلن عن نفسه بأنه «إله آبائك»، إلهٌ اسمه يهوه، طلب من موسى أن يعود الى المكان الذي إستعبد فيه شعبه، الى المكان الذي قَتَلَ فيه مسؤول العمل المصري، الى المكان الذي يطلب فيه فرعون رأسه.

«تعال، فأنا أبعث بك الى فرعون» قال الصوت من داخل شجرة العليق المحترقة، «وأنت سوف تحرر شعبي الاسرائيلي من مصر».

وكانت صفورة ستضحك من رواية زوجها لو لا أنه لم يروها بطريقة بسيطة وبصوت هادىء. ولاحظت وقتئذٍ أن تلعثمه اختفى وميزت التصميم في صوته عندما طلب منها أن تعود معه الى مصر. ودون ان تسمح لنفسها بأن تفكر كثيراً بمضامين روايته- إذ هل دعي موسى حقاً من قبل اله اسرائيل؟ هل كان يمزح؟ هل كان مجنونا ؟- وافقت على أن تتحمل مشاق رحلة طويلة وصعبة ومحفوفة بالأخطار من برية ميدين الآمنة الى أرض المصريين وفرعون الجبار.

والآن لاتستطيع أن تطرد الخوف المتصاعد من صدرها. وكانت الأرواح والشياطين عند شعبها مألوفة لها بحيث أنها فقدت القدرة على تخويفها، إلا أن زوجها كان غريباً، وبدت طرائقه الغريبة كبيرة وخطيرة أيضاً. وكان من ضمن

أبناء شعبها، على سبيل المثال، رجل ختن عندما بلغ الثالثة عشر من عمره، أي عندما أصبح في عمر له يسمح بأن يتخذ لنفسه عروساً، وأصبح قوياً بحيث انه يتحمل سكين الخاتن. إلا أن موسى أصر على أن الولد يجب أن يختن في اليوم الثامن من عمره، حين يكون الرضيع لازال ضعيفاً ومعرضاً لكل أنواع المخاطر. وقال الى والد صفورة أثناء تجوالهما: «إن هذا مايطلبه إله آبائي مني». ومن ثم فقد اشتكى تيرو الى صفورة قائلاً: «يالهم من شعب بربري يختنون الأطفال وهم في مثل هذا العمر الصغير!»

وتركت المسألة برمتها هناك في يد أبيها ويد زوجها، إلا أن صفورة وجدت نفسها الآن وقد أمسك بها القلق تعود لتفكر برضيعها النائم بفخذيه الصغيرين السمينين. فربما كانت قد اقترحت خطأ حين سمحت لأبيها أن يناقش موسى حول موضوع الختان، وربما عرضتهم كلهم الى خطر جسيم بسماحها لابنها أن يبقى غير مختتن. وفوق ذلك كله، فما الذي يمكن أن يفعله لهم إله الاسرائيليين الغريب والمتطلب اذا لم ينفذوا مطالبه؟

وتناهى الى أذنيها صوت لم تستطع أن تتعرف على صاحبه، وهو صوت يمكن أن يكون صادراً عن جريان الماء فوق الصخر، أو صوت رياح ليلية تداعب أغصان شجر البلح. وأتجهت بنظرها نحو باب الخيمة، لترى غمامة بيضاء تصل الى الخيمة، وتتحرك فوق أديم الأرض كالضباب في الصباح، ولكنها كانت متوهجة بنور يشبه شعاع البدر كاملاً. وارتفع مسوى الغمامة وهي تدخل الى الخيمة، مثل جدول ماء عذب، وأحاطت بالفراش الذي استلقى فوقه صفورة وموسى وجرشوم وبدوا وكأنهم في جزيرة من الغيوم وسط بحيرة من الزئبق.

«ياله من منظر بديع!» قالت صفورة في نفسها، وقد أصبحت فجأة هادئة، لا بل مسحورة بالصوت والصورة. وأرادت أن توقظ زوجها، ليس بسبب الخوف، بل لكي يرى ماترى، إلا أن الغمام ملأ حنجرتها ومنعها من الكلام.

وبدت هيئة تنهض من وسط الغمام الذي يدور حول نفسه، ورأت صفورة شكل انسان، أو شيء أشبه بالانسان، إلا أنه لم يكن انساناً البتة. وبدأ هذا الشكل يكبر وكأنه جثة نقعت في الماء لفترة طويلة- ثم رات فمها ينفتح على آخره كاشفاً عن صفين من أسنان حمار صفراء وملتوية، ورات بينها قطعاً صغيرة من

اللحم والعظم، وعيون، وأصابع، وقطع صغيرة يمكن أن تكون أشلاء دامية من رئة وجمجمة وكلية. راقبت صفورة المشهد برعب صامت والفم ينغلق ببطء من حول زوجها النائم، ساحباً الى الفم الهائل الرأس والأقدام والذراعين والساقين، والصدر والفخذين، حتى لم يبق مرئياً سوى ذلك العضو الوحيد من جسمه، العضو الذي زرع موسى بذرته في رحمها.

استيقظت صفورة من حلمها المروع مرتعدةً. وكانت عيناها مؤرقة، ورأسها يؤلمها. وأخذت ترتجف وهي تتذكر الفكين الهائلين المطبقين على جسم زوجها، ومن ثم نظرت من حولها في الخيمة ورأت - لفرحها الكبير- أن زوجها كان لايزال نائماً بسلام فوق ساعده. وقالت صفورة في نفسها: «انني ربما أعاني من حمى، وحشرت نفسها تحت غطاء الفراش التماساً للدفء».

ثم سمعت ضحك مكبوت صادر عن شخص يقف داخل الخيمة، وكان قريباً جداً منها بحيث أنها سمعت تنفسه وعرفت بأنها لم تعد تحلم.

وذكرها ضحكه بالراعي صاحب انف الخنزير الذي عذبها وعذب أخوتها عندما كن يسقين قطيعهن من البئر، وخطرت على بالها فكرة مجنونة تقول أن الصوت صادر عن شاب طائش موجود معهم في الخيمة الآن. فسألت: «من أنت؟» بصوت مخنوق «وماذا تريد؟»

لم يتكلم المقتحم. فنظرت فيما حولها لترى إن كانت ستجد شيئاً يمكن أن تستخدمه كسلاح - كأن يكون عكاز زوجها الجديد، أو وتد خيمة احتياط، إلا أن كليهما لم يكونا في متناول يدها ونظرها. ولم تجد على أرض الخيمة غير الأدوات التي استخدمتها في تحضير وجبة العشاء: جرة ماء، وكيس طحين، وجرة صغيرة للزيت، وحزمة صغيرة من العيدان لاشعال النار، وحجر صوان استخدمته لقدح شرارة الاشتعال واشعال النار للطبخ.

ثم تحرك شيء فجأة بسرعة داخل الخيمة وسط الهواء الساخن وشعرت صفورة بنسيم أقل من القليل ولازالت لاترى إلا الظل. غير أن موسى استيقظ خائفاً وجلس على نحو مرتبك، ورفع ذراعيه وكأنه يريد أن يحمي نفسه من ضربةٍ موجهةٍ اليه. وتقلب الطفل على ذراعه وتدحرج على الأرض، ويكى ساخطاً. وشعرت صفورة بالهجوم على زوجها دون أن ترى المهاجم. وأدركت بشكل

ما، دون أن تعرف تماماً، كيف أن المقتحم، كائناً من كان، قد جاء ليقتله.

وفي تلك اللحظة، انحنت صفورة نحو الأرض حيث كانت أدوات المطبخ تصطف بصورة منتظمة، وأخذت حجر الصوان بيدها اليمنى، وتحسست الطرف المثلم باصبعها- ان كان حاداً بشكل كاف، حسب ما قدرت، لكي تطعن المهاجم. فهل كانت ضربة أو حتى طعنة كافية لايقافه؟ أو أنها تحتاج الى شيء آخر، كأن يكون سحر فعال أكثر، تهشم به الشكل الشبحي في الظلام؟ وتمنت ان يكون بيدها شيئاً أطول وحاداً أكثر. سكيناً طويلة حادة تشبه السكين التي يستخدمها تيرو في ذبح رقاب الأغنام التي كانت تؤخذ الى مذبح التضحية، أو حتى تلك السكين القصيرة التي كانت تستخدم في ختن شاب مديني قبل زواجه من عروس عذراء. إلا أن حجر الصوان كان كل ماالديها، وسوف تحدث أذى كبيراً بالمهاجم، ويسيل دم كثير، قدر ماتسمح به الحافة المثلمة.

وما أن رفعت صفورة الحجر وأخذت تنظر حولها بحثاً عن المهاجم، حتى سمعت صوتين صادرين عن متألم: صرخة زوجها المكبوتة، وكأن المهاجم كان وقتئذ فوقه، وبكاء حاد صادر عن طفلها الذي كان مستلق على ظهره عاجزاً، وكانت يداه ورجلاه تتأرجحان في الهواء وهو يصرخ من الألم. وتكونت، بصورة مفاجئة، صورة غريبة في رأس صفورة لدى سماعها صراخ طفلها اليائس- صورة زوجها وقد ابتلعه فم الشيطان، وجسمه كله معلق بين الفكين الملتهمين باستثناء العضو الأساس. ثم تذكرت الكلمات الغاضبة التي تبادلها زوجها وأبوها بشأن ختن طفل صفورة الذي كان قد ولد.

وتسلحت صفورة بالمعرفة الملحة بأن موسى وليس اباها كان على حق. ان الإله الذي يعبده موسى، الإله الذي ظهر لموسى وبعثه الى مصر، يطلب لحم ودم الأولاد المولودين من شعبه المختار. مع ذلك، فان طفلها كان حياً ومعافى! والمقتحم للخيمة -ان كان ملاكاً أو شيطاناً أو ربما الرب نفسه- كان منكباً ينزل العقاب بزوج صفورة وابنها لأنهما اهملا ماكان يصر موسى على أنه شعار مقدس. ولم تدرك صفورة لِمَ قلفة تافهة لطفل صغير، وهي قطعة صغيرة من اللحم ليست أكبر من رأس أصبعها الصغير، كانت مهمة الى هذا الحد بالنسبة الى الالوهية التي يسميها موسى، كلية الجبروت ، وكلية المعرفة، وكلية الرؤية. إلا

أنها أدركت أن ليس مهما لِمَ، وكل ما كان يهمها في تلك اللحظة، حسب ما حدثت نفسها، أن تواجه المهاجم وأن تبعده.

زحفت صفورة الى جانب طفلها، وسحبت عنه القماط وتحسست جسمه بارتباك كي تجد القسم الأصغر والأنعم في جسم الطفل. وبقي الطفل صامتاً الى فترة، وكان كل ماسمعته عبارة عن شهيق زوجها المخنوق خلفها فوق الفراش. فعضت على شفتها السفلى، ونظرت شزراً في الظلام، ثم وضعت حافة الحجر على اللحم، بالبدء بشيء من اللطف، ومن ثم بقوة أكبر وأدركت أن الحافة لم تكن حادة بشكلٍ كافٍ لاحداث القطع بصورةٍ سريعةٍ ورشيقةٍ. شهق طفلها ثم بكى غاضباً، إلا أن صفورة واصلت عملها. ثم فجأةً ، رأت أنها تمسك بقطعة من اللحم في يدها، وأن يديها كانتا ملوثتان بالدم.

وقالت لنفسها، ياله من دم كثير لمثل هذه القطعة الصغيرة من اللحم. وقفت والتفتت، ورأت أن المقتحم أو المتدخل لم يوقف هجومه على زوجها الذي بدت صرخاته اليائسة خافتة أكثر، وكأن المهاجم كان يستل النفس الأخير من الحياة من جسمه. ورأت صفورة أطراف متأرجحة في الهواء وسط الفراش فوق أرض الخيمة، وسط فوضى عامة، إلا أنها لم تستطع أن تميز وسط الظلمة إن كانت الأطراف أطراف المهاجم أم أطراف زوجها موسى، أو أطرافهما معاً. وأدركت أن رب زوجها، كلي القدرة، لم يلحظ بعد الشعار الدموي الذي قامت به قبل قليل، أو أنه اذا لاحظ ذلك لم يكن مهتماً.

وبقيت صفورة تمسك القلفة الدامية بلطف مابين ابهامها واصبعها الأول وخطت خطوة الى الأمام. ودفعت بقطعة اللحم نحو الساقين اللتين كانت تتلويان وترفسان. وكان موسى يكافح ضد الهجوم. وسحبت صفورة القلفة نحو أسفل أحد الساقين ونحو أسفل الساق الأخرى، راسمة لطخة حمراء فاقعة من الدم الطازج على كل طرف،تماماً مثلما كانت ترى أباها وهو يدهن الذراع، واليد، والوجه بدم الحمل المضحى به حديثاً. ولم تستطع صفورة أن تكون متأكدةً ان كانت الساقين الملطختين بالدم ساقي موسى أم ساقي المهاجم، إلا أنها استعانت بنوع من أنواع المنطق المخبول الذي يقول، إذا كان قطع اللحم وسفك الدم هما كل ماكان يريد المهاجم، فان منظر الدم كافٍ لاثارة انتباهه الى واقع أن الطفل

قد اختتن، وتم قطع اللحم وسفك الدم.

وعادت صفورة الى طفلها الذي كانت صرخاته متلاحقة، ووجدت أن وجهه كان محتقناً، ولم يعد الجرح الذي أحدثته قبل قليل نازفاً. فرفعته الى ذراعيها، ونزعت الثياب عن أحد ثدييها، وأعطته اياه ليرضع.

وتنهد الطفل، وشخر، والتمس الحماية في صدر أمه، ورضع بانتظام من حلمتها. وتطلعت صفورة الى ميدان الصراع، ورأت أن الأطراف المتأرجحة فوق الفراش قد توقفت عن الحركة. وعاد كل شيء هادئاً وساكناً داخل الخيمة. وكان موسى مستلق على ظهره، وذراعيه ممدوتان، وملابسه متغضنة، وكان تنفسه عميقاً ومنتظماً. وراقبت ارتفاع وانخفاض صدره المنتظم- فقد كان نائماً وحيداً. والمقتحم، كائناً من كان، قد ذهب، إن كان قد وجد فعلاً.

وتململ جرشوم وهو بين ذراعيها، فأعطته ثديها الآخر، فعاد الى نومه. ونظرت صفورة الى الرضيع الذي ظهرت على قماطه بقعة حمراء من دم الختان، ثم نظرت الى زوجها، الذي كانت ساقه المكشوفة مدهونة بخطوط مشوشة من الدم الذي تحول الآن الى اللون البني المحروق.

وقالت صفورة بصوتٍ عالٍ: «بالتأكيد أنت عريس دم لي» مقلدةً صدور الكلمات والعبارات الموقرة للتعويذة المقدسة التي كان يقرأها أبوها عند مذبح التضحية. ومن ثم، أضافت تشرح الأمر لنفسها: «عروس دم من أجل الختان». ولم يسمع موسى النائم كلماتها، كما أن صفورة لم تكن واثقة من أنه كان سيدرك معناها اذا سمعها.

الفصل التاسع
عريس الدم

صفورة كإلهة

منقذة موسى

ماذا كان الرب يفعل؟

اله الانسان الصديق

عبادة الإلالهة المنقذة

دم العروس

العذراء

«سأقتل الولد»

لاشيء في التوراة كلها يمكن مقارنته بقصة صفورة و«عريس الدم» في سفر التكوين4: 24-26 بالنسبة الى الغموض، والتشويهات، والتعويق. ومثل هذه القصة مثل حشرة عجائبية(غروتسكية) محفوظة بين أوراق التوراة الصفراء. وتوحي الأسطر الثلاثة المقتضبة في نص سفر الخروج التي تصف الهجوم الليلي الذي قام به الرب ضد موسى.. والطقس الدموي الذي استخدمته صفورة بغية حماية زوجها وابنها بشيء مبهم. وكان ايمان الاسرائيليين القدامى أغرب بكثير، وأغنى بكثير مما يسمح به كتاب التوراة.

وقد أحزن النص المبهم لسفرالخروج 4: 24-26 قراء التوراة وعلماءها وألهب خيالهم- لمدة ثلاثة آلاف سنة على الأقل-ولم تحرف مقالة مثلما حرف هذا الفصل من التوراة، فأصبح نصاً غريباً، لا بل فضائحياً، على أيدي رجال الدين. ولايوجد مثل هذا المقال مقاوماً للخروج على القوانين. وكان النص العبري عصياً، بصورة خاصة، على كشف معانيه ومراميه لأن ممثلين اثنين فقط من الممثلين على المسرح قد عرفنا أسماءهما. وقالت لنا التوراة انهما صفورة ويهوه اللذين واجه أحدهما الآخر أثناء الهجوم الليلي في المنزل. إلا أن اسم موسى لم يذكر هنا أبداً. كما أنه لم يسمح لنا أن نرى بوضوح ماذا كان يفعل هذا لذالك- أولِم؟لذا فان قراءتنا لسفر الخروج 4: 24-26 يجب أن تبدأ بابتهال أسئلة مربكة:

هل كان موسى الذي هاجمه الله، أم أنه هاجم إبنه الأول جيرشوم، أو ربما ولده الثاني، اليعازر؟

هل قام الله بالهجوم، أم قام به أحد اتباعه، كأن يكون المهدم، أو ملاك الموت، او الشيطان؟ أو، هل كان المهاجم ،عملياً، من الديانة الوثنية أو شيطاناً من

البانتيون (وهو هيكل مكرس لجميع الآلهة) في مصر، او من المدينيين؟

وعلى أي عضو تناسلي (جنسي) وضعت صفورة الحجر المسنون وسط طقوس الختان: عضو ابنها؟ أم عضو موسى؟ أم عضو الله؟

هل استخدمت القلفة (الغرلة) في مسح الدم بساق أحدهم، حسب ما ذكر في النص، أم أن الكلمة استخدمت مجازاً إشارة الى جهاز تناسلي لشخص آخر، كما نجدها في مكان آخر من التوراة؟ واذا كان علينا أن نفهم أن «الساقين» يعنيان عملياً «الجهاز التناسلي» فيجب أن نسأل: لمن الجهاز التناسلي الذي خضع للدهن بالدم؟

وماذا كانت تعني صفورة حين نطقت بالعبارة: «أنت بالتأكيد عريس دم لي»؟

ان أكثر من مؤول، من القدماء أو المحدثين، من الهواة أو المحترفين، حطموا مباضعهم التحليلية على صخرة سفر الخروج 4: 24-26. ووقف كاتبان يهوديان قديمان من العالم الروماني، وهما جوزيفوس وفليو الاسكندري، حائرين أمام الهجوم الليلي لله على موسى، وان كل منهما ترك القصة بعيداً حين أعاد قص قصةحياة موسى(1)

ولهذا السبب فعل سيسيل ب. ميل في «الوصايا العشر» قبل ألفي سنة فعلاً مماثلاً. وقام أديب توراتي معاصر بمسح ميدان التأويل التوراتي، أي دراسة سفر الخروج 4: 24-26 في بقعة أرضية منثورة فيها بصورة مشوشة نظريات مشكوك بصحتها، وحجج فارغة. ويعترف الأديب بالهزيمة مبيناً: «أن الأساس الأصلي للقصة قد فقد من وراء الذاكرة»(2)

وما نعرفه، أن النص في سفر الخروج4: 24-26 هو كسرة بدائية قديمة من الفولكلور شقت طريقها بطريقة من الطرق الى سفر الخروج بالرغم من وصفها التجديفي البسيط للعلي القدير كمطارد في الليل، ولايهدأ إلا بتقديم الدم من امرأة.

ولاتبدو الفقرة مناسبة للراوي التوراتي الذي أتى قبل وبعد وقوع الحادث في المنزل(3) والاشارة الى أن الله كان يسعى الى قتل ذات الشخص الذي اختاره قبل قليل ومسحه كمبعوث له، تتعارض مع العلاقات الحميمة بين الله وموسى المذكورة في مواضع أخرى من التوراة. ويطالب، على الأقل، أديب توراتي واحد

بالتحري في «عريس الدم» (وفي فقرات اخرى من التوراة) عن أصداء «تقليد معاد لموسى» وعن «تمتمة وإدانة» خافتة لمنشقين قدماء- بقوا بطريقة ما رغم نصل المراقب والكاتب (4) ومن الجلي أن القصة لازالت قدرتها على التذكير أقوى من أن تبعد كلياً، ومع ذلك تصدم المرء روايتها بوضوح واستقامة من قبل الكهنة والكتاب.

وهكذا، فان النص المقتضب الذي لايتجاوز عدد كلماته في الترجمة الانكليزية سبعين كلمة، يمكن أن يعتبر بمثابة نافذة- صغيرة ومفككة وقذرة-و يمكن أن نرى من خلالها روحانية قديمة مثيرة في الشرق الأدنى القديم، وممارسات طقسية أكثر بدائية عند الشعب الذي أصبح اسرائيلياً. إن القصة الدموية المحيرة هي ثغرة في جدار إرتفع حول التوراة، وثغرة يمكن أن نرى من خلالها، «أشياء رائعة» حسب كلمات الأركيولوجي الذي نظر الى قبر توت عنخ آمون.

من يفعل ما يفعل ولمن يفعل؟

شجعت قصة عريس الدم على إثارة جدل مابين قراء التوراة الآخرين الواعين، ليس بسبب ماكشفه النص التوراتي فحسب، بل بسبب ماأخفاه أيضاً. فمع أننا شهود عيان على المواجهة الدموية مابين الله وصفورة، فالنص مجوف جداً، ومثقل جداً بالمعاني السرية، بحيث يفرض علينا أن نشك بكاتب او بمحرر أقدم شعريأنه أجبر على تشويه الصورة. وقبل أن نبدأ بفك رموز المعاني الأعمق للنص، يجب علينا، قبل كل شيء، أن نفهم بدقة من يفعل ما يفعل ولمن يفعل في سفر الخروج 4: 24-26؟

ويصف النص العبري للتوراة بوضوح أن يهوه هو الذي «قابله وسعى لقتله» (سفر الخروج 4: 24-26)، إلا أن موضوع هجوم يهوه لم يذكر عملياً في النص. ويفهم بشكل عام أن موسى هو الضحية المطلوبة، مع أن بعض المصادر تصر على أن احد ولديه كان الهدف أكثر من موسى نفسه(5) غير ان الاشارة الى ان العلي القدير لا حق خلسة وسعى لقتل نفس الرجل الذي قد مسحه كنبي كان مقلقاً للشيوخ وللنساخ الى حد اصرار مترجمي التوراة القدامى على ادخال رجل سماوي مهاجم مابين يهوه وضحيته- فيظهر «ملاك الرب» أو «ملاك الموت» أو

أحياناً «المهدم» في مكان يهوه في رواية الهجوم الليلي في بعض الترجمات الآرامية واليونانية القديمة للتوراة (6) ويحفظ التلمود تعاليم غريبة تقول أن صفورة كانت قد أبلغت بالحاجة الملحة لاداء الختان من قبل ملاك نزل من السماء وابتلع جسم موسى كله باستثناء عضوه التناسلي غير المختتن. ولفت هذا الأمر انتباه صفورة الى المسألة المطروحة. (7)

والحقيقة، أن عدداقليلا من الشيوخ يعترضون على الاشارة الى الانقضاض الالهي حتى لو قام به بديل عنه، ضد الرجل الذي كان مقرراً أن يصبح أعظم نبي في تاريخ اسرائيل. لذا فهم يقترحون أن الشيطان هو الذي سعى لقتل موسى وابتلاعه حياً: فقد ظهر الشيطان له في هيئة ثعبان، وبلع موسى حتى نهايته حسب ما تذهب اليه احدى روايات القصة التي وردت في الأدب الحاخامي: فحالما سفحت صفورة دم الختان فوق قدمي زوجها سمع صوت سماوي يصرخ على الثعبان، قائلاً: «إلفظه!» (8) ومن ثم فان الشيخ اليهودي المشهور المعروف باسم راشي، كان رجلاً عقلانياً في القرن الحادي عشر، لم يكن، بصراحة، مرتاحاً لمثل هذه القصص الخيالية الدينية، وأصر على أن الهجوم الإلهي على موسى يجب أن يفهم على أنه ليس أكثر من كناية عن مرض كان يهدد حياة موسى تدبرت صفورة أمر معالجته عن طريق قيامها بشعائر الختان (9) وعلى هذا الشكل يميل النقاد المعاصرون للتوراة الى وضع أيديهم على عريس الدم ويعزون وصف كل الفوضى المربكة الى «قوة الختان المنقذة الغامضة التي هي هدف الاحتفاء بهذه القصة!» (10)

يتمثل الغموض الأكبر في طبيعة وهدف الطقس الدامي الذي استخدمته صفورة في وقف الهجوم الليلي. تقول لنا التوراة أن صفورة تحركت بشكل ما لاداء ختان سريع لطفلها الرضيع مستخدمة الأداة الوحيدة المتوفرة، وهي سكين من حجر الصوان، أو ربما حجر الصوان وحسب، من النوع الذي كان يستخدم في اشعال النار. ثم قامت صفورة بفعل شيء ما بالقلفة الدامية، مع أن التوراة لم تقل بالضبط ماذا فعلت. وتقول لنا ترجمة انكليزية عامة مضللة، أن صفورة «ألقت بها عند قدميه». إلا أن ترجمة أدق للتوراة العبرية تكشف عن أن صفورة «لمست ساقيه» بالقلفة الدامية (11) وحتى هذه الترجمة تضلل لأنها فشلت في

ادراك أن «الساقين» تستخدمان أحياناً من قبل كتاب التوراة كناية عن العضو التناسلي للذكر. وبامكاننا أن نظن أن «الزوج الدامي» ضَرب برفق بقلفة ابنه «حسب ماتيجح الأديب التوراتي رفيع المقام مارفين بوب». إلا أن التدقيق الأفضل يشير الى المنطقة حيث وضعت القلف (12) وهكذا فان القراءة الأكثر صراحة لسفر الخروج 4: 25 تقول ان صفورة استخدمت قلفة زوجها لمسح الدم الطازج الناتج عن اختتانه بجها ز تناسلي لشخص آخر. ومع ذلك، فان النص العبري الأصلي للتوراة لم يقل، أي جهاز تناسلي دُهن بالدم من جانب صفورة- إذ يمكن أن يكون جهاز موسى، أو ربما كان جهاز الرب نفسه[1]. وحتى الكلمات التي قالتها صفورة بصوتٍ عالٍ وهي في ذروة مواجهتها ليهوه-«أنت بالتأكيد عريس دم لي» كلمات مثيرة ومحرضة وحتى مقتضبة جداً. ولم يقم كاتب التوراة بتعريف الشخص الذي وجهت اليه هذه الكلمات- اذ يمكن أن يكون الله أو موسى أو جيرشوم -لم يبين الكاتب لماذا قالت صفورة هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ.وكل مانعرفه هو عبارة تبدو وكأنها سحر شفهي فعّال، أو تعويذة تجلب طقساً دموياً وصولاً الى نتيجة ناجحة تحث الله على ايقاف هجومه.

ان احدى الكلمات التي تقولها صفورة بصوتٍ عالٍ- وتعني «العريس» ضمن أشياء أخرى، في التوراة العبرية. إلا ان من الممكن أن تكون كلمة «هتنين» تعود الى الكلمة العربية (ختان) التي تشير على وجه الدقة الى شعائر الختان (13)

كانت بعض القبائل في العالم العربي في العصر التوراتي (ومن ضمنها، كما يُعتقد، المدينيون)يطلبون ذكراً بالغاً لاجراء الختان له استعداداً للزواج- وبقيت هذه الممارسة قائمة وسط البدو المعاصرين- لذا فان كلمات صفورة قد تكون حفظت حلقة منسية منذ زمن بعيد. وتقع هذه الحلقة مابين الزواج والختان في الشرق الأدنى القديم (14) والحقيقة أن نفس التقليد يمكن أن يكون قد فعل فعله في النهاية الفاجعة لدينا وشكيم. وهي قصة مطالبة الخطيب بأن تجرى له

---

1 طبقاً للنص العبري للتوراة، فاننا نعرف أن صفورة رمت قلفة ابنها« على قدميه» إلا أنه لم يقل من يكن «هو». يستند مترجمو الترجمة الأساسية المنقحة، وهي ترجمة حديثة، على ترجمة الملك جيمس، فأدخلوا بجرأة اسم موسى الى نص التوراة، بغية توضيح سفر الخروج 4: 25 «ثم أخذت صفورة حجر صوان وقطعت قلفة ابنها،و لمست بها قدمي موسى».

عملية الختان قبل أن يسمح له بالزواج. وعندما أعلنت صفورة أن يكون «عريس دم» أو «زوجاً دموياً» (حسب ماترجمت العبارة في بعض الترجمات الانكليزية) فربما قالت صفورة بصوتٍ عالٍ ما كانت تفكر به كثير من العرائس في كنعان التوراتية.

إله الانسان الذي اتخذه صديقاً

يلف الغموض في كل قصة «عريس الدم» السؤال: لِمَ كان الإله يسعى الى قتل موسى حالما عقد معه علاقة صداقة، ماسحاً اياه كنبي، ومانحاً إياه االقوة لكي يقوم بأعمال إلهية سحرية، ومرسلاً إياه في مهمة معقدة ليحرر الاسرائيليين من العبودية في مصر.

والقصة محيرة بصورة خاصة لأن موسى كان ، على وجه الدقة، شخصاً قياديا في أرض التوراة. وهو تاريخياً، مؤلف الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، بما فيها السفر الذي وصف الهجوم الليلي ذاته وصوّر في التوراة كمحرر ومانح للشريعة الاسرائيلية، وقوي، ووقائم بالأعمال الاعجازية المهلكة، وقائد عسكري شرس، ومقدم لنموذج المسيح في العقيدة اليهودية. وموسى هو الكائن البشري الوحيد في التوراة الذي كشف له الله عن كل مجده، وهو الكائن البشري الوحيد الذي تكلم مع الرب «وجهاً لوجه». وسفر تثنية الاشتراع يحيي موسى كأعظم نبي في تاريخ اسرائيل، في الماضي والحاضر والمستقبل. وفي حين أن قصة عريس الدم تذكرنا بأن موسى هو الانسان الوحيد الذي جعله الله صديقاً، فان موسى هو الانسان الوحيد أيضاً الذي سار معه الله بهدف قتله.

واعترض بعض المعلقين، من اليهود والمسيحين، قائلين أن الله سعى الى قتل موسى لأنه غضب من ظهور حماسة قليلة لتنفيذ المهمة المقدسة. وطالبوا بالاحتكام الى الشاهد في النص التوراتي الذي يشير الى أن موسى تأخر في السير، آخذاً وقته الجميل وهو يسافر الى مصر (16) وبالطبع- يصرون على أنه كان يتقدم ببطء على نحو أخرق مع زوجته الميدينية وطفليه الصغيرين وهو في طريقه الى مصر (17) إلا أن النص المنقوع بالدم في سفر الخروج 4: 24-26 أقنع معظم نقاد التوراة أن القلفات أو (الحاجة اليها) هي التي دفعت الله الى نوبة قتل أكثر تقريباً من سوء سلوك موسى.

يقولون أحياناً أن الاختتان قد تم في البدء بمثابة ممارسة طقسية من قبل القدماء لأنهم تبينوا، الى هذا الحد أو ذاك، انها صحية ومفيدة. وكتب هيرودوتس، على سبيل المثال، أن المصريين مارسوا الاختتان «من أجل تحقيق النظافة، وقدروا أن من الأفضل لهم أن يكونوا نظيفين من أن يكونوا وسيمين» (18) واقترح غيرهم أن الختان كان قد اختير بصورة اعتباطية من قبل شعوب بدائية كعلامة جسدية تشير الى بلوغ الشاب السن المناسبة ودخوله الرسمي الى العشيرة أو القبيلة، وأهليته التامة للزواج (19) إلا أن التوراة نفسها تقدم الختان كرمز لايخطيء ولا تستأصل شأفته لإلتزام الانسان بالعهد بين الله وبين ابراهيم: قال الله لابراهيم: «فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً» (سفر التكوين 17: 13)

ويقول التفسير الرسمي لعريس الدم أن يهوه سعى الى قتل موسى لأنه خرق الفقرة الوحيدة الأكثر أهمية في العهد مابين الله وابراهيم بفشله في ختن ابنه الأول جيرشوم «ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم» ورسم الله لابراهيم قبل قليل «وأما الذكر الأغلف الذي لايختتن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها» (سفر التكوين 17: 12 و14) وتوجه اللوم ترجمة آرامية قديمة للتوراة الى يثرون[1] والد صفورة وكاهن المدينيين الذين من المفترض أنهم يختنون أطفالهم الذكور عند بدء بلوغهم أو عند استعدادهم للزواج. وجعلت صفورة تقول في حوار توضيحي مقتضب لم يظهر في النص الأصلي للتوراة: «ان الزوج أراد أن يختتن، إلا أن عمه(أبوها) لم يكن ليسمح له» (20)[2]

---

1 عرِف والد صفورة بـ«رعوئيل» في الفقرة الاولى حين ذكر اسمه في (سفر الخروج 2: 18) ويذكر «يثرون» بعد عدد قليل من الأسطر (الخروج3: 1) وتستخدم التوراة، مع ذلك، اسماً ثالثاً، حباب، في تعريف رجل يوصف كحمي موسى في (القضاة4: 11) وكتسيب في (العدد10: 29) وكشف الأدباء من هذه الالتباسات والتعارضات بيد أكثر من مؤلف واحد عمِلَ في التوراة(انظر الفهرست: من كتب التوراة بالفعل؟) (المؤلف)

2 ويقول مأثور قديم أن موسى وحميه الميديني فكرا قليلاً بكيف سيربى الطفل من زواج مختلط: نصف المواليد سيربون كاسرائيليين، ونصفهم الآخر كميدينيين. وهكذا، فان أول ولد لموسى وصفورة، جيرشوم- حسب الرواية الحاخامية- قد ختن في حينه. وان المولود الثاني، اليعزر، لم يختتن. ولهذا السبب، يعتقد بعض الشيوخ أن الفشل في ختن اليعزر فرَضَ الهجوم

وتفترض مصادر تقليدية أخرى أن الله غضب غضباً شديداً لأن موسى لم يكن قد اختتن (21) وطبقت صفورة شعائر الختان على طفلها بدلاً من زوجها. وقدروا أن ذلك قد حدث بسبب خطر التلوث أثناء السفر في ظل تلك الظروف البدائية التي تجعل من الخطورة بمكان اجراء طهور لموسى نفسه. وقيل، بصورة افتراضية الى حد ما، أن الله لن يقبل رجلاً غير مختتن محرراً للشعب المختار. إلا أن العلي القدير- في الوقت نفسه- كان مسروراً باختتان جيرشوم بالنيابة بدلاً من الشخص الحقيقي (22)

صحيح أن التوراة لاتسجل في أي مكان أن موسى كان مختتناً، إلا أن الحاخاميين كان يسكنهم الرعب من فكرة أن مانح الشريعة كان بالامكان أن تكون لديه قلفة، الى الحد الذي جعلهم يلحقون بالنص عدداً من الحجج الذكية للبرهنة على غير ذلك. كأن يقال أن موسى ختن على نحو واف عندما كان رضيعاً من قبل اسرته الاسرائيلية قبل أن يلقى به في مياه نهر النيل. أو أنه ختن في شبابه مع غيره من الشباب في قصر فرعون، حيث موورست شعائر الختان بصورة نظامية. او ربما ولد موسى مختوناً، وهذه معجزة صغيرة، خصت بها شخصيات نورانية أخرى، تمتد من آدم الى نوح ويعقوب الذين لم يذكر موضوع اختتانهم في التوراة(23)

وتؤكد الحكمة التاريخية القديمة بشأن الهجوم الليلي مرة أخرى، وبصورة مشجعة أيضاً لأنها تظهر وكأنها حل للغموض الذي يكتنف سفر الخروج 4: 26 -24مع توضيح وتأكيد على وجود خدعة حل سريع، يتمثل في، أن الله كان غاضب لأن أحدهم لم يكن قد اختتن بصورة كاملة، وهو إما موسى أو ابنه. ونجحت صفورة ذات العقل الراجح والمبادر في تهدئة العلي القدير بأدائها الختان بصورة سريعة في الوقت المناسب تماماً. ورمت، القلفة على قدمي أحدهم (أو على جهازه التناسلي) أو، ربما كان من المعقول أكثر، أنها استخدمتها في مسح الدم عن أقسام الجسم تلك- بحيث أن الله لم يفشل في ملاحظة تصحيحها الخطأ غير

الليلي. وأن اليعزر كان مطلوب منه أن يكون الضحية. وتوحي التوراة، وتقول، أن كلاً من جيرشوم واليعزر كانا موجودين أثناء الهجوم الليلي، وأنا (المؤلف) تتبعت نص سفر الخروج 4: 24-26 وذكرت اسم أحد الولدين فقط في إعادة قصي للحكاية (المؤلف)

المقصود. وهدأ الله واوقف هجومه. وعندما كانت صفورة مرهقة وربما مصدومة قليلاً وبخت زوجها الاسرائيلي لأنه وضعها في مثل هذه المحنة الغريبة بنطقها تلك الكلمات المحيرة:

«انت بالتأكيد عريس دم لي»- فقد قالت بتأثر: «أنا لم أشك أبداً حين وافقت على أخذ اسرائيلي زوجاً لي أن تلك الأمور ستنقلب الى مثل هذه اللخبطة الدامية!»

غير أن التفسير الرسمي لايقدم مثل هذا المعنى لأي قارىء يولي انتباهاً لما تقوله التوراة بالفعل عن الله وعن علاقته الحميمة بموسى. وكان الله يعرف من لحظة مواجهتهما الاولى عند الشجرة المحروقة ، أن موسى لم يكن يشتعل حماسا للقيام بالرحلة الطويلة الى مصر.وقال موسى له ذلك صراحة، وأجبر الله على التملق والتزلف للنبي المعارض بغية النهوض بالمهمة. وعندما حاول موسى أن يستعطف الله بقوله أنه «بطيء في الكلام، وله لسان بطيء»_ وهي عبارة أولت بصورة تقليدية لكي تعني أن موسى عانى من عاهة كلامية سيئة (24) - كان الله سريعاً في معالجة حاجته الخاصة بتسمية أخيه، هارون، كناطق باسمه (سفر الخروج 4: 14و15) ولم يعرض يهوه ولا لمرة واحدة، أثناء لقائهما الطويل (وجها لوجه) موضوع الختان، ولم يلمح الى أن نقصانه يمكن أن يؤثر على صلاحية موسى لدور المحرر ومجترح المعجزات.

وبوضوح، اذا كان الختان موضوعاً شديد الحساسية، فان على الله أن لاينتظر حتى يصبح موسى في الطريق الى مصر قبل أن يقوم بفعل ما بصدده. وكان قد أشار الى أنه كان يرى بوضوح ماكان يجري في مصر البعيدة. وقد قال لموسى أثناء عقد مؤتمرات القمة الكثيرة بينهما: «اني رأيت مذلة شعبي الذي في مصر» (سفر الخروج 3: 7) وبين الله أنه كان يرى ما الذي سيحدث في المستقبل البعيد أيضا. وأنا «أعلم ان ملك مصر لايدعكم تمضون ولابيد قوية» (سفر الخروج 3: 19). وبالتأكيد فان يهوه الذي كان يرى كل شيء ويعرف كل شيء كان قادراً على رؤية ومعرفة التركيب البنيوي الشخصي لموسى وأبنائه، الذين في متناول اليد، فيقول أو يفعل شيئاً ما إزاء قلفاتهم، اذا كانت هذه المسألة تهمه.

والحق أن بامكاننا أن نتساءل فيما اذا كان منقحاً من رجال الدين وليس الله

قد أبدى اهتماما حماسيا جدا بالختان. والواقع أن الختان لم يكن طقسا ينفرد فيه الاسرائيليون في زمن الخروج، بل كان يمارس من قبل المصريين ومن الكثير من الشعوب الأصلية التي كانت تسكن في كنعان أيضا. وهكذا، فان ختن العضو التناسلي لم يكن يفيد في تمييز الاسرائيليين عن جيرانهم في تاريخهم القديم. وتقوم التوراة بتعريف الفلسطينيين، وسيئي الحظ رجال قبيلة حمور باعتبارهم غير مختنين من الشعوب في كنعان . وتخبرنا التوراة ان الأطفال الاسرائيليين الذي ولدوا أثناء الخروج لم يختنوا أبداً الى أن قادهم يشوع الى خارج البرية والى أرض الميعاد، حيث توقف لكي يصنع مجموعة من السكاكين الصوانية ويقود عملية ختان جماعية بأمر من الله، خالقاً بذلك علامة أرضية جديدة تعرف بصورة دقيقة باسم تل القلف (سفر يشوع 5: 2-6)

وجادل بعض نقاد التوراة قائلين أن قدسية الختان كانت، إضافة متأخرة نسبياً الى نص التوراة، وهي تعكس الاهتمامات الخاصة لدى الكهنة والأحبار الذين جمعوا التوراة ونقحوها في وقت من الأوقات بعد نهاية فترة النفي البابلي.واقترح بعض الأدباء في القرن الخامس (ق.م.ع) وبعد ذلك التاريخ، ان الختان ربما خرج من دائرة الاهتمام لدى الشعوب الأخرى في كنعان. لذا، فقد ارتدى الطقس أهمية جديدة في تمييزه الاسرائيليين عن المتعبدين الوثنيين الغيورين الذين خاف منهم الكهنة كثيراً جدا(25) وبالفعل، افترض أحد الأدباء أن قصة عريس الدم قد استنقذت من النسيان وحشرت في سفر الخروج في وقت متأخر، بهدف أن يظهر النص قديم جداً وموثوق جداً. وقد يكون المنقح صدق أن الاشارة الكهنوتية غير المعهودة للختان كطقس ذي أهمية رفيعة قد تمنحه «هالة القدم» عن طريق حدث يبدو أنه آت من العهود السحيقة (26) إلا أنه ليس كافيا أن ندرك أن الختان هو بداية ونهاية عريس الدم. وحتى لو كانت القصة عبارة عن كسرة قضية حشرت مؤخراً في التوراة من قبل حبر من الأحبار وفق برنامج خفي، فان الكسرة نفسها قد تحفظ تقليداً ذا تاريخ سابق- تفسر- طقس الختان. وبالتأكيد فان أمرا ما زلنا بحاجة إليه لتوضيح الأمر المراهن عليه فعلا في المواجهة، يداً بيد مابين صفورة والعلي القدير. وفي الوقت الذي بدا فيه أن صفورة اخذت تدرك الأمور، وبدا أن كتاب التوراة يحاولون التكتم، ظهر إله

اسرائيل وهو يطالب بلحم ودم شعبه المختار، ويخاطر بحياة أي شخص يجرؤ على التنكر له.

عبادة الإلهة المنقذة

ان نص سفر الخروج 4: 24-26 هو نوع من الدس الفرويدي قام به الكاتب التوراتي الذي سمح لألهذا[1] الكوني أن يفرض نفسه على الأنا العليا السماوية كثيرة الانتقاد. وهكذا فان ما نجده في هذه السطور قد يكون بقايا محرفة عن تقاليد ضائعة منذ زمن بعيد ومنسية منذ زمن سحيق عن الله- أو الألهة- التي أعتنقت ذات مرة من قبل الاسرائيليين، أو من قبل اخوتهم. وما أن يجري التحرر من النص الحرفي للتوراة، كما سنرى، حتى يبدأ حدس وخيال المفسرين التوراتيين بالتشابه مع شيء خارج إطار الحلم المحموم، ان لم تكن كتابات الماركيز دوساد.

كان الهجوم الليلي مباغتاً جداً للشيوخ والعلماء، حتى في أيامنا هذه، الى الحد الذي بذل معه كل جهد ممكن لتوجيه اللوم على الانقضاض الإلهي ونتائجه الدامية الى بعض الالوهيات الأخرى غير الذي نعرفه باسم يهوه. وتفترض بعض المصادر أن القصة ذاتها قد تمت استعارتها من الميدينيين، وهي قبيلة شبه بدوية من سكان الصحراء، كانوا معاصرين للاسرائيليين. ثم انتقلت القصة الى التوراة في وقت متأخر. ويفترض آخرون أن مواجهة صفورة مع الله قد حدثت بعد حادثة ظهرت في البدء في أساطير وحكايا مصر القديمة أو بلاد الرافدين (ميسوبوتاميا) ونحن مدعوون، من جانب كتّاب التوراة الذي أعطونا ترجمة حياة موسى كما ظهرت في سفر الخروج، لأن نتخيل أن الإله الذي هاجم موسى ليس يهوه الحقيقي، إله ابراهيم، واسحق، ويعقوب، بل كان شيطان مديني منتقم، وأن المرأة التي أنقذت الموقف لم تكن صفورة بل كانت تجسيد للإلاهة إزيس المصرية، وتصويرها باسم يهوه وصفورة وبصورتيهما.

ونجد، على سبيل المثال، مفتاحاً موثوقاً للمعنى السري لعريس الدم في خرائب كنيس من القرن الثالث في دوراوروبوس في ماهو الآن سوريا. وصادف الأركيولوجيون الذي حفروا في الكنيس في ثلاثينات القرن العشرين جدارية

---

1 id ألهذا: ذلك الجانب اللاشعوري من النفس الذي يعتبر الطاقة الفرزيّة أو البهيمية (المورد)

تصور قصة مدرسة الأحد المألوفة عن موسى مابين (عشبة البرك-التيفا)- إلا أن راسم الجدارية ضمنها تفصيلات حذفها كاتب سفر الخروج. كانت إلاهة عارية تراقب الرضيع موسى، وهي ترتدي طوقاً ذهبياً حول رقبتها، وتقوم على خدمتها ثلاث نصف إلاهات (27) وشجع بعض الأدباء التوراتيين بمثل هذه الحقيقة الثابتة بحيث أنهم اقترحوا أن صفورة ربما كانت تحل محل الإلاهة- منقذة ظهرت في حكاية شعبية قديمة جداً، إلا أنها كتبت بعيداً عن القصة من قبل الكهان والنساخ الذين لايحتملون حضور إلاهة وثنية في الكتاب المقدس- وخصوصاً أنها ليست إلاهة تواجه وتسيطر على العلي القدير. وتثبت التوراة الحقيقة المثيرة ولكنها مهملة أيضاً أن موسى كان يعتمد على النساء، المرة تلو الأخرى، بغية حفظ حياته ضد العديد من المخاطر المميتة، إن كانت انسانية أو إلاهية. ونحن نميل الى الاعتقاد بأن موسى كانسان واسع الحيلة، ونبي منح الامتياز لمواجهة الله وجهاً لوجه لأنه كان شبه إله تقريباً. ومع ذلك، تكشف قراءة متأنية للتوراة أن موسى نبي معلول، وانسان يتنقل مابين الاصرار والسلبية، والقوة والهشاشة، والشجاعة والخوف، ومابين البهجة الحميدة والوهن العميق. وفوق ذلك كله - إنه كانسان، عاش طويلاً لكي يلعب دور المحرر ومانح الشريعة الذي حدده له الله بسبب فقط الجهود البطولية لما يسميه أحد الاسطوريين بـ«ظلال المرأة التي تحيط به» (28)

وهو كرضيع استثني من حكم الموت الفرعوني بأول مولود للاسرائيليين بواسطة مربيتين شجاعتين رفضتا تنفيذ قانون فرعون (الخروج 1: 15-17) فقد صنعت أم موسى فلكا من أوراق البردى ووضعته فوق صفحة الماء في النهر، وبذلك أنقذت حياته، في حين انها تظهر منسجمة مع أوامر فرعون التي تنص على أن كل طفل من الاسرائيليين يجب أن «يرمى بالنهر» (الخروج 1: 22و32) وراقبت أخته القارب من بعيد لكي تتأكد انه أنقذ (الخروج 2: 4) وكانت أخت فرعون هي التي سحبته من النهر وربته كابن بالتبني (الخروج 2: 5و6) ثم انضمت «ظلال النساء» الى مؤامرة غير محكية ولكنها مصيرية، عندما رسمت أخته خططاً لتأمين عمل لأمها كمرضعة في بيت الأميرة المصرية بحيث تصبح ام موسى الحقيقية اليهودية قادرة على أن ترضعه وهو يكبر امامها في قصر

فرعون (الخروج2: 7-9)

لقد امتلأ بانثيون (الهيكل المكرس لجميع الآلهة) الشرق الأدنى القديم والعالم الكلاسيكي بالآلهات اللواتي، مثل النساء في حياة موسى، يتدخلن في حياة الأبطال، بدءاً من عشتار إلاهة بلاد الرافدين التي تصوروا أنها تأخذ كل ملك متوج من بابل كعريس لها. ومروراً بأثينا وجهودها المحتفى بها في صالح أوديوس (29) وربما كانت صفورة التي وقفت مابين الله وموسى في أخطر اللحظات، سارت وراء احدى هذه الإلاهات الوثنية حسب ماروى راوٍ في العهد التوراتي عرف قصة جيدة حين رآى (أو رأت) أحدهم. والحقيقة، توحي حياة موسى، وبصورة خاصة حكاية عريس الدم، برابطة محددة باحدى الإلاهات المنقذة بشكل خاص، وبإلوهية إلاهة مصر القديمة المعروفة باسم ايزيس.

فقد أحرزت ازيس نوعاً من مكانة النجم المفضل في العالم القديم، وكانت كل تجسيداتها وصورها مستنسخة، بشكل أو بآخر، عن ثقافات بعيدة جداً عن مصر. وأصبحت ترى وكأنها نوع من الامومية الالهية العالمية. وكان من ضمن الأسماء التي أطلقت على ايزيس «أم الآلهة» و«وأم كل الأحياء» و«أم الجميع». وأمكن تتبع تأثير عبادةايزيس بعيداً ببعد «أم الكنيسة»، وهي عقيدة للكنيسة المسيحية القديمة لها «جذورها في التربة السورية». والحق، كانت سوريا القديمة تشكل تربة خصبة لعبادة الإلاهة، وتذكرنا بإزيس الحامية التي راقبت موسى في الجداريات في دورا اوريوس.

ووجدت ايزيس كهنة مساعدين ومتعبدين في البلد القريب من كنعان (30)- وتشجع هذه الحقيقة بعض النقاد التوراتيين لكي يتحروا آثار ايزيس في النصوص المقدسة عند الاسرائيليين الذين عاشوا هناك. ويمكن ادراك العديد من الحوادث المتعارضة والمعقدة في حياة موسى حسب ما رويت في التوراة العبرية، وخصوصاً القصة المربكة لعريس الدم، كصدى خفيفاً لعبادة ايزيس كما احتفي بها، ليس في الميثولوجيا المصرية وحسب، بل أيضاً في الشرق الأدنى القديم.

وطبقاً للتراث المصري فان ايزيس هي زوجة الحاكم الالهي اوزيريس، الذي قتل غدرا بيد أخيه سيث الذي كان يغار منه. واحتال سيث على اوزيريس- حسب ماورد في اسطورة ايزيس- بأن جعله يستلقي داخل صندوق خشبي ثم ختم

الصندوق ورماه في نهر النيل. وهي صورة تذكرنا بصورة الرضيع موسى طافياً في قاربه الصغير المصنوع من القصب.

ويحثت ايزيس وهي كسيرة القلب عن الصندوق الذي يضم رفاة حبيبها الأخ/الزوج، إلا أنها حين وجدته في النهاية، كان سيث قد تدبر أمر تقطيع أوصال الجسد ونثر القطع الصغيرة. وتتبعت ايزيس بقايا اوزيريس ووجدتها باستثناء قسم أساسي من الجسم وهو آلة الرجل.

وانخرطت ايزيس بعدئذٍ بطقوس سحرية متمكنة وعجيبة مثل الطقس الذي استخدمته صفورة لدرء الهجوم الليلي الذي شنه العلي القدير. وجمعت ايزيس قطع حبيبها الميت، مستخدمة مثيلاً خشبياً لعضو التناسل الذكوري بدلاً من العضو المفقود، ونفخت الحياة في اوزيريس بتحريك جناحيها فوق الجثة المتجمعة. ثم دخلت في علاقة جنسية مع اوزيريس نجحت في جعل نفسها تحمل ابناً دعي، فيما بعد، باسم هوروس. وحسب الجذور التاريخية المصرية القديمة، فان فرعون المتوج كان ينظر اليه بصفة تجسيداً لهوروس، خليفة على العرش مثل اوزيريس. وكانت كل من أمه وزوجته تبدوان كايزيس. وحسب ما تقول قصيدة عن ايزيس واوزيريس فان اخته كانت حارسته: وواصلت القصيدة القول بكلمات يمكن استخدامها في وصف صفورة والهجوم الليلي في المأوى:

1) هي التي طردت الأعداء

2) وجمدت أفعال المزعجين

3) بقوة نطقها القوي. (32)

ان كلمة السر بالنسبة الى التشابه مابين ايزيس وصفورة طبقاً للناقدة التوراتية ايلانا بارديس، هي واقع أن إيزيس كانت إلهة مجنحة غالباً ماكانت تصور في الكتابة الهيروغليفية المصرية كعقاب أو كطائرة ورقية تحوم حول العضو التناسلي للجسد الميت لأوزيريس. وتقول بارديس أن «الدينا هنا مضطهد، وزوجة تنقذ زوجها، وعضو تناسلي يخضع للمعالجة. وفوق كل ذلك أجنحة! وصفورة تعني «طائر» باللغة العبرية، وأتجرأ بافتراض أن هذا الرسم يكشف انتمائها الى ايزيس.»(33)

واقتفاء آثار ايزيس أو أية الهة منقذة أخرى في صورة صفورة في عريس الدم

يدهش بشكل مضاعف لأن كتّاب التوراة ينزعجون بصورة صريحة واضحة من أي اشارة الى أية امرأة- حتى الى المرأة الاسرائيلية الشرعية- في منازلة ومواجهة العلي القدير. وصورت التوراة الأم سارة تضحك بصوتٍ عالٍ حين سمعت وعد الرب لابراهيم بأنها ستحمل وهي في كهولتها. وإمتنع الله عن توبيخها بسبب قلة لباقتها، إلا أنه أصر على جعل كل تفاصيل أحاديثه مع ابراهيم مباشرة (سفر التكوين 18: 12-15) ومن ثم، بعد أن قاد موسى الاسرائيليين الى خارج مصر ، ادعا أخوه وأخته بصورة متهورة حق النبوة تماماً مثل أخيهما- «فهل تكلم الله بالفعل مع موسى وحده؟» - واشتكى هارون ومريم متسائلين إن كان «الرب لم يتكلم معهما أيضاً؟» - وعاقب الرب مريم في الحال (وإن كان لم يعاقب هارون!) بسبب وقاحتها باصابتها بداء رديء(انظر) فقد اصيبت مريم بالجزام واذا بها برصاء كالثلج[1] (سفر التكوين 12: 2و10) إلا ان صفورة على خلاف مريم ومثل ايزيس انقذت حياة زوجها وحياة طفلها من بين أسنان غضب الله وتوقه الى الدم.

وليس غير أكثر نقاد التوراة جرأة يجادلون في أن شخصية صفورة في التوراة العبرية كانت مستلهمة الى حد ما من الإلاهة المصرية. إلا أن القارئ لن يفشل في ملاحظة أن شيئاً غريباً يحدث في شقوق وزوايا النص التوراتي. فربما كان عريس الدم، حسب ما ألحت بارديس، عنصر خادع باقٍ من « ماضٍ وثني مكبوت» يطفو على سطح النص التوراتي رغم أفضل الجهود التي بذلتها المراقبة الكهنوتية لاخفائه عن أعيننا(34). وتضع الحادثة في المأوى بالتأكيد موضع تساؤل بعض أكثر عقائدنا إلفة ومعزة عن الله وكيف كان يعبد من قبل شعبه المختار. وأشار هارولد بلوم في كتابه قائلاً: «اننا لانعرف ماذا كانت عليه عقيدة الآباء» بعد أن سخر من عريس الدم «أو ربما آمن به موسى»(35) فالنص يطرح أسئلة كثيرة لايجاب عليها بحيث أننا نبدأ في التساؤل إن كنا فعلاً نعرف من هو

---

(1) تكلمت مريم كما تكلم هارون أيضاً «ضد موسى بسبب المرأة الحبشية cushite التي تزوجها (سفر العدد 12 : 1) وبسط سفر الخروج المسألة بصورة جلية قائلاً أن موسى تزوج المرأة المدينية واسمها صفورة. إلا أن سفر العدد اقترح بأنه هو أيضاً كانت لديه امرأة حبشية (أي زوجة أثيوبية). ويلمح تقليد حاخامي الى أن موسى سافر الى أثيوبيا قبل أن يظهر في بيت يثرون في مديَن وكان متزوجاً من «امرأة ملونة» حين التقى بصفورة.

الله الذي يدعى يهوه، وأي فعل هو جدير بفعله، أو ماذا يريد منا؟

دم العرس العذراء

ان التأويل الأكثر توهجاً الى حد بعيد لعريس الدم- وفي الحقيقة، ان القراءة الوحيدة الأكثر غرابة (غروتسكية) لأي نص توراتي من قبل أي عالم توراتي رزين- هي القراءة التي تدعو الى تبين الترجمة المشوهة لتقليد ضائع منذ زمن بعيد بين القبائل البدوية في الشرق الأدنى القديم، عن حق مقدس للسيد الاقطاعي الذي تمتعت به الألوهية، وهو حق فض بكارة العروس في ليلة عرسها. وحسب رجل الدين (الثيولوجي) البروتستانتي هوغو غريسمان في نهاية القرن الفائت (التاسع عشر) فان الهجوم الليلي الموصوف في سفر الخروج 24: 4-26 انما حدث عملياً في ليلة عرس موسى وصفورة. وكان الله يسعى الى قتل موسى، حسب ما افترض غروسمان، لكي يمنعه من النوم مع صفورة قبل أن يضمن العلي القدير لنفسه حق الدم العذري. ولذا قامت صفورة الجسورة والداهية بخدعة متقنة خدعت بها الله: فهي ختنت زوجها بسرعة بواسطة حجر صوان كان في متناول يدها، واستخدمت قلفته الدامية في دهن العضو التناسلي للمهاجم الرباني بالدم.

« أصبحت (الأعضاء التناسلية للرب) مدهونة تماماً كما لو كان الله قام باتصال جنسي معها، وأصبح عضوه التناسلي، بهذه الطريقة، مغطى بدمها العذري» حسب افتراض البروفيسور الطيب، وهو يستحضر لمسة من دراما الرعب الى الفن الكنسي في التأويل التوراتي. «وعندما أدرك الإله الساذج ذلك، اعتقد أنه أخذ حقه، ولهذا فقد انسحب وترك موسى بسلام» (36)

ولاستحضار مثل هذا المشهد المميز، كان غريسمان ملزماً، بالطبع، بأن يعيد النظر بالحقائق المفروضة بقوة أو المكتوبة بوضوح في النص التوراتي نفسه: فقد تزوج موسى وصفورة قبل فترة وجيزة، حسب التوراة، وكان ابنها الوليد معهما في المأوى. ولازال غريسمان وخلفائه في عالم الدراسات التوراتية يتفقون من خلال قراءاتهم الابداعية لسفر الخروج 4: 24-26- ان لم يكن أكثر من ذلك أيضاً-ان ختان العرسان قد نشأ وتطور عن طقس حل محل تقديم العروس الى العلي القدير. وكانت عبارة «أنك بالتأكيد عريس دم لي» بمثابة تعويذة سحرية توجه

الى الرب من جانب كل عروس بمناسبة ختن زوجها في ليلة عرسهما. والواقع أن اديباً توراتياً آخر كان مهتماً بموضوع الجنس عند منقلب هذا القرن (العشرين) قرأ النص الغامض نفسه وتوصل الى استنتاج شهواني أكثر. واقترح أحد معاصري غريسمان انه «كان عادياً مابين الساميين القدماء بالنسبة الى الفتيات أن يقدمن عذرواتهن الى أول غريب عابر لهن بوصفه يمثل الله. وبذلك يأخذ حقه من الدم العذري». وهي عبارة زَعم انها تسربت الى نصوص التوراة التي تخص يعقوب، ويهوذا، وموسى مع «نسائهم الغريبة» اللواتي سيأخذونهن الى الفراش، ان كان كزوجات أو كعشيقات (38)

ولم يذهب غريسمان الى حد الافتراض أن الاله الاسرائيلي الذي نعرفه باسم يهوه كان عملياً هو الذي من الممكن أن يكون مغتصب صفورة.وغريسمان هو الذي نظَر بأن سفر الخروج 4: 24-26 حفظ رواية رواها للمرة الاولى المدينيون عن أحد آلهتهم أو شياطينهم، ومن ثم تسربت الرواية الى التوراة العبرية عن طريق كاتب جسور غيَر الأسماء (كما غير في كثير من التفاصيل الأساسية) لحماية الانحراف. ولكن ليس ثمة حقيقة واقعية، توراتية أو غير توراتية تبرر حمى حدس غريسمان وزملائه بصدد المطالب الجنسية لـ«الرب أو ابليس أو أي كان يخفي اسمه وراء الحروف ي ه و ه» حسب ما كتب أحد الأدباء المشككين، وقد تم إبعاد عملهم من قبل نقاد توراتيين أحدث (وأكثر تقيداً)، قالوا، ان هذا الأمر كان «خيالياً، إن لم يكن مضحكاً». وصدمت الاشارة التي تشير الى آن العلي القدير كان مشوشاً جداً بقوة غرائزه الجنسية الى الحد الذي أمكن أن يستغفل فيه فيظن أنه نام مع صفورة لأن أعضائه التناسلية كانت مغطاة بالدم- صدمت الاشارة المذكورة بعض القراء باعتبارها تجديف مقزز بكل معنى الكلمة- ويرى آخرون أنها مجرد بلاهة.

وكتب الأديب التوراتي المعاصر هاس كوسمالا أن «الله يجب أن يكون إلاهاً سخيفاً جداً اذا كان بالامكان تضليله بهذه السهولة، ويجب أن ينسب شيء من المنطق حتى الى الشيطان»(39)

ومع ذلك، كان من الصعب على رجال الدين بأنفاسهم الثقيلة وعيونهم القلقة في القرن الفائت أن يكونوا الوحيدين الذين سمحوا لخيالهم أن يجمح

بهم كثيراً أثناء قراءة سفر الخروج 4: 24-26. ولم يكونوا ا أيضاً وحدهم في تتبع الجذور التاريخية العدائية، وحتى الوثنية المدفونة عميقاً داخل النص التوراتي. ولقد بدأنا باكتشاف، ملامح شكل ظليلي واجهته صفورة في تلك الليلة المرعبة في المأوى، تحت سطح النص التوراتي. وما رأيناه كان إلاهاً مرعباً لم يطلب الايمان، والطاعة، والأعمال الصالحة من المتعبدين له، بل طلب التضحية من لحم الانسان ودمه. وناقش سيغموند فرويد الأمر قائلاً أنه «شيطان ظامىء الى الدم بشكل غريب، يسير في الليل ويتجنب ضوء النهار» (40)

ونرى أيضاً، الاقتراح المدغدغ للمعنى الحقيقي لشعائر الدم التي أدتها صفورة أثناء مواجهتها المتميزة مع العلي القدير. وربما كان ثمة شيء زائف في تلك الليلة، وهو أكثر ازعاجاً من اتصال جنسي بين الله وصفورة.

الباكورات

يمكن تتبع معنى رمزياً آخر لطقس الختان الذي أدته صفورة لكي توقف هجوم الله. ومع أن هذا المعنى أكثر بدائية وأصالة فان بامكانه أن يحل شفرة سر صادم أكثر في النص المريك لسفر الخروج 4: 24-26. فبالنسبة الى صفورة، كما بالنسبة الى الناس في الشرق الأدنى القديم، كان الختان نوعاً من أنواع التضحية بالطفل بصورة مختصرة. فقد كان سبيلاً لتقديم اللحم والدم البشريين لتهدئة الألوهية، وعملياً، من دون أخذ حياة شخص محبوب. وتصف التوراة تضحية المخلوق البشري كمظهر مركزي وجوهري في التعبد بين الاسرائيليين، إلا أن من الصعب أن يكونوا هم اول شعب يعتبر التضحية بمثابة طقس أساسي. والواقع، تظهر التضحية بالنباتات، والحيوانات، وبالكائنات البشرية للآلهة بمثابة حافز عفوي عام عند الجنس البشري. وكان يرى سخاء الطبيعة والحياة نفسها في أوساط مايطلق عليها اسم الشعوب البدائية، وفي كل مكان وزمان، أنه من صنع ايدي الآلهة، أو أنه شيء ينتمي اليها بالفعل. وما لم تتم تهدئة الخالق بطريقة من الطرق، فان الأشياء المخلوقة التي خلقها أو خلقتها الآلهة كانت محرمة(تابو)، أي ممنوعة على الكائنات البشرية العادية. فالتضحية إذن كانت بالأصل نوع من أنواع الصفقات مع الآلهة، وتقديم الثمار الأولى من المحصول و«باكورات» القطعان، وحتى أول طفل مولود، بحيث أن

باقي محصول الحياة يمكن استخدامه باطمئنان ولايفنى إلا بالموت العادي.

ونرى الباعث نفسه وهو في حالة نشاط في الصفحات الافتتاحية للتوراة، حين استحث قابيل هابيل، ولدا آدم وحواء، لتقديم «تقدمة الى الرب» في شكل ثمرة من حصاد قابيل وغنم من قطيع هابيل. وسجل طقسهما المعنوي للتضحية هذا بوصفه «أول فعل في العبادة»(41) -وكان شؤماً تقريباً- أن يظهر الله أنه يفضل اللحم البشري (سفر التكوين4: 3-5) واثيرت شهيته، وفيما بعد طالب بصورة رسمية بباكورات الشعب المختار. وأمر الله الاسرائيليين في سفر الخروج: «قدس لي كل بكر كل فاتح رحم من بني اسرائيل من الناس والبهائم أنه لي» (سفر الخروج 13: 2).

وطالما أن الأطفال ليسوا أقل من المحصول والقطيع باعتبارهم هبة من الآلهة، فهم غير معفيين من التضحية، على الأقل، في المواطن الأساسية، وفي بقاع عديدة من العالم في التاريخ كله. والحقيقة أن التضحية بالبشر أدينت في الكتاب المقدس باعتبارها شيء «مقيت». وقررت التوراة أن الأطفال كانوا ضحايا طقوس التضحية في كنعان وحولها حتى وقت متأخر نسبياً من التاريخ التوراتي. ويقول كاتب توراتي معروف باسم المشرع عن الكنعانيين أنهم «حتى أحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار لآلهتهم» (سفر تثنية الاشتراع 12: 31) ويعترف كتاب التوراة أن بعض الاسرائيليين تجرؤوا على الاشتراك في التضحية بالاطفال وفي «افتتان» آخر، تحت تأثير جيرانهم الوثنيين في كنعان (سفر الملوك الثاني 17) وقيل أن ملكان على الأقل من ملوك يهودا جعلا أولادهما يمرون «في النار على حسب أرجاس الأمم التي طردها الرب من وجه اسرائيل» (سفر الملوك الثاني (الرابع) 26: 3-16و 21) يعزي المؤرخ التوراتي، بصورة خاصة، غزو واسقاط مملكة اسرائيل الشمالية الى انتشار التضحية بالاطفال مابين الاسرائيليين: «فرذل الرب جميع ذرية اسرائيل وأذلهم وأسلمهم الى أيدي الناهبين حتى نبذهم من وجهه» (سفر الملوك الثاني(الرابع)17: 20) ويبدو أن التوراة لقيت التأييد من قبل الحقائق الأركيولوجية الأخيرة القائلة بأن التضحية بالبشر كانت رائجة أكثر (في كنعان) من أي مكان آخر في الشرق الأدنى القديم(42)

ويبدو، في الحقيقة، أن التوراة تقر بأن التضحية بالبشر، حتى لو كانت «مكروهة» لازالت مؤثرة. وعندما وجد ملك مؤاب مدينته المسورة محاصرة من قبل جيوش اسرائيل، كما هو مسجل في سفر الملوك الثاني(الرابع)، لجأ الى الإجراء اليائس بالتضحية بابنه الأكبر «بالتقديم حرقاً» الى إله مؤاب المسمى تشيموس فوق متراس يسمح للاسرائيليين برؤية الطقس: «فأخذ ابنه البكر ولي عهده وأصعده محرقة على السور. فحنق اسرائيل حنقاً شديداً وانصرفوا عنه ورجعوا الى أرضهم» (سفرالملوك الثاني(الرابع) 3: 27). والتأويل التقليدي هو أن الاسرائيليين الورعين كانوا مريضين جداً من مشهد التضحية بالانسان الى الحد الذي جعلهم ينسحبون وهم مشمئزين. إلا أن الأديب نرثروب فري تجرأ على قراءة النص قراءة أخرى «تقرأ الجملة الأخيرة على أساس أنها جهد تحريري غير مصقول. ويصر على اخفاء واقع أن المناورة نجحت وفي القصة الأساسية ان الاسرائيليين طردوا في حقيقة الأمر»(43) ولازال الاسرائليليون، مثل باقي شعوب العالم القديم، يهتمون ببعض الطرق الحاذقة إرضاءً لمتطلبات إله جائع للباكورات. وأمر الله تكريس «المولود الأول» حسب ما ذكر في سفر الخروج، على سبيل المثال. وفهم ذلك بمعنى ان الولد المولود الأول ينبغي أن يوجه نحو الرهبنتو بامكان طفل من الأطفال أن يعفى من خدمة المعبد بدفع المحصول الى الرهبان. وتعاملت الشعوب الأكثر بدائية مع هذا الأمر بمساومة فظة جداً: إذ كان بالامكان قص شعر المولود الجديد وحرقه على منبح التضحية بدلاً من الطفل نفسه (44) ومثل هذه الشعائر في التضحية بالانابة كانت منتشرة بصورة واسعة في الثقافات البدائية القديمة بحيث أن بعض المؤرخين تساءلوا فيما اذا كانت التضحية البشرية قد شاعت في الشرق الأدنى القديم. ويظهر، بصورة عامة، أن الحيوانات قد حلت، في معظم الأحوال، محل الكائنات البشرية، كتقدمات للتضحية في زمن الآباء التوراتيين(45)

إلا أن الصفقة الحاذقة الأهم مابين الآلهة الظامئة الى الدم والعشائر والقبائل القديمة التي عبدتها، كانت تلك التي سمحت للآباء والأمهات أن يشتركوا في طقس قطع لحم الانسان وسفح دمه بوصفه تقدمة الى الآلهة دون أخذ الحياة عملياً من الضحية المضحى بها. والختان، كفعل تضحية بشرية

مصغر، ربما حل محل تضحية حقيقية بالاطفال في حضارات كثيرة في العالم في نقطة بعيدة وغير معروفة في التاريخ الانساني. ويقول أحد أدباء التوراة وهو صاحب نزعة انسانية (انثرويولوجية) مميزة: «ان هاهنا، يتبين بصورة تامة اننا تناولنا أصل شعائر الختان» (46) وبدات اشارة الختان كإنابة عن الطفل المضحى به بتفسير التفاصيل الأكثر غرابة وإرباكاً في (سفر الخروج4: 24-26) فقد سعى يهوه الغاضب والمنتقم لقتل والد المولود الأول- أو ربما الطفل نفسه- لأنهم تجاهلوا تقديم اللحم والدم ليهوه الذي طلبهما بنص مقدس. وعندما قطعت صفورة قفلة ابنها البكر، أدت، بصورة ايمائية سليمة، التضحية بالطفل- فقد«ضحت» بالرضيع الذي «فتح رحم اسرائيلية» تماماً مثلما أمر الله. وليس غير التضحيةبصورة خادعة على شكل الختان يهدأ الرب، وعندئذٍ فقط أوقف الله هجومه.

وحتى المظهر الأكثر غرابة (غروتسكية) للطقس الذي أدته صفورة- أي لمسها «سيقان» (والأكثر معقولية لمسها الأعضاء التاسلية) لله أو لموسى أو جيرشوم، بالقفلة الدامية- يصبح مفهوماً اذا اعتبرنا أن ختان ابنها كان بمثابة تضحية دموية. إن مسح الدم كان سبيلاً دراميا ومؤثرا في الاعلان عن أن التضحية بمخلوق حي قد حدثت وتوجه التوراة تعليماتها بصورة محددة الى الكهنة الاسرائيليين الذين يؤدون شعائر التضحية بحيوانات أن يعرضوا عرضاً تاماً غرس أصابعهم في دم الحيوان الذبيح وسفحه حول المذبح (سفر الأحبار3: 8) والواقع أن الله نفسه يحدد أن دهن أجزاء الجسم بدم مضحى به هو نقطة الذروة في الاحتفال الذي رسم فيه، فيما بعد، هارون، شقيق موسى، وأولاده بإعتبارهم أعلى كهنة اسرائيليين: «واذبحه وخذ من دمه واجعل على شحمة اذن هرون وعلى شحمات آذان بنيه اليمنى وعلى أباهيم أيديهم اليمنى وعلى أباهيم أرجلهم اليمنى وانضح الدم على المذبح من كل جهة»(سفر الخروج 29: 20)

وواضح أن صفورة، ابنة كاهن وزوجة نبي، كانت كاهنة ونبية في شريعتها الخاصة. وظهر أنها أدركت أن يهوه كان غاضباً لأن زوجها الاسرائيلي تجاهل أمر عقيدته الخاصة بأن المولود الأول يجب أن «يكرس» الى العلي القدير ويبدو أنها عرفت أن الله لن يهدأ إلا أذا مست السكين المضحى بها لحم الانسان وسفحت

دمه. ولذا استخدمت صفورة الأداة التي كانت تختن ولدها المولود حديثاً-لكي تتأكد من أن الله يرى ماتقوم به، استخدمت القفلة المقطوعة قبل قليل لكي تدهن بها جسم زوجها أو جسم ولدها (إن لم يكن جسم الله) بالدم، تماماً مثلما أمر، فيما بعد، رهبان يهوه من قبل العلي القدير نفسه أن يفعلوا. ورأى الله مافعلت صفورة- وكان الله مسروراً.

سوف أذبح ابنك

تبدو آن الاشارة الى أن الله ربما يطلب التضحية بطفل، حتى لو كان بشكل انابة، تتناقض مع التعاليم الأساسية في التوراة العبرية، التي تشجب، بصورة متكررة وصريحة، ممارسة التضحية بالبشر من قبل الكنعانيين ومن قبل الاسرائيلي المرتد الذي وقع تحت تأثيرهم الشرير. ويذكر النبي ارميا أن الله أغضب وخيب بسفح «دم الأبرياء» اثناء التضحية للإله الكنعاني المعروف باسم بعل- وهي شكل من أشكال العبادة: «وبنوا مشارف البعل ليحرقوا بنيهم بالنار محرقات للبعل مما لم آمر به ولم يخطر ببالي» (نبوءة ارميا 19: 4-5) ويفكر النبي ميخا مليابأمر التضحية بالطفل: «أأبذل بكري عن معصيتي، وثمرة بطني عن خطيئة نفسي؟» (نبوءة ميخا 6: 7)- ولخص جوابه على السؤال البلاغي بالعقيدة التي أخذنا نعتبرها تعليماً أساسياً في التقليد اليهودي- المسيحي:

«أيرتضي الرب بألوف الكباش وربوات أنهار الزيت.أبذل بكري عن معصيتي وثمرة بطني عن خطيئة نفسي. وقد بين لك ايها الانسان ماهو صالح وما يطلب منك الرب إنما تجري الحكم وتحب وتسير بتواضع مع الهك.» (نبوءة ميخا6: 7و8)

ومع ذلك، سجلت التوراة، قبل زمن طويل من إرميا وميخا، وقبل وقت طويل من قصة عروس الدم، سجلت حادثة أكثر رهبة من حتى ليلة الهجوم على موسى، وهي حادثة كانت التضحية بالطفل فيها ماطلبه الله من شعبه المختار، في ظل ظروف مروعة أكثر.

فطبقاً لسفر التكوين، وعد الله ابراهيم وسارة بأن ولداً سيولد لهما في عمرهما المتقدم جداً. «وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لاتسمها ساراي بل

سارة. وأنا أباركها وأعطيك منها ابنا وأباركها..» (سفر التكوين 17: 15و16) وهو يقدم وعده هذا لأن سارة في التسعين من عمرها تحبل وتلد اسحاق. ومن ثم، وفي لحظة إنحراف ديني صدم قراء التوراة في فترة الألفي سنة الأخيرة، أمر الله لابراهيم، بصورة جافة، أن يضحي باسحاق الصغير على مذبح النار. «قال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق وامضي الى أرض موري، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أريك» (سفر التكووين 22: 2)

وربما كان الأكثر انحرافا أن ابراهيم أذعن للأمر الإلاهي بإبنه دون أن تبدر منه كلمة واحدة تنم عن الاعتراض. وعلينا ألا ننسى أن ابراهيم هو نفس الرجل الذي واجه الله بجرأة بشأن خطته لسحق السادوميين الأشرار والحقراء،وهو الرجل الذي جادل العلي القدير لفترة طويلة لكي يستثني العشرة الأتقياء الذين قد يقتلوا مع الخاطئين. ولكن ابراهيم يلوذ بالصمت عندما يبلغ الأمر حد حياة ابنه. وينطلق ابراهيم بخنوع، ودون أن ينبث بينت شفة، نحو أرض القتل مع ابنه المهذب والمرتبك بصورة أخاذة. ويسأل اسحاق غير الشكاك: «هذه النار والحطب فأين الحمل للمحرقة؟» (سفر التكوين 22: 7) وتهز كلماته نياط قلب آي أب من لحم ودم. وليس قبل اللحظة الأخيرة-حين ثبت اسحاق الى المذبح وتحته حطب نار التضحية، وكان ابراهيم يضع سكين الذبح على حنجرة إبنه- عندئذ طلب الله وقف كل شيء فقال ملاك الرب في اللحظة الأخيرة: «لاتمد يدك الى الغلام،فإني الآن عرفت إنك متق لله فلم تدخر ابنك وحيدك عني» (سفر التكوين 22: 12)

وأكثر رجال الدين دفاعا وتبريرا كافحوا بغية تفسير ربط اسحاق وفقا للفقرة المعروفة في التاريخ اليهودي، بأنها امتحان الايمان من قبل الله الصبور والرحيم الذي لم يرد ولم يسمح أبدا التضحية بالطفل على يدي والده. وأثني على الرب من قبل بعض المدافعين بالتقديم العجائبي لوعل يحل محل اسحاق على المذبح في اللحظة الأخيرة. وهم يصرون على أن «القصة تفتتح عصرا طويلا من حروب اسرائيل ضد مكروهات التضحية بالطفل» (47) وان الرعب الذي اجتاح ابراهيم وسارة واسحاق، بفعل العلي القدير أثناء المحنة- ومشهد ماكان سيحدث الى اسحاق اذا فشل أبوه في «امتحان الايمان» برفض أن يذبح

ابنه- هذا المشهد يتم تجاهله تقريباً في أكثر القراءات الدينية ورعاً بشأن ربط اسحاق.

إلا أن القرارات الدينية ليست مقنعة ولا مؤكدة. اذ أي نوع من الساديين يمكن أن نسأل، وهو يضع بصورةعجائبية طفلاً مع زوجين يرثى لحالهما، ومن ثم يطلب أن يذبح الطفل من قبل أبيه- وينتظر (هذا السادي) حتىيبلغ الفصل حد سفح الدم قبل أن يقول ماقاله «فهل كان يمزح؟» أي نوع من الأباء ذلك الذي كان راغباً في أن يتحدى العلي القدير بعاطفة مشبوبة ووقاحة دفاعاً عن سيدوم وعمورة، المدينتان التوأمان في الشر والفساد، إلا أنه يبقى صامتاً ولين العريكة حين وجه لكي يقطع رقبة ابنه البريء وحرق جسده؟ان عهد اسحاق فاجع ومربك، يبين للوهلة الاولى لم ان اسماً من أسماء كثيرة يدعى الله بها في التوراة، هو «مهابة اسحق» (سفر التكين 31: 42)

وقال لي حاخام شاب ذات مرة: «ان كل التاريخ اليهودي كان سينقلب بصورة مختلفة فيما لو أن ابراهيم قال: «لا». وغالباً، ما كان سيعاد النظر في التفصيل الأكثر ارباكاً في عهد اسحاق. فالله وفر حياة اسحاق، إلا أن العلي القدير لم يخرج ويقول في أي مكان ان التضحية بالبشر خطأ، أو انها على الأقل، غير لازمة. وابراهيم بإذعانه المذل لمطلب الله الظامىء الى الدم، يحرر نفسه من الشرك الذي نصبه الله له: لأن ابراهيم كان بالفعل عازماً على ذبح ابنه، وهو لم يدع لفعل ذلك. إلا أن الله لم يعلن احتمال مطالبته بفعل الأمر مرة ثانية لا من ابراهيم- ولامن أي شخص آخر. وطبقاً للجذور التاريخية الاسلامية، فان الحيوان هو ما قدمه الله الى ابراهيم في الطقس المسجل الأول في التضحية(48) -وهكذا يجري تذكيرنا أن الله يبدو منقذاً للحم والدم».

كتب ناحوم سامكا، وهو معلق مشهور على سفر التكوين، بصراحة غير معهودة «اننا لانستطيع أن نتجنب حقيقة ان جوهر القصة يبدو عملياً تأكيدا لاحتمال أن الله كان سيطلب التضحية بالبشر، والله لم يستنكر التضحية بالبشر مثلما حدث» (49)

ان عدم اهتمام الله المحير تجاه التضحية بطفل في عمر اسحاق يلقي ضوءاً مشؤوما على أحداث سفر الخروج، وهذه الأحداث لا تضم الهجوم الليلي وحسب،

بل تضم أيضا كل خطة التحرير التي عهد الله بها الى موسى أثناء لقائهما الأول. والله أخبر موسى أن تسع عشرة مصيبة التي اراد الله بعثها الى مصر- الضفادع، والهوام، والبثرة، وغيرها، لن تكون كافية لاقتاع فرعون أنه يجب عليه أن يسمح للاسرائيليين بالذهاب و يلاحظ، أن الله بين أن فرعون سيقاتل المصائب التسع الاولى، ليس لأن هذه «الآثام» و«العجائب» هي أتفه بكثير من أن تخيفه، بل لأن الله نفسه - «يقسي قلبه» (سفر الخروج 4: 21).

والحمد لله على تدخله المؤذي، الى حد ما، في عقل وقلب فرعون، فالموقف كان بحاجة الى المصيبة العاشرة من أجل قهر ارادة الملك المصري: «وقل لفرعون كذا قال الرب، اسرائيل ابني الأكبر. قلت لك أطلق ابني ليعبدني وان أبيت أن تطلقه منها فهاءنذا قاتل ابنك البكر» (سفر الخروج 4: 22و23)

والواقع أن باكورتين مذكورتين في تهديد الله لفرعون- المولود الأول للرب والمولود الأول لمصر- تقدم مفتاحا خادعا لتفسير الهجوم الليلي على موسى في مكان اقامته الذي حدث قبل أن تنزل على مصر المصيبة العاشرة. واقترح أحد نقاد التوراة بمناسبة تفسير الهجوم الليلي في مكان الاقامة «أن المهدم (أو المهشم) الذي كان سيضرب المولود الأول في مصر كان في سبيله لأن يهدد بالخطر المولود الأول لموسى نفسه» (50)

وبكلمات أخرى، كان الله في بعض الأحيان متهورا في لحظات الغضب، ومتوحشا جدا، ومن غير التنبؤ به، بحيث أنه كان مستعدا لضرب أي انسان يقف في طريقه. وما أن يبدأ الله بالقتل، حتى يعجز عن التوقف. ويمكن العثور على الاشارة المرعبة ذاتها في التلمود نفسه، اذا يحذر الحاخاميون قائلين: «ان الله ما أن يعطي الاذن الى المهدم (المحطم) بالسحق، حتى لايعود يميز مابين التقي والشرير» (51)

ومع ذلك عاش موسى بعد الهجوم الليلي في المأوى ووجد، (نفسه مع باقي الاسرائيليين) تحت خطر الموت مرة ثانية في ليلة القدر عندما نزل الله الى مصر لتنفيذ المصيبة العاشرة والأخيرة، أي ذبح أول مولود في مصر. وتقول لنا التوراة، ان الله نفسه (وليس ملاك الموت، حسب ما أعلن في العظات وفي قصص يوم الأحد) اهتاج ثائرا في طول مصر وعرضها، وهو يعلن أن «يموت كل بكر في أرض

مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه، الى بكر الأمه التي وراء الرحى، وجميع أبكار البهائم» (سفر الخروج 11: 5) ومع ذلك، فان الله يبدو عارفاً بشكل كافٍ لكي يدرك أنه يفرق بصورة صحيحة مابين المصريين والشعب المختار لحظة البدء بالقتل. ولذلك قرر العلي القدير أنه يجب التضحية بحمل من قبل كل اسرائيلي صاحب بيت عند الغسق، ويجب أن يمسحوا دمه (دم الضحية) بأعمدة باب البيت، وعتبات كل بيت اسرائيلي، كعلامة : « فيكون الدم لكم علامة على البيوت التي أنتم فيها». وقرر الرب أن «يرى الدم وأعبرَ عنكم ولاتحل بكم ضربةَ هلاكٍ اذا ضربتَ أرض مصر» (سفر الخروج 12: 13)

لذا بدا أن الهجوم الليلي على مكان الاقامة يمثل مصيبة في منتصف الليل على أول مولود في مصر، والقفلة الدامية التي استخدمتها صفورة لايقاف انقضاض المقدس على موسى يرى ثانية في دم الحمل الذي تدهن به عتبات بيوت الاسرائيليين في مصر[1] (وتتكلم المدراش - التفسير اليهودي التقليدي للتوراة) بصورة خادعةٍ عن خيط يربط بصورة مباشرة مابين طقس الختان وشعائر الدم التي اوقفت يد الله عندما سعى الى قتل «دمين» استخدما لوضع علامةعلى أعمدة بيوت الاسرائيليين - حسب ما افترضت المدراش، دم الحمل المضحى به، ودم الختان « وعندما« يحل المقدس المصيبة بالمصريين ، يرى دم ختان العهد على أعتاب بيوتهم وهو ممزوج بدم الحمل المضحى به، وكان مفعماً بالحنو نحو اسرائيل» (52)

والحاخاميون حسب ما لاحظنا قبل قليل، يحفظون حكاية دينية جميلة. فقد كان الشيطان يطارد موسى خلسة أكثر من العلي القدير بغية قتل موسى في النزل. ويشكل هذا سبيلاً مقنعاً وغير محتمل لنقل استحقاق اللوم عن الهجوم من الله الى نفس ملاك الظلمة الذي يلقي اليهود والمسيحيون على كاهله اللوم منذ زمن بعيد عن فعل الشر الذي يفعله احدنا حيال الآخر. وإلا

---

1 وهذه ليست القصص الوحيدة في التوراة التي يهاجم فيها الله أحد أبناء شعبه المختار ليلاً. فقد جسد الله بوصفه رجلاً أو ملاكاً وجلس فوق يعقوب في الليل قبل مواجهة يعقوب لأخيه المغترب عيسو. فقد تصارع الله ويعقوب مع بعضهما طوال الليل والحق أذى بـ« حق ورك يعقوب» الأمر الذي يمكن أن يفهم بمعنى التقاء الفخذين، أو حتى العضو التناسلي. إلا أن يعقوب استخلص بركة العلي القدير له (سفر الخروج 32: 25-30)

كيف نفسر ما أوله أحد الأدباء على أنه «تصرف تصرفاً اسرائيلياً» في النزل؟(53) إلا أن الشيطان الذي لم يظهر في التوراة حتى في سفر ايوب، وظهر عندئذ بمثابة خادم ودود الى الله- قد أدين بصورة زائفة. وبالرغم من الجهود الدينية الورعة والمتقدة المبذولة لفترة طويلة، فان التوراة تقول أن الله نفسه، وليس الشيطان، أو حتى ملاك التهديم، كان قادراً على قتل حتى الأبرياء والمخلصين من الجنس البشري.

وكتب مارتين بوبر وهو أحد عمالقة فلسفة الأخلاق في القرن العشرين، وهو يتأمل سفر الخروج (4: 24-26) إن «الفترة الاولى من الدين الاسرائيلي لم تعرف الشيطان. واذا هاجمت قوة ما رجلا وهددته، فان من الصحيح اعتبار يهوه إما فيها أو راءها، ولايهم كم تكون هذه القوة مروعة وقاسية أثناء الليل..»(54)

وأضاف بوبر بعدئذ ملاحظة أساسية بقوله أن «.. من الصحيح والمناسب مقاومته (أي مقاومة الرب)..» (55)

وهاهنا نجد مايمكن أن يكون درساً حقيقياً وراهناً في عروس الدم: فقد نهضت صفورة لله وواجهته وبذلك أنقذت حياة زوجها وحياة طفلها. وكان موسى وابنه محظوظين بالفعل لأنها لم تتبع مثال ابراهيم بالصمت والاذعان، كما سنرى بعد قليل، والله لايتدخل دائماً لكي يمنع التضحية بطفل، حتى حين يعطى فرصة كبيرة لفعل ذلك. لذا فان مأثرة صفورة في الوقوف في وجه غضب المقدس، مربكة جداً وغامضة جداً، إلا أنها تسمح لنا بأن نتبين المعنى الداخلي لسفر الخروج (4: 24-26) وربما كان ابراهيم هو الذي أفشل امتحان الايمان بعد كل ماجرى، ونجحت به صفورة.

الفصل العاشر
يفتاح وابنته........

..........فقال شيوخ جلعاد ليكن الرب سامعاً بيننا إن كنا لانفعل كما تقول «سفر القضاة11:1»..........

وضعت الفتاة ابرة الخياطة جانباً ونظرت الى والدها وهو يجهد نفسه في سن سيف المعركة بحجر يصعد به وينزل ثم فحص حد النصل بتمرير ابهام ثخينة قاسية فوقه.

وكانت الفتاة قد رأت والدها يؤدي العمل نفسه مرات ومرات قبل اليوم- يسن نصل سيف طويل، ويضع الزيت على جلد قراب السيف وعلى الحافة الخشبية الواقية، ويسن رأس الحربة ويقيسها على قطعة من شجر البلوط مقطوعة للتو. وأخذت تدرك، وهي تكبر سنة بعد سنة أن منظر السيف الطويل يشير الى حقيقة أن والدها أجر نفسه مرة أخرى كمرتزق في خدمة سيد غني من الأسياد يرغب أن يدفع ثمناً لتحرير نفسه من قطاع الطرق أو البدو أو الجنود المرتزقة الذين يقاتلون من أجل شيخ قبيلة منافسة. وتمضي أسابيع وحتى أشهر قبل أن يعود أبوها مع القطع النقدية والغنيمة المعتادة لتأمين متطلبات حياتهما.

واذا عاد، فان عدداً من الرجال الذين خدموا مع أبيها سيبقون في الخلف في قبر قليل العمق في مكان ما في الأراضي النائية التي ذهبوا لكي يقاتلوا فيها- ويكون عددهم واحد أو اثنين اذا سار القتال بصورة حسنة، ويكون العدد أكبر بكثير اذا سار القتال بصورة سيئة. وتجنب أبوها هذا المصير حتى الآن، إلا أنها تدرك بأن الله قد يمنحه دائماً مثل هذه العناية.

والآن وقد استأنفت الفتاة عملها اليدوي، وغرزت الابرة برشاقة على طول قبة

رداء أزرق طويل، مخلفة رسم حمامات وأغصان بخيط أزرق وأغصان مجدولة بخيط أبيض. ومع ذلك واصلت التأمل فيما قال لها أبوها بصدد الحملة التي سيخرجون لها مع بزوغ الضوء. ففي هذه المرة سيقاتل كقائد وليس كمرتزق، وهو سيقود جيشاً له- جيش اسرائيل- الى معركة ضد ملك عمون- وأنشد قائلاً لابنته وهو يفتخر: «باعتبار أن الله هو الذي يصدر حكمه عليَ، فأعود شيخاً للقبيلة، اذا عدت- فتعيشين حياة تليق بابنة شيخ القبيلة».

وكان اسم الرجل يفتاح والناس يتذكرون الفتاة باسم سيلا. فقد كانت سيلا لاتزال صغيرة، إلا انها لم تكن صغيرة الى حد لاتدرك معه أن قلب والدها كان يشتعل في صدره وهو يكلمها عن المعركة القادمة- والألم العميق والغضب والتحدي، ونيران الانتقام المشتعلة تحت الرماد أصبحت على أهبة الاستعداد للأنفجار لهيباً. لقد نشأت سيلا تحت رعاية أبيها وعاشا في ذلك البيت الصغير في المدينة الحدودية مؤاب ذات الغبار الكثير. وكانت الذكريات التي يشاركها بها تشبه قصص الجنيات، إلا أنها مجبولة بلحمه ودمه.

فقد كان والد يفتاح غنياً سيداً وقوياً وصاحب منزل كبير في منطقة جلعاد. إلا أن يفتاح لم يعرف أمه أبداً، فقد رآها مرة واحدة من مسافة بعيدة حين مرت حاشية رجل عظيم في شوارع جلعاد الفقيرة ذات صباح. واشار والد يفتاح الى امرأة هزيلة بشعر ملوث بالزيت ووجه مدهون بالأصباغ، وهي واقفة بكسل عند مفترق الطرق، تدعو بين الآونة والأخرى العابرين. وكان يفتاح بعيد جداً عن امكانية التعرف على شكلها أو على الكلمات التي كانت تقولها. غير أن صوت والده كان واضحاً بشكل كافٍ حين قال: «ان تلك المرأة البائسة الهزيلة هي أمك. لذا وجب عليك أن تعتبر نفسك سعيد الحظ لأنك عشت في بيتي وليس في بيتها».

«.... وكان يفتاح الجلعادي جبار بأس وهو ابن امرأة بغي ولدته لجلعاد» (سفر القضاة 11: 1)

غير أن سيلا تعرف أن والدها لايعتبر نفسه سعيد الحظ أبداً. فقد كان لدى أبيه زوجة ممتلئة الجسم ومناسبة من علية القوم، منحته مجموعة من الأبناء الوسيمين. وعندما كبر يفتاح كان أبوه مسروراً بقيام امرأة أبيه بتربيته مع باقي

الأولاد- وهي لم تجد سبباً وجيهاً لكي تبقي يفتاح حول المنزل حين كان منظره يثير اشمئزازها. ووضعت خطة لكي تنقله الى غرفة في أحد الأبنية حيث يقع الاسطبل ويفترش الخدم الأرض. وأخذت تتأكد بأنه مشغول بأمور أخرى عندما يصل الضيوف ويتناولون الطعام والشراب. والبسته ألبسة بسيطة في حين أنها طلبت ألبسة أنيقة لأبنائها. واختلقت له مهمات في وقت الطعام. واذا مالاحظ والده كيف تبعد زوجته ابنه الأول، لم يقل شيئاً، واذا ما أبدى اهتماماً بطريقة أو بأخرى لايشير الى ذلك.

وعندما بلغ يفتاح السادسة عشرة من عمره تعلم أن يسعد نفسه برفقة أبناء الاسطبل الذين علموه مهارات ستنقلب مفيدة ومريحة لشاب عاش فقيراً في بيت رجل غني. وحدث مرة، أن يفتاح تعلم ركوب الخيل، وأن يصنع سلاحاً من الحديد، وأن يستخدم سلاحه في القتال. وهو لم يعد يلقي نظرات الاشتياق على والده، ولم يتكلم بطلاوة مع خالته زوجة أبيه على أمل أن تعامله كابن وليس كنغلٍ. وركب ذات يوم الى باحة البيت الكبير ورأى أخوته من أبيه جالسون على كراسي صغيرة، وثيابهم ممزقة، والرماد ملقى فوق رؤوسهم. ففكر يفتاح لفترة فيمن يكون الميت، وأدرك أنه والده، ولم يستطع حراكاً.

.... ثم ولدت لجلعاد زوجته بنين فلما كبر بنو زوجته طردوا يفتاح وقالوا له ليس لك ميراث في بيت أبينا لأنك ابن امراة غريبة.(سفر القضاة 11: 2)

ولازال يفتاح يدرك بصورة جيدة مايعني له موت أبيه. وعندما انقضت أيام الحداد الثلاثين اقترب يفتاح بشجاعة من باب البيت وطالب بحصته من الأملاك التي خلفها أبوه. فطرد يفتاح من قبل اخوته من أبيه المتعجرفين وكأنه شحاد لحوح، ووبخوه ساخرين لأن أمه لم تكن أمه، وغمغم أحدهم قائلاً: «أنت لن ترث شيئاً من أملاك أبينا لأنك ابن لتلك المرأة الأخرى».

ورفع يفتاح المشتعل غضباً شكواه الى شيوخ جلعاد الذين وافقوا في النهاية على النظر في مطالب المقابلة لأولاد الرجل الغني. واجتمع ذات يوم يفتاح واخوته من أبيه والشيوخ أصحاب الشعر الشائب في جلعاد في بيت الرجل المتوفي. وصب يفتاح مرارته في كلمات بانفعال شديد. فنفض الشيوخ لحاهم وهزوا

برؤوسهم موافقين، وحتىأنهم ابتسموا بين الحين والآخر، من مطالب يفتاح بالعدالة. وتلقى ابن المرأة الأخرى هدية مفاجئة من أجل الكلمة المختارة التي قيلت بشكل مناسب وهي المطلب بالحكم الذي كان كله في صالح اخوته من أبيه، وامروه بحدة أن لا يضايقهم مرة أخرى. ثم نهضوا، وتكرموا برسم ابتسامة أخيرة مميزة من أجل يفتاح، وهرعوا خارجين من البيت وكأنهم خائفون من أن يجعل الشاب الوديع خنجره يتكلم بالنيابة عنه.

وفي الحقيقة، ألح صديق أو صديقان من أصدقاء يفتاح، الذين كانوا من النوع الخشن الذي يمكن أن يتصوره المرء، صديقاً لنغلٍ طَرد من بيته، ألحا على يفتاح أن يقوم بزيارة أخرى لبيت والده في الليل. وقالا: «شق حنجرة من حنجراتهم، وبعدئذٍ سيفهم أصحاب الرؤوس المنتفخة الذين سلبوك ميراثك، سيفهمون معنى رسالتك!» وفكر يفتاح بالاقتراح، إلا انه قرر أن ابناً خارجاً عن القانون أسوأ من ابنٍ لم يرث شيئاً من والده. لذا هرب يفتاح وعدد من عصابته من جلعاد وشقوا طريقهم الى مدينة تقع على الحدود بين اسرائيل وعمون حيث يمكن لفطنة حادة مثل حد السيف أن تسمح له أن يعيش كجندي مرتزق، في مكان لايوجد فيه أغنياء يقوم بخدمتهم- أو قاطع طريق لايجد أغنياء يسلبهم مالهم.

.... فهرب يفتاح من وجه أخوته وأقام بأرض طوب فاجتمع اليه قوم بطّالون وكانوا يخرجون معه. (سفر القضاة 11: 3)

وكان السؤال المحيِّر بالنسبة لسيلا هو: من تكن، على وجه التحديد، أم يفتاح، ولِمَ لَم تكن زوجة أبيه؟ وهذا السؤال لم يكلف أبوها نفسه مشقة الاجابة عليه. ولم يحدث إلا عندما كبرت سيلا، واصبح لها صديقات في طوب، وصرن يرافقنها طوال فترة غياب أبيها، عندئذٍ تعلمت سيلا الكلمة التي نَعتت بها أم يفتاح، وهي كلمة لم ينطق بها ولا مرة واحدة أمامها.

وقد بينت احدى الفتيات قائلة: «إن جدتك كانت عاهرة»

وهكذا جاء يفتاح من مؤاب الى أرض طوب، وهكذا حدث أن سيلا ولدت في البيت الصغير خارج إطارالمدينة. وكان يفتاح يقول والدموع الحارة تنهمر من عينيه: «أنت وحيدتي، طفلتي الوحيدة لحمها من لحمي ودمها من دمي!»

وربى يفتاح سيلا بنفسه، وعاشا معاً في ذلك المنزل المصنوع من الجص بفناءٍ صغير احتفظت فيه سيلا بعنزةٍ للحليب وببضع دجاجات للبيض. وكانت تظهر على باب البيت، بين الحين والآخر، امرأة تحمل صرة ملابس وشراشف، وهي علامة على أن يفتاح كان مستعداً لأن يحزم أسلحته ويستعد مع عصابته لمعركة في مكان ناءٍ. وتجد سيلا نفسها بعدئذٍ تحت رحمة مربية مستأجرة ليست لطيفة جداً لفترة أسابيع وأحياناً أشهر، الى أن يظهر أبوها في يوم سعيد على عتبة الباب مع حقيبة ملأى بالقطع النقدية الفضية تكفي لاطعامهما حتى يوم الدعوة التالية لحمل السلاح.وكان يفتاح مقاتلاً بارعاً وشجاعاً، وكان مطلوباً جداً في تلك الأيام غير المستقرة في كنعان، وغالباً ما كانت سيلا تودع عند العديد من النساء بأسماء كثيرة وغير مألوفة بحيث أنها كانت تدعوهن باسم امرأة واحدة لا اسم لها.

وفكرت سيلا حين كبرت، إن كانت أمها احدى تلك النسوة. إلا أن يفتاح لم يخبر ابنته شيئاً عن المرأة التي ولدتها، وكان يلتفت مبتعداً عن أكثر أسئلتها حدة والحاحاً مستخدماً العبارة التالية: «اننا أنا وأنت في مواجهة العالم». وكانت سيلا تدرك أنه يريد أن يريحها، غير أنها لم تكف عن التفكير في اسم أمها، وأصلها، ومصيرها. فربما كانت عاهرة أيضاً. وربما سقطت مريضة وماتت أثناء ولادتها. وربما هربت مع أحد الجنود القدماء المذعورين من المعركة الذين يمكن مشاهدتهم في شوارع مؤاب. والآن، بصرف النظر عن قصص سيلا الملونة والغريبة التي ترويها لنفسها، فقد بقيت أمها بلا اسم، وبلا وجه، وبلا صوت. ولم تكن غير شبح يسكن أحلام فتاةٍ صغيرة.

وعندما صارت سيلا في عمر تستطيع معه أن تعتني بنفسها أثناء غياب أبيها، تجرأت على الخروج الى ماوراء الفناء الصغير لمنزلهم والى ماوراء البئر في ساحة القرية، وماوراء البوابات في ضواحي مؤاب. ووجدت في احد مشاويرها الطويلة الى الريف صدعاً في التلال البنية اللون والمغبرة حيث يتدفق نبع ماء، ونشرت شجرة بلوط اغصانها. وكانت سيلا تعود، المرة تلو الأخرى، الى ذلك المكان المختبيء في التلال. وكانت تعود في البدء لوحدها، ومن ثم برفقة فتاة أو فتاتين من الصديقات اللواتي اعتبرتهن جديرات بالاطلاع على سرها.

وتخيلت سيلا وهي تجلس تحت الشجرة، واضعةً قدماً فوق قدم، أنها تصغي الى همسات صادرة عن الغصن العلوي، وكانت الريح تداعب الأوراق في الذروة. وتخيلت سيلا أنها اذا نظرت الى فوق، في ذلك اليوم، سترى أمها جالسة في الأعالي فوق رأسها عند انحناء غصن يتمايل، وتخيلت صوت امرأةٍ، وتساءلت كيف سيكون وقع اسمها على شفتي أمها.

وفي ذات يوم سمعت سيلا، وهي تحلب العنزة في فناء الدار، صوت جلبة آتٍ من بعيد، فنظرت من فوق جدار السياج لترى ما الذي يحث على الضحك وعلى الصفير، ورفعت احدى يديها لتحجب أشعة الشمس عن عينيها، ورأت عدداً من اناث الحمير تشق طريقها ببطء الى أسفل الطريق وسط سحابةٍ صغيرةٍ من الغبار. وركض الى جانب الحمير بضع أطفال بائسين يصفرون ساخرين من راكبي الحمير. وكان يركب على رأس الحشد جندي فوق ظهر حصانه، قلق وهو يراقب الأطفال بخوف حقيقي من أن يحدث مالا تحمد عقباه. وركب جنديان في المؤخرة وهما يحملان حراباً طويلةً. وركب مابين العسكر سبعة شيوخ اعتلوا ظهور اناث الحمير على نحو أخرق، وارتدى كل منهم قنابيز من قماش مزابر قلما شوهد نوعها في مؤاب.

.... « وكان بعد أيام أن بني عمون حاربوا اسرائيل».(سفر القضاة 11: 4)

ولدهشتها، أن الموكب اتجه مباشرة الى قبالة بيت يفتاح، وترجل رجل من فوق الحمار الأول- و كان من الجماعة بلحية طويلة فضية ذات نهايتين دقيقتين- إلا أنه ترجل بطريقةٍ تدل على أنه لم يعتد على ركوب الحمير. ولاحظت سيلا أن قنبازه قد انجر لمسافةٍ طويلة فوق الغبار، وأن الحافة المطرزة قد اسودت من كثرة الاوساخ. وأخيراً، وقف الرجل وخاطب سيلا دون أن يتنازل فينظر اليها: «هل هذا البيت بيت يفتاح؟» سأل وهو ينظر الى ظهرها ويدرس البيت الصغير الواقع وراء الفناء.

- «نعم ياسيدي».

- «اسألي الرجل الرائع الباسل إن كان سيستقبلنا؟» وأمرها الشيخ بأن تخبره أن الشيوخ من جلعاد جاؤوا ليزوروه.

حدقت سيلا في وجه الرجل لفترة طويلة- فقد تذكرت شيوخ جلعاد وقرارهم

الشرير- ومن ثم أسرعت الخطا عائدةً الى البيت لتستدعي أباها الذي كان نائماً اثر ليلةٍ طويلةٍ قضاها في الشرب والغناء. وظهر يفتاح عند عتبة الباب، ومد ساعديه فوق رأسه، ومس عينيه، وسعل، ومن ثم بصق على الغبار. وعندما رأى الشيخ عند البوابة ضحك بصوتٍ عالٍ.

«ماالذي جاء بكم كلكم الى مؤاب أيها الشيخ؟» طلب يفتاح «هل غيرتم رأيكم بشأن الوراثة التي سرقتموها أنتم واخوتي مني؟»

فتجاهل الشيخ الأكبر في جلعاد سؤال يفتاح وبدأ يتكلم بهدوء وكأنه يخاطب مجموعة من الناس بدلاً من رجل واحد، وقال إن بني اسرائيل ارتكبوا اثماً بحق العلي القدير بعبادتهم لآلهة الكنعانيين الغريبة، وأصبح العلي القدير غاضباً جداً على أساليبهم الشريرة الى الحد الذي جعله يضع في عقل ملك عمون أن يرسل جيشاً عبر نهر الاردن لظلم وسحق شعبه المختار.

....

وعاد بنو اسرائيل فصنعوا الشر في عيني الرب وعبدو البعليم والعشتاروت وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه. فاشتد غضب الرب على اسرائيل فباعهم الى أيدي الفلسطينيين والى أيدي بني عمون. فظلموا بني اسرائيل وداسوهم منذ تلك السنة الى ثماني عشرة سنة جميع بني اسرائيل الذين كانوا عبرنهر الأردن في أرض الأموريين الذين في جلعاد.(سفر القضاة10: 6-8) فصرخ بنو اسرائيل الى الرب وقالوا قد خطئنا إليك وتركنا إلهنا وعبدنا البعليم(سفر القضاة 10: 10).....

وواصل الشيخ حديثه قائلاً: «وصرخ بنو اسرائيل الى الرب وقالوا قد خطئنا إليك وتركنا إلهنا وعبدنا البعليم».

«نعم، نعم» قال يفتاح بطريقة جافة. فهو قد سمع قبل فترة وجيزة عن تقدم حرس العمونيين الذين عبروا نهر الأردن بغية اختراق دفاعات كنعان. وسمع للتو العرض المؤسف للميليشيا الاسرائيلية رثة الثياب لدى مواجهتهم عسكر ملك عمون المحترفين.وضحك عساكر مؤاب القدماء مع بعضهم على رجال الميليشيا الذين انكسروا وركضوا، وهم الرجال الأغنياء الذين حزموا أنفسهم وملابسهم وخرجوا من جلعاد عند أول كلمة عن اقتراب الجيش. والآن

فان السادة المرتعدين وجيشهم المجلود عن نحو سليم وصحيح كانوا يحتشدون مع بعض في خيامهم على مشهد من مؤاب.

«أنا آسف لكون العمونيين قد أرعبوكم فخرجتم من بيوتكم، ولكن ماعلاقة كل هذه الأمور بي؟»

فعبس الشيخ في وجه يفتاح وواصل صراخه وهو يفخم كلماته قائلاً:

....

«فقال الرب لبني اسرائيل ألم يكن أني خلصتكم من المصريين والأموريين وبني عمون والفلسطينيين؟ ومع ذلك، تركتموني أنتم وعبدتم آلهة غريبة، ولذلك لا أعود أخلصكم أيضاً. اذهبوا فاستغيثوا بالالهة التي اخترتموها فلتخلصكم في أوان شدتكم!»

ودرست سيلا وجه الشيخ وقد تلون من الغضب، وشعرت فجأة أنها مصابة بالدوار. واذا كان صاحب اللحية الصهباء الورع الذي غش يفتاح بشأن وراثته قد عرف فقط ما الآلهة الغريبة التي تعبد في مؤاب ومحيطها، وبأية طرق غريبة!

فقال الرب لبني اسرائيل ألم يكن أني خلصتكم من المصريين والأموريين وبني عمون والفلسطينيين. وقد ضايقكم الصيدونيون والعمالقة والعمونيون فصرختم الي فخلصتكم من أيديهم. فتركتموني أنتم وعبدتم آلهة غريبة فلذلك لا أعود أخلصكم أيضاً. اذهبوا فاستعينوا بالآلهة التي اخترتموها وهي فلتخلصكم في أوان شدتكم (سفر القضاة 10: 11-14)........ فقال بنو اسرائيل للرب قد خطئنا فاصنع بنا كل مايحسن في عينيك إنما أنقذنا في هذا اليوم. وأزالوا الآلهة الغريبة من بينهم وعبدوا الرب فرق قلبه لمشقة اسرائيل (سفر القضاة 10: 15و16)

وواصل الشيخ كلامه قائلاً: «وهكذا فان بني اسرائيل أزالوا الآلهة الغريبة من بينهم وعبدوا الرب فرق قلبه لمشقة اسرائيل. وقال الناس أحدهم الى الآخر من هو ذلك الرجل الذي سيقوم بالقتال ضد بني عمون؟ إن هذا الرجل يصبح شيخنا وسوف يحكم كل جلعاد».

ولاحظت سيلا أن ابتسامة خبيثة تلوح على شفتي أبيها. والآن ادرك يفتاح سبب مجيئهم اليه، إلا أنه لم يوفر عليهم مشقة قولها بصوت عالٍ. وبعد فترة

من الصمت الثقيل، رفع شيخ جلعاد يديه الى السماء في اشارة الى صلاة وصرخ على يفتاح: «تعال وكن القائد العام لجيشنا، بحيث نقاتل بني عمون».

فثبت يفتاح نظره على وجه الشيخ الذي سكت فجأة غير أنه أبقى يديه مرتفعة في الهواء. فالتفت الشيخ متضايقاً ونظر من فوق كتفيه، كما لو أنه يطلب المساعدة من الآخرين، ولكنهم لم يقولوا شيئاً. وأخيراً، فان يفتاح هو الذ تكلم.

....

واجتمع بني عمون ونزلوا بجلعاد واجتمع بنو اسرائيل ونزلوا بالمصفاة. فقال الشعب رؤساء جلعاد بعضهم لبعض أي رجل يبدأ الحرب على بني عمون فهو يكون رئيساً على سكان جلعاد كلهم (سفر القضاة10: 17و18).

فلما حارب بنو عمون اسرائيل انطلق شيوخ جلعاد ليأتوا بيفتاح من أرض طوب. وقالوا ليفتاح تعال وكن لنا قائداً فنحارب بني عمون. فقال يفتاح لشيوخ جلعاد ألم يكن أنكم أبغضتموني أنتم وطردتموني من بيت أبي فكيف أتيتموني الآن في شدتكم. (سفر القضاة 11: 5-7) ....

قال يفتاح ببطء: «ألم يكن أنكم أبغضتموني أنتم طردتموني من بيت أبي وتركتموني بلا منزل ومفلس؟ كيف تجرؤون على أن تأتوا الي اليوم وأنتم في محنة؟»

فتقدم شيخ ثانٍ الى الأمام من صف الشيوخ الذين كنوا يراقبون خطاب الشيخ الأول بشعور واضح من السخط.

«نعم، يايفتاح، نحن في بلاءٍ شديد- وكل اسرائيل في ورطة- وهذا هو سبب مجيئنا إليك الآن». وقال الشيخ الثاني بصراحةٍ وروية: «اننا نريد منك أن تعود الى جلعاد. وسنجعلك قائداً عاماً، وسوف تقود جيشنا الى المعركة ضد العمونيين. واذا تغلبت عليهم في المعركة، فسوف لن نجعل منك قائداً عاماً فحسب، بل رئيساً على جلعاد أيضاً..»

وسكت العجوز بحيث لايضيع المعنى على يفتاح.

..«رئيساً على كل جلعاد» وكرر القول قائلاً: «وعلى كل انسان يعيش في جلعاد».

ورأت سيلا أن والدها لم يخطيء في فهم كلمات الرجل. والقيادة العامة كانت إغراء، إلا أنها غالباً ماسمعت أبوها يقول لرفاقه أن القادة الذين يكون حظهم سعيداً بحيث أنهم يربحون الحرب لايلبثوال أن يصبحوا منسيين في أيام السلم. ولكن الرئيس يحكم في أيام الحرب والسلم، وهو يفرض سلطته على المدنيين والعسكريين. وكان من ضمن المدنيين المرتعدين الجلعاديين أخوة يفتاح من أبيه.

«إذا أعدتموني الى البيت لكي أقود جيشكم في المعركة ضد العمونيين» قال يفتاح ببطء، كما لو أنه يريد أن يكون متأكداً من أنه مفهوماً: «واذا الرب اسلمهم لي، وثم- فقط ثم- سوف أصبح أنا رئيسكم.»

شبك الكهول أياديهم، وهزوا برؤوسهم، وانفرجت أساريرهم. وقام الرجل الذي أحرزت كلماته ارتياحاً عند يفتاح وأمسك بيده اليمنى وقال بوقار: «ان الرب سيكون شاهداً على الكلمات التي قلناها بعضنا الى البعض الآخر. وبالتأكيد فاننا سنفعل بالضبط ماقلت أنت.»

..............فقال شيوخ جلعاد ليفتاح لهذا جئناك نحن الآن حتى تسير معنا وتحارب بني عمون وتكون رئيساً علينا وعلى جميع سكان جلعاد (سفر القضاة 10: 8)

.... فقال يفتاح لشيوخ جلعاد إذا أرجعتموني لمحاربة بني عمون فدفعهم الرب الي أكون رئيساً عليكم (سفر القضاة 11: 9)

وهكذا أخذ والد سيلا يستعد للذهاب الى الحرب ثانية. وفي الصباح وضع الدرع والحراب فوق حمار، وامتطىيفتاح حيواناً آخر لكي يسير الى جانب شيوخ جلعاد باتجاه المخيم المقام بالقرب من المصفاة. وعانق ابنته مرة ثانية وطوقها بذراعيه لفترة أطول من المرات السابقة، وهمس مرة ثانية الكلمات التي قالها لسيلا عدداً كبيراً من المرات طوال الليل: «اذا عدت، فأنا سأعود كرئيس، وستعيشين حياتك كما يليق بابنة الرئيس.»

وانتهى الأمر بأن الحشود الخائفة من الجلعاديين الذين خيموا خارج المصفاة عقدوا صفقة أفضل مع يفتاح من التي عرضها الشيوخ قبل يوم. فالأغنى من جمهور المدينة، والذين هم الآن لاجئون من بيوتهم واملاكهم في جلعاد، لم ينتظروا حتى يلتقي يفتاح بجيوش عمون ويقهرها، قبل أن ينادوا به

قائداً عاماً ورئيساً. ولم يجادل الشيوخ في هذا الأمر. وكان يفتاح الرجل الوحيد الذي كان راغباً وقادراً على قلب الميليشيا الى جيش، ومن ثم، بعون الله، يقود الجيش الى الانتصار على الغزاة. وليس غير رؤية يفتاح-القوي والواثق من نفسه الذي لايعرف الاستسلام ويعيد الى الناس ثقتهم بنداء المعركة- يعمق الثقة بالميليشيا، وبالمدنيين المترددين الذين كان يفترض بهم أن يدافعوا وأن ينتقموا.

وجلس يفتاح على الفور في خيمة كبيرة تتناسب مع رتبته الجديدة. والسؤال عن من يحوز على أملاك والده في جلعاد تركه الى يوم آخر. وانطلقت عصبته بتنفيذ مهمة تدريب ضباط الصف والجنود في جيش اسرائيل. وامتلأت الصفوف في كل يوم بمتطوعين جدد. هنأ الشيوخ أنفسهم على اتخاذ قرار تعيين يفتاح كقائد عام: فهو قد نهض بالمهمة بكل ماتتطلبه من عزم وايمان، مع أنه كان نغلاً ومرتزقاً، وان جنود اسرائيل يقفون في مواجهة الجيش المحترف لملك عمون.

.... فمضى يفتاح مع شيوخ جلعاد فأقامه الشعب عليه رئيساً وقائداً. فتكلم يفتاح بكل كلامه أمام الرب في المصفاة.(سفر القضاة11:11)

..........وأنفذ يفتاح رسلاً الى ملك عمون قائلاً مالي ومالك إنك جئتني للحرب في أرضي. فقال ملك عمون لرسل يفتاح لأن اسرائيل حين صعدوا من مصر أخذوا أرضي من أرنون الى اليبوق والاردن فردوها الآن بسلام. (سفر القضاة 11: 12و13) فعاد يفتاح أيضاً وأنفذ رسلاً الى ملك عمون وقال له. هكذا يقول يفتاح إن اسرائيل لم يأخذوا أرض مؤاب ولا أرض بني عمون (سفر القضاة 11: 14و15)

ومع مرور الوقت لاحظ الشيوخ أن يفتاح نفسه لم يبد أنه في عجلة من أمره وفي زج قواته ضد العمونيين. وبدلاً من ذلك، فان الرئيس المعين مؤخراً استدعى الكتبة الى خيمته وأمضى ساعات طويلة في املاء رسالة ديبلوماسية أرسلها بواسطة رسول تحت علم الهدنة عبر خطوط العدو الى ملك عمون نفسه. «ما الذي تريد أن تفعله معي، فأنت الذي أتيت الي لكي تقاتل ضد شعبي؟» كتب

يفتاح الى ملك عمون منتقلاً من موقف شيخ القبيلة الى موقف الملك، ومن المدافع عن اسرائيل الى مدافع عن الشرف الشخصي.

ولدهشة الشيوخ فان الملك الجبار والغازي تنازل فرد على يفتاح قائلاً: «لأن اسرائيل حين صعدوا من مصر أخذوا أرضي. فردوا تلم المدن بسلام!»

ويبدو أن يفتاح يفضل استخدام الكلام على استخدام السلاح- وكلام كثير آخر من هذا القبيل- لكي يصد به الغزاة العمونيين. وتم هدر حبر وورق كثير في كتابة رسائله الطويلة، التي عادت الى الطريق الطويلة طريق الخروج من مصر، وكررت أسماء وأفعال الملوك الذين ماتوا منذ زمن طويل، وحتى انها ناشدت سلطة الإله الوثني للعمونيين أكثر من مناشدتها للعلي القدير.

....

أليس أن مايملكك إياه إلهك إياه تملك وجميع الذين طردهم الرب إلهنا من أمامنا إياهم نملك..إني لم أسيء إليك وإنما أنت تناصبني الشر بمحاربتك لي فيقض اليوم الرب الديان بين بني اسرائيل وبني عمون. فلم يسمع ملك بني عمون لكلام يفتاح الذي أرسل اليه (سفر القضاة 27: 24-28)

....

فقد اقترح يفتاح: «ألن تكون مسروراً لامتلاك الأراضي التي اعطاها لك كموش إلهك؟ وأن نمتلك نحن الأراضي التي اعطاها لنا الرب إلهنا؟»

وبدت كلمات يفتاح الى ملك عمون بالنسبة الى الشيوخ انها لينة أو انها التماس أكثر منها تهديد، ولم يتضايق ملك العدو من الرد عليه. وكل انسان - وليس الشيوخ أقل من ملك عمون-انتظروا أن يروا إن كان يفتاح سيمتشق السلاح ويذهب الى الحرب.

وعندما ألقت الشمس أشعتها فوق خيام الاسرائيليين في اليوم التالي، أيقظ يفتاح بنفسه ويصورة خشنة الجندي الذي وقف في الليل حارساً. ولم يطل الزمن على ارتداء يفتاح ملابس الزعيم حين ارتدى بدلاً من ذلك درع المعركة الجلدي المهترىء، وعلق على جانبه السيف ذا النصلين، وحمل حربته الطويلة في يده اليمنى. وانكمش الخفير قليلاً،متوقعاً ضربة، أو على الأقل، توبيخاً لنومه أثناء المناوبة، إلا أن يفتاح لم يقم بغير القاء نظرة حادة وقال: «خذ مكانك في

الصف لأننا سنسير اليوم».

وحتى قبل أن تستدعي الطبول والأبواق باقي الجنود لحقل التدريب، بدأت كلمة بالطنين في طول المخيم وعرضه: «كان يفتاح مستعداً للقتال!» فاجتمع الشيوخ في جلعاد بسرعةٍ فوق مركز يشرف على حقل التدريب، مسرورين برؤية الجنود يسيرون بنشاط ويصطفون مشكلين كتائب طويلة ترتفع فوق رؤوسهم الحراب. وكان بالامكان رؤية يفتاح وهو ينتقل من صف الى صفٍ ويتشاور مع ضباطه، وينادي بالاسم هذا الرجل أو ذاك. وعندما التحق في النهاية الشيوخ، لم يروا صرامة جديدة في موقع الفك منه، بل رؤوا أيضاً ضوءاً لايخطيء يشع من عينيه. وفجأة، بدا يفتاح خاوٍ من الكلمات، إلا ان تصميماً متقداً عبر عن نفسه من دون كلمات. حيا الشيوخ، وأعطى الاشارة الى الضباط للبدء في التحرك. وتقدم بسرعة لكي يقودهم الى المعركة ضد جيش ملك عمون.

.... وكان روح الرب على يفتاح فعبر جلعاد ومنسى وجاز الى مصفاة جلعاد ومن مصفاة جلعاد عبر الى بني عمون (سفر القضاة11: 29)

وقال أحد الشيوخ : «حسنٌ، أنا مرتاح لرؤية أن يفتاح لم يعد مسروراً بالجلوس في خيمته ويكتب الرسائل الى العدو. وأنا أتساءل عمن وضع ارادة القتال فيه في النهاية».

وأجاب أحد الأخرين: «إن روح الرب فوق يفتاح بكل تأكيد».

ومشى يفتاح على رأس الجيش، وسارت عصبته الموثوقة من المصفاة، خلفة بخطوةٍ أو خطوتين، وكانوا منشغلين بالثرثرة. وتمتم أحدهم قائلاً: «كان بامكاننا أن نمضي اسبوعاً آخر في التدريب.»

وقال آخر: «وألف أخرى من الرجال تحت السلاح. وكما هو الحال، فان عديدهم يفوق عددنا بصورة سيئة- وأن نرسل الى الميدان فلاحين في مواجهة قوات مسلحة متمرسة.»

وقال الأول: «ستكون معجزة إن عاش عشرهم الى مابعد المعركة، ومعجزة أكبر اذا ربحنا».

ونظر يفتاح الى الوراء من فوق كتفه وهو يتابع السير بانتظام وأسكت

كلماتهم بنظرة واحدة. والجنديان القديمان اللذان اعتادا على المزاح مع يفتاح وهما في طريقهما الى القتال، صدما بالضوء البارد في عينيه وبتعابير وجهه الصارمة غير المألوفة.

.... ونذر يفتاح نذراً الى الرب وقال إن دفعت بني عمون الى يدي، فكل خارج يخرج من باب بيتي للقائي حين إيابي سليماً من عند بني عمون يكون للرب أصعده محرقة (سفر القضاة 11: 30و31)

وقال يفتاح: «اذا احتاج الأمر الى معجزة، فان الله سوف يقدم لنا معجزة».

ولو آنه قال ماقال في يوم آخر، لكانا ضحكا بصوت عالٍ على كلمات يفتاح المنافقة، إلا آن شيئاً في نغمة صوته جعلتهما لايجرؤان على الضحك في ذلك اليوم.

«وإذا سلمت بني عمون لي» واصل يفتاح الكلام بصوت منخفض لم يوجهه الى أي كان في مجال الرؤية، وهو يلتفت ببصره صوب السماء «أقسم، بأنني حين أعود منتصراً من أرض المعركة، فان كل خارج يخرج من باب بيتي للقائي يكون للرب، وأنا سأقدمه على المذبح كتقدمة للمحرقة.»

وتبادل الجنديان القديمان اللذان سارا وراء يفتاح النظر بصورة سريعة ولم يقولا شيئاً.

وانهمكت سيلا بالمهمات خلال أسابيع وأشهر حملة يفتاح الطويلة، ولكن لم يشغلها شيء عن كلمة تصل عن مآثر والدها عن طريق الفتيات اللواتي صحبنها في رحلاتها الاسبوعية الى الريف. وعندما كن يسرن في شوارع مصفاة المليئة بالغبار، حيا سيلا المعارف والغرباء بجراة جلية، ولكن أيضاً باحترام حقيقي- فهي، في آخر المطاف، إبنة الرجل الذي وضعوا بين يديه الموثوقتين مصيركل اسرائيل، إبنة المقاتل الذي ارتفع صرح انتصاراته مع كل معركة جديدة.

.... وجاز يفتاح الى بني عمون ليحاربهم فسلمهم الرب الى يده.فضربهم من عروعيرالى حد منيت عشرين مدينة والى آبل الكروم ضربة عظيمة جداً فذل بنو عمون أمام بني اسرائيل(القضاة32:11و33).........

وأكد جمهور المدينة لبعضهم بعضاً أن «يفتاح يقاتل كالمأخوذ». وسمعت سيلا هذه العبارة كثيراً جداً عندما كان والدها وجيشه يشتبكون مع العمونيين

وفي طول اسرائيل وعرضها. واستخدم الكلام بشأن كل الانتصارات في اقامة احتفال في المكان الذي اجتمعت فيه الصبايا في رحلاتهن،أي حيث يقع الشق السري في الهضبة التي وجدت سيلا فيها النبع وشجرة البلوط الممتدة. وبالفعل فان سيلا وصديقاتها أخبرت كل منهن الأخرى أن انتصارات يفتاح ودخوله المعارك الواحدة تلو الأخرى تشكل أغانيهن ورقصاتهن.

خاض يفتاح عشرين معركة، أو أن الاشاعات قالت ذلك، وانتشرت هذه الاشاعات في المصفاة انتشار النار في الهشيم، وحررت عشرين مدينة من احتلال ملك عمون. وكان كلما طرد العمونيين من مدينة حزمت مجموعة أخرى من اللاجئين أمتعتها وخرجت من المصفاة. وبعد فترة وجيزة تضاءل حجم المخيم خارج المصفاة، ثم اختفى بفضل نجاحات يفتاح على ملك عمون في ميدان القتال. وكانت المصفاة نفسها تشبه الماء الراكد قبل أن يدعى يفتاح الى الخدمة.

ومن ثم، في ذا ت يوم، فان مجموعة من الفتيات ظهرت على باب يفتاح وكن في نوبة من الصريخ والقهقهة، ورقصن حتى باب البيت وضربن على دفوف مزينة بأوشحة بغية دعوة سيلا للخروج.

«جاءنا خبر يقول أن أباك في طريق عودته الى المصفاة». قالت احدى الفتيات،ومن ثم اجتمعن ليعانقنها، وبعضهن يضحكن، والبعض الآخر يبكين وقلن: «أن أباك سيعود منتصراً هذه الليلة!»

أمضت سيلا بعدظهر ذلك اليوم الطويل وهي تقوم ببعض الأعمال المنزلية المعتادة، إلا أنها لم تنجز شيئاً بصورة تامة. بدأت بكنس الأرض، ثم فكرت بأن تجمع الأجزاء لرغيف حلو المزاق، وعندما ركعت الى جانب المنضدة خطر في بالها أن ترتب الفناء، ثم عادت الى البيت لكي تشد المقشة- ولم يعد والدها الى البيت.

أما باقي الفتيات فقد تسكعن في البيت، وكانت الشمس تميل نحو الغروب، وتوسلن وطلبن أن تسمح لهن بالبقاء معها لكي يشتركن بالترحيب بيفتاح وفق التقاليد السائدة-تصطف الصبايا ويلوحن بمناديلهن ويقرعن الدفوف. هذا ماينبغي أن يستقبل به البطل حين يعود من الحرب! وأكدت رفيقات سيلا أن

الانتصار يعود إليهن، على الأقل جزئياً، لأنهن كن جديات ومخلصات في إقامة الصلوات من أجل يفتاح وكن يرسلنها بطرق خيالية اثناء قيامهن بالرحلات الى شجرة البلوط العتيقة.ولكن سيلا رفضت أن تشارك لحظة المجد هذه مع أقرب صديقاتها إليها، وشعرت أن والدها يريد، على وجه الدقة ذلك. وكان ابوها يقول دائما: «لحم من لحمي، ودم من دمي. نحن الاثنان في مواجهة العالم». وهكذا فان سيلا أسكتت صديقاتها، ودفعتهن الى خارج المنزل وإلى أسفل الطريق قبل أن يفسدن اللقاء الجليل مابين يفتاح وسيلا، البطل الفاتح وابنته المحبوبة، مع وحيدته الوحيدة. وأخذت من صديقاتها زوج من الدفوف، كل منها مزين بأشرطة طويلة ذات ألوان متنوعة. ولكن سيلا ستكون الوحيدة التي ترقص خارج المنزل مرحبة بيفتاح في لحظة انتصاره العظيم.

وكانت الشمس قد غربت تقريباً، واتخذت السماء شكل ظلال نار ملتهبة وزئبق، عندما سمعت سيلا صوت وقع خطوات حصان عند البوابة. فزحفت الى النافذة، ونظرت الى الخارج، ورأت والدها يترجل ببطء وتعب. وكان في استطاعتها حتى في الضوء الخافت أن ترى أنه يتحرك بمشية منهك. ومع ذلك رأت ماتصورته هالة من الذهب تضيء مايحيط برأسه، وبدا أطول وأنحف مما كان عليه وقت رحيله قبل أسابيع عديدة.

فأمسكت سيلا دفاً في كل يد، وصرخت فرحة، واندفعت فاتحة باب البيت بوركها وانزلقت الى الفناء. ثم وقفت، وانتصبت، ورفعت أحد الدفين عالياً فوق رأسها وأمسكت بالآخر على بعد ذراع من ساقها. وببطء، وبمهارة، ولكن بتوتر ينم عن عاطفتها، انطلقت تعزف لحناً تجاوب معه الدف، وانشدت بصوت عالٍ متموج، ورقصت ببطءٍ وبمهابةٍ في باحة المنزل وهي تسير باتجاه البوابة حيث كان يقف أبوها.

.... وعاد يفتاح الى المصفاة الى بيته فإذا ابنته خارجة للقائه بالدفوف والرقص وهي وحيدة له لم يكن له ابن أو أبنة سواها (سفر القضاة 11: 34)

فلما رآها مزق ثيابه وقال أوه يابنية قد صرعتني صرعاً وصرت من جملة من أشقاني لأني أبرزت نذري للرب ولا سبيل الى نكثه (سفر القضاة 11: 36)

....

ورقصت سيلا الرقصة نفسها التي رقصتها هي والفتيات الأخريات مرات كثيرة في الساحة حول شجرة البلوط، ولكنها شعرت الآن وكأنها تطير فوق الأرض. وأخيراً، وعندما وصلت المكان الذي كان يقف فيه أبوها الثمين، انحنت حتى قاربت الأرض، وهي تحرك الدفين طوال الوقت، ورفعت نظرها لكي تراه في لحظة انتصاره.

شهقت، فقد كان يفتاح يحدق بها بتعابير صامتة من الحزن والرعب. وقال بصوتٍ أجش: «يابنيتي» ومن ثم دس بنفسه في غبار الطريق. وأخذ يضرب على صدره بقبضته، ويشد بالأخرى صدريته الجلدية وكأنه يريد أن يمزق ثيابه من فوق ومن تحت ويقول: «ياوحيدتي الوحيدة!»

وهرعت سيلا لتقف الى جانبه ثم رمت نفسها على الأرض وصرخت قائلةً: «ما الخطأ الذي ارتكب ياأبي!»

وأجاب وهو يتنفس بصعوبةٍ أثناء الشهيق والزفير: «للأسف، يابنيتي أنتِ صرعتني صرعاً».

وشعرت سيلا فجأة بأنها لم تعد تستطيع أن تتنفس. وظنت أن والدها علم بطريقة من الطرق عن ذهابها الى تحت شجرة البلوط واجتماعها مع صديقاتها كل سبعة أيام هناك. فهل كان أحدهم يتجسس على سيلا وعلى صديقاتها وكتب تقريراً وأرسله الى الشيوخ؟ وهل وقع والدها صريعاً بما فعلته ابنته في ذلك الشق السري في التلال؟

فتوسلت سيلا قائلةً، وهي تنحب وتتعلق برقبة أبيها: «ما الذي يزعجك، قل لي ياأبي».

فانسحب يفتاح بعيداً عن سيلا وفك أسلحته عن كتفيه وكأنه يريد أن يرتاح.

فقال يفتاح موضحاً: «لقد فتحت فمي وليس باستطاعتي أن أرجع عما قلت».

فقالت وهي تنتحب: «أنا لم أفهم» وشعرت بالخوف من الكلمات التي قالها والدها وللذي قيلت له.

فنظر يفتاح الى ابنته الحبيبة، وحيدته الوحيدة، ووجد أن ليس لديه كلام يقوله.

ويقي أهل المصفاة يتكلمون، بعد فترة طويلة عن موت سيلا بيد والدها. ووصفوا المذبح البسيط الذي أقامه في فناء المنزل، وكيف رافق الفتاة المذعنة غير المتشكية من البيت، وكيف طرحها- بلطف فائق- على الحجر الخشن للمذبح، وكيف ذبحها بسرعة وبرفق بطعنةٍ واثقةٍ من خنجره، وهي نفس الطعنة التي استخدمها في المعركة العديد من المرات قبل أن يذبح عدواً مجروحاً، إلا أنه لايزال خطيراً. وقد سمحت ثقتها بالعلي القدير وإخلاصها لاسرائيل أن ترى ضرورة وقدسية موتها.

.... «فقالت له ياأبتِ إن كنت قد أبرزت نذرك للرب فاصنع بي بحسب ماخرج من فيك بعدما انتقم لك الرب من أعدائك بني عمون.» (سفر القضاة 11: 36)

«ثم قالت لأبيها ليصنع معي هذا الأمر أمهلني شهرين فأنطلق واتردد في الجبال وأبكي بتولتي أنا وأترابي. فقال اذهبي وفسح لها شهرين فانطلقت هي وأترابها وبكت بتولتها على الجبال. وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت الى أبيها فأتم بها النذر الذي نذره وهي لم تعرف رجلاً.» (سفر القضاة 11: 37-39)

«فقالت له يأبتي أنت فتحت فيك ونذرت للرب، لذا فاصنع بي ماأقسمت على فعله». وقيل أن سيلا أكدت لوالدها بصوتٍ واضحٍ وثابتٍ في الدقائق الأخيرة قبل الموت «لأن الرب انتقم لك من أعدائك، حسبما طلبت، وسلم بني عمون الى يديك».

وبالطبع، لم ير أي من الرفاق الورعين بام عينيه التضحية بسيلا، ولاسمع الرفاق الذين قاتلوا الى جانب يفتاح في المعركة والنساء اللواتي رقصن مع سيلا حول شجرة البلوط العتيقة، كلماتها الأخيرة لأبيها. والجمهور الصغير سيء الحظ الذي شهد موتها لم يتكلم أي منهم عن الأمر لأي شخص، باستثنائهم هم، جندي لجندي وفتاة لفتاة. غير أن أهل المدينة وجدوا أن من المريح لهم أن يقولوا أن سيلا لم تبك، لم تدافع عن حياتها، لم تكافح ضد نصل الخنجر في يد أبيها، ولم تتأوه عندما سفح دمها على حجارة المذبح وأن اللهب حوّل قلب جسدها الجميل اليافع الى لحم مفحم. وكانت كلمات سيلا الى يفتاح، على الأقل، وفق القصة التي انتقلت من جيل الى جيل،من بني اسرائيل: «إصنع بي

ما أقسمت على أن تصنعه.»

وتقول إشاعة هامسة أن سيلا توسلت الى أبيها مكرمة واحدة قبل أن ينفذ نذره الى الرب: «دع شيئاً واحداً يفعل من أجلي، وفقط شيء واحد.» وقيل أنها طلبت أن: «تتركني وحدي لمدة شهرين بحيث أغادر البيت وأذهب الى الجبال أندب بتولتي، أنا وصديقاتي.» فقال يفتاح الصادق: «إذهبي».

.... «فصار رسماً بين بني اسرائيل. أنها في كل حولٍ تمضي بنات اسرائيل وينحن على ابنة يفتاح الجلعادي أربعة أيام في السنة.» (سفر القضاة 11: 39و40)

وأصر مروجو الاشاعات أن سيلا لم تهرب وتختبيء من أبيها، حسب ما يمكن أن يتوقع المرء. ولكن قبل أن تعود لتضع رقبتها فوق المذبح، ذهبت سيلا والصبايا اللواتي كن رفيقاتها الى بعض الأماكن المخبأة، وعبدوا آلهة غريبة بطرق غريبة- ويقول البعض، أنهن عندما تفجعن على عذرية سيلا، فعلن ذلك باسلوب يستحق الحرق حتى اذا كان يفتاح لم يقسم قسمه المعروف في مساء يوم المعركة مع العمونيين.

وعندما مر شهران، عادت سيلا الى الظهور على باب بيت أبيها في المصفاة. ومن ثم انتهت حياتها كلها وفق قسم يفتاح الجليل للعلي القدير. وعملياً، فان الرجال والنساء الذين عرفوا سيلا باسمها رافقوها الى القبر، وأصبح اسمها نسياً منسياً. إلا أن قسم والدها غير العادي، والطريقة التي وفى به بالعهد، لازالت تذكر بين بني اسرائيل. وعملياً ، أصبح تقليداً مابين فتيات اسرائيل أن يذهبن الى الجبال كل سنة ويمضين أربعة أيام في تذكر ابنة يفتاح، وتذكر حياتها ويندبن موتها بالاسلوب الذي يليق بابنة رئيس القوم.

الفصل الحادي عشر
إلهة اسرائيل

عبادة ابنة يفتاح المحرمة

صمت الله

«هذا الاسم المجيد المرعب»

سقطات في النص

«هل يمكن لكلب أن يكون قرباناً لي؟»

النساء اللواتي بكين بتولتهن

أبناء العهر

إلهة اسرائيل

تاج من الورد

يجد المرء في سفر القضاة أغرب تشكيلة في التوراة كلها من المتشردين، والخارجين على القانون، والساقطين : خادعون وعاهرات وسفاحون ومرتزقة، ومغتصبون، ومعذبون. ومع ذلك نجد أيضاً أبطالاً وبطلات، وشهداء، ومخلصين، ومن ضمنهم فتاة ضالة سجلت حياتها الغريبة، وموتها الغريب أيضاً- في بضع سطور مضللة من النص. وطلبت التوراة منا أن نعتبر ابنة يفتاح بمثابة ضحية غير مقصودة، إلا أنها تضحية طوعية من أجل الانسانية. ولكن بامكاننا أن نتساءل إن كانت ابنة يفتاح وصديقاتها قد فعلن شيئاً صادماً جداً لكتاب التوراة الى الحد الذي ألبسوا موتها رداء التضحية، مع أنهم لم يجرؤوا على ذكر اسمها أبداً.

وسفر القضاة هو تاريخ عصر مشوش جاء بعد غزو كنعان من قبل الاسرائيليين. وكان هذا الزمن زمن الأزمة وانتشار الفوضى «وفي تلك الأيام لم يكن لبني اسرائيل ملك وكان كل انسان منهم يفعل ما حسن في عينيه» (سفر القضاة 21: 25) «إلا أن الفوضى أفسحت المجال أمام عدد من الرجال والنساء من منبت متواضع وفي ظل ظروف عصيبة.»(1) - حسب ما كتب أحد الأدباء- وهكذا وجد جندي مرتزق ومطرود السبيل للمطالبة باسترداد وراثته من أبيه، وأن يرشح نفسه لمنصب الامتياز والسلطة. أو هكذا كان الرجل يظن.

ان يفتاح الابن النغل لرجل ثري- أو على الأقل، انه عومل كنغل من قبل اخوته من أبيه. وتقول التوراة لنا بصراحة أن أمه كانت عاهرة عامة، أي زانية. في حين أن بعض المعلقين يطلبون من أن نعتبرها زوجة مطلقة من والد يفتاح (2) ويصفها الحاخاميون بشيء من اللباقة بأنها «أمراة من قبيلة أخرى»(3) واذا كانت عاهرة أو لم تكن عاهرة فقد كانت «زوجة أبيه الأخرى» (4) ورأى

أخوته من أبيه أن ذلك يشكل سبباً كافياً لرفض مطالبة يفتاح بحصة من وراثة أبيه. ولا تسوغ الشريعة في التوراة (وفي غيرها من الشرائع في الشرق الأدنى) حرمان يفتاح من الوراثة: فالابن مستحق الوراثة من أبيه إن كانت أمه زوجة، أو محظية، أو مومس (5) وبالنسبة الى يفتاح، اذن، فان الرفض المرير من قبل اخوته-واقرار فعلتهم من قبل شيوخ جلعاد- ليس ظلماً وحسب، او خرقاً فظاً للشريعة وحسب، بل كان أيضاً «فعلاً من أفعال العدوان» (6)

وهكذا فان يفتاح، مغضباً ومبعداً، أعاد اكتشاف نفسه كنوع من بندقية مأجورة في العهد التوراتي. وكانت قاعدة عملياته كمرتزق تقع في مدينة نائية على الحدود مابين اسرائيل وعمون. وتبين قراءة التوراة أن كلاً من الأب والابنة كانا يرتبطان ببعضهما بوشائج قوية، وأن كلاً منهما كان وحيداً-اذ لايقال لنا اي شيء عن المرأة التي ولدت الابنة الوحيدة ليفتاح. ويتعلق يفتاح بطفلته الوحيدة-مثل كثير من البالغين الذين ينشأون في بيوت كسيرة-أكثر من تعلقه بأي كان. ومع ذلك يعرضها لخطر داهم حين يمنح فرصة تحرير نفسه في المعركة. ويلاحظ أحد الأدباء «أن شيئاً هائلاً كان يدفعه باتجاه المأساة». وبسبب ذلك لم نكن مندهشين حين نطق بالقسم(النذر) الذي سوف ينزع منه، في النهاية، ابنته الغالية.

ولم تقل التوراة لنا اسم ابنة يفتاح- وهي حقيقة تضطلع بأهمية خاصة في كتاب يعتبر مؤلفوه أن الأسماء والتسميات بمثابة شيء مقدس. ويطلق عليها أحد القصصيين القدامى اسم «سيلا» وهو الاسم الذي أخترته في اعادة قص قصتها هنا. غير أن التهكم اللاذع- واللغز المحير- يتمثلان في أن المصير المأسوي ليفتاح ولابنته- لايذكر الا بصورة خفيفة، ويتم نسيان اسمها الحقيقي كلياً. ومع ذلك، فان التوراة- كما سنرى- تحتفظ ببعض الألغاز الغامضة عن حقيقة فعل ابنة يفتاح وصديقاتها عندما كن يذهبن الى جبال كنعان القديمة لـ«ينحبن عذريت(ها)». ويوحي هذا الغموض بأنها ربما كانت فتاة لاتشبه بالمرة الشهيدة الطوعية التي صنعتها منها التوراة.

ذنوب الأب

ألقت التوراة اللوم، كما ألقى كثير من القراء الورعين في العصور التي تلت

كتابة التوراة، اللوم عن موت ابنة جلعاد على عاتق يفتاح وحده. واعتبروا أن نذره بالتضحية بأن «كل خارج يخرج من باب بيتي للقائي حين ايابي سالماً من عند بني عمون يكون للرب أصعده محرقةً» (سفر القضاة 11: 31) هو تهور، وقصر نظر، وحتى خيبة وغباء بكل معنى الكلمة- إلا أنه من حيث الجوهر، نزاهة واخلاص. فالرجل كان مأخوذاً بروح الله، وذاهلاً بمشهد المعركة الحاسمة القادمة شحن بالكظرين[1] أو بتوق معين للدم، لم يتريث لكي يستنبط السبل التي يمكن أن يذهب قسمه معها في الاتجاه الخاطيء. وبالتالي، كيف كان بإمكانه أن يتنبأ أن تكون ابنته أول من يرحب به لدى عودته من المعركة؟ وحاول المدافعون عن الدين القويم جهدهم أن يجدوا تفسيراً مقنعاً. وكانت احدى حججهم البارعة التي تثبت براءة يفتاح، إن لم تكن قدرته على الاستنتاج المجرد، فقد كانت تتصل بالمنزل النموذجي في عهد التوراة المبني حول باحة تربى فيها الدواجن والمواشي (8) وتقول هذه الحجة أن يفتاح لم يكن أبلهاً تماماً عندما ظن أن دجاجة شاردة أو عنزة متطفلة ستكون أول من تواجهه لدى عودته منتصرا الى البيت.

غير أن من الممكن فهم قسم يفتاح وفق سبلٍ مريكةٍ أكثر. فالتوراة تقول لنا بصراحة تامةٍ أن العشائر في اسرائيل تقوم بتمجيد المنتصر في المعركة- حسب تقاليدها- «مع الدفوف والرقص». وهذه العبارة هي نفس العبارة التي ظهرت في قصة يفتاح. وقادت مريم مثل هذا الاحتفال اثر اندحار جيش فرعون عند البحر الأحمر (سفر الخروج16: 30)

واستقبل الملك شاؤل وفق الطريقة نفسها عندما عاد من المعركة مع الفلسطينيين، اثر نزال بالسيف وقذف بالحجارة بين داود وجوليات اذ «خرجت النساء من جميع مدن اسرائيل وهن يغنين ويرقصن بدفوف وفرح ومثلثات في استقبال شاول الملك» (سفر الملوك الأول(صاموئيل) 18: 6) وربما كان يفتاح يتوقع، وحتى يأمل بمثل هذا الاستقبال، بوصفه محارباً قديماً ومقاتلاً لايشق له غبار، عاش وحيداً مع ابنته الحبيبة.

وهذا هو السبب الذي جعل أكثر من ناقد معاصر للتوراة يصر على أن يفتاح

---

1 الكظرين هرمون تفرزه الغدة الكظرية ويستعمل الآن عقار بالاسم نفسه منبهاً للقلب ويحتوى على الكظرين.

كان يعرف بالضبط ماالذي كان يفعله عندما حلف اليمين، وهو يفكر بمثال مريم. ولنفترض أن يفتاح توقع بصورة صحيحة تماماً أن ترحب به ابنته التي هي أكثر قابلية للاستهلاك في المجتمع الأبوي (الباطرياركي) من الرجل (9) ولعل يفتاح الذي قايض قبل فترة وجيزة خدماته العسكرية بمنصب رفيع، كان راغباً في تقديم ابنته، كسبيل من السبل، في استمالة العلي القدير، بغية منحه النصر في المعركة التي تقرر إما أن يعيش معززاً مكرماً في جلعاد، أو يموت مجللاً بالعار في المصفاة. ووصف أديب كلمات يفتاح عشية يوم المعركة بأنها «رشوة من تحت المنضدة»، وأن القسم لم يكن تهوراً، بل كان دهاءً ومكراً(10) لذا، فانه، حين ظهر أنه يلوم ابنته لأنها وقعت ضحية قسمه- «أوه، يابنية قد صرعتني صرعاً، وصرت من جملة من أشقاني لأني أبرزت نذري للرب ولاسبيل الى نكثه» (سفر القضاة 11: 35) كان بمثابة مرتكب لذنب، ربما كان يحاول، دون جدوى، أن يريح نفسه بإزاحة بعض جوانب ذنبه عن كاهله ووضعه على كاهل الطفلة البريئة تماماً.

ومع ذلك، فاننا، حتى لو كنا راغبين في لوم يفتاح على حلفانه اليمين القاتل، ان كان متهوراً أو ماكراً، فان سؤالاً حرجاً يبقى ماثلاً أمامنا: لماذا سمح الله ليفتاح أن ينفذ نذره؟ وماذا كان الله يفعل في الوقت الذي كانت فيه ابنة يفتاح ورفيقاتها يبكين بتولتها أثناء فترة الانتظار المعروفة التي منحها لها أبوها قبل التنفيذ؟ أين كان الله حين شدت الى المذبح وحرقت كتقدمة الى الرب؟

صمت الله

يصر مصدر واحد على الأقل، على أن الله أصيب بالهلع لدى مشاهدته تضحية يفتاح بابنته «نهض وذبحها قبل أن يقوم المقدس بمباركته» حسب ماذهب شعر حاخامي في القول عن قصة يفتاح، مصوراً الله وهو يغمغم الكلمات التي وجدت في كتابات النبي ارميا (ارميا 19: 5) «وبنوا مشارف البعل ليحرقوا بنيهم بالنار محرقات للبعل مما لم آمر به ولم أتكلم عنه ولم يخطر ببالي» (11)

وبالنسبة الى بعض قراء التوراة، فان قسم يفتاح، من ثم، هو «فعل من أفعال عدم الثقة، ومحاولة للتأثير على يهوه بأساليب غير قويمة»، وكان الله قد

نشر نعمته على يفتاح قبل قليل (12) غير أن الله لايستطيع أن يبريء نفسه تماما ويسهولة كبيرة مثلما فعل كاتب قسم يفتاح- وهو، على الأقل، شريك ليفتاح في صنع القسم وتنفيذه. وبعد كل ذلك، تقول لنا التوراة أن «روح الله» نزلت فوق يفتاح قبل أن ينطق بالقسم الذي سينتج عنه في النهاية موت ابنته. ويصر أديب توراتي اسمه ج.تشيريل أكزوم على «أن باستطاعة المرء أن يناقش بصورة معقولة ومقبولة ظاهريا بأن يفتاح أدى قسمه تحت تأثير يهوه» (13)

والواقع، تقول التوراة لنا، أن «روح الله» ليست دائماً عذبةً ورقيقةً. فشاول الذي اختاره الله لكي يكون أول ملك لاسرائيل، قذف به الله الى هاوية اليأس، وحتى الى الجنون عندما سحب العلي القدير عطفه عنه بصورة مفاجئة، وأحل محله البلاء. وتقول لنا التوراة: «وفارق روح الرب شاول وأزعجه روح شرير من لدن الرب» (سفر الملوك الأول (صاموئيل1) 16: 14) وفي البداية فان الأصوات الناعمة للكنارة التي عزفها راع شاب اسمه داود كانت كافية لطرد الروح الشرير «وكان اذا اعترى شاول الروح من لدن الرب يأخذ داود الكنارة ويضرب بيده فيستريح شاول وينتعش وينصرف الروح الشرير عنه» (سفر الملوك الأول(صاموئيل1) 16: 23) ومن سخرية القدر أن داود هو الذي اختاره الله ليحل محل شاول على العرش- ولكن روح الشرير من لدن الله لاتلين. «وكان في الغد أن اعترى شاول الروح الشرير من لدن الله، فأخذ يتنبأ في داخل بيته وكان داود يضرب بيده كما كان يفعل كل يوم. وكان في يد شاول رمح، فأشرع الرمح وقال أخرق داود مع الحائط فتنحى داود من بين يديه مرتين» (سفر الملوك الأول (صاموئيل 1) 18: 10و11)

وهكذا فاننا نعيد بحثنا انطلاقاً من ان «روح الله» التي سكنت يفتاح كانت شيء أسود ومشوه. وعلى العموم، فان روح الله، حتى لو لم تكن تلعب اي دور على الاطلاق في أداء يفتاح للقسم، فان العلي القدير، لم يفعل شيئاً لكي يمنع يفتاح من تنفيذ نذره- بل بقي الله بعيداً بصورة جلية.

وتكشف التوراة أن العلي القدير يعبر أحياناً عن رغبته، بشكل غير واضح، وغير مباشر، إلا أنها ملزمة. وعندما واجه شاول جيوش الفلسطينيين، على سبيل المثال، كان بحاجة ماسة الى نصح وضمان من العلي القدير-وكانت الاشارة

على عدم اهتمام الله الصمت «فسأل شاول الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولابالكهنة[1] ولا بالأنبياء» (سفر الملوك الأول(صاموئيل1) 28: 6) لذا ايضا، هل سقط الله، بصورة غير مشخصة،صامتاً في مواجهة قسم يفتاح واثناء التحضيرات الطويلة للتضحية بابنته، وكل مايلزم الرب من وقت لكي يفكر بتخفيف أو عدم تخفيف حكم الاعدام؟ ويلاحظ أحد نقاد التوراة «أن مصدر المأساة في قصة يفتاح ليس العداء المقدس، بل الصمت المقدس» (14)

ويتمثل أحد المعاني القويمة لصمت الله في قصة يفتاح وابنته بأن العلي القدير استنكر قسم يفتاح وعاقبه بالسماح له بأن تموت ابنته على المذبح. ويقصد من هذا التوضيح تبرئة الله من أي لوم على موتها، إلا أنه لايقدم شيئاً هاماً لابنة يفتاح. ويقدم الكاتب الاسرائيلي عموس اوز الترجمة الأقل تزمتاً، ولكنها الأكثر صدقاً الى حد ما، عن صمت الله. ويتخيل عموس اوز يفتاح متوسلاً دون جدوى، من أجل الحصول على اشارة بأن الله يريده ان يتجاوز قسمه وينقذ ابنته. وجعل يفتاح يتوسل من العلي القدير في قصة اوز القصيرة «فوق هذه الأرض الشريرة» قائلاً: «امنحني اشارة، لأنك بالتأكيد تجرب خادمك» (15) وكان الله قد تجاوب على الفور مع أعداد لاتحصى من مثل هذه الالتماسات والمطالب من شعبه منذ أن صادق ابراهيم للمرة الاولى. وعلى سبيل المثال، دعا العلي القدير، قبل بضع صفحات في سفر القضاة، اسرائيلياً اسمه جدعون لخوض معركة من أجل الشعب المختار. وقال ملاك الرب الى جدعون الذي كان يجلس تحت شجرة بطم : «إن الرب معك أيها الجبار». إلا أن جدعون المعاند أصر على الحصول على اشارة تقول بأن الله هو الذي يدعوه للخدمة. فقام ملاك الرب بعرض يبهر الأبصار، فهو قد «أخرج ناراً من الصخر». ولكن

---

(1) Urim «الكهنة» التي تعني في سفر الملوك الأول «كهنة» عرفت في (سفر الخروج 3: 28) بالنور وThummim تعني الحق في سفر الخروج، وكلاهما موضوعان غامضان بصورة كبيرة جداً عن وصف غير معروف، استخدمتا الى حد ما من قبل الكهان الاسرائيليين القدماء الكبار للاتصال بالله. والتوراة لم تكشف الـ«urim» ولا الـ«Thummim» أوكيف تستخدمان، مع أن الأدباء يظنون انهما كتبتا مع كلمات مقدسة واستخدمتا من أجل العرافة أو الكهانة بواسطة السحب بالقرعة (الخروج 28: 15-20) و(الأحبار 8: 8)«ووضع عليه الصدرة وجعل فيها النور الحق».

جدعون لم يقتنع قبل ان يظهر الله بنفسه «فقال له الرب سلامٌ لك لاتخف، فانك لاتموت» (سفر القضاة 6: 11و20و23).

ولكن عندما وصل الأمر الى حد اداء وحفظ قسم يفتاح، سقط الله صامتاً كلياً وبصورة مشؤومة. وبذلك حكم على ابنة يفتاح بالموت. وكشفت قصة يفتاح أن الصمت هو أحد السبل الغامضة التي عبر من خلالها الله عن افكاره لكي تنفذ. وتساءلت أديبة توراتية اسمها سينيثيا باكر مازحةً: «ان كان الله راغباً بها لنفسه؟» (16) وكأني بالكاتبة تفترض بأن كل المشروع القذر لم يكن غير مكيدة يشبع بها العلي القدير شهيته الخاصة لاستشهاد ابنة يفتاح. أو هل كان الله يمتحن يفتاح، مثلما قام ، فيما بعد، بامتحان أيوب. وذلك عن طريق تقديم النصر له في المعركة، ومن ثم ينتظر ليرى إن كان الأب عازماً بالفعل على ذبح طفلته الوحيدة على الرغم من الكلمات المنسوبة الى العلي القدير من جانب انبيائه؟

هذا الاسم المجيد والرهيب

ثمة الماحة في قلب قصة يفتاح وابنته الى انه يجب أن يفعل بالضبط ما أقسم على فعله. وكاتب التوراة لم يطرد فكرة أن يفتاح قد يتراجع عن كلامه أو ان ابنة يفتاح ترفض أن تتجاوب معهم. فبيّن يفتاح «أنا أبرزت نذري للرب ولاسبيل الى نكثه» (سفر القضاة 11: 35) ولم تناقشه ابنته في هذا الأمر و«قالت له ياأبت قد أبرزت نذرك للرب فاصنع بي بحسب ماخرج من فيك» (سفر القضاة 11: 36) وهكذا يجري تذكيرنا بمادة من أكثر المواد غموضاً عن الايمان عند الاسرائيليين: فهم ينظرون الى الكلمات وحتى الى الحروف ليس باحترام وحسب، بل بخوف ورهبة.

وبالطبع فان الاسرائيليين مجبرون على الاعتماد على الكلمات وحدها في التعبير عن قوة العلي القدير، اضافة الى مجده. وتقول الوصية الثانية من الوصايا العشر: «لاتصنع لك منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من أسفل ولا مما في المياه تحت الأرض» (سفر الخروج20: 4) وهكذا، يعتبر الاسرائيليون، على سبيل المثال، الحروف الأربعة التي تهجي الاسم الصحيح لله يهوه- قوية جداً (ولذلك خطيرة جداً) بحيث لم يسمح لأحد

باستثناء الكاهن الأعلى بأن يقول «هذا الاسم المجيد والرهيب» (سفر تثنية الاشتراع 28: 58) وحتى بالنسبة له، فقد كان يسمح له بأن يقول بذلك فقط في اليوم الأكثر تقديساً في السنة، وهو يوم الغفران(يوم كيبور) وفقط في تخوم المعبد في اورشاليم. وكان محرماً على الكاهن الأعلى نفسه في القرن الثاني(ق.م.ب) نطق الاسم المقدس، وكان أي شخص يجرؤ على تحدي الشرع الصارم معرضاً لمصير لايوصف هنا (في هذا العالم) وفي «العالم الذي سيأتي»(17)

وتحفظ الكتابات الحاخامية في الواقع، القصة التحذيرية لنموذج حاخام آخر واسرته ممن استشهدوا على يد الرومان أثناء الاضطهاد في ظل حكم الامبراطور هارديان. فقد تم اعدام الحاخام حرقاً وذبحت زوجته ووضعت ابنته في ماخور، من قبل السلطات الرومانية التي ارادت أن تجعل من الحاخام مثالاً بسبب ولائه لاسرته على وجه التحديد-إلا أن الحكماء قدموا توضيحاً آخر مختلفا جداً. فالحاخام واجه مصيره لأنه تجرأ على لفظ الاسم المقدس، حسب ماأكدوا، مع أنه فعل ذلك «ليس من أجل اغراض دينية، أو غايات شخصية، بل بروح الاحترام، وفي سبيل دراسة وادراك سبل الله، وشاركته زوجته في هذا المصير، لأنها لم ترده عن ذلك»(18)

لذا أيضا، هل تعتبر التوراة كلمات من ينذر نذراً للعلي القدير مقدسة أيضاً؟ وقد سجل موسى في التوراة «أي رجل نذر نذراً للرب أو حلف حلفاً فألزم نفسه شيئاً فلا يخلف قوله بل يعمل بكل ماخرج من فيه» (سفرالعدد 30:3) «وأما ماخرج من شفتيك فاحفظه واعمل كما نذرت للرب الهك تطوعاً كما قلت بفيك» (سفر تثنية الاشتراع23: 22-24)[1] لأن الاسرائيليين القدامى، ومن ثم الله نفسه، اعتبر كلمة المرء بمثابة قيد له، وكان القسم يعتبر شيئاً «أكبر من مجرد الوعد، وهو بذلك يرتقي، نوعا ما، الى مستوى خلق الحقيقة حتى قبل تنفيذه بالممارسة العملية»(19) وتوقع الكاتب التوراتي من قراءه أن يدركوا

(1) طبقاً لما ورد في التوراة، فان القسم الذي تقسمه امرأة غير متزوجة والتي لاتزال تعيش في بيت أبيها ملزم فقط اذا شهد أبوها القسم ولم يمارس حقه في الاعتراض. ويؤدي الزوج الدور نفسه في حالة كون المرأة المتزوجة هي التي تقسم إلا أن «نذر الأرملة والمطلقة ما ألزمتا به نفسيهما ثابت عليهما» (سفر العدد 30: 3-10)

ويقبلوا حقيقة أن كلمات يفتاح المتهورة لايمكن تجاهلها أو نكرانها رغم ارتقائها الى مستوى اصدار حكم الموت من قبل أب إزاء طفلته.

وكأن قصة يفتاح في سفر القضاة تحاكي وتؤكد على الحياة والموت الناتجين عن قسم يفتاح، وتنتهي بملاحظة هزلية تذكرنا، مرة ثانية، بالقوة المهلكة لكلمة بسيطة قيلت بصوت عالٍ. وكما يقال لنا، فان قبيلة أفرائيم اشتكت الى يفتاح من أن رجالها تحت السلاح لم يدعوا الى الانضمام الى باقي الاسرائيليين في الحرب ضد العمونيين. والافرائميون هددوا بأنهم سوف يحرقون «عليك بيتك بالنار» (سفرالقضاة 12: 1) وحاول يفتاح، مرة ثانية، أن يشق طريقه بالكلام بدل القتال، وتحجج بأن دعوته الى السلاح قد تم تجاهلها من قبل الافرائيميين، وقال معترضا: «ودعوتكم، فلم تخلصوني من أيديهم» (سفر القضاة12: 2) إلا أن القبائل لجأت الى حرب أهلية دموية وهنا تصف التوراة استراتيجية غريبة استخدمها يفتاح لتعريف الافرائيميين عندما حاولوا أن يعبروا نهر الأردن عائدين الى أرض قبيلتهم.

فطبقا لسفر القضاة فان أي شخص يحاول أن يعبر نهر الأردن يوقفه العسكريون من جيش يفتاح لكي يقول الكلمة العبرية شيبوليت، التي حدث أنها تعني إما «السنبلة» أو «الطوفان» (20) والحمد للأفرائميين على التواء لهجتهم المحكية لأنهم لم يكونوا قادرين على لفظ الصوت «ش» في شيبوليت. ولذلك أجابوا عند توقيفهم بلفظ «سيبوليت». وبذلك كشفوا عن أنفسهم كافرائميين. وكل رجل لم يستطع أن يلفظ الكلمة لفظاً اسرائيلياً صحيحاً ألقي القبض عليه وذبح. وذكرت التوراة أن اثنين وأربعين ألفاً من الأفرائميين قتلوا على يد جنود يفتاح، بسبب كونهم أخطأوا في لفظ الكلمة.[1]

الفتحات

يطلب الحكماء منا أن نصدق أن ابنة يفتاح لم تكن مذعنة لمصيرها وحسب،

---

(1) ان التكتيك الذي استخدمه يفتاح، كما يظهر، كان ذكياً ولم يكن نادر الاستخدام. «فقد قيل لي في الحرب العالمية الثانية» حسب ماذكر الأديب التوراتي روبرت ج. بولينغ في تعليقه على سفر القضاة في سلسلة انكور التوراتية: «كان بامكان الهولندي السري أن يكشف الجواسيس الألمان بجعلهم يلفظون اسم المدينة الهولندية شيفينينجين Scheveningen التي يلفظها الهولنديون وحدهم بصورة صحيحة».

بل كانت متشوقة أيضاً لكي ترمي بنفسها فوق المذبح وتعرض رقبتها لنصل سكين أبيها. وطبقاً للكتابات الحاخامية، فانها كانت سعيدة بسنوح فرصة استبدال حياتها التي تعطيها من أجل انتصار اسرائيل في مواجهة الغزاة الوثنيين. وبالفعل فان قلقها الوحيد كان يتمركز على أنها لم تكن مقبولة كضحية مقدمة وأن قسم أبيها كان سيذهب أدراج الرياح. وما أن أكد الرب ان تضحيتها كانت كافية ووافية حتى التفتت لكي تمنح أبيها الراحة التامة!

وصورت انها تسأل والدها في حكاية من حكايا الحاخاميين: «لماذا أنت حزين على موتي، طالما أن الناس سلموا إليك؟ الا تتذكر ماحدث في عصر الآباء حين قدم جدنا ابنه كتقدمة للمحرقة. ولم يرفض الولد، بل اذعن وهو سعيد» (21)

والتقدمة الى المحرقة التي تشير اليها ابنة يفتاح، هي، بالطبع، التضحية باسحاق على يد أبيه ابراهيم. والواقع أن الكلمة العبرية المستخدمة من قبل الكاتب التوراتي في وصف ابنة يفتاح باعتبارها ابنته «الوحيدة» (أو «الحبيبة») هي ذات الكلمة التي استخدمها الله في وصف اسحاق عندما دعاه ابراهيم لكي يقدمه للتضحية (22) غير أن الإلماحة لابراهيم واسحاق لم تكن غير سخرية سوداء على شفتي ابنة يفتاح الهالكة: فقد جمد الله يدي ابراهيم في اللحظة الأخيرة وزوده بحمل لكي يضحي به بدلاً من ابنه. ولكن لم تظهر مثل هذه الآلية في قصة يفتاح وابنته. والأكثر من ذلك، كان لدى ابراهيم العديد من الزوجات وعدد كبير من الأطفال (انظر سفر التكوين 25: 1-5) ولكن زوجة يفتاح ماتت أو ذهبت وكانت ابنته طفلة وحيدة (23) وهكذا فان قصة يفتاح وابنته «على عكس رواية ابراهيم واسحاق» (24) تعد بمثابة صفقة مع الله جعلت من يفتاح رئيساً لاسرائيل، إلا أنها نزلت به الى مهاوي عزلة أكبر ويأس أعظم مما كان يشعر بهما، حتى في اليوم الذي طرد فيه الى خارج بيت ابيه.

وكان حكماء آخرون مرتبكون أكثر بارادة الله التي لاتفسر بأن يترك ابنة يفتاح تموت مستخفاً بشريعة التوراةوكان عليه أن ينقذها. وواضح بشكل كاف أن القسم كان مقدساً، ولكن كان بالامكان إبطال مفعول القسم اذا كان ينتهك حرمة احدى الوصايا العشر. وألح بعض الحاخاميين على أن كل هذا العمل المؤسف كان بالامكان، وكان ينبغي أن يؤخذ الى محكمة حاخامية، الى بيت

الدين، حيث يمكن للحاخاميين، لأن يملكوا سلطة «نقله الى خارج الوجود» (25) وبالفعل، فان الحاخاميين تصوروا نزاعاً روحياً إلا انه كان نزاعاً تربوياً قائما مابين يفتاح وابنته حول النقاط الحساسة في الشريعة التوراتية- وكان الحق الى جانبها.

وطبقاً لرواية رواها الحاخاميون، فان الابنة أشارت الى يفتاح بأن الضحية يجب ان يتم اختيارها من «قطيع أو من سرب» وليس من اسرة واحدة (انظر سفر الأحبار 1: 2) وناقشت بأنه كان بامكان يفتاح ان يقوم بالدفع نقداً ثمناً معادلاً لقيمة الضحية المضحى بها بدلاً من التضحية (انظر سفر الأحبار 27: 2-8) حيث كتب بالتفصيل عن المبلغ الذي يجب دفعه بحسب (العمر والجنس) واستشهدت بالأب (الباطريارك) يعقوب، الذي «أقسم قسماً» أن يعطي عشر أملاكه الى العلي القدير، ولكن قسمه لم يصل الى حد التضحية بأطفاله (انظر سفر الخروج 28: 22) واستحضرت حنه، ام النبي صاموئيل، التي «أقسمت قسماً» بأن تعطي ابنها الى الرب، إلا أنها قصدت بأنه سيكرس للخدمة فقط وليس للتضحية (سفر الملوك الأول(صاموئيل1: 11). «والحاخاميون الذي وضعوا كل هذه الحجج في فم ابنة فتاح كانوا على قناعة تامة أن قسم يفتاح لم يكن يحتاج أبداً لأن ينفذ».

ويرتئي حاخام قديم «أن النذر باطل بشكل سخيف ورجعي، لأن الكائن البشري ليس معنياً بالتضحية الشعائرية» (26)

وتخيل الحكماء أن ابنة يفتاح، وهي غير قادرة على اقناع أباها بإهمال نذره، توسلت اليه أن يؤجل التنفيذ ريثما تجلب دعوة الى المحكمة الحاخامية، حيث يمكن أن تجد حججها العلمية حضوراً متعاطفاً أكثر. وجعلوها تقول لأبيها المكابر: «ربما يجد أحد (القضاة) فتحة أو فرجة في كلماتك». فيقبل يفتاح وتقضي ابنته الشهرين الأخيرين من حياتها القصيرة وهي تنتقل من حاخام الى آخر، بدلاً من «انتحابها بتولتها مع صديقاتها» حسب ماتقول التوراة لنا. إلا أن الرواية الحاخامية تنتهي على وجه التحديد بنفس الطريقة الدموية التي انتهى بها النص التوراتي: اذ «لم يجدوا فتحة او فرجة» وذهبت ابنة يفتاح خانعة الى والدها كتقدمة للمحرقة» (27)

«هل أن كلبا سيضحى به من أجلي؟»

إن أكبر عيب مبين في نذر يفتاح،، هو بالطبع، احتمال أن كائنا بشريا يمكن أن يكون الأول الذي يستقبله، وبذلك ينتهي به الأمر على مذبح التضحية. وكما رأينا قبل قليل، أصر الأنبياء بثبات بأن الله لم يطلب أو حتى لم يسمح بالتضحية بالبشر من أي نوع كان(انظر الفصل التاسع) والأكثر من ذلك، أن كتاب شعائر التضحية الذي نجده في سفر الخروج «يتجاهل بغطرسة» التضحية بالانثى من أي نوع من الأنواع البشرية والحيوانية(28) ومع ذلك تكشف قصة يفتاح وابنته، التي ربما كانت أكثر صراحة من أي نص آخر في التوراة، أن كتاب التوراة لم يكونوا مندهشين او مصدومين بالاشارة الى أن الله يقر التضحية بالطفل على يدي والده.

وطبقاً لمصدر قديم، فان الله لم يكن مهتماً بصورة خاصة بأن ابنة يفتاح يمكن أن تكون أول من يخرج من بيته، وتستقبله لدى عودته من المعركة. وطبقاً لكاتب مجهول في القرن الأول من (م.ع) يعرف فقط باسم بسيدو-فيلو (الفيلسوف الزائف أو الكذاب) الذي كانت كتاباته التاريخية القديمة بمثابة نوع من «توراة أعيدت كتابتها»، اكتست بالقصص المألوفة لحماً وألبست ثياباً، فان الله أغضب بقسم (نذر) يفتاح من لحظة سماعه له- ولكن ليس بسبب أن يفتاح وضع حياة ابنته في ظل خطر خروجها بقوله الأحمق والمتهور. ولكن لأن الله أهين الى حد ما وظلم على وجه الدقة لأن مخلوقاً أقل قيمة بالتضحية من فتاة يمكن أن ينتهي على المذبح كتقدمة للحرق. وابنة يفتاح العذراء مقبولة تماماً لله كضحية- حسب فيلو الزائف- ولكن ماذا كان سيحدث لو سبقها شيء آخر الى الباب؟

وكا ن الله غاضب جداً وقال: «هذا يفتاح نذر بأنه سوف يقدم لي أول مايقابله في الطريق» واشتكى الله قائلاً: «واذا كان أول من يقابل يفتاح كلب، فهل كان يضحي بالكلب من أجلي؟» (29)

وبغية معاقبة يفتاح لأنه عرض الله لخطر المعاناة من دونية التقديم الكلبي، فقد رسم مصيرا مزعجا لابنة يفتاح غير الملومة، التي دعاها الفيلسوف الزائف سيلا: «والآن هل كان سينزل قسم يفتاح البلاء ببكره وذريته؟»(30) وللتأكد من

أن ارادته قد تحققت، فان الله حجب بالغيوم عقول القضاة الذي سمعوا دعوى سيلا الالزامية بطريقة أخرى، ولذا لم يتحرك اي منهم بدفاعها لانقاذ حياتها. واعترف الله على نحو فظ متبنيا نذر يفتاح وكأنه قسمه، وقال: «أغلقت أفواه حكماء شعبي في هذا الجيل، بحيث أن قسمي قد تحقق» (31) ولصرف انتباه القراء عن ماظهر أنه كان إهمالاً بدم بارد من الله إزاء سيلا نفسها، فقد وضع الفيلسوف الزائف بضع كلماتٍ طريةٍ في فم العلي القدير. فقال الله: «أنا أعرف أنها أعقل من أبيها، ومن كل الرجال الحكماء، والآن فان روحها ستقبل بناء على رغبتها، وسيكون موتها جليلاً جدا أمام وجهي في كل الأزمان» (32)

ويدخل الفيلسوف الزائف الى مشكلة تسمية ابنة يفتاح، متبعاً مثال التوراة في اختيار اسم يعكس مصيرها: فـ«سيلا» تعني «الانسانة التي طلبت» وكأنه يقصد أن الله نفسه طلب حياتها. ويبدو اسم أبيها أيضاً، تعليقاً على دوره الغريب (الغروتسكي) في موت طفلته: فهو اختصار للعبارة العبرية «يفتح الله (الرحم) (33) ويذكرنا ذلك بطلب الله بـ«بواكير» الاسرائيليين: «قَدس لي كل بكر» قال الله الى شعبه المختار بعد أن حررهم من العبودية في مصر. ان «كل مايفتح رحم من بني اسرائيل، من الناس والبهائم، انه لي» (سفر الخروج 13: 2) وبالنسبة الى سيلا فان التقديس يعني التضحية، ويجري تذكيرنا، مرة ثانية، في قصة يفتاح أن الله يفضل اللحم والدم على مذبح التضحية.

النساء اللواتي يندبن بتولتهن

ماذا كانت ابنة يفتاح تفعل مع رفيقاتها طوال الشهرين وهن طليقات في جبال كنعان؟ ولاتقول التوراة شيئاً أكثر مما قرأنا في سفر القضاة، من أن ابنة يفتاح «رجعت الى أبيها فأتم بها النذر الذي نذره وهي لم تعرف رجلاً. فصار رسما بين بني اسرائيل. أنها في كل حول تمضي بنات اسرائيل وينحن على ابنة يفتاح الجلعادي أربعة أيام في السنة» (سفر القضاة 11: 39و40) إلا انه لم يذكر مثل هذا الطقس في أي مكان آخر في التوراة (34) ومع ذلك، فان الكلمات الشحيحة والمنحرفة في النص التوراتي كانت كافية لأن تلهب الخيال. ويمكننا ان نكتشف في مكان ما تحت الرواية المصححة بصورة غيرتامة التي رواها الرهبان والشيوخ، شيئا غريبا مبهما ومعذبا. وهذا الشيء هو تعاليم متسربة هربت

بطريقة من الطرق من قلم المراقب.

وفكر ، على الأقل، مسؤول واحد وكان سريع الاهتياج، أن ابنة يفتاح ورفيقاتها كن مساعدات كاهن في قداس في «عبادة جنسية» وكانت «النساء الاسرائيليات يتبعن إلوهية (بعل افتراضاً) وذلك بقيامهن بأداء شعائر سلب البكارة» (35)واقترح آخر أن «الفتيات كن يتبعن فرقة قديمة وبدائية لروح الخصب الميتة أو الروح المجردة من الخصب أثناء فصل الشتاء الجاف» (36) ورأى نورثروب فراي وهو صاحب هيبة هامة بأن ابنة يفتاح نفسها أصبحت «مركز فرقة انثوية محلية، لاريب في أنها كانت تسير وفق الأصول.وان آلهات عذراوات، مثل أرتيميس، كن على الأغلب حاميات الأطفال» (34) ويرى عدد كبير من القراء والأدباء في التوراة في ابنة يفتاح ملامح أشخاص آخرين من الاسطورة الاغريقية، مثل، بيرسيفون التي اختطفها ملك العالم السفلي لكي تصبح زوجته، إلا أنه سمح لها بالعودة الى سطح الأرض لكي تزور أمها، الإلهة ديميتر، في فترات الفصول، أو مثل ايفيجينيا، وهي عذراء انتخبت لكي يضحى بها من أجل ديانا إلا أنها بقيت وكان بإمكانها أن تقضي حياتها في خدمة الآلهة. ويوافق الجميع على أن بعض الآثار الخفية لطقس محرم أو منسي حفظ في الرواية التوراتية لابنة يفتاح.

وفكر أحد النقاد المعاصرين «أن من المحتمل أن تكون هناك فرقة وثنية محلية مشابهة لفرقة الإلهة بيرسيفون نسيت أصولها، وقد أخترعت قصة يفتاح لتعبر عن وجود هذه الفرقة (بالاضافة الى تبرير هذا الوجود)» (38) ويضيف أديب آخر سيناريو أكثر غرابة قائلاً: بأن سفر القضاة ربما كان «أدب النخبة النسائية» في اسرائيل القديمة، وهو عبارة عن مجموعة من القصص التي «منحتهن الشجاعة لكي يعشن هامشياً، وفق طرائق تشبه طرائق الساحرات في انكلترا الجديدة» (39)

وتقدم التوراة، على الأقل، مفتاحاً واحداً للغموض بشأن ماكانت تفعله ابنة يفتاح وصديقاتها عندما كن يذهبن الى التلال «ليندبن بتولتهن» مع أن المعنى الحقيقي للنص التوراتي اختفى وحرفت ترجمته العامة بكلمة أساسية واحدة. فالكلمة-بتولوم **Betulum**- التي تترجم عادة بالانكليزية بكلمة

virginityاي بتولة أو عزوبة لاتشير الى حالة العذراء، بل تشير، الى حد ما، الى «مرحلةٍ من مراحل حياة الصبية عندما تكون مؤهلة لانجاب الأطفال»، وربما يشار اليها في بداية فترة البلوغ أو فترة الحيض، أو أول الطمث. وبكلمات أخرى، فان ابنة يفتاح تسخر من حقيقة أنها ستموت دون عناق في صلة جنسية مع رجل، اكثر من كونها تأسف بخصوص حقيقة أنها «ستنقطع عن شعبها قبل أن تصبح أماً في اسرائيل، وقبل أن تملك ذرية من أحفادها هي»(40)

ومن الممكن اعتبار الطقوس التي أدتها ابنة يفتاح وصديقاتها فوق هضبةٍ بعيدةٍ ليست شيئاً أكثر غرابةً من طقس رحلة واحتفال بالبلوغ الذي أبدت النساء في اسرائيل القديمة اهتماماً به بصورة عامةٍ. وفقط بسبب أن ابنة يفتاح أجبرت على الاحتفال ببلوغها هذا السن تحت تهديد الموت فقد تم وصف الطقس الذي بدا مشؤوماً في التوراة. وفقط بسبب ذهاب ابنة يفتاح الى موتها فقد أدت الطقس نفسه الذي أصبح، فيما بعد، طقساً سنوياً للذكرى. وهذا هو السبب في أن بعض نقاد التوراة يرفضون أي اقتراح بأن ابنة يفتاح كانت قديسة «الطائفة الجنسية» الوثنية، ويلحون علينا لكي نعتبر طقس وشعائر سيلا ورفيقاتها وكأنها شيء مفيد، وهو ، من حيث الجوهر، غير ديني. وقد وصفها ناقد توراتي معاصر بأنها «حركة معاكسة للتصميم والتصحيح تخدم في تخفيف مأساة الفتاة» (41)

إلا أن ثمة طريقة أخرى لفهم وتقييم الشعائر السرية لابنة يفتاح وصديقاتها في ملتجئهم في البرية. ولسنا بحاجة الى إلباسها لباس الاغراء كطائفة جنسية، ولكننا لسنا مطالبين أيضاً بنزع الزخارف الفنية التي تفرض نفسها حتى في الأسطر الاضافية في نص التوراة . ويمكننا النظر الى ابنة يفتاح، الى هذا الحد أوذاك، كواحدةٍ تتجاوب مع، وتشبع رغبة جنسية عميقة لايمكن نكرانها، مابين شعب اسرائيل القديمة، وبقيت غير منجزة من قبل الألوهية الذكورية.

أطفال العهر

ان الذي جعل عقيدة اسرائيل القديمة حسب ما صوِّرت في التوراة ثورية جداً- وفريدة جداً مابين أديان الشرق الأدنى القديم- هو التأكيد على أن يهوه

ليس الاله الأفضل بصورة مجردة، بل هو الاله الوحيد. وتقول الوصية الأولى من الوصايا العشر «لايكن لك آلهة أخرى تجاهي.ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنه أنا الرب إلهك إله غيور.» (سفر الخروج20: 3و5) ومع ان الوصية نفسها يمكن أن تفهم بأكثر من طريقة واحدة، كما سنرى، فان القراءة التقليدية للوصية الأولى تقول أن كل الألوهيات الأخرى-والشرق الأدنى القديم كان يعج بالآلهة والآلهات- التي لم تكن «مكروهة» وحسب، بل كانت ضلالاً مبيناً. والإله الواحد الذي يراد منا أن نؤمن به، هو الإله الواحد والوحيد. ومنافسو العلي القدير ليسوا آلهة بالمرة. و«ليسوا آلهة» هي الصيغة التي استخدمها ارميا في وصف رعايا عبادة الأوثان (ارمييا 2: 11و5: 7)

وبالطبع فان الآلهة والآلهات الغريبة يملؤون التوراة نفسها، ويسلم المؤلفون التوراتيون بسهولة بأن الاسرائيليين قد فتنوا بصورة مشؤومة بالآلهة الوثنية التي كانت تعبد من قبل الكنعانيين وباقي الوثنيين في كل أنحاء الشرق الأدنى القديم . والحقيقة، أن سفر القضاة هو دائرة اثم وندم طويلة تدعو الناس الى اليأس «ففعل بنو اسرئيل الشر في عيني الرب.» (سفر القضاة 2: 11) بسقوطهم الى مستوى عبادة الآلهة والآلهات الوثنية، فأغضب الله بانعدام الثقة بهم وسلمهم الى أعدائهم، ورق قلب الله من غضبه «ورفعهم نحو الأفضل». وتمتع الاسرائيليون بفترة قصيرة من السلام والحرية قبل أن يأخذوا بعبادة الآلهة الوثنية- ومن ثم بدأت، مرة ثانية، كل دائرة اللوعة والألم.

ويزودنا كفر الشعب المختار بعذر مقنع في تبيان لِمَ لم ينفذ الله وعده الذي غالباً ماكرره بالقول بأنه سوف يمنحهم السيادة في أرض كنعان. ويفترض أن ذلك هو غاية الله من الصفقة في العهد الذي عقده مع ابراهيم وجدده مع موسى. «لأنكم جائزين الاردن لتدخلوا وتملكوا الأرض التي أعطاكم الهكم» (سفر تثنية الاشتراع 11: 31) وحذر الاسرائيليون عملياً قبل وقت طويل من وصولهم الى كنعان، من أنهم سيجدون صفاً من الآلهة والآلهات المعذبة، وأمر الرب الاسرائيليين، بصورة صارمة، ان يلغوا كل علامات عبادة الأوثان في أرض الميعاد: «تقوضون جميع المواضع التي كان الأمم الذين أنتم وارثوهم يعبدون فيها ألهتهم على الجبال الشامخة والتلال وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون

مذابحـهم وتكسـرون أنصابـهم وتحرقـون غاباتـهم بالنـار وتحطمـون منقوشـات آلهتهم وتمحون اسماءهم من ذلك الموضع.» (سفر تثنية الاشتراع 12: 2و3)

إلا أن الحقيقـة المروعـة في التـاريخ التوراتـي تتمثـل في أن الاسـرائيليين لـم يطردوا كل الأمم الأصلية الساكنة في أرض كنعان، وهم لم يلغوا المزارات والمذابح حيث كان الكنعانيون يعبدون آلهتهم وإلاهاتهم. لذا فان كاتب سفر القضاة أجبر على توضيح عدم تنفيذ وعد الله- وهـو يشير الى ارتداد الاسـرائيليين كسبب، وكرسـت الفقـرات الاولـى مـن سـفر القضـاة لنـوع غريـب مـن أنـواع المراجعـة التاريخية، وهي عبارة عن لائحة بالمعارك تحدد هزائم جيوش اسرائيل التـي تعد أكثر مـن انتصاراتـه. «فامـا اليبوسـيون المقيمـون باورشـاليم فلـم يطردهـم بنـو بنيامين فأقام اليبوسيون مع بني بنيامين باورشاليم الى هذا اليوم.و افرائيم لم يطردوا الكنعانيين المقيمين بجازر فبقي الكنعانيون في مابينهم في جازر. وزبولون لم يطردوا سكان قطرون ونهلول فبقـي الكنعـانيون فيمـا بينـهم يـؤدون الجـزيـة.» وهكـذا (سـفر القضـاة1: 21و29و30) وينكـر الله امتـلاك الاسـرائيليين الكـامل لأرض الميعاد لأنهم، بالتحديد خضعوا الى إغراء العبادة الوثنيـة «وتركوا الـرب وعبدوا البعـل والعشـتاروت.» (سـفر القضـاة 2: 13) أي، الآلهـة والآلِـهات المبجلـة من قبل الكنعانيين. «إني لا أنقض عهدي معكم الى الأبد. وأنتم لاتعاهدوا أهل هذه الأرض واهدموا مذابحهم فلم تسمعوا لقولي فماذا فعلتم؟ فلذلك قلت أيضا إني لا أطردهم من وجوهكم بل يكونون على جنوبكم وتكون آلهتهم لكم وهقا.» (سفر القضاة 2: 1-3)

والتوراة نفسها، بعرضها الخادع لأماكن وممتلكات العبادة الوثنية، تسمح لنا بفهم إغراء الآلهة والآلهات القوي الذي سلط على الاسرائيليين. وكما تعترف التوراة ذاتها، فان الاسرائيليين التفتوا الى بعل، والى عشتاروت، عشيراه. وبعل هـو الـه العاصفـة والخصـب، وهـو أحـد الألوهيـات الرئيسـة في معـرض الآلهـة (بـانثيون) للكنعانيين وهو سليل الههم رفيع المستوى، إل. وعشتاروت هـي القسم العبري لعشتار، إلهة الحب عند الكنعانيين واحدى زوجات بعل، وعشيراه هي زوجة الإله رفيع المستوى إل، وبذلك تكون ام كل الآلهة الأقل مرتبة، بالرغم من أن الكتاب التوراتيين يقرنونها أحياناً ببعل، أيضاً. «ونسوا الرب وعبدوا البعليم

والعشتاروت.» (سفر القضاة 3: 7)

وطبقاً للتوراة فان مذابح ومزارات الآلهة والآلهات الوثنية كانت تقع فوق ذرى الهضاب والجبال، في «الأماكن العالية» التي تمثل أهمية كبيرة في القصص التوراتية بالنسبة الى المكان والكيفية التي كان يتعبد الاسرائيليون وجيرانهم وفقها. وكانت الشعائر تؤدى ظاهرياً تحت أغصان شجر البلوط المقدس وحول أعمدة حجرية انتصبت في الأرض، وهي ممارسةدوروديه (نسبة الى العبادات الانكليزية القديمة) خافتة لم تستأصل بصورة تامة من جانب الرهبان والأنبياء في اسرائيل القديمة. والإلاهة المعروفة باسم عشيراه كانت تصور وتقدس بشكل أشجار حية، أو أعمدة خشبية محفورة، وهي التي تدعى أشيرام (عشيرام) في الاستخدام التوراتي. وكان الألهة والآلهات الوثنية تصور في تماثيل كبيرة وصغيرة صنعت من معادن ثمينة بالاضافة الى الخشب، والغضار، والحجر، ومن ضمنها الـ (تيرافيمteraphim) او الأوثان داخل المنزل التي تصور في قصص الآباء- وهذه هي «الصور المنحوتة» التي شجبت بصورة خاصة في الوصايا العشر. ومع ذلك لازال الأركيولوجيون يعثرون عليها بأعداد كبيرة في الأراضي المقدسة.

وبالمناسبة، كان من المحتمل أن لاتكون عبادة الأوثان فجة وخشنة وتشبه ألعاب الأطفال تقريباً حسب ماذكرت التوراة والدراسات السابقة على التوراة. وطبقاً لتقليد ديني فقد كان القدماء أناس ساذجون ومضللون إعتبروا الأوثان بمثابة تجسيد لألهتهم، فاعتنوا بالتماثيل الصغيرة والكبيرة وكأنها حية ترزق، وقاموا أحيانابتغذيتها. والتوراة نفسها تعزو هذه الالماحات الى عبدة التماثيل، وتهزأ منهم. «وتعبدون هناك آلهة صنعة أيدي البشر من خشب وحجر». ويصف كتاب سفر تثنية الاشتراع هذه الألهة بأنها «لاتبصر ولاتسمع ولا تأكل ولا تشم.» (سفر تثنية الاشتراع4: 28)

ولكن طبقاً لأحدث الحقائق الأركيولوجية فان الوثنيين القدماء أدركوا أن التماثيل المصنوعة من قبل الأنسان عمل فني أكثر منها آلهة حية، واعتبروا الصنم كمصدر من مصادر الالهام وتحقيق الراحة من كونه معبوداPinocchio قد يعيش اذا صلوا بحماس قوي. وهكذا فان الصور المنحوتة عند القدماء ربما

كانت تشبه وظيفتها وظيفة الأيقونة او المواد الطقسية الأخرى التي يمكن العثور عليها في أماكن العبادة في أيامنا هذه (42)

واذا صدقنا شهادة الأنبياء كما هي مسجلة في التوراة، فان عبادة الآلهة والآلهات الوثنية كانت مناسبة لنشر الفسوق الجنسي، إن كان في شكل لهو باخوسي، أو في شكل زيارات حذرة للمومس المقدس، ذكراً كانت أم أنثى، من الذين يروجون بضاعتهم في معابد الآلهة والآلهات الوثنية (انظر الفصل السابع). ومع أن الأدباء المعاصرين يسألون إن كان الزنى المقدس عاماً دائماً حسب ما تصف التوراة، وان كان الأنبياء مسكونون بصورة جلية بتأثير متبادل مابين الجنس وعبادة الآلهة الوثنية. ونعثر على شيء أكبر من استعارة في كلمات ارميا: «فانك على كل أكمةٍ عاليةٍ وتحت كل شجرةٍ خضراء، تضجعتِ زانيةً.» (نبوءة ارميا 2: 20)

وكان حتى أعظم ملوك اسرائيل عرضة، كما يظهر، لاغراء عبادة الآلهات. والملك سليمان، الذي بنى المعبد الأول في اورشليم، تعتبره التوراة مقدساً وحكيماً، ويوصف ايضاً بجلاء تام بأنه مرتد. ويقال لنا في البدء: «ان الله أعطى سليمان الحكمة والفهم والقلب الكبير» (سفر الملوك الأول 5: 9؟) إلا أن الملك العجوز المصاب بمرض الحب أجتذب لعبادة تمثال من قبل بضع مئات من الزوجات الغريبات: وسليمان هذا «ابتعد بقلبه نحو آلهةٍ أخر» و«ذهب خلف عشتاروت» وأقام «مكاناً عالياً» حيث كان يؤدي شعائر وثنية واقسم الله: « أنا سآخذ الملك منك». ومع ذلك فان العلي القدير نقل العقوبة الى جيلٍ آخر بعيد عن القلق على داود الذي لم تتضمن ذنوبه الجسدية الكثيرة ذنوباً وثنية. (سفر الملوك الأول 11: 5-13)

وهكذا، فان المحررين الرهبان الذين جمعوا النصوص المقدسة وقدموها الى الكتاب الذي نعرفه باسم التوراة وباسم العهد القديم، أصروا على رسم خطوط فاصلة مابين عبادة يهوه، الذي قدم كمصدر للايمان وحيداً ومقبولاً في اسرائيل القديمة، وعبادة الآلهة والآلهات الوثنية، التي أُدينت بصورة روتينية في التوراة كـ«شيء بغيض». ومع أن التوراة تقول لنا أن الاسرائيليين انقلبوا مراراً وتكراراً الى عبادة الألوهيات المحرمة، فقد ألح الكتّاب التوراتيون على أن الاسرائيليين

ارتكبوا اثم الارتداد- ويعانون من العقاب الأليم- كما انخرطوا في المسرات المحرمة لعبادة الأوثان.

ان عبادة الآلهات الوثنية جعلت لكي تكون اثما بحيث تقلب الله ضد الشعب المختار مرة واحدة والى الأبد. ومع أن الله أبقى يده مرفوعة على سليمان، فان التوراة مفعمة بالغضب تجاه ملك يهودا المتوج منذ زمن بعيد واسمه ماناسيه الذي كان أول من تناول التاج وعمره اثنتى عشرة سنة وتقدم لكي يفعل «الذي كان شرا في عين الرب، بعد مقت الأمم». فأدان كاتب التوراة ماناسيه لتقديمه ابنه كضحية بشرية، وممارسته السحر والشعوذة في كشف البخت، والرجم بالغيب بواسطة الأشباح والأرواح. إلا أن أسوأ انتهاك حتى الآن هو ماقاموا به لكي يقام نصب صورة منحوتة للإلهة عشيراه في المعبد في اوشاليم. ومع أن ماناسيه نفسه قد لعن لسفكه «الدم البريء» فان جريمته الوثنية جلبت عقابا الهيا للمذنب وللبريء معا وأقسم الله: «انظروا، انني سوف أجلب مثل هذا الشر الى اورشاليم ويهوذا. بحيث أن كل من يسمع بها، تطن اذناه.» (سفر الملوك الثاني 21: 12و16؟)

ولازال الخط بين التقوى والارتداد، أي الحدود مابين عبادة إله ابراهيم واسحاق ويعقوب، وعبادة آلهة وآلهات الكنعانيين- لايمكن رسمه بوضوح ودقة كبيرين. ويبدو أن التوراة نفسها تبين أن عقيدة اسرائيل القديمة تظهر انها مدينة بالكثير للمعتقدات الوثنية ولممارسات جيرانها. وفي الحقيقة، فان بعض اللحظات الأكثر تقديسا في حيوات الآباء والأمهات حملت تشابها غريبا وقويا من الممارسات التي شجبت بحمية من قبل الكتاب التوراتيين. وعلى سبيل المثال، اختار الله شجرة- لاتختلف عن الشجرات التي كانت تعتبر مثيلاتها مقدسة عند الأديان الوثنية-كمكان كان سيظهر فيه لابراهيم، أولا عند شكيم (سفر التكوين 12: 6) ومن ثم عند شجرات البطم في مامر (سفر التكوين 18: 1). وسرقت راشيل التماثيل الصغيرة من أبيها عندما عادت مع اختها ليه، وزوجهما يعقوب، الى كنعان[1] ومثل هذه «الأشياء البغيضة» لم تكن ممنوعة كليا في

---

1 تقول التوراة لنا أن راشيل خبأت الترافيمteraphim(التماثيل الصغيرة التي كان يعبدها الساميون القدماء) في سرج جمل ثم منعت أباها عن البحث في السرج بالقعود فوقه والقول له

اسرائيل حتى في عهد الملك المصلح أشعيا (سفر الملوك الثاني 23: 24) وعندما تعارك يعقوب(وهزم) ملاك الرب- أو ربما الله نفسه- وأحيا ذكرى انتصاره بأخذ حجر كان قد استخدمه كوسادة، فنصبه في الأرض، ودهنه بالزيت. «وهذا الحجر الذي جعلته نصباً يكون وجميع ماترزقينه فإني أعشره لك تعشيراً.» (سفر التكوين 28: 22) وحسب اعتقاد بعض الأدباء فان كلاً من تامار، واغواء يهوذا لكنته، وراحاب، المومس الطيبة القلب التي الجأت الجاسوسين الاسرائليين، ربما كانتا قديستا طوائف الخصب الكنعانية اللتين برهن اغوائهن على أنه لايقاوم من جانب الرجال الاسرائيليين (43) (انظر الفصل السابع)

والى أن اكتشف سفر تثنية الاشتراع المتأخر والغامض الى حد ما أثناء حكم الملك أشعيا في عام 622 قبل المشاعية العامة- كانت عبادة يهوه قد حددت بمعبد اورشاليم من قبل الملك أشعيا في إذعان عجول لشرائع تثنية الاشتراع التي اكتشفت حديثاً (سفر الملوك الثاني 21: 3؟)وقبلها شعر الاسرائيليون بحرية تقديم التضحيات في عدد من المذابح والملاجيء «الشرعية» التي نصبت في طول بلاد يهوذا والسامرة وعرضها. وكانت القداسة هنا مرتبطة-حسب ما كتب الأديب التوراتي المبجل مارتن نورث- بالموقع نفسه وبالمظاهر الطبيعية، كشجرة مقدسة، أو نبع مقدس، أو ماشابه. وأشار الكاتب المذكور الى أن «شكل صخرة طبيعية» قد يستخدم ك«مذبح للتقديم أو تقدمات للحرق» (44)

لذا، فعلى الرغم من جهود القديسين الذين كانوا مراقبين وحراساً، فان التوراة تركت بصمات الألوهيات التي من الممكن أن تكون سابقة أو معايشة ليهوه. وتشير التوراة الى الله بالوهيم، وهي صيغة جمع من الكلمة العبرية «اله»، و يستخدم العلي القدير صيغة الجمع عندما يعلن خلق النوع البشري في التكوين: «لنصنع الانسان على صورتنا، كمثالنا» (سفر التكوين 1: 26) وتعتقد مؤسسة التوراة أن هذه تشكل مخالفات قواعدية أكثر منها مخالفات دينية، حسب اصرار افراييم سبيسر(45) ولكننا تركنا لنفكر ونتأمل إن كان الاسرائيليون القدماء اعتبروا يهوه إلهاً وحيداً بصورة مجردة بين الكثيرين، الى

أنها كانت تحيض «فقالت لأبيها لايشق على سيدي اني لا أستطيع ان أقوم امامك إذ قد عرض لي سبيل النساء. ففتش فلم يجد الأصنام.»(سفر التكوين 31: 35)

أن نظف القساوسة المنقحون النصوص المقدسة وأقاموا الدين المتزمت الذي نجده في التوراة.

ومن المؤكد أن الاسرائيليين تلمسوا علاقة مابين الإله (ايل el الذي يدعى يهوه والإله الأسمى الذي يدعوه الكنعانيون ايل El – وربما، رأى الاسرائيليون، في لحظة تاريخية قديمة جدا في تاريخهم، الإلهين وكأنهما إله واحد ونفس الإله. وابراهيم، على سبيل المثال، واجه ملك كنعاني وقسيس كبير باركه بالاسم نفسه ايليون Elyon «لإله الأسمى، صانع السماء والأرض»-ويبدا أن ابراهيم يماثل ويعانق الألوهية وكأنها ألوهيته (سفر التكوين 14: 19) وفيما بعد، يفصح الله لموسى عن أن اسمه الشخصي هو يهوه بالفعل، ويبين العلي القدير: «أنا الذي تجليت لابراهيم واسحق ويعقوب (ايل شاداي) الهاً قادراً على كل شيء وأما اسمي يهوه فلم أعلنه لهم». وتترجم ايل شاداي بإله قادر او بالعلي القدير. إلا أن بامكا ن الانسان أن يعود الى الاله كلي القدرة في كنعان أيضاً (سفر الخروج6: 3).

وتتبعت مدرسة حديثة في التوراة تأثير حضارات وثنية معينة كانت تحيط باسرائيل القديمة. ويعكس سفر التكوين اسطورة الخلق المسجلة في نص لوادي الرافدين (ميسوبوتاميا) يدعى إنوما إليش. وهي قصة تشبه قصة نوح والفلك المروية في القصيدة السومرية-البابلية القديمة، ملحمة جلجاميش. ووجدت فقرات معينة في سفر الأمثال-«لاتأكل خبز شرير العين ولاتشتهي أطايبيه» (سفر الأمثال 23: 6) وتشكل هذه الفقرة نسخة طبق الأصل تقريباً عن النصوص المصرية القديمة (46) وحتى اللعنات والمباركات الشهيرة الموجودة في سفر تثنية الاشتراع كانت إضافة متأخرة نسبياً الى الشريعة التوراتية، تشبه عبارات تشريعية مكررة يمكن ايجادها في العقود والمعاهدات في كل أنحاء العالم القديم. والالماحة بأن عقيدة اسرائيل القديمة هي شيء جديد كلياً وفريد، تكذبها الحقائق الدامغة في التوراة، ذلك أن الكثير من القوانين والشعائر والمعتقدات، استعيرت من ثقافات وحضارات أخرى.

وبعض الفقرات في التوراة هي ببساطة، غريبة جداً ومختلفة جدا عن كونية باقي الكتاب المقدس، الى الحد الذي تقدم نفسها فيه كأنسال رجعية غريبة من

بعض القصائد الأقدم بكثير والتي أخمدت العقيدة التي وجدت قبل وقت طويل في اسرائيل القديمة، قبل أن يكتب الكتاب التوراتيون التوراة. وليلة الهجوم على موسى في سفر الخروج هي احد الأمثلة، والظهور المفاجيء «لأبناء الله» في التكوين هو مثال آخر: «ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولدت لهم بنات، رأى بنو الله بنات الناس إنهن حسنات فاتخذوا لهم نساءً من جميع من اختاروا .. وبعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً اولئك هم الجبابرة المذكورون من الدهر.» (سفر التكوين6: 1-3و4). وكافح علماء التوراة من العقائد المتنوعة في شرح الحقيقة غير المستقرة بأن التوراة تستحضر عصابة صاخبة من أنصاف الآلهة الذين يتبناهم العلي القدير نفسه، ويواصلون العمل لانشاء عرقٍ من العمالقة على الأرض، أي مايدعون Nephigim ولكن، حتى مؤولي التوراة الأكثر حذراً أجبروا على التسليم بأن العبارة العبرية التي ترجمت بـ«أبناء الله» بالامكان أيضاً ان تترجم بـ«أبناء الآلهة» وتظهر بأنها تشير الى ألوهيات أخرى أو آلهة محلية (47) وهذه القراءة لايمكن مضاهاتها بقصيدة التوحيد الأساسية في التوراة العبرية: « فاسمع يااسرائيل، إن الرب إلهنا ربٌ واحد».

والحقيقة، ان سفر القضاة نفسه يتضمن أكثر من اشارة مضللة واحدةٍ الى المنافسة مابين الله والالوهيات الوثنية للكنعانيين، منافسة غالباً مايعبر عنها بتعابير المغامرة الجنسية. فعندما يوبخ الله الاسرائيليين بسبب ارتدادهم، يبين هو نفسه أنه كان «مريضاً ومنهكاً» من جحود اسرائيل. وهذه بالضبط من نفس النغمة التي يمكن أن يستخدمها أي رجل أو امرأة في مخاطبة قرينه غير الموثوق به حين يعود الى بيته أحياناً اثر علاقة غرامية رومانسية (خيالية) غير شرعية. «إذهبوا فاستغيثوا بالآلهة التي اخترتموها وهي فلتخلصكم في أوان شدتكم.» (سفر القضاة10: 14) قال الله الغاضب والمتألم الى شعبه المختار في قصة يفتاح. ونفس الاحساس بالخيانة الجنسية غالباً ما استخدم من قبل الكتاب التوراتيين بتشخيص العلاقة مابين الله واسرائيل. ومع مرور الوقت الذي نصل فيه الى الأسفار النبوية في التوراة، تصبح التخيلات الجنسية جلية أكثر. ويوبخ الله الاسرائيليين، مشبهاً اياهم بالأطفال غير الشرعيين من زوجةٍ غير

موثوقة، هي أمة اسرائيل: «حاكموا أمكم حاكموا فإنها ليست امرأتي ولا أنا رجلها» (نبوءة هوشع 2: 4) ويشغل النبي حزقيال نفسه في نوبة تأنيب من ضمنها خيانة زوجية، وعبادة تماثيل. فيخاطب اورشاليم: «لذلك ايتها الزانية اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب إني لكونك انفقت نحاسكِ وكشفت سوءتكِ في فواحشك على محبيكِ وعلى جميع أصنام أرجاسكِ ولأجل دماء بنيكِ الذين بذلتهم لها، هاأنذا أجمع جميع محبيكِ الذين لذذت لهم وجميع الذين أحببتهم مع جميع الذين أبغضتهم، أجمعهم عليكِ من كل ناحية وأكشف سوءتكِ لهم فيرون سوءتكِ كلها.» (نبوءة حزقيال 16: 35-37)

ويستحسن كتاب التوراة التخيلات الواخزة لزوج ديوث في نقل الاحساس بالخيانة التي يشعر الله بها تجاه شعبه المختار- إلا أن شيئاً آخر يستمر هنا، شيء صادم وكاشف حين يطرد الله الاسرائيليين ويعيدهم الى الآلهة والآلهات الوثنية، اذ ربما، تكون، في الحقيقة، قادرة على أن تفعل بعض الخير للشعب المختار. ويفتاح أيضاً، يدعم بصورة ضمنية، ليس فقط وجود ألوهيات منافسة، بل يدعم أيضا سلطتهم حين يناشد إلهاً وثنيا اسمه كموش أثناء مفاوضاته مع ملك عمون: «أليس أن مايملكك إياه كموش إلهك إياه تملك؟» (سفر القضاة11: 24)

وتتجلى الحكمة التقليدية في أن الاشارات الى الآلهة المنافسة في التوراة مرغوب بها من قبل الله والكتاب التوراتيين لكي تكون مجرد سخرية أو مناصرة أو كلاهما- ان الله الوحيد يعنف الاسرائيليين في مساعيهم للحصول على عطف الآلهة الوهيمة التي يعرفها العلي القدير بالقول أنها بلا حول ولا قوة، لأنها، بالحقيقة، لم توجد أبداً. وكان يفتاح يتملق فقط الاله المعبود من قبل العمونيين المضللين في مسعى منه لاحلال السلام من خلال الدبلوماسية. إلا أن آلهة وآلهات كثيرة عرضت في العديد من الأماكن في التوراة -ووجد الاسرائيليون أنها فاتنة جداً ومغرية جداً- الى الحد الذي يدفعنا الى الاعتقاد بأن الاسرائيليين لم يعتبروا يهوه بصورة دائمة أنه الاله الواحد والوحيد.

وحين تصل قصة يفتاح الى ذروتها المأسوية، وحين تشتعل ابنته فوق مذبح العلي القدير، يمكن أن تصور انها تعاقب على فعل قيامها بشيء يرفض كتاب

التوراة الورعين، بمنتهى البساطة، التكلم عنه بصوت عالٍ.

آلهة اسرائيل

يتمثل مظهر آخر من المظاهر الغريبة في التوراة العبرية بغياب نظير انثوي لله، وهو اله من المفترض أن يكون أعلى وأبعد من الجنس إلا أنه وصف دائماً بكلمات لاتحتمل الخطأ توحي بذكوريته. وكما يشير أحد الأدباء فان إله اليهودية هو دون ريب رمز أبوي، وصورة أبوية، من المحتمل أنها أعظم رمز وتصور يتخيلهما انسان (48)

وعمليا يتصور كل شعب من الشعوب الأخرى في الشرق الأدنى القديم- وفي الحقيقة، في كل أنحاء العالم- أن الآلهة جاءت أزواجاً، مذكرة ومؤنثة، مثل الكائنات البشرية تماماً، وتصف كتاباتهم المقدسة المغازلات، والزيجات، وحمل الأطفال، وتربيتهم، والتنوعات الخيالية في التواصل الجنسي بين الوهياتهم. وقيل للاسرائيليين وحدهم أن الههم هو عازب، ووحيد بحاجةٍ الى أب و أم ، وأخوة وأخوات، وصديقات أو عاشقات. والرفيقة المؤنثة للعلي القدير-كامرأة مقدسة تظهر بأشكال مختلفةٍ في كل انحاء العالم، وتبقى من حيث الأساس هي نفسها في كل مكان (49)- ان هذه المرأة المقدسة لاتجدها في أي مكان في التوراة، أو على الأقل، لاتجدها بصورة واضحةٍ.

ومع أن التوراة تبدو بأنها لاتفسح مجالاً لها، فان بالامكان ايجاد رفيقة سماوية للعلي القدير في كتابات الحاخاميين القدامى، وفي الكتب السرية للعلماء في القرون الوسطى ممن درسوا التاريخ الغامض الذي يدعى كابالاه (القبلانية)[1]. والفولكلور الغني للناس اليهود. وجاء شكل بشري عرف باسم شيكيناه أو شيخيناه أو تشيتشيناه[2] لكي يجسد ويرمز الى نوعية الإلاهة المؤنثة- العاشقة ، والمبتهجة، والأمومية، والحزينة، أي المظهر العاطفي للألوهية (50) ومع حلول القرن الثالث عشر، عندما كانت القبلانية في أوج ازدهارها، فان الشيكيناه- وتدعى أحياناً الماترونيت Matronit، والسيدة، أو الملكة «ظهرت كإلهة

---

(1) القبلانية فلسفة سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً.

(2) وهي كلمة عبرية لاهوتية تعني الوجود الالهي على الأرض أو رمز أو بيان وجوده.

مؤنثة متميزة، تمتلك ارادة ورغبة خاصتين بها، وتتصرف باستقلال عن الاله المذكر التقليدي الذي انكمش الى حد ما، وهي غالباً ماواجهته وعارضته، ولعبت دورا أكبر من دوره في شؤون ابنائها، شعب اسرئيل» (51)

هل ظهرت الشيكيناه فجأة وبصورة عفوية في الفولكلور اليهودي وفي الأدب الحاخامي بعد فترةٍ طويلةٍ من اغلاق كتاب التوراة؟ أو هل يمكن لرفيقة العلي القدير أن تعتبر بقية من بقايا جذور تاريخية قديمة انقطعت عن عبادة إلهة ووصلت الى الطرق العائدة الى الشرق الأدنى القديم؟ إن أديباً واحداً، على الأقل، ممن هاجموا المعتقدات التقليدية، وهو عالم انساني (انثروبولوجي) اسمه رفائيل باتاي، قال أن الاسرائيليين خبروا جوع الآلهة نفسها الذي نجده عند الشعوب وفي الثقافات في كل أنحاء العالم وفي كل عهد. وأصر باتاي ايضاً، على أن عبادة الألوهية المؤنثة من قبل الاسرائيليين لم تكن فعل ارتداد بل كانت، الى حد ما، «جزء لايتجزأ من دين العبرانيين» (52)

ورائدات نقد التوراة من النساء في حركة مؤسسة التوراة أنعشن، وحتى أنهن ثورن دراسة التوراة في السنوات العشرين الأخيرة أو نحوها- قلن أن بالامكان الكشف عن الإلهة المحجبوبة في التوراة نفسها وأن «العمل الالهي» (53) تؤديه نساء عاديات صورت في النص التوراتي. إلا أن باتاي ذهب الى أبعد من ذلك. فالاسرائيليون لم يتبنوا ألوهيات جيرانهم وحسب، وكان ذلك يمارس بصورة عامة في العالم القديم، بل، أنهم استعاروا- حسب ما يقول باتاي- مظاهر متنوعة من آلهات الكنعانيين واستخدموها في استحضار ألوهية مؤنثة، وأحبوها كما لو أنها كانت إلهتهم هم. وليس قبل مجيء الملك أشعيا دفعت الإلهة في اسرائيل الى العمل السري (تحت الأرض).

إن الإلهة التي يتمسك بها العبرانيون بمثل هذه الدرجة من الثبات، تعود الى أيام أشعيا، والى أيام الندم التي تبعت هدم المعبد في اورشاليم، بصرف النظر عما يقوله الأنبياء عنها، مع أنها ليست إلهة غريبة، بل كانت عبرية، وكانت الأم الأفضل حسب ما كان يعتقد الناس في ذلك الزمن (54)

وأثرت القصة المؤثرة التي رواها الحاخاميون على العلاقات الحميمة التي شعر بها الناس اليهود ازاء الشيكيناه في فترات النفي من أرض الميعاد، مما يوحي

بأن التوق الانساني الى نظير مؤنث للأب السماوي توق أساسي لايمكن نكرانه. وحسب احدى التعليمات الحاخامية، فان الله تخلف باقياً في اورشاليم حتى الى مابعد هدم المعبد من قبل الكتائب الرومانية وأجبر الناس اليهود على التشتت في كل أنحاء العالم القديم. ولكن الشيكيناه، وهي الأم اللطيفة والمحبوبة لأبناء اسرائيل أصرت على مرافقتهم الى المنفى وخففت عنهم في سنوات الاضطهاد الطويلة في أراضي الشتات.

ومع ذلك فان النقطة الأساسية الأهم هي الجذور التاريخية الغامضة في اليهودية التي تصورت الشيكيناه، كملكة ورفيقة لله، تعانقت في صلة جنسية مع العلي القدير في احتفال سعيد ليوم السبت. والقبلانيون الذي اعتنقوا فكرة الجنسانية[1] المقدسة كانوا حريصين على التأكيد بأن رفقة الله وشيكيناه كانت فقط رفقة روحية ولم تكن لقاءً جنسياً. إلا أن نفس الاشارة تجد تعبيراً واقعياً أكثر في التقليد اليهودي بصدد الزوج والزوجة اللذين يجب أن يشتركا في «اتحاد زواجي» في يوم السبت، يوم الراحة، لكي يدرسا، ويصليا. وكل فعل يقومان به هو مقدس، بما في ذلك فعل الاتصال الجنسي (55)

ويمكن الكشف عن الجانب الأكثر ظلمةً في الشيكيناه في اليهودية المعاصرة، إلا أن طقسا واحدا، على الأقل، يتضمن جذوة الشهوات القديمة التي أثارتها مرة في قلوب وأرواح الشعب الذي قدسها أكثر من ألف سنة. وفي البداية فان خدمة صلاة مساء الجمعة في معظم الكنس، تبتعد فيها الطائفة عن تابوت العهد حيث تحفظ لفائف التوراة، وتواجه باب الحرم وهي تغني ترنيمة استعارتها من الطقوس السرية التي درست القبلانية. تغني الطائفة وهي تحيي شخص غير مرئي يتخيلون أنه ملكة السبت وعروس العلي القدير: «تعالي ايتها العروس!» ومع أن عدداً قليلاً من المتعبدين يدركون أصول أو معاني الطقس الذي هو أحد الأصداء وآخرها لتقليد ربما يصل عائداً على الطريق الطويلة الى ابنة يفتاح.

تاج من الورد

تجسد ابنة يفتاح حسب ماتظهر للكاتب القديم باسم بسيدو -فيلو أي

---

(1) الجنسانية كون الفرد ذي جنس معين (ذكر أو أنثى).

الفيلسوف الزائف أو الكذاب في الكتابات التوراتية القديمة، بدقة نفس الصفات المنسوبة الى الشيكيناه: فهي محبوبة ومرحة، وعطوفة ، وتعاني، وتحزن، و.. تضبط انفعالاتها. وحسب الفيلسوف المذكور، بحثت سيلا ورفيقاتها عن مكان من أجل ممارسة شعائرهن كأن تكون «الجبال العالية» و«الأشجار المورقة» التي وصفت من قبل الكتاب التوراتيين كمراكز لعبادة الأوثان . وجعلت سيلا توجه كلمات رثائها الى حيوانات الغابة والى الغابة نفسها. لذا فان بامكاننا أن نتصور اذا كانت «التوراة التي أعيدت كتابتها» بقلم بسيدو - فيلو تقدم مفتاح الطقوس السرية للمكان الذي كانت تذهب اليه سيلا وصديقاتها، وماذا كن يفعلن لكي «يندبن بتولتها».

ولايجرؤ بسيدو - فيلو على التلميح الى آلهة، أدنى بكثير من إلهة. والواقع « أن سيلا جعلت تبدو، حتى أكثر نفاقاً في الآثار التوراتية القديمة مما ظهرت في الأدب الحاخامي أو في التوراة نفسها. وحسب بسيدو- فيلو ، فان سيلا تحل أباها من تبعة أي ذنب في موتها، وتقول «هل يمكن لكلماتي أن تتقدم في السماوات» بحيث أن والدا لايخضع بالقوة إبنته التي كرسها للتضحية؟ (56) ومع أنها تبدو مدركة أن قسم والدها تصدع شرعياً، فهي لم تشترك معه في دفاعه عن النقاط الخيرة في الشريعة، ولم تلجأ أيضاً الى المحاكم الحاخامية، بل شجعت اباها لكي يفعل بالضبط ما وعد أن يفعل وطلبت منه: «الآن لاتلغي كل شيء أقسمت عليه، بل نفذه».

وتخيل بسيدو -فيلو أن الله، الذي ترك نفسه بعيداً عن يفتاح، استجاب لابنة يفتاح وهي ترثي حالها فوق جبل مقدس في الليل. والعلي القدير مال الى الغاء التضحية، إلا أنه أثنى على الفتاة التي ستصبح تقدمة الحرق لاستقامتها وطهارتها. وقال الله: «اترك حياتها تعطى، وسيكون موتها ثميناً أمامي دائماً، وهي ستذهب وتسقط في حضن امهاتها» (57) وهذه العبارة تضع قصة نسائية متميزة فوق لطف التعبير التوراتي المألوف عن الموت البغيض.

وفي الحقيقة، فان العبارة لاتوجد في أي مكان آخر في أدب تلك الفترة (58) ونهج بسيدو- فيلو ازاء النساء بصورة عامة، وازاء سيلا بصورة خاصة، يحث بعض الأدباء لكي يفكروا بصوت عالٍ إن كان كاتب الآثار التوراتية القديمة امرأة (59)

و في الحقيقة، يضع بسيدو فيلو في فم سيلا حين طلبت من أبيها مهلة قبل التنفيذ، تقوم أثناءها، هي وصديقاتها بندب «بتولتها هي»، وضع كلمات تبدو على طرفي نقيض مع ما أصبحنا نتوقع من كتاب توراة موحدين صارمين. وبالنسبة الى سيلا وصديقاتها، ليس على خلاف الوثنيين في العالم القديم، لم تكن الحياة النباتية والحيوانية في البرية مقدسة فحسب، بل كانت رقيقة الحس أيضا. وهي التمست نفس بساتين قمة الهضبة بالذات حيث كان يعبد الآلهة والآلهات الغريبة. وتوسلت الى أبيها كي يمنحها فرصة تذهب بها الى «الجبال، وأبقى في الهضاب وأسير مابين الصخور، أنا وصديقاتي العذارى. تبكي من أجلي أشجار الحقل، وتنوح علي حيوانات البراري». وما أن نصل الى قمة الجبل المقدس في صحبة سيلا وصديقاتها، حتى توجه الفتاة اولى كلماتها الى المنظر الطبيعي نفسه. وتقول: «إسمعي، أيتها الجبال، نحيبي. وأنت أيتها الأشجار إحني اغصانك وأبكي على صباي» (60)

وحين تقول سيلا رثاءها وهي في صحبة صديقاتها المتفجعات، تكف في الواقع عن التفكير بمخاطبة الله، أو والدها، أو حتى البرية والحيوانات المتوحشة من حولها. وهن بالاحرى، خاطبت أمها الغائبة والضائعة-«ياأمي، عبثا ولدت ابنتك التي أنجبت وحيدة!» (61)وألمحت الى أعمال التزيين التي أعدت مسبقاً من جانب العديد من النساء في حياتها لعمرها الآتي. «الفستان الأبيض الذي خاطته أمي» « تاج الورد الذي ضفرته لي مربيتي» «غطاء السرير الذي حاكته من اللون البنفسجي واللون القرمزي» (62)

وكان الزواج وحمل الأطفال أعلى دعوة للمرأة في اسرائيل القديمة، وتفجعت سيلا لواقع أنها لم تمارس الطقوس المتصلة بذلك وصاحت: «انا لن أتذكر مجددا أكاليل عرسي، ولن ألبس بأبهة، بما يتفق ومكانتي الاجتماعية الرفيعة. ولن أستخدم المرهم ذا الرائحة العطرة، ولن تنعم روحي بزيت المسح الذي كان يعد لي» (63)

ويبلغ نواح سيلا ذروة الحزن والأسى حين بينت أن كل أشغال الابرة التي اشتغلتها النساء اللواتي اعتنون بها- وأشغال اليد البائدة التي اشتغلتها بيدها باقية- وحكم عليها في صالح شيؤول، وهي كلمة عبرية تشير الى مقر الميت أي قبر.

القبر صار غرفة عرسي، في الوقت الذي يعيش شعبي فوق الأرض
وكل الزيت المخلوط الذي أعددتموه لي، أغلب الظن سيسفح
وسيأكل العث الفستان الأبيض الذي خاطته أمي
ويجف وييبس تاج الورد الذي ضفرته لي مربيتي
ويأكل الدود غطاء السرير الذي نسجته من لون البنفسج واللون القرمزي
وتبكي صديقاتي العذارى حين يتكلمن عني بحزن على مدى الأيام (64)

ومن المحتمل أن يعود تاريخ قصة سيلا كما تخيلها بسيدو- فيلو الى القرن الأول للمشاعية، وهي الفترة التي تم فيها تنظيف النصوص المقدسة والاعتراف بها، لذا فاننا لانستطيع أن نعرف حق المعرفة إن كانت التواريخ التوراتية القديمة قد احتفظت ببعض خيوط التقاليد المحرمة التي أسقطها المراقبون الرهبان من التوراة. وحتى الأدباء الذين يرغبون بأن يتأملوا ملياً إن كانت ابنة يفتاح وصديقاتها انتمين الى «طائفة جنسية» لايجرؤون على افتراض أن الفتيات كن متعبدات في محراب إلهة. وبالفعل، فان التعصب المطلق الذي عرضته سيلا ازاء مصيرها حث بعض العلماء على رؤيتها كـ«نموذج» للاستشهاد اليهودي والمسيحي اللاحق» (65) أو حتى نموذج المسيح بحكم حقها الشخصي. «والشخصية التوراتية الوحيدة الاخرى التي يضحى بها من قبل اب في صالح شعبه هي- حسب تعبير ناقد توراتي- يسوع» (66)

ومع ذلك، فان من المغري تخيل طريقة أخرى لقص حكاية ابنة يفتاح. وربما انها قدمت من جانب أبيها على مذبح ألوهية أخرى غير يهوه، كأن يكون احد تلك الآلهة أو الآلهات الكثيرة المحرمة الذين اربكوا كثيراً كتاب التوراة لأنهم كانوا، بالضبط، جائعين للحم الأطفال المحروق. أو ربما كانت سيلا نفسها وصديقاتها ممن تحدين الوصية الاولى «لن يكون لكم إله آخر غيري». واذا كان الأمر كذلك، يمكننا أن نبدأ التصور أن موتها لم يكن نتيجة قسم متسرع الى يهوه، بل كان حكماً بالموت صدر بحق مرتد باسم يهوه. وربما شجعت احدى الخلاصتين المتخيلتين كتاب التوراة على قلب ابنة يفتاح من متعبدة في محراب إلهة الى شهيدة ورعة. وتعطي كل منهما سبباً كافياً لتوضيح سبب عدم الجرأة على كتابة اسمها في صفحات التوراة.

الفصل الثاني عشر
المسافر وسُريته

«هذه ابنتي العذراء وسريته أخرجهما إليكم فأذلوهما واصنعوا بهما مايحسن في عيونكم..» (سفر القضاة 24:19)

في تلك الأيام التي لم يحكم ملك اسرائيل، وقام كل رجل بفعل ماكان يراه خيرا في عينيه، وجد رجل من قبيلة لاوي نفسه في خصام مع امراة شابة من بيت لحم كانت سريته او خليلته.

من يعرف كيف بدأت هذه البشاعة مابين رجل وامرأة؟ تبادلا قذف الكلمات المهينة، إلا أن اللاوي ذهب بعيدا جداً حين صاح أنها «عاهرة» في وجهها. وبالطبع، ليس عادياً أن يتنبأ المرء الى أي شيء ستنقلب الامور في النهاية؟

ولو أن ملكاً كان يحكم اسرائيل لانتهى كل عمل قذر الى اعتباره فعلاً قبيحاً ولم يتحول الى حرب أهلية دموية.

صفقت المرأة باب بيت اللاوي في جبل أفرائيم وراءها وعادت الى بيت أبيها في أرض اليهودية. في البدء كان اللاوي واثقاً بأنها سترى بلاهتها وتعود، وبقي ينتظر بصبر سماع وقع أقدامها قرب البوابة. ومن ثم، حين انقلبت الأيام الى اسبوع، بدأ قلقه يزداد- فماالذي وقع لها في الطرق التي لا قانون يحميها من هنا الى بيت لحم؟ وأخيراً، عندما انقلبت الأسابيع شهورا أربعة ، بالضبط-أدرك أنها لن تعود، على الأقل من ذاتها.

وما جرح كبرياء اللاوي أكثر من أي شيء آخر حقيقة كون سريته ،حسبما يظهر، لم تفتقده كثيراً مثلما افتقدها. وبعد بضع ليالٍ لم ينم فيها بسبب القلق والوحدة في الفراش، بدأ يتجمع عنده سخط على نفسه صحيح و كافٍ لاخراجه من البيت والسير في الطريق وراءها.فأخذ معه حمارين، واحد له

والآخر لكي يجلبها فوقه الى البيت، وخادم يحتاجه اذا ما واجه مشكلة في الطريق. ومع أن احد الحمارين كان من دون راكب في الطريق الى بيت لحم، فقد مشى الخادم وراءه-لأنه معتاد على ذلك. ولحسن حظ اللاوي لم يواجها أي خطر أثناء نزولهما سفح الجبل.

«وفي تلك الأيام لم يكن لاسرائيل ملكٌ وكان رجل لاوي نازلاً بسفح جبل افرائيم فاتخذ امرأته سرية من بيت لحم يهوذا. فزنت عليه سريته وخرجت من عنده الى بيت أبيها الى بيت لحم يهوذا ومكثت هناك أربعة اشهر» (سفر القضاة1 :1-2)..

«ثم قام زوجها وسار في طلبها ليطيب قلبها ويردها إليه وأخذ معه غلاماً له وحمارين فأدخلته بيت أبيها. فلما رآه أبو المرأة فرح بلقائه (سفر القضاة19:3)

وعندما اقترب اللاوي وخادمه من بيت لحم أخذ يفكر بالاستقبال الذي سيستقبل به عندما يظهر على باب بيت عمه والد امرأته. وكان يعرف حق المعرفة أي لسان حاد كان يختبيء داخل الفم الجميل لسريته، وانتابه القلق من أن تكون قد سممت أفكار أبيها بروايتها عما جرى خطأً بين الزوج والزوجة. وما العمل لو انها أخبرت والدها بأنه أدانها لأنها كان تلعب دور العاهرة من ورائه؟ وما العمل اذا غضب أبوها وسخط، وثار عليه وطرده وضربه؟

ولم يكن اللاوي بحاجة لأن يدفع لكي يضطرب، فقد بدا عمه مسروراً جداً برؤيته- وربما كان مسروراً أكثر حين وجد الحمار الثاني الذي يراد منه أن يحمل ابنته على ظهره الى المكان الذي تنتسب اليه بعد أن كبرت وتزوجت.

«وأمسكه حموه أبو الجارية فمكث عنده ثلاثة أيام وأكلوا وشربوا وباتوا هناك» (سفر القضاة19:4) «وفي اليوم الرابع بكروا في الغداة وقام لينصرف فقال أبو المرأة لصهره اسند قلبك بكسرة خبز ثم تنطلقون. فجلسوا وأكلوا معاً وشربوا. فقال أبو المرأة للرجل إن راق في عينيك بت عندنا ولتطب نفسك» (سفر القضاة19 : 5-6)

وأقام الرجل في دار عمه ثلاثة أيام كاملة، وقدمت له وجبات دسمة، وكمية كبيرة من الخمر، وكثيرمن الموسيقى والرقص . غير ان المرأة رفضت أن تظهر. وبدلا من ذلك بقيت غاضبة في الغرفة الخلفية من دار أبيها، ووجد اللاوي نفسه

تهتاج مرة ثانية. وسأل نفسه لِمَ أتعب نفسي في المجيء الى هنا؟ ولتبقى المرأة البائسة مع أبيها! لذا أعلن أنه سوف يعود الى بيته في الصباح، اذا أرادت أو لم ترد الذهاب معه، وأمر خادمه باعداد الحمارين للرحلة. ونهض في اليوم التالي عند الفجر، إلا أن المرأة لم تكن موجودة في اي مكان وطلب منه والدها أن يتناول «كسرة خبز معي قبل أن تذهب إذ لايمكنك أن تسافر مسافة طويلة كهذه بمعدة فارغة!» لذا أرجأ اللاوي سفره وجلس الى المائدة للفترة التي أعدت فيها وجبة دسمه أخرى وأصبحت الشمس في كبد السماء. وصب حموه كأس الخمر بعد الآخر، وأصر على رقصة واحدة أخيرة ترقصها العبدة الصغيرة مع ابتسامة سرا بها في الأيام الثلاثة الماضية.

«ولما نهض الرجل لينصرف ألح عليه حموه فعاد وبات هناك» (سفر القضاة19 :7)

«وبكر في غداة اليوم الخامس لينصرف فقال له أبو الجارية اسند قلبك فلبثوا الى أن مال النهار فتغذيا معا. ونهض الرجل لينصرف هو وسريته وغلامه فقال له حموه أبو المرأة إن النهار قد مال الى الغروب فبيتوا هنا هوذا النهار قد مال فبت ههنا ولتطب نفسك وغدا تبكرون في طريقكم وتمضي الى منزلك» (سفر القضاة19 :8-10)

وقال حموه: «إنك مبكر جداً على البدء في رحلتك، فلِمَ لاتقضي الليل وتمتع نفسك؟ وبامكانك أن تنطلق انطلاقة جديدة في الغد؟»

وهكذا مكث ليلة واحدة أخرى، ونهض مبكراً في اليوم الخامس، ثم مرة ثانية، لم تظهر المرأة نفسها. ومرة ثانية ناقش معه حموه ان يفطر قبل أن يسير في الطريق. ومرة ثانية مكث.

ومن ثم، أدهشه تماماً ظهور المرأة عند باب البيت ، وفرح عمه بصورة جليه، وكانت ترتدي عباءة طويلة وتحمل صرة فوق رأسها، وهي على أهبة الاستعداد لرحلة العودة الى البيت. فتوقف عمه عن تقديم استعطافاته، وبدلاً من ذلك أخذ الصرة من على رأس ابنته، وجعل من نفسه مفيداً في نقلها الى ظهر أحد الحمارين.

وثرثر عمه والد زوجته، وهو لم يمل من عرض استضافته ليلة أخرى: «والآن

فان كلاكما على الطريق، رحلة موفقة».

«فلم يرض الرجل أن يبيت بل قام وانصرف حتى انتهى الى مقابل يبوس التي هي اورشليم ومعه حماران موقران وسريته. وفيما هم عند يبوس وقد مال النهار جدا قال الغلام لمولاه مل بنا الى مدينة اليبوسيين هذه فنبيت فيها. فقال له مولاه لانمل الى مدينة غريبة ليس فيها أحد من بني اسرائيل ولكن نتخطى الى جبع. وقال لغلامه سر بنا نتقدم الى بعض هذه المواضع ونبيت في جبع أو الرامة» (سفر القضاة 19 :10-13)

وكانت السماء متلبدة بالغيوم عندما غادرا بيت لحم، وأخذت الغيوم تتجمع مهددة الرجل والمرأة وهما يسيران في طريقهما. وما أن وصلا الى ضواحي القدس، حتى اكفهر الجو وأصبح عاصفا، ونظر الخادم بتوق الى تجمع المنازل على التلال حولهم. وبالطبع، فان المكان لم يكن قد سمي بعد القدس- ولم يكن الاسرائيليون قد تدبروا أمر طرد اليبوسيين، وكان المكان لايزال عائداً لليبوسيين. إلا أن بؤس الخادم كان أكبر من خوفه من الغرباء، فشد كم سيده.

وتوسل الخادم قائلاً: «لنقضي، ياسولاي، الليلة هنا بين اليبوسيين».

«لا، ليس هنا» قال اللاوي «ليس في مدينة مليئة بالأغراب!»

وبدأ الخادم بالاعتراض قائلا: «ولكن العاصفة»

«سنذهب الى مكان نثق فيه بوجود ترحيب حميم بنا وبفراش دافئ- إن جبع ليست بعيدة، وربما الرامة» قال الاوي مصرا، وهو يعدد أسماء الأماكن الموجودة على الطريق التي عرف انه فيها سيجد نفسه وسط قومه الاسرائيليين. «وانا لاأستطيع النوم وأنا أعرف أنني وحيدا مابين الغرباء الذين يمكن أن يذبحونا ونحن في فراشنا!»

وتمنى اللاوي، وهو يعود بنظره الى تلك الليلة المزعجة،أن يكون قد وافق على البقاء بين الغرباء في القدس. وكما ظهر فان اليبوسيين لم يكونوا أقل ترحيبا من الاسرائيليين الذين ناموا في مدينتهم.

وكانت السرية قد شعرت بالشيء نفسه، فيما لو سئلت عن رأيها-أو لو كانت قادرة على الادلاء برأيها.

«فجازوا وساروا فغابت الشمس وهم عند جبع التي لبنيامين. فمالوا الى

هناك ودخلوا ليبيتوا في جبع ، فنزلوا في ساحة المدينة ولم يؤوهم أحد الى منزله ليبيتوا» (سفر القضاة 19: 14-15)

وكانت الشمس تغرب حين وصلت جماعة المسافرين- اللاوي وسريته، وخادمهما والحمارين- مدينة جبع في الارض التي تعود الى قبيلة بنيامين. وساروا منهكين في الشوارع، وهم يرتجفون من البرد، ومبللون، وجائعون، إلا أن احداً لم يفتح لهم بابه. وأخيراً، جلسوا في ساحة البلدة وانتظروا صاحب قلب طيب أن يقدم لهم الطعام والمأوى. غير أن بنيامياً واحداً لم يتقدم ليأخذهم الى بيته هذه الليلة.

وأخيراً، فان شوارع جبع الفارغة حملت لهم صدى وقع أقدام شيخ يعبر ساحة البلدة عائد من عمل نهار طويل في الحقول خارج المدينة. وكان مولد الشيخ في جبل افرائيم، ولكنه كان يعيش وقتئذ بين البنياميين في جبع. وكان يمشي ورأسه متدل أمامه لكي يبعد المطر عن وجهه، وعندما نظر الى الأعلى، رأى المسافرين في وسط الساحة.

فسأل بطريقة حميمة: «أين أنتم ذاهبون؟ ومن أين أتيتم؟» فبين اللاوي: «اننا آتون من بيت لحم في اليهودية، ومتوجهون باتجاه بيتي في جبل أفرائيم. وتوقفنا هنا لكي نجد ملجأ من العاصفة، إلا أن أحداً لم يقدم لنا مكاناً نقيم فيه هذه الليلة.»

«فاذا هم برجل شيخ قادماً من عمله في الحقل مساء، وكان الرجل من جبل افرائيم ولكنه نزل جبع وكان أهل البلاد بنياميين. فرفع الشيخ طرفه فأبصر هذا المسافر في ساحة المدينة فقال له الرجل الشيخ أين تريد ومن أين أقبلت. فقال له نحن عابرو طريق من بيت لحم يهوذا نريد سفح جبل افرائيم لأني من هناك ولكني كنت خرجت الى بيت لحم يهوذا وأنا منطلق الى بيت الرب وليس من يؤويني الى منزله. ومعنا تبن وعلف» (سفر القضاة19 :16-19)

«فقال له الرجل الشيخ سلام لك ومهما أعوزك فهو علي ولاتبت في الساحة. وجاء به الى بيته وطرح لحميرهم علفاً وغسلوا أرجلهم وأكلوا وشربوا.» (سفر القضاة 19 :20-21)

ولئلا يظن الرجل الشيخ أن المسافر شحاذ ومتشرد فقد واصل كلامه قائلاً:

«لدي تبنا وعلفا للحمارين، وطعاما وخمرا لي وللفتاة وللشاب. ولدينا كل مانحتاج ياسيدي، باستثناء سقف فوق رؤوسنا».

وقال الرجل بحرارة حقيقية: «انا رجل من افرائيم، أيضا! وأهلاً وسهلاً بكم تحت سقفي- وسأقدم لكم الطعام والشراب- ولكن يجب الا تقضوا الليل في الشارع رجاء!»

وهكذا تبع اللاوي المسافر وجماعته الرجل الشيخ الذي قادهم الى منزله. وكما يتطلب واجب الضيافة، وضع الرجل الشيخ تبنا في فناء الدار للحمارين وملأ زيديتين كبيرتين بالماء لكي يتمكن ضيوفه من غسل أقدامهم، وطلب من ابنته أن تضع الطعام والشراب لعشاء متأخر. فأكلت السرية قليلاوبصمت، ثم تبعت إبنة الرجل الشيخ الى غرفة خلفية ونامت في الحال فوق كومة فرش في الزاوية. ونام الخادم فوق كومة من التبن في غرفة المؤونة خلف الدار. وبقي المسافر والرجل الشيخ يتسامران الى وقت متأخرمن الليل ويشربان، ويتبادلان قص قصص البلد الطيب حيث تقيم قبيلة افرائيم، ويسخران من سوء حظهما بأن انتهى الأمر بهما وسط البنياميين.

«فلما طابت أنفسهم إذا رجال المدينة قوم بنو بليعال قد أحاطوا بالبيت وطفقوا يقرعون الباب وقالوا للشيخ رب البيت أخرج الرجل الذي دخل بيتك لنعرفه» (سفر القضاة22:19)

وقال الرجل الشيخ من أرض افرائيم، وهو يسعى لضمان الراحة التامة للاوي بعد استقباله الكريه في شوارع جبع: «وعلى الأقل بالنسبة لك ولامرأتك فالأمر آمرليلة واحدة».

وكان الرجلان لايزالان يتبادلان القصص ويتناولان الخمر عندما سمعا ضجة مفاجأة في الزقاق خارج بيت الرجل الشيخ- صرخة ووقع خطوات، وصوت مكتوم لضربة أو سقطة ونظر المسافر اللاوي الى مضيفه بخوف، ولكن الرجل الكهل ضحك وتناول جرة الخمر. ثم سمعا صوت همس ملح وراء الباب، وبدا حتى الرجل الشيخ فجأة أنه خائف.

وصاح شخص من وراء الباب الأمامي وهو يدق على الباب الخشبي بقبضته: «أنت الذي هناك! إفتح الباب!»

ورد الرجل الشيخ بصوت متهدج وهو يحاول أن يتغلب على الخوف: «ماذا تريد؟ إن الوقت متأخر، فاذهب الى بيتك، ودعنا في حالنا!»

ثم فجأة بدا أن الضجة تأتي من كل الاتجاهات في وقت واحد، وكأن عصبة من الرجال قد أحاطوا بالبيت الصغير ويحاولوا أن يشقوا طريقهم من خلال أي نافذة كانت. وبعد لحظات قليلة، توقف الضرب على الباب والصياح فجأة مثلما بدأ، وسمع صوت على الباب الأمامي مرة ثانية.

وصاح صوت أجش من الجانب الآخرمن الباب قائلاً: «أخرج الرجل الذي في الداخل معك، أخرجه!»

«فخرج اليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم لايا أخوتي لاتفعلوا شراً بعد ما دخل هذا الرجل بيتي لاتفعلوا هذه الفاحشة» (سفر القضاة 23:19)

وقال رجل آخر وهو يهددهم: «نعم، أخرجه، بحيث أننا قد نتعرفعليه» واستدعت كلماته ضحكاً فاضحاً من قبل الحشد. فنظر المسافر الى المضيف، وسأل: «ماذا يعنون؟» وهو يخشى من الأسوأ.

وقام الرجل الشيخ بتقوية مخاوفه وقال: «يحب أبناء الجحيم من البنياميين المجانين في هذا المكان أن «يعرفوا» رجلاً بالطريقة التي يعرف الرجل امرأة».

فسأل المسافر، وهو ينظر بلا جدوى حول الغرفة عن مكان يختبيء فيه: «وما ذا سنفعل؟»

فلم يجب الرجل الشيخ. وجلس لبضع دقائق صامتاً، ثم بذل جهداً لكي يقف ويجر نفسه نحو الباب الأمامي، وكان لايزال يترنح قليلاً، إلا أنه سار بسرعة. ومال نحو الباب وصاح بصوت عالٍ بحيث أن الرجال في الخارج يستطيعون أن يسمعوه بصورة واضحة.

«كلا ياأخوتي» وكانت الكلمات تتعثر قليلاً فوق لسانه «لاتفعلوا مثل ذلك الشيء السافل-»

«اخرجه!» صاح أحدهم من الخارج.

فتابع الرجل الشيخ كلامه بلهجة متطلبة: «يمكنكم أن تروا أنه ضيفي، فلا تعاملوا ضيفاً بمثل هذه الطريقة المبتذلة!»

وأجاب الحشد باهتياج جديد وهم يصيحون ويضربون الباب، وخاف الرجل

الشيخ من أن يكسروا الباب ويشقوا طريقهم إليه والى ضيفه ونظر باتجاه الستارة التي تغطي مدخل الغرفةحيث ذهبت ابنته مع السرية لكي تناما. ومن المؤكد أنهما كانتا مستيقظتين، وفكر مع نفسه متسائلاً عمن يستطيع أن ينام في هذا الاضطراب، ثم شقت فكرة مختلفة طريقها نحو دماغه المنقوع بالخمر.

وصاح على الناس في الخارج: «اسمعوا، إن لدي ابنة - وهي عذراء!»

«هذه ابنتي العذراء وسريته أخرجهما إليكم فأذلوهما واصنعوا بهما مايحسن في عيونكم ولاتصنعوا بهذا الرجل هذا الأمر الفاحش». (سفرالقضاة24:19)

فالتفت اللاوي وحدق في عيني الرجل الشيخ.

«وضيفي يسافر مع سيدة شابة جميلة جداً» واصل الرجل الشيخ كلامه «وكلاهما هنا الآن!»

فتوقفت الضجة في الخارج فجأة، وأخذ المسافر يصغي أيضا باندهاش.

واصل الرجل الشيخ كلامه قائلاً: «كل مايرضي خيالكم- ولكن إتركانا نحن الاثنين حيث نحن!»

في البدء وقف شعر المسافر من كلام الرجل الشيخ. فما الحق الذي بيده لكي يقدم السرية للغوغاء؟ وكانت ابنة الشيخ- العرض الأول. وفكر اللاوي مع نفسه أن السرية تعود إليه، ولم يقل له أحد إن كانت سترمى الى الغوغاء مثل قطعة لحم تلقى لعدد من الكلاب! إلا أنه لم يقل شيئاً، وهو ينتظر أن يرى فيما اذا كان عرض الشيخ سيرضي الرجال في خارج البيت. ولكن الأمر بدا وكأنه حرض الحشد في خارج البيت لكي يصدروا أصواتاً أعلى تشبه زعيق القطط والصفير،

«لم تجد نفعاً» قال الشيخ يائساً، وأضاف: «لايريد أبناء الجحيم هؤلاء إمرأة!»

ولم يكن اللاوي، عموماً، مستعداً لاستبعاد الفكرة التي بدأت تبدو اجبارية تماما وهو يتأمل فيما تريد الغوغاء أن تفعل له. وقال لنفسه بعدئذ أن السرية كانت مصدر ازعاج له وعبء عليه، وسببت له حزناً كبيراً في الأشهر القليلة الماضية. فلِم يجب عليه أن يعرض نفسه لخطر شهوات الغوغاء الشريرة من أجل توفيرها؟

وهكذا نهض اللاوي من الزاوية حيث كان يجثم خائفاً ومشى ببطء الى

الغرفة حيث كانت السرية ترتعد أيضا، وجرها الى الباب. وعندما رأى الشيخ ماكان يريد أن يفعل المسافر، رفع السكر الطويل المصنوع من الخشب، وانكشفت العتبة وفتح الباب بعرض كاف يسمح للمسافر بدفع سريته الى الشارع.

«فأبى القوم أن يسمعوا له فأخذ الرجل سريته وأخرجها إليهم خارجاً فعرفوها وتعللوا بها الليل كله الى الغداة وتركوها عند مطلع الفجر.» (سفر القضاة 25:19)

«فجاءت المرأة عند اقبال الصباح وسقطت عند باب بيت الرجل حيث كان مولاها، وكانت هناك الى النهار. فقام مولاها بالغداة وفتح باب البيت وخرج ليذهب في سبيله فاذا بالمرأة سريته مطروحة على باب البيت ويداها على العتبة ، فقال لها قومي بنا ننطلق فلم تجبه فحملها.».(سفر القضاة 19 :26-28)

وأصدرت الشابة صوتاً كحفيف الأفعى وحفرت بأظافرها وهي تحاول أن تتثبت في الممر، ولكن نصف دزينة من الرجال في الخارج أمسكوا بها من شعرها، ومن رسغها، ومن كعبها. وتشقلبت في الشارع وهي تدفع من الخلف وتشد من الأمام في نفس الوقت، وسط سخرية الحشد. ثم رفع الرجل الشيخ والمسافر الباب بأكتافهما وأغلقوه ثانية، ودفعا بالسكر الى مكانه، وسقطا على الأرض من الانهاك. وفي الخارج، أصيب الحشد فجأة بالصمت، لفترة طويلة على الأقل، ومن ثم ارتفع الصوت مجددا وتناهى الى أسماع الرجل الشيخ وضيفه المبجل إزعاجات أكبر وهما يجلسان وظهورهما الى الباب.

وقضيا الليل بطوله في هذا المكان، وبقي كل من الرجلين، دون أن ينبث أي منهما ببنت شفة، ويتحاشى كل منهما النظر في عيني الآخر، وكل منهما يصغي بانتباه الى الأصوات المزعجة الصادرة عن الزقاق، أصوات عصبة من الرجال، يقوم كل منهم ، حين يأتي دوره، باغتصاب المرأة، المرة تلو الاخرى. وفعلوا بها مايسرهم، حتى بدأت الشمس بالشروق.

وعند انبثاق الضوء نظر اللاوي حوله فوجد الشيخ نائماً- أو على الأقل كان يتظاهر بأنه نائم. ثم سمع صوت ضربة خفيفة وكأن شخصا ألقى كيسا من الطحين على الباب. وبعد لحظة سمع من بعيد صوت أصوات تتلاشى وكأن الرجال أسرعوا الخطا مبتعدين عن بيت الشيخ. فانتظر المسافر زمنا طويلاً لكي

يتأكد أنهم ذهبوا في النهاية، ثم فتح باب البيت بحذر.

كانت المرأة الصغيرة ممددة أمام البيت وكانت ذراعاها ممدتان ، ويداها مبسوطتان باتجاه الباب، وكانت جامدة وصامتة. وبدت وكأنها مرتاحة، وكأنها نائمة. وطرأت فكرة مجنونة في باله وبدت تشبه الحلم السيء. نعم كانت حلماً بكل تأكيد. وعلى كل حال، وبالرغم من كل شيء سمعه طوال الليل، نجح اللاوي المسافر في اقناع نفسه أن الأمر كان كذلك «إنهضي» قال الرجل بصوت عالٍ وهو يخاطب المرأة أثناء عبوره العتبة. وخطا من فوق جسدها، والتفت نحو فناء الدار حيث ربط الحمارين، «انهضي» قال بسرعة «ولنذهب»

فلم يسمع أحد ولم يجب أحد.

وحمل الحمار الذي كان يحملها من بيت أبيها الجثة الفاسدة للسرية وعاد الى جبل أفرائيم. وعندما وصل المسافر وخادمه الى البيت مع حملوتهما المخيفة، أخذت اللاوي نوبة تقوى عند تذكره طريقة أولاد الجحيم البنياميين من الذين اساؤوا الى جمال جسدها- فرسم خطة لمعاقبتهم على ما اقترفت ايديهم.

«فقال لها قومي بنا فلم تجبه. فحملها على حماره وقام الرجل فانطلق الى مكانه. وأتى بيته وتناول سكيناً وأخذ سريته فقطعها مع عظامها اثنتي عشرة قطعة ووزعها في جميع تخوم اسرائيل. لكل من رآها قال لم يكن ولم ير مثل هذا منذ يوم خرج بنو اسرائيل من ارض مصر الى يومنا هذا . ففكروا وتشاوروا وأتمروا.» (سفر القضاة19 :28-30)

وألقى الخادم جثتها المسحوقة والدامية فوق المنضدة في بيت اللاوي، وكان وجهها لايعرف، وأعضاؤها الخاصة مشوهة. وأخذ اللاوي تحت انظار الخادم المندهش، سكيناً حادة استخدمها في تقطيع جسم الفتاة الى اثنتي عشرة قطعة، طرفاً الى جانب طرفٍ. ولف كل قطعة من الجثة بقطعة من الكتان وربطها بحبل، ثم أرسل الاثنتي عشرة قطعة مع مراسل الى كل اسرائيل- الى كل القبائل، ماعدا بنيامين، بالطبع، الذين أمل أن يثير ضدهم حرب ثأر، حرب تطهر كل اسرائيل، حرب مقدسة.

وجاء في رسالة اللاوي: «إن شيئاً مثل هذا لم ير من اليوم الذي خرج فيه بنو اسرائيل من أرض مصر حتى يومنا هذا، فتأملوا، وتكلموا».

الفصل الثالث عشر
الله والسادية ـ النسائية[1]

بطلات وشهيدات في سفر القضاة

أربعمائة عذراء

«غير موثوق بهن جميعاً، وامرأة واحدة مدغورة مصابة بهوس السرقة»

الله، وجبع، والسادية النسائية «مابين قدميها خر، ووقع، صريعاً» دعاية سوداء

(1) السادية: انحراف جنسي يتلذذ فيها المرء بانزال العذاب بالآخرين أو بنفسه.

إن سفر القضاة عبارةعن حقيبة مختطفة من الروايات الطويلة عن زمن المشاكل التي أعقبت غزو أرض كنعان، وهي مكان أحدق بالاسرائيليين فيها أعداء الداء، وشق العداء القبلي الاسرائيليين ، فسقطوا في الارتداد بقوة الآلهة والآلهات الغريبة. وربما كانت رواية شمشون واغوائه الفاجع من جانب دليلة (سفر القضاة 16:13؟) هي القصة المألوفة الوحيدة في سفر القضاة، و احدى القصص التي هربت من فوق جدران مدرسة الأحد وانتشرت في الثقافة الشعبية.

وشمشون هوشعار لمأزق أمة اسرائيل، التي كان شعبها قابل للاغواء فأنزلوا الكارثة فوق رؤوسهم. ولكن رواية شمشون ودليلة من الصعب أن تكون الأكثر شناعة في القصص الوحشية التي نجدها في سفر القضاة، الدائرة المتصاعدة للإثم والفضيحة التي تبلغ ذروة دامية من الاغتصاب الجماعي والجريمة الجماعية في قصة المسافر اللاوي وسريته. وكان الكاتب التوراتي متشوقاً بالفعل لأن يعرض علينا مثالاً رهيباً عن مستوى سوء تصرف أناس عاديين عندما يتمتعون بحرية واسعة جداً، وتم تكرار الرسالة الجوهرية لسفر القضاة في كل أنحاء الكتاب كتعويذة [1] «في تلك الأيام التي لم يكن فيها ملك في اسرائيل حين فعل كل رجل ماحسن في عينيه» (سفرالقضاة25:21)

بدأت الفوضى الأخلاقية التي سادت في اسرائيل القديمة قبل تتويج ملك عليها ، حسبما صورت في سفر القضاة، بعنف جنسي، يتصاعد الى حرب أهلية، تنتهي بحرب ابادة جماعية والضحايا بكميات كبيرة منتشرة في كل سفر القضاة،

---

(1) الكلمة بالأساس كلمة أو صيغة مقدسة في الهندية والبوذية يجري تكرارها كتعويذة

وهم في الغالب الأعم نساء بريئات. وقد قابلنا منهن: ابنة يفتاح، الصبية التي حكم عليها بالموت وحازت على مكانة عالية بموتها المأسوي (انظر الفصل العاشر)، وسرية المسافر اللاوي، وهي امرأة لم نعرف عنها شيئا باستثناء انها تعرضت لاغتصاب عصابة لها حتى الموت، ومن ثم قطعت ونثرت القطع بين قبائل اسرائيل. ومن الملفت أن الكاتب التوراتي أبدى عناية خاصة في وصف قبيلة الرجال الذين اعتدوا على المرأة، وأبدى عناية مماثلة بالمدينة التي ماتت فيها - جبع - إلا أن اسمها لم يذكر أبداً. لذا أصبح يطلق على قصتها اسم «عدوان جبع» في نوع من الاختزال الموقر.

صاح روسو في رعبه المشبع نقعاً وهو يعيد قص الحكاية: «آه، أيها الرجال البائسون الذي تحطمون نوعكم بالذات من خلال تلك المسرات المراد منها إعادة الانتاج، فكيف يحدث أن هذا الجمال المهلك لايجمد شهواتكم المتوحشة» (1)

تحمل رواية المسافر اللاوي وسريته تشابهاً لافتاً مع قصة توراتية رأيناها قبل قليل، وهي قصة لوط وابنتيه الذين أنقذوا من عصبة سيدوم بواسطة زوج من الملائكة المساعدة. والشيخ الذي استضاف اللاوي وسريته في جبع، مثل لوط تماماً في سدوم، يقدم زوجاً من الفتيات الى الغوغاء الشبقة لاسعادهم وابعاد ضيفه (وابعاد نفسه) عن اهتمامهم غير المرغوب به ومما نستعيده بصدد تدخل الملاكين في سدوم، لم نتوقع، بالحقيقة، أن ترمى المرأتان الشابتان الى أيدي الزعران- ذلك أن شيئاً ملائكياً وانسانياً، سيبعدهما في اللحظة الأخيرة. ولكن لم يظهر منقذون ملائكيون عند مدخل البيت في ضوء سماوي مفاجيء لكي يطرد المغيرين، وتجد السرية نفسها تحت رحمة مخلوقات بشرية مجردة وكما يذكرنا مؤلف سفر القضاة، فان المخلوقات البشرية المجردة لاتحسن التصرف في غياب سلطة ما أعلى، إن كانت بشرية أو ملائكية، بغية كبح نزواتهم الرديئة. ولم تكن مثل هذه السلطة لتوجد في سنوات الاضطراب والفوضى تلك قبل أن يكرس العلي القدير ملكاً يحكم الاسرائيليين. والله لم ير كثيراً أو يسمع في سفر القضاة «وينهي، بابتعاد ساخر، دوره كإله لبعث الراحة والطمأنية في نفوس الناس»(2) وحتى القضاة الذين حكموا الاسرائيليين الجامحين كانوا متصدعين وغير مؤثرين. وكما اكتشفت كل من ابنة يفتاح وسرية اللاوي، فإن كل

شخص يصبح في خطر عندما «يفعل كل انسان ما هو حسن في عينيه».

ويقدم سفر القضاة بعض اللمحات الخاطفة للمجد، ولكن، حتى هذه اللحظات كانت متناقضة وفي غير مواضعها. ونجد هنا في سفر القضاة، على سبيل المثال، قصة في منتهى الغرابة لمآثر انسان يدعى ايهود، وهو قاتل اسرائيلي شق طريقه بالحيلة الى قصر ملك مؤابي. وقال ايهود: إن «لدي رسالة من الله إليك»- ومن ثم انتزع أحشاء الملك بخنجر حين كان يجلس في المرحاض الملكي! ودفع النصل عميقاً جداً في بطن الملك السمين الى الحد الذي لم يستطع ايهود أن يسحبه. ولكن رائحة امعائه المندلقة خدع الحاشية التي كانت وراء الباب فظنوا أنه لازال يستخدم المرحاض، مما منح ايهود فرصة الخروج بسلام (سفر القضاة 12:3-30)

وهنا، أيضاً، نجد ملحمة (ساغا) قاتل من نوع مختلف جداً، وهو امرأة باسلة يمكن رؤيها كانعكاس في مرآة لصورة السرية القتيلة المظلومة. وكانت هذه المرأة مقاتلة فدائية في عصر التوراة، حررت بطولتها، بطريقة أو بأخرى، المشهد الفاجع لعدوان جبع. ولكننا نجد أنفسنا في نهاية سفر القضاة، ملوثين جداً ومضطربين جداً الى الحد الذي نستعد به للملك، أي ملك، يضع هؤلاء الناس المتوحشين والخطرين تحت السيطرة. وهذا، بالطبع، هو حافز مؤلف التوراة الذي يروي هذه القصص الصادمة والمؤلمة بالدرجة الاولى.

أربعمائة عذراء

لم ينته عدوان جبع باغتصاب العصابة للسرية. ولم يكن موتها وتقطيعها غير السلسلة الاولى لفظاعات اقامت ذروة رهيبة في الفقرات الأخيرة من سفر القضاة. فقد فجرت الرزم المروعة من اللحم البشري التي أرسلها اللاوي الى قبائل/أسباط اسرائيل حرباً أهلية مابين القبائل، حرب إبادة ضد قبيلة بنيامين. وعلى نحو مفاجيء، أوقف موت السرية كون المسألة مسألة حزن شخصي وتحول الأمر الى سبب سياسي شهير. وفي نهاية الملحمة (ساغا) المثيرة بات وجود قبيلة بنيامين مهدداً، ولم يكن ليسمح عدوان واحد آخر لبنيامين أن تعيش أبداً.

وأبدى مؤلف سفر القضاة اهتماماً كبيراً بالتنافس القبلي، إلا أن اللاوي نفسه ينتمي الى قبيلة لاتملك منطقة خاصة بها في كنعان. واللاوي يتجول في

أرض قبيلة أخرى. ولهذا كان حيادياً في التنافس مابين قبائل اسرائيل. وينحدر اللاويون من صلب ابن يعقوب، لاوي، -وكما رأينا قبل قليل- فان يعقوب ينكر على لاوي بركته وهو على فراش الموت بسبب دور لاوي في ذبح الأبرياء في شكيم (انظر الفصل الخامس). وهذا هو سبب عدم تمتع قبيلة لاوي بأي «نصيب أو ميراث» في أرض الميعاد (سفر تثنية الاشتراع 1:18)، وكان «دور اللاويين أن يقفوا للخدمة باسم الرب» (سفر تثنية الاشتراع 5:18) خدمة رفاقهم الاسرائيليين.

ولذلك انتشر اللاويون في كل أنحاء اسرائيل كقبيلة رهبان بلا أرض، واعتمدوا في حياتهم على تقدمات باقي الاسرائيليين. «وأول بِرك وعصيرك وزيتك واول جزاز غنمك تعطيه له» وسجل موسى نفسه لاويا وكاهنا (سفر تثنية الاشتراع4:14) وفي الواقع، يمكن فهم طقس التضحية بالحيوانات، الذي وصف بتفاصيل دقيقة تماماً من قبل المؤلفين الرهبانيين في سفر الأحبار وفي النصوص التوراتية الأخرى، كسبيل لاطعام وإلباس الرهبان اللاويين الذين لايملكون سبيلاً آخر لتأمين حياتهم. ومن واجبات الرهبانية على مذبح التضحية ذبح الحيوانات المضحى بها وتقصيبها . ويسمح لنا ذلك بادراك لِمَ كان اللاوي حاذقاً في قطع الجسد الى قطع!

«وهذا يكون حق الكهنة من الشعب ممن ذبح ذبيحة بقراً كانت أو غنماً يعطي للكاهن الذراع والفكين والكرش» (سفر تثنية الاشتراع3:18)

والقبائل التي دعيت بدعوة اللاوي العجيبة الى السلاح في شكل محظية مقطعة، اجتمعت في المصفاة لكي تقرر ماالذي ستفعله بشأن (العدوان القذر) للبنياميين في جبع (سفر القضاة 6:20) واذا أخذنا بكلمة مؤلف التوراة فان نحو أربعمائة ألف رجل ظهروا في المصفاة وأصغوا الى رواية اللاوي عما حدث في جبع التي تخدمه بشكل جلي. وقال اللاوي: «وقف رجال جبع ضدي.» وأضاف، مهملاً بعض التفاصيل الأكثر ازعاجاً بالفعل: «فوثب علي أهل جبع وأحاطوا بي وأنا في البيت ليلا وأرادوا قتلي وأذلوا سريتي حتى ماتت» (سفر القضاة 5:22)

وقرر المجمع أن يعاقبوا رجال جبع- وقبيلة بنيامين ككل-بسبب «شرهم» و«شبقهم». وأولاً، أقسموا قسماً مقدساً الى العلي القدير، أن اسرائيلياً لن يسمح لابنته بالزواج من بنياميني. ثم سلم انذار الى بنيامين يقول: «إدفعوا

إلينا القوم بني بليعال الذين في جبع فنقتلهم ونصرف الشر عن اسرائيل» (سفر القضاة13:20) وتحدى البنياميون الانذار وحشدوا جيشاً منهم قوامه ستة وعشرين ألف رجل تحت السلاح ضم سبعمائة رجل من جبع في ميدان المعركة. وكان كل الرجال من جبع عسراويين- وهذا تلاعب بالألفاظ يسخر من اسم القبيلة بنيامين، التي تعني بالعبرية «إبن يدي اليمنى»- وكلهم قادرون على توجيه ضربة دقيقة قاتلة باستخدام فقط المقلاع، أي السلاح الذي سيصبح مشهورا بيد ملك المستقبل داود (سفر القضاة 16:20)

وعشية يوم المعركة أصيب الاسرائيليون بشك مفاجيء بصدد الحكمة من شن حرب على قبيلة مماثلة. لذا اجتمعوا في بيت إيل وسألوا الله أن يعين القبيلة التي سوف توجه الضربة الاولى، وكأنهم بذلك يستفسرون إن كان مكتوب عليهم القتال، وقال الاسرائيليون: «من منا يصعد لقتال بني بنيامين؟» فقال الله «يهوذا أولا». والواقع، أن الاسرائيليين، عانوا من خسائر فادحة في معركتين متتاليتين ضد البنياميين، وبعد كل هزيمة، انتحبوا على خسائرهم أمام العلي القدير -وألح العلي القدير عليهم لكي يعودوا الى القتال. وفقط حين اجتمعت الجيوش للمرة الثالثة وعد الله أخيرا الكاهن الأعلى للاسرائيليين، أن «أدفعهم الى ايديكم» (سفر القضاة 28:20)

ومع ذلك، اعتمد النصر على المكر والخداع أكثر من اعتماده على الشجاعة الفائقة في المعركة: فالاسرائيليون تظاهروا بالتراجع ليسحبوا البنياميين الى كمين قاتل. وبعد النصر في النهاية ، لاحق الاسرائيليون الجنود الفارين وقتلوهم، وحرقوا مدن بنيامين، وقتلوا أهل المدن، وحتى أنهم ذبحوا البهائم. ومن كل البنياميين، لم يبق على قيد الحياة إلا ستمائة تدبروا أمر ايجاد مكان للجوء عند حاجز طبيعي اسمه صخرة الرمون.

واستيقظ الاسرائيليون المنتصرون فجأة على واقع انهم أدانوا قبيلة بنيامين الى حد الانقراض. ولم يبق غير بضع مئات فقط من رجال بنيامين أحياء بعد المعارك وبعد المذبحة العامة التي تبعت المعارك- وقتلت كل نساء بنيامين بحد السيف، وأقسمت باقي قبائل اسرائيل بأن لاتسمح لبناتها بالزواج من بنياميني. وبذلك تعرضت القبيلة للفناء، وأصيب الاسرائيليون بالندم. «لماذا يارب إله

اسـرائيل وقـع هـذا في اسـرائيل آن فقـد اليـوم مـن اسـرائيل سـبط» (سـفر القضاة21:3)

واخترع حل، إلا أن هـذا الحـل يسفك دمـاء غزيـرة وهـو غريـب جداً بحيث أن العقـل يجفـل لـدى الاشـارة الـى وصفـه في صفحـات الكتـاب المقـدس. فقـد تذكـر الاسرائيليون بارتياح أنهم أقسموا قسمين في اجتماع القبائل في المصفاة. القسم الأول، حسـبما رأينـا، هـو أن لايعطـي أي مشـارك في المجمـع ابنتـه بـالزواج الـى بنياميني. وكان القسم الثاني يقول: يحكم على أي اسرائيلي فشل في الاشتراك في الاجتمـاع بـالموت. وحـدث للاسـرائيليين أن أهـل المدينـة في مكـان اسمـه يـابيش- جلعاد لم يكلفوا انفسهم عناء الظهور في المصفاة. وهيأت هذه الظروف السبيل لضمان زوجات للبنياميين الأحياء ومنع القبيلة من الفناء.

وأولا، تقول التوراة لنا، أن قوة استثنائية تتألف من اثنى عشر الف جندي «من ذوي البأس» أرسلوا الى قرية يابيش- جلعاد سيئة الحظ، حيث أن كل ذكر مفـرد بـالـغ، أو طفـل، أو رضيـع- وكل امـرأة وحيـدة «عرفت مباشرة رجل» يضـرب بحـد السـيف. واسـتبقيت أربعمائـة فتـاة عـذراء فقـط-وحولـن في الحـال الـى الجنود المرابطين عند صخرة رمون لكي يستخدمن كأفراس ولودة لجيل جديد من البنياميين. ووجد الاسرائيليون المنتصرون فجأة في دواخل انفسهم أن عليهم أن يغفروا للقبيلة التي كانوا يحاولون افناءها، وأخذوا على عاتقهم أن يجمعوا عددا كافيا مـن العذارى، إن كن راغبات أو غير راغبات ، بغية إعادة تأهيل قبيلة بنيامين.

هل تعني أن ذلك ورد في التوراة؟

نعم ياعزيزي القاريء، إن ذلك ورد في التوراة.

- ولكن إنتظر- فقد حصل ما هو أسوأ.

لم تكف اربعمائة عذراء، بصرف النظر عن درجة خصبهن، لتلبية متطلبات ستمائة بنياميني باق على قيد الحياة عند صخرة رمون، لذا كان الاسرائيليون النـادمون مجبرون علـى البحـث فيمـا وراء الحـدود عـن النسـاء المناسبات.واشـار أحدهـم الـى مهرجان الحصـاد الـذي يقـام كـل سـنة في كروم شيلو.وكان المهرجان مناسبة للغناء والرقص من قبل صبايا المنطقة. وهكذا أرسل الجنود البنياميون

الباقون على قيد الحياة في الحال الى شيلو. وقيل للجنود من قبل أعدائهم السابقين: «انطلقوا، واكمنوا في الكروم، وارصدوا فاذا خرجت بنات شيلو لإقامة الرقص فاخرجوا من الكروم واخطفوا كلّ رجلٍ امراةً من بنات شيلو» (سفر القضاة 21 :20-21)

وقيل لنا أن بمثل هذه الوسائل الوحشية، أمكن استعادة وحدة اسرائيل، وجعل كل شيء حسناً مرة ثانية. وقال كاتب سفر القضاة: «وحينئذٍ انصرف بنو اسرائيل من هناك كل واحدٍ الى قبيلته وعشيرته» (سفر القضاة21:24) وجرى تذكيرنا،مرة أخرى، بقصة لوط، حين أدت الرغبة الملحة لبنات لوط في اسكان الأرض التي باركها الله الى اغواء وسفاح القربى، وهنا كان الاختطاف والاغتصاب الوسيلتان لإكثار عدد قبيلة بنيامين المخربة. وكل من سفر التكوين19 وسفر القضاة 19 مثالين مؤذيين عن أن النظام الأخلاقي مشكوك فيه دائما في التوراة، «وينقلب رأساً على عقب (عندما) يعيش امرء ما في زمن محكوم بأنانية البشر» (3)

ويعد طقس العنف الذي أعقب اغتصاب العصبة وقتل السرية- وهي جريمة جماعية، واغتصاب جماعي، فان المصدر التقليدي لحادث المسافر وسريته كما يبدو عدوان جبع كان ساخراً. اذ أن امرأة واحدة ألقيت للزعران من المغتصبين في جبع، في حين أن ستمائة امرأة لقيت نفس المصير عند صخرة رمون. والعدوان الحقيقي هو أن عشرة آلاف رجل وامرأة، وطفل ذبحوا- واستعبدت جنسياً مئات من الفتيات- طالما كانت دائرة الاثم والرغبة في اسرائيل قد أحرزت نوعاً من الانشطار الأخلاقي.

«الكل غير موثوق بهن، وامرأة واحدة مدغورة «مصابة بهوس السرقة»

تبين الانتهاكات بحق النساء التي تحتل حيزا كبيراً من سفر القضاة لم مالت، حتى النساء الناقدات القدامى للتوراة، الى اعتبار الكتاب المقدس ملطخ بصورة بائسة من قبل جنسانية الأبوية الصارمة التي خلقت التوراة بالدرجة الاولى. وقبل أكثر من قرن، نشرت الرائدة النسائية اليزابيث كادي ستانتون مجموعة تعليقات توراتية بعنوان انجيل المرأة، اشتكت فيه من أن التوراة

استخدمت منذ زمن طويل لاستعباد واضطهاد المرأة. ولم يسبق لاحد أن أدان إدانة صريحة التوراة ، كما أن أحداً من بعدها لم يتقدم عليها في ذلك.

وكتبت ستانتون «بصرف النظر عما كان بامكان التوراة أن تفعل إن كان في العبرية أو اليونانية، فهي بالانكليزية السهلة، لاتعلي ولاتحترم المرأة». وبينت الكاتبة أنها لم تتأثر بمعظم النساء في التوراة، إن لم يكن بهن جميعاً. وبحت وهي تقول: «وفي الحقيقة فان زوجات الأباء جميعاً غير موثوقات، واحداهن كانت مصابة بهوس السرقة.إلا أنهم رسموا الشريعة بحيث أن الفضائل الاساسية قلما توجد عند الطبقات المضطهدة» (4) ولخصت ما رأته باعتباره دورا مؤلماً مرسوما للنساء في الكتاب المقدس.

تعلم التوراة أن المرأة جلبت الإثم والموت الى العالم، وأنها عجلت في سقوط العرق/الجنس، وأنها اتهمت أمام مجلس الدينونة السماوي وحوكمت، وأدينت، وصدر الحكم بحقها. وكان الزواج بالنسبة لها بمثابة شرط استرقاق، والأمومة معاناة وكرب. وكان عليها أن تلعب، بصمت وخنوع، دور العالة التي تعتمد على سخاء الرجل في تأمين كل متطلباتها المادية. وأمرت أن تسأل زوجها في البيت عن كل المعلومات التي ترغب بالحصول عليها جواباً على الاسئلة الحيوية الملحة (5)

ولازالت تشعر بعض العالمات في التوراة من المعاصرات بالشعور نفسه. وعلى سبيل المثال، يزعجهن واقع أن النساء صورن في التوراة وهن يلجأن، في مواجهة أهوال كثيرة، الى المكر والخداع لاحراز غايات جديرة بالاطراء والثناء بطرق متباينة. والغش الذي مورس بحق رجال متنوعين إن كان من جانب رفقة، أو تامار، أو راعوت، أو راحاب، أومن جانب غيرهن صدم الأديب التوراتي كارول فونتين بوصفه «مكافئاً أخلاقياً»، وخصوصا عندما يستند الاحتيال الى الاغراء الجنسي، أو الى الاغواء الفعلي. كأن تتواطأ رفقة مع ابنها يعقوب،لكي تحتال على زوجها في كسب بركة الابن الأول الى الابن الأصغر ، وذلك عن طريق طبخ طعام لذيذ. وأغوت تامار حماها (عمها والد زوجها) بارتدائها لباس عاهرة. ونفذت راعوت، تحت الحاح حماتها (خالتها أم زوجها) اغواء متقناً لصاحب أرض غني فوق أرض دراسة الحنطة. وراحاب، المومس طيبة القلب، تآمرت مع رجلين من الجواسيس الاسرائيليين، بغية ابعاد جنود الملك الكنعاني.

وكتبت فونتين ان : «المرأة المعطاءة» المشتركة في الطعام، والشراب، والمأوى، تنقلب الى مضللة ، وبذلك تتخلى عن الشكل التربوي المألوف، وتصبح فجأة خطرة على الذكور الذين لايشكون بها ويقعون في شباكها» (6)

وبالطبع، يمكن فهم استخدام الخداع والاغواء من قبل النساء التوراتيات، ويمكن شرحه حتى من قبل نقاد صدوا من قبل مثل هذه التصورات.ولكي نكون عادلين- وصريحين تماماً- علينا الاعتراف بحقيقة أن النساء في عصر التوراة لم يملكن أسلحة غير الحيلة بغية فرض ارادتهن في العالم الواقعي. وكانت المرأة في اسرائيل القديمة في غالب الأحوال زوجة ومحظية، وخادمة، أو عاهرة، وقلما كانت ملكة أو نبية.وفي كل الأحوال فان التوراة ترجمت لكي تمنع استخدام الاسلحة من قبل النساء (سفر تثنية الاشتراع 5:22) ويصرف النظر عن منزلة النساء اللواتي كن يخضعن دائماً لسلطة شخص مذكر، أولاً الأب، ثم الزوج، وأحياناً الابن. وباستثناء دعوتها الى الفراش من قبل الرجل، فقد اقتصر عالمهن على خيم النساء، واقتصرت صحبتهن على النساء الأخريات. لذا وجب الا تدهشنا النساء التوراتيات اللواتي اثبتن وجودهن بوسيلة ما وأجبرن على استخدام تقديم الطعام، أوالمأوى، أو الانجذاب الجنسي، وهي الوسائل الوحيدة المتوفرة لمن تعوزه القدرة لتحقيق غاياته بوسائل أخرى (7)

والجنسانية في التوراة، اذن، صارمة أحياناً في عين الشاهد أو المراقب. وعلى سبيل المثال، تقرأ ناقدة التوراة استر فوتشز قصة زيارة الله لابراهيم عند شجيرات البطم في مامر، حين ضحكت سارة بصوت عالٍ لدى سماعها الله يعد بأنها ستحمل ولداً في كهولتها، وفهمت أن سارة صوّرت من قبل الكاتب التوراتي كانسانة «مقيدة، وسلبية، وجبانة، ومضللة، وغير مؤتمنة»(8) ومع ذلك فان الفقرة ذاتها تفتن الروائي جوزيف هيلر بوصفها جديرة بالاهتمام: فضحك سارة فعل وقح وشجاع من جانب امرأة «طبيعية وطيبة، كريمة، وذات روح عالية» وجعل هيلر الملك داود يقول في كتابه «الله يعرف»: «وأنا لازلت أحصل على متعة كبيرة من ذلك.» (9)

والذي غالباً ما يعاد النظر فيه في هذه المناقشات، هو واقع أن التوراة- والثقافة التي حددتها ووصفتها- عاملت المرأة بحرص أكبر وباحترام أكبر مما

لقيته بصورة عامة في أي مكان آخر في الشرق الادنى القديم. فبنات اسرائيل، على سبيل المثال، كن مؤهلات لوراثة الملكية في ظل ظروف محددة ومعينة (سفر العدد 27 :3-8) ولم يسمح للرجل أن يبيع زوجته في سوق النخاسة (سفر تثنية الاشتراع 14:21) والابنة التي تباع بيع الرقيق مؤهلة للحرية اذا انتهك سيدها مواد شريعة التوراة (سفر الخروج21 :7-11) وكما راينا، فان الأرملة التي لا أطفال لها من حقها الحصول على فوائد استثنائية بزواج (الأخ من زوجة أخيه المتوفي الذي ليس له عقب) (سفر تثنية الاشتراع25 :5-10) (انظر الفصل السابع) ومثل هذا التسامح القليل جداً ربما يؤثر كثيراً على بعض الأفراد المعاصرين، إلا أن واقع النساء كان الى حد ما شاذ في العالم القديم حسبما قالت الأديبة التوراتية جيلا رامسراس روتس (10)

وأكثر من ذلك، فان قراءة للتوراة بعينين مفتوحتين تكشف لنا أن النساء لعبن دورا حاسما وديناميا في مصير النوع البشري، في كل من الجذور التاريخية اليهودية والمسيحية وقررت المرأة على نحو فاصل، وبصورة حتمية، الموضوع المتكرر الحدوث في «ولادة الشخص المختار» بدءاً من أمهات التوراة العبرية وبلوغ الذروة بمريم العذراء في الانجيل المسيحي. وكما رأينا قبل قليل، فان ابنتا لوط وكنة (زوجة ابن) يهوذا يقدمن أمثلة على كيف أن حاملة «الشخص المختار» ليست حاملة سلبية لبذرة الأب (الباطريارك)، بل أخذت تلك النسوة على عاتقهن تحدي ارادة رجلين قويين، وتحدين أحياناً الله نفسه، من اجل جلب المولود الاساسي. وبالفعل، فان التوراة غالباً ما اختارت «المرأة كمبادرة لحدوث الأحداث» حسبما كتبت رامراس روتش. «فمن حواء وعبر سارة واستر، شكلت النساء تاريخاً مقدساً بواسطة الكلمة والفعل».

الله والسادية-النسائية

ومع ذلك، يمكن للمرء أن يشعر بوخز جنساني في أماكن متفرقة من التوراة. و يلفت الانتباه أن امرأة تعرضت للتضحية بصورة تامة مثل محظية اللاوي تتعرض لشيء من اللوم كذلك من جانب الكاتب التوراتي، على الأقل في

ترجمة واحدة للتوراة. وطبقاً للنص الماسوري[1] فان اللاوي ومحظيته في ترجمة رسمية عبرية مبكرة للتوراة أقصيا لأنها «اثارت العاهرة عليه» (سفر القضاة19:12 في الطبعة الانكليزية الخاصة) وبالتالي، وضعت سلسلة من الحوادث المؤسفة في حالة حركة وصلت الى تصعيد مفاجيء وغير متوقع للعنف في تلك الليلة في جبع.

ولكن عبارة «أثارت العاهرة» لم تظهر في ترجمة التوراة السبعونية (وهي ترجمة يونانية للتوراة قام بها 72 عالماً في 72يوماً) واعتبرت بمثابة قاعدة للكثير من الأناجيل المسيحية التي تقول أن المحظية اصبحت غاضبة معه (الطبعة الانكليزية الخاصة) ولذلك أقترح فقط شجاراً تافهاً مابين زوج وزوجته. وبالفعل، فان بالامكان ادراك أن ذنباً ارتكب بحقها، وخصوصاً عندما

أبدى اللاوي حماساً كبيراً لأن يشق طريقه الى بيت أبيها «لكي يتكلم بلطف معها، ويعيدها الى البيت» (الطبعة الانكليزية المذكورة) (13) وعل كل حال، بدا عم اللاوي (والد زوجته) مسروراً جداً لرؤيته في حالة ملاحقة حامية لزوجته[2]. وبالمناسبة، فان واقع أن المرأة وصفت كمحظية، من المحتمل أن لا يقصد منه الكاتب التوراتي النيل من قيمتها. فالمحظية أو السَرية تَعرف تقنياً كـ«زوجة شرعية من الدرجة الثانية» (14) أي المراة التي تخصص نفسها لشخص محدد واحد على وجه الحصر والتي «تستطيع أن تشارك في مظاهر كثيرة من مظاهر الزواج النظامي» (15) والمحظية أو السرية لم تكن مساوية للسيدة (ربة البيت) أو للعاهرة، على الأقل، طبقاً للتقليد التوراتي والشريعة الحاخامية، فالتوراة تعتبر التسري أساساً في الاسرة غير لافت للنظر، إلا أنه اساس شريف جداً، وأربع قبائل من أثنتي عشرة قبيلة في اسرائيل انحدرت من ابناء محظيات يعقوب: إلا أن القراء في الوقت الراهن يميلون الى الشعور بشكل مغاير، وقد ناقشت، على الأقل، ناقدة واحدة للتوراة وقالت بأن السَرية يجب ان تكون قد أعتبرت كنوع من

---

(1) نسبة الى اسهام أديب يهودي في الماسورا التي هي معلومات تاريخية في النص العبري للتوراة (اوكسفورد)

(2) تخيلت لدى اعادة قص قصة المسافر اللاوي ومحظيته، أن عمه(والد زوجته) يصر على استضافة اللاوي يوماً بعد آخر، وبذلك يؤخر سفره، فقط بسبب أن ابنته لم تكن قد وافقت على العودة مع اللاوي الى بيته في سفح جبل افرائيم. (المؤلف)

الرقيق الجنسي: «فهي قانونيا واجتماعيا ليست مساوية للزوجة» حسب فيليس تريبل «إلا أنها عمليا رقيق،ضمنت من قبل رجل لأغراضه الخاصة» (16)

وذهبت تريبل حتى الى أبعد من مجموعتها في قراءات ومراجعات التوراة في نصوص الرعب ، وافترضت أن اللاوي نفسه ربما كان هو قاتل المحظية ولم يكن شريكا فحسب في جريمة قتلها غيرالمتعمدة وغير المتصورة. و تصف التوراة السبعونية بصورة صريحة أن المحظية ماتت عندما وجدها اللاوي خارج بيت الرجل الشيخ في جبع. إلا أن النص الماسوري لايتكلم بلغة صريحة كهذه: فقد قيل لنا أن اللاوي ناداها وهي لم تجبه. ولذا تسألنا تريبل إن كنا نعلل النفس بأمل أن تكون المحظية على قيد الحياة في الصباح الباكر بعدعملية الاغتصاب الجماعي، وبأنها كانت لاتزال متعلقة بخيط العودة الطويلة الى سفح جبل أفرائيم،وماتت فقط عندما أخرج اللاوي سكينه وبدأ العمل في جسدها.

وتسأل تريبل «هل كان المخدوع الجبان قاتل أيضا؟» إن مثل هذه الجرائم والجنح التي ارتكبها اللاوي حقيقية أو متخيلة، هي في النهاية أقل ارباكا من افعال سفك الدماء عنفا ضد نساء صورن وهن ينبضن بالحياة على صفحات سفر القضاة. وصورت آن ميشال تاب ناقدة التوراة عدوان جبع المثال الوحيد الأكثر غرابة (غروتسكية) كـ«نص سادية-نسائية في التوراة»(18) وأن قصتا لوط وابنتيه ويفتاح وابنته هما فقط أقل احباطا بقليل. وكتبت عن كل تلك النساء اللواتي لا اسماء لهن وقصص الحاق الأذى بهن «أنهن سلبيات، ومستسلمات، وعاجزات. ويفترضون أن النساء عشن فقط كمواضيع للمقايضة ، والحاق الاذى بهن، والتضحية بهن من قبل الرجال». والأسوأ -حسبما تصر تاب-أن المثال الأخلاقي لهذه القصص التوراتية كان (وربما لازال) غير موجود وحسب، بل كان عمليا يهدد الحياة. وكتبت تاب «أن الايديولوجيات المعبر عنها من خلال هذه (القصص) هي النيل من قيمة النساء والتطرف»(19)

ومع ذلك، وعلى نحو لافت للنظر بصورة كافية، تفترض عالمة أخرى في التوراة، أن مؤلف سفر القضاة هو امرأة. وأكثر من ذلك، تطلب منا أن نقدرفيما اذا كان العنف الفيزيالوجي والأذى الجنسي الموصوفان في سفر القضاة لم يكونا غريبين جدا، ومنافيين جدا للطبيعة والعقل، الى حد انهما يبلغا مستوى العمل

المتقن للبارودیا[1] .وتتأمل ادريين جانيس بلدستين فيما اذا كان سفر القضاة قد صيغ من قبل «امرأة عميقة التدين تهجي فيه الرجال الذين أثاروا الله»، و«(تستخدم) هذه المرأة الدعاية لتفريغ التكبر والغطرسة» (20) ويرغب العالم التوراتي دافيد بتشانفسكي بتعليل النفس بنفس الانطباع الشخصي المضلل: فهو قد اكتشف «بعض المنظورات النسائية الجذرية داخل التوراة العبرية» ويواصل التخيل بأن سفر القضاة من عمل «امرأة تَخفي تعاطفاً من إلهة، ربما كا نت عشيراه»(21)

وينسب تأليف سفر القضاة، تقليدياً، الى النبي صاموئيل، إلا أن الحكمة التقليدية عند الادباء تقول أن الكتاب جمع من القصص والقصائدالمختلفة لاسرائيليين قدماء من قبل الشخص نفسه (أو، ربما، عدد من الأشخاص) ألفوا سفر تثنية الاشتراع، وهو مصدر يعرف بـ«م» أو المشرع. وفي الحقيقة، فان المشرع (او ان مصدراً يدعى «المؤرخ الاشتراعي» يعتقد انه الف-جمع وحرر- ليس سفر تثنية الاشتراع وحسب، بل أيضاً الأسفار الستة التي تتبعه في التوراة العبرية، ومن ضمنها سفر يشوع، وسفر القضاة، والسفر الأول والثاني لصاموئيل (الملوك الأول والثاني) وسفر الملوك الأول والثاني (سفر الملوك الثالث والرابع)(22)

وربما كان كاتب سفر تثنية الاشتراع راهباً عاش وعمل في قصر الملك أشعيا، وكان ينحدر من الملك داود الذي ظهرت في عهده بصورة غامضة اللفيفة من ورد البردي التي تضم سفر تثنية الاشتراع في المعبد في اورشاليم (23) ويرشح العالم التوراتي ريتشارد اليون فريدمان النبي ارميا المرشح الأكثر احتمالا لأن يكون المشرع، إلا ان بليدستن يقترح أن المشرع- وكذلك كاتب سفر القضاة هو حلدة التي اقرت موثوقية «كل كلمات الكتاب» التي وجدت في المعبد. (سفر الملوك الثاني- سفر الملوك الرابع 22:16) (24)[2]

---

(1) البارودیا: أثر أدبي أو موسيقي يحاكى فيه أسلوب أحد المؤلفين على نحو ساخر (المترجم).

(2) جاء في التوراة: «اذهبوا فاسألوا الرب لي وللشعب ولجميع يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وجد لأنه عظيم غضب الرب الذي اضطرم علينا لأجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا بكل ماكتب علينا. فذهب حلقيا الكاهن وأحيقام وعكبور وشافان الى حلدة النبية امرأة شلوم بن تقوقين حرحاش حافظ الثياب وكانت مقيمة باورشاليم في القسم الثاني

وبصرف النظر عن جنس كاتب السفر، فان الحقيقة الراسخة تقول أن سفر القضاة يصور النساء كبطلات وشهيدات، وضحايا ومنتصرات. وبالفعل، اذا كانت المحظية التي لااسم لها والتي تعرضت لاغتصاب جماعي حتى الموت هي المرأة الوحيدة الأكثر تعرضاً للاضطهاد في التوراة، فان سفر القضاة يقدم لنا أيضامحارية في صفوف الأنصار في عصر التوراة، التي يثار الجدل والأخذ والرد بشأنها، وكانت الوحيدة الأكثر بسالة. وكانت تلك ياعيل، المرأة الوحيدة في التوراة العبرية التي ذبحت عدواً بيديها، ويمكن قراءة قصة هذه المرأة كطباق(لحن يضاف الى آخر) ساخر لعدوان جبع. وظهرت ياعيل من خيمة امرأة، وخرجت ببساطة ووجهت ضربة ضد أسوأ افراط الـ«سادية النسائية».

«خرّ لدى قديها، وسقط، وانطرح»

رويت قصة ياعيل مرتين في سفر القضاة، أولاً، على لسان الراوي، ومرة ثانية في الفاصل الغنائي الذي يعرف باسم أغنية ديبورا وهي «قطعة من الشعر العبري القديم التي لايقدر ثمنها» يعتقد انها من ضمن أقدم القطع الشعرية في التوراة (25) وبالفعل، ربما كانت أغنية ديبورا من بقايا تقليد شفهي وجد بين الاسرائيليين قبل وقت طويل من تفكير أي انسان بجمع الكتاب الذي ندعوه التوراة.

إن ديبورا نبية عملت أيضا كقاضٍ لاسرائيل، وهو مركز سلطة وقيادة في الأيام التي سبقت تتويج ملك على اسرائيل. ودعت ديبورا رجلاً يدعى باراق لكي يقود الاسرائيليين الى المعركة ضد الجيش الكنعاني تحت قيادة قائد قوي ومخيف اسمه سيسرا. وكان باراق جندياً معارضاً، رفض أن يقاتل مالم تذهب معه ديبورا- التي يعني اسمها «نحلة» في العبريةوالتي وصفت بكلمة عبرية غامضة تلمح الى أنها «امرأة من لهب» (26)- قامت بقيادة جيش اسرائيل في ميدان المعركة.

« فقالت له أنطلِق معك غير أنه لايكون لك فخر فيما أنت آخذ فيه فإن الرب الى يد امرأةٍ يدفع سيسرا» (سفر القضاة 9:4)

وفاوضوها. فقالت لهم كذا قال الرب اله اسرائيل قولوا للرجل الذي أرسلكم اليّ. كذا قال الرب هاأنذا جالب شراً على هذا المكان وعلى سكانه جميع كلام السفر الذي قرأه ملك يهوذا .»

وكانت تلك المرأة ياعيل.

وياعيل متزوجة من رجل من القينيين، وهي قبيلة لم تكن في حرب مع الكنعانيين، وقد وصفهاأديب توراتي بأنها «زوجة في بيت بدوي» (27) كانت تقف خارج خيمتها عندما اقترب شخص طويل االقامة. انه سيسرا، الذي فر من الاسرائيليين المنتصرين، متخلياً عن عربة الحرب والجيش الجرار الذي كان تحت امرته. والتمس القائد المهزوم ملجأ عند امرأة عادية عضوة في قبيلة حيادية. «مِل ياسيدي مِل الي لاتخف» قالت ياعيل لسيسرا، وكأن شيئاً كان يجعله خائفا منها- فأكدت له «ألا يخف».

قبِل سيسرا عرض اللجوء، وخبأته تحت قَطيفة داخل خيمتها. فطلب ماء وكان ظمآنا من المعركة والقتال، إلا أنها أعطته لبناً، ربما لكي يهدئه لينام. ونبهها كي تبعد أي شخص يأتي باحثا عنه- ثم نام. فهو لم يعد خائفا من الملاحقين، وشعر، على مايبدو، أنه لم يعد يخاف من المرأة التي ألجأته.

مات سيسرا خطأ. فياعيل التقطت مطرقة ووتد خيمة، ودخلت بهدوء الى الخيمة، وغرزت وتد الخيمة في راس القائد النائم وعندما لاح باراق وهو يبحث عن سيسرا، دعته ياعيل الى الخيمة وعرضت عليه جسدالمحارب. وكان ميتا،مخروقا راسه بوتد مغروس في الأرض[1].

تكرر أغنية ديبورا شعرا يجب أن يكون قد هز الحضور طرباً- ولازالت له القوة على هزنا.

ولتبارك بين النساء ياعيل امرأة حابر القيني

لتبارك على جميع الساكنات في الأخبية

طلب ماء فأعطته لبنا،

في قصعة الأعزاء قدمت زبدة،

---

(1) كان سلاح ياعيل -مطرقة ووتد خيمة- يتطابق مع ما أملاه سفر تثنية الاشتراع22:5 «لاتكن أدوات الرجال على النساء» أي أن لاترتدي النساء مايناسب الرجال، حسب ترجمة الحاخاميين. ويعني ذلك أن المرأة محرم عليها استخدام السيف، او الحربة،أو الخنجر. وفي مكان آخر من سفر القضاة، جرح أمير اسرائيلي شرير اسمه أبيملك جرحاً بليغاً بحجر طاحون أسقط فوق رأسه من قبل امرأة ، فأمر أبيملك الغلام حامل سلاحه أن يقضي عليه بالسيف لئلا يقال «عني أن امرأة قتلته» (سفر القضاة9 :53-54)

قبضت كفها على وتد،

ويمينها على ميتدة الصناع

وضربت سيسرا فشدخت رأسه

وحطمت وخرقت صدغه.

خر لدى قدميها وسقط وحيث خر سقط صريعاً (سفرالقضاة5:24-27)

تحدث ياعيل أسوأ مخاوفنا مما يحتمل أن يحدث عندما يواجه جندي امرأة وحيدة، إن كان في اسرائيل القديمة أو في البوسنة حالياً: ونتوقع أن المرأ قوقعت تحت خطر الاغتصاب. ولكن هنا كان الجندي واقع في دائرة الخطر. «وعلى عكس الأغتصاب» حدث الانقضاض، حسب تعبير الاديبين التوراتيين دانا تولان فويل ودافيد م.غان ، وهما قرءا النص العبري لكي يقولا أن ياعيل غرزت سلاحها في أحد فتحات جسم سيسرا بدل رأسه. وكتبا «إن التوقع الأبوي انقلب رأساً على عقب. باعتبار أن فم المحارب خرق بوتد قضيبي لايخطيء»(28) والتناقض بين ياعيل ومحظية اللاوي المسافر كان فاجعاً، إلا أنه، بطريقة ما كان مريحاً بدرجة عالية أيضا: فالمحظية ضحية بل اسم للعنف ضد النساء، ضحية زوجها وضحية الرجال الذين تخلى لهم عنها، ولكن ياعيل محاربة شجاعة وواسعة الحيلة سيطرت على المحارب القوي من غير مساعدة. ومن الجدير بالملاحظة، أن ياعيل تصرفت لكي تصون «راية ايمان» اسرائيل عندما مثَل جمهور الرجال بالخائف باراق، وهو يمتنع عن حمل الراية الى المعركة(29)

واختيار المؤلف التوراتي أن يضع كلا القصتين في السفر نفسه هو بحد ذاته تهكم قوي. فالمحظية التي لا اسم لها كانت ضحية اغتصاب جماعي كان زوجها شريك فيه، إلا أن ياعيل كانت بطلة رواية يمكن فهمها كـ«مرافعة ضد الاغتصاب» حسب ما أشارت العالمة المعاصرة في التوراة سوزان نيديتش. ويمكن رؤية صورة سيسرا وهو ملقى ميتاً عند قدميها كـ«باروديا بشعة لانقضاض عسكري على نساء عدو مهزوم» (30) و«نظرة تهكمية على عادة الاغتصاب للأمومة المبجلة دائما» (31) وتلون لحظة موت سيسرا على يدي ياعيل حسية مشؤومة في كل من الأصل العبري للغنائية، أو في ترجمة نيديتش الى اللغة الانكليزية:

مابين قدميها خر، وسقط، وانطرح

مابين قدميها خر وسقط

وحيث خر، سقط صريعا (سفر القضاة 27:5) (32)

أول الحاخاميون القدماء الشعر لكي يعني أن ياعيل عانقت سيسرا في وصال جنسي سبع مرات قبل أن تقتله! (33) والواقع أن الكلمات نفسها التي استخدمت من قبل كاتب توراتي في وصف المواجهة بين ياعيل وسيسرا تشدد على التفاعل مابين إيروس (اله الحب عند الاغريق) وثاناتوس (تشخيص الموت عند الاغريق)،الجنس والموت.والكلمة العبرية لـ«سيقان» أو «أقدام» كما رأينا، هي تورية توراتية عامة للأعضاء التناسلية، إن كان للذكور أو الاناث.ولـ«مابين ساقيها» تحاكي التخويف من البلاء الذي سيصيب اسرائيل اذا لم يطاع الرب بصورة صارمة «بعد ولادة تخرج من مابين قدميها وأطفالها الذين حملت بهم «قال موسى في سفر تثنية الاشتراع» ستأكلهم في السر (سفر تثنية الاشتراع 57:29-الطبعة الانكليزية الخاصة) ويتذكر موسى كلمات أيوب البائس «وقع أو ركع أو انحنى» الذي يتصور زوجته تقوم بخدمة رجال آخرين بكل معنى الكلمة «ربما كانت زوجتي تطحن لآخر» قال أيوب «وربما وقع الآخرون عليها!» (سفر أيوب10:31) وتقول الآية في الترجمة العربية «فلتطحن امرأتي لآخر وليقع عليها آخرون». وانتهى سيسرا القوي spoiled التي ترجمت «صريعا» من قبل امرأة- وهي كلمة استخدمت في مثال آخر في التوراة في وصف هزيمة عدو مكروه في المعركة (ارميا4:47) وبصدد بغاء اسرائيل الكافرة: «وأنت أيتها الخربةspoiled ماذا تصنعين؟» شكا النبي ارميا قائلاً: «إن لبست القرمز إن تحليت بالذهب..ان العشاق قدرذلوك انما يطلبون نفسك» (ارميا4:30)

وكأن التشديد على التضاد المروع للأدوار التقليدية في قصة ياعيل-والحقيقة أن المرأة هي المنتصرة والرجل هو المهزوم-وتنتهي اغنية ديبورا بمشهد في البيت مؤثرا إلا أنه ساخر بحدة حين نجد أم سيسرا منتظرةبلا جدوى عودة ابنها من المعركة «لماذا بطؤت مراكبه عن الوفادة؟» قالت أمه المضطربة وسعت احدى الأميرات من وصيفات المرأة العجوز لكي تطمئنها بافتراض أن سيسرا كان منتصرا في المعركة وانه الآن يقسم غنائم الحرب، التي تتضمن «فتاة فتاتان لكل

بطل» (سفر القضاة5:30) والكلمة العبرية ترجمت بصورة مختلفة كـ«نسة damsel» في طبعة و«خادمةwench» في طبعة ثانية، أو فتاة maiden» في ترجمة ثالثة، أو«بنتgirl» في ترجمة رابعة. وقد ترجمت بقوة أكبر من قبل علماء توراة معاصرين: «رحم» وهي الترجمة الحرفية للكلمة العبرية.إلا أن ادريان ج انيس بليدستن يصر بشدة على اعطاء ترجمة خشنة وعدوانية إلا انها اصطلاحيا صحيحة -cunt امرأة (باللهجةالعامية)-من أجل مواجهتنا بحقيقة أن سيسرا، لو انتصر، لكان اعتبر النساء في اسرائيل كلا شيء أكثر من غنيمة لكي تستخدم وتطرح بنفس الطريقة التي أذى بها رجال جبع المحظية. وما يدعو الى التهكم أن سيسرا وقع ضحية لياعيل، وليس بالعكس. وكتب بليدستن أن «قليلاً من النساء المتعجرفات عرفن أن امرأة من «النساء cunt» قطعت رقبة البطل » (35)

و ياعيل امرأة فريدة بين النساء في التوراة في استخدامها سلاحاً في قتل عدو ذكر بيديها، ولكنها كانت مخادعة أيضاً حسب تقاليد رفقة، وراعوث. وحسب التوراة قدمت الطعام والملجأ بغية جذب سيسرا الى خيمتها. ورسم الكاتب القديم المعروف باسم بسيدو-فيلو (الفيلسوف الزائف) مشهداًرهيباً أكثر حين خلطت راعيل فيه اللبن بالخمر، ونثرت زهرة التبلة التويجية فوق فراشها لاحداث إغراء أكبر(36). ويحفظ الحاخاميون تأريخاً يقول أن ياعيل أعطته حليباً من صدرها «وسلمت نفسها لرغبة سيسرا» كـ«معنى يؤكد أنها امسكته وقتلته»(37) ويذكرنا وقوع سيسرا ميتاً عند قدمي ياعيل في الخيمة حين طلب اللجوء، بالمحظية التعيسة عندما وقعت ميتة ، أو عندما ماتت، عند باب البيت الذي التمست فيه اللجوء -وتم فرض عدالة معينة فظة.

دعاية سوداء

جمعت أقدم القصص في التوراة، أو هكذا يقول الرأي الجماعي للدراسات التوراتية الحديثة، أولاً، ومن ثم كتبت في وقت بعد 1000سنة على المشاعية العامة، إما أثناء أو بعد وقت قصير من حكم داود كملك على المملكة المتحدة ليهوذا واسرائيل. وقد حرر قسم كبير من التوراة وتمت مراجعته أثناء حكم الملوك الذين انحدروا من بيت داود وخلفوه على العرش. ولذلك لايدهشنا أن

عددا كبيرا من الكتاب التوراتيين اعتبروا داود أهم شخصية في التوراة-وهو يصور حتى في عدوان جبع، و أن كان في نص ثانوي مخبوء مابين أسطر الكتاب المقدس. ولم يذكر اسم داود فعلاً في سفر القضاة، الذي يصف الفترة المشوشة حين «لم يكن هناك ملك في اسرائيل». وبالفعل، سعى كتاب سفر القضاة لإقناع الاسرائيليين بوجوب اخضاع أنفسهم لسلطة ملكية، عن طريق عرض تفاصيل ممرضة لما يمكن أن يحدث إن لم يكن عندهم ملكاً. وفي الوقت الذي نصل فيه الى آخر وأسوأ شيء كريه في سفر القضاة، وهو الاغتصاب الجماعي الذي يؤدي الى حرب أهلية وشبه ابادة جماعية، يصبح مغزى القصة جليا واضحا. قال الرجل الشيخ الذي قدم الى الرعاع ابنته وسرية ضيفه: «اصنعوا بهما مايحسن في عيونكم» وبذلك نسمع صدى العبارة او الفكرة الرئيسية التي نجدها أكثر من مرة في سفر القضاة: «وكان كل انسان منهم يعمل ما حَسُنَ في عينيه.» (سفر القضاة 25:21)

ولكن ثمة نص ثانوي آخر أكثر مكرا ودهاء في سفر القضاة، وبالتحديد، في عدوان جبع- وهو الهجوم على الرجل الذي سيصبح أول ملك لاسرائيل، الملك الفاشل الذي سيمسح بالزيت ومن ثم يهجره الله، الرجل الذي سيحل محله على العرش داود المجد. وذلك الرجل، بالطبع، هو شاول. وهكذا يمكن فهم قصة اللاوي المسافر ومحظيته كـ«هجوم على شاول» (39) - وهو جهد بذله الكاتب التوراتي للتنبؤ بالخلل الأخلاقي والفشل السياسي للملك شاول، من أجل تسويد سمعته وتلطيخ اسمه، وبذلك تجري تهيئة القارىء لمسح المنافس داود ، كملك منقذ.

وتم تأريخ صعود وهبوط شاول-والملحمة (ساغا) أي حياة داود المميزة- في الأسفار التي تلت سفر القضاة في التوراة العبرية: في صاموئيل الأول والثاني(الملوك الأول والثاني) ، والملوك الأول والثاني (الملوك الثالث والرابع)، وفي سفر أخبار الايام الأول والثاني. غير أن الكاتب التوراتي استخدم سفر القضاة لإعدادنا لتلك الاحداث الخطيرة في تاريخ اسرائيل. وفوق كل ذلك ، شعر المؤلف أنه مجبر على شرح لمَ كان شاول غير جدير بالجلوس على عرش اسرائيل ويستحق أن يحل محله داود. وبالنسبة لقراء التوراة في اسرائيل القديمة، فان

النص الثانوي لعدوان جبع وما بعدها كان يجب أن يكون بسيطاً وحتى هزلياً نوعاً ما، مع أن لا داود ولا شاول ذكرا في سفر القضاة.

إن «ابناء الجحيم» الذين هددوا بمضاجعة اللاوي و الذين قاموا بالاغتصاب الجماعي لمحظيته هم رجال من قبيلة بنيامين- وكذلك شاول وجبع هي المكان الذي حدث فيه الهجوم على اللاوي وعلى محظيته، وجبع هي موطن شاول وعاصمة مملكته. وللتأكد من أن القارئ لم يغفل عن مشهد الجريمة ، فقد تدبر الكاتب أمر ذكر اسم المدينة اثنتي عشرة مرة في ثلاث فقرات مقتضبة (40)

ومجمع القبائل حيث خطط لحرب الابادة ضد البنياميين عقد في المصفاة، وهو نفس المكان الذي سيدعو منه صاموئيل، فيما بعد، لعقد اجتماع القبائل فيه ويعين شاول كأول ملك لاسرائيل. وشاول نفسه، بالمناسبة، يضيع في اللحظة الحرجة، مما أجبر النبي المرتبك على الاستفسار من الله عن مكان شاول: «هل سيرجع الرجل؟» سأل صاموئيل العلي القديرعلى انفرادبشكل مضحك وأشارالله أن «هوذا اختبأ بين الأمتعة» (سفر صاموئيل الاول 10: 22-23)

ويابيش- جلعاد هي المدينة التي ذبح سكانها واختطفت بناتها العذارى وأعطوا الى الباقين على قيد الحياة من البنياميين- والهجوم على يابيش-جلعاد من قبل العمونيين هو الأزمة الاولى في حكم شاول كملك على اسرائيل. وعند نهاية حياته، حين قتل شاول نفسه لكي يتجنب الاسر في المعركة، أعاد شعب يابيش-جلعاد جسده من ميدان المعركة ودفنوا بقاياه تحت شجرة. (سفر صاموئيل الاول 31 :12-13)

ولاقناع قبائل اسرائيل بالقيام بحرب ضد البنياميين، قطع اللاوي المسافر محظيته القتيلة وأرسل قطعة من جسدها الى كل قبيلة، كدعوة مروعة الى السلاح. وهكذا، أيضاً، فعل شاول، قطع زوج من البقر وأرسل القطع الى القبائل بغية اجبارها على الانضمام اليه في قتال العمونيين: «كل من لايخرج وراء شاول وصموئيل هكذا يصنع ببقره». (سفر صموئيل الأول11:7)

وأخيراً، عندما سأل الاسرائيليون الله أن يعين القبيلة التي ستقودهم الى المعركة ضد البنياميين، قال الله: «يهوذا أولاً» وشاول، أول ملك على اسرائيل، هو عضو في قبيلة بنيامين- وداود، الرجل الذي سيخلفه على العرش، عضوفي قبيلة يهوذا.

ويمكن فهم سفر القضاة، اذن، كمرافعة طويلة لصالح الملكية أمام الشعب الذي حكم الى ذلك الوقت من قبل الآباء والأنبياء، والقضاء، ليس غير. وتصرف الاسرائيليون بصورة مقيتة، حسب ماقدم لنا لكي نفهم.فقد جنحوا عن العقيدة الصحيحة، وفي النهاية، هاجموا بعضهم بعضاً بدرجة من البربرية سبقت أسوأ افراط من أعدائهم. وليس غير الملك سيكون قادراً على انقاذهم من أعدائهم ومن أنفسهم- ولكن، وحسب ما بدا ،فان سفر القضاة قد تنبأ، أن الرجل الأول الذي سيجلس على عرش اسرائيل، سيفشل.وهكذا فان المشهد أفتتح لأعظم ملك في تاريخ اسرائيل والبطل الحقيقي للتوراة.

الفصل الرابع عشر
تامار وأمنون

«هكذا قال الرب إني مثير عليك الشر في بيتك..»
(سفر صاموئيل الثاني (الملوك الثاني)11:12)

جلس أمنون مكتئبا في أقصى مأدبة طويلة وهو يمضغ قطعة من الخبز ويحملق مغضبا، بين الآونة والأخرى، بوالده، الذي كان يلقي خطبة ويؤشر بيدية وينطق كلمات كبيرة وهو على رأس المائدة.

ومع أنه كان أكبر أولاد الملك والوريث الظاهر لعرش اسرائيل، فقد كان أمنون شابا مربكا. وثبتت تقطيبة فوق ملامحه الداكنة، وتوهجت عينيه البنيتين بضوء غريب خاص، وكأن نارا اشتعلت في داخلهما. ورأى كل من كان في قصر الملك داود تعاسة أمنون- زوجات الملك وقواده، ورهبانه، وحتى خدمه، كلهم، باستثناء الملك نفسه.

فلقد كان لداود ابناء كثيرين وقلما مل من النظر الى أي منهم. وكان يحاط في معظم الأحوال إن لم يكن في كل الأحوال، بحشد صغير من الحاشية، الذين يتنافس أفرادها على جذب انتباهه. وحتى عندما يجد الملك نفسه على مائدة واحدة مع أمنون، وقلما حدث ذلك، كان لديه الكثير من الأمور الاخرى التي يضعها في عقله . فالحرب الطويلة ضد العمونيين انتهت أخيرا بالنصر المبين، ووضع داود فوق رأسه التاج الذهبي الذي توج رأس ملك عمون نفسه ذات مرة.إلا أن داود لم يستطع أن ينسى الكلمات الرهيبة لذلك النبي الكهل والصارم ناثان، الذي أحزن الملك داود بالرسائل المقلقة من الله، حتى في لحظات أعظم أمجاده.

«فلماذا ازدريت كلام الرب وارتكبت القبيح في عينيه؟ قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت زوجته زوجة لك وإياه قتلت بسيف بني عمون. والآن فلا يفارق السيف بيتك الى الأبد جزاء أنك اذدريتني وأخذت زوجة أوريا الحثي لتكون

زوجة لك. هكذا قال الرب إني مثير عليك الشر في بيتك..» (سفر صاموئيل2- الملوك2-12 :9-11)

«لن يفارق السيف بيت داود الى الأبد» قال ناثان، وهو يقتطف كلمات العلي القدير حسبما نَطقت الى النبي في رؤية أخرى من رؤاه الكئيبة. «إني مثير عليك الشر في بيتك.» وكلمات التحذير هذه لم تكن أبدا بعيدة عن أفكار داود، حتى وهو يلقي خطاباً على المائدة مع أيضا تصعير آخر بخده ورواية بذيئة قليلاً عن الأيام التي كان فيها راع متواضع ولم يكن قد صار بعد ملكاً وانخبل الملك بروايته، وانتفخ بالطعام الدسم وربما بقليل من الشراب، فألقى نظرة شاملة على المائدة دون أن يتوقف لينظر الى آمنون.

ولا أمنون نظر الى والده بالاهتمام الكبير الذي أبداه الآخرون حول المائدة، الذين أصغوا الى قصة الملك المألوفة وكأنهم يسمعونها للمرة الاولى، وضحكوا بإعجاب على طرفة قديمة. وما أثار اهتمام أمنون هو الفتاة الجالسة على يمين الملك، المكان الذي شعر أمنون أنه كان يجب أن يَجلس فيه. وكانت تامار ابنة الملك، اخت أمنون من أبيه، تبتسم بسرور جلي كلما انحنى الملك لكي يهمس في أذنها. وضحكا ، بين الحين والآخر، لطرفة سرية- واحترق شيء في قلب أمنون في كل مرة رأى رأسيهما يتلامسان.

وكان واضحا أن الملك كان مسروراً بصحبة ابنته، التي كانت تصرفاتها الحلوة وطبيعتها السمحة متناقضة مع متطلبات وشكاوي أبنائه. وكان لدى داود عدد كبير من الأولاد، وكانوا كلهم معوزين ومزعجين بطريقة أو بأخرى، إلا انه كان أباً لابنة واحدة. وكان اسمها تامار، وكان كل انسان، وحتى الملك نفسه- يعلن كم هي جميلة جداً.

«وكان عند المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرآى على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل له هذه بتشابع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت عليه فدخل بها .ورجعت الى بيتها.» (سفرصاموئيل2-الملوك2، 11:2-4)

لم يعرف الملك بالأمر، إلا أن الكلمات الكئيبة للنبي ناثان همسوا بها في كل أنحاء اورشاليم باعتبارها آخر قطعة إشاعة عن أعمال داود الملك القذرة مع

امرأة اسمها بتشابع. وكان أمنون بين أوائل من سمعوا بالحادثة،على الأقل بسبب أن أكثر من شخص في الحاشية قد بدأ منذ فترة بتشجيع الاعتقاد الراسخ بأن أمنون سيخلف الملك داود على العرش.

وحسب ماتم أثناء تناقل الاشاعات، فان الملك داود قام بالتجسس على بتشابع من بعيد عندما كانت تستحم فوق سطح بيتها. فلم يلمه أحد على ذلك- وفي الواقع، فان راهباً ضحك ضحكاً نصف مكبوت وهو يلمح الى أن بتشابع أرادت بكل معنى الكلمة أن تجتذب عين الملك بعرض نفسها بوقاحة، عارية ومبللة، ضمن مجال الرؤية الواضحة من سطح القصر، حيث كان معروفاً أن داود يستنشق نسيم الليل العليل من وقت لآخر. والحق، أنه لم يكن غير عادي لبعض الصبايا سريعات الاهتياج من اورشاليم أن يتسكعن في الشوارع ويوجهن أحاديثهن الى القصر ويصرخن منفعلات بانتظار أن يظهر الملك الوسيم على الأسوار فوق رؤوسهن.

وبالنسبة الى بتشابع، على كل حال، فان الملك نفسه كان متيماً ومغرماً. ولذلك أرسل أحد مرافقيه الأكثر احتراسا لكي يدعو بتشابع الى غرفة النوم الملكية-و مثل الكثير جداً من النساء الأخريات في الكثير جداً من أمسيات الصيف الحارة- لم ترفض. ومع ذلك، وبعيداً عن زوجات داود وعن عدد قليل من الرهبان المعترضين، لم يعتبر أي شخص في القصر الملكي أن العلاقة الجنسية غير الشرعية بمثابة اثم، حتى لو كان زوج بتشابع، واسمه اوريا، يخدم في جيش الملك في الحرب ضد عمون حين كانت تستلقي زوجته في فراش الملك.

«وحملت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنني حامل. فأرسل داود الى يوآب أن ارسل إلي أوريا الحثي فأرسل يوآب أوريا الى داود. فجاءه أوريا فاستخبره داود عن سلامة يوآب والشعب وعن الحرب. ثم قال داود لأوريا انزل الى بيتك واغسل رجليك. فخرج اوريا من بيت الملك وخرج وراءه طعام من عند الملك. فرقد اوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل الى بيته. وأخبر داود أن أوريا لم ينزل الى بيته فقال داود لاوريا أما جئت من السفر فما بالك لاتنزل الى بيتك. فقال اوريا لداود إن التابوت واسرائيل ويهوذا مقيمون في الخيام ويوآب سيدي وعبيد الملك سيدي نزول على وجه الصحراء وأنا أدخل بيتي وآكل وأشرب

وأدخل على أهلي. لاوحياتك وحياة نفسك إني لاأفعل هذا.» (سفر صاموئيل2- الملوك2،11 -5-11)

«فقال داود لاوريا امكث اليوم وغداً أصرفك فبقي اوريا في اورشاليم ذلك اليوم وغده. فدعاه داود فأكل بين يديه وشرب وأسكره وخرج مساء فاضطجع في مضجعه مع عبيد سيده والى بيته لم ينزل.» (سفر صماموئيل2-الملوك2 11 :12-13)

إلا أن الاشاعات أصبحت ساخنة أكثر عندما مر شهر لأنه كان على بتشابع أن تطهر نفسها في طقس الحمام، وأوضحت أن معها طفل. وأصيب الملك بالذعر، ووضع خطة شيطانية تَحمل اوريا مسؤولية الحمل. واستدعى الملك اوريا من ميدان المعركة البعيد الى القصر الملكي بالحجة المضحكة بسؤاله إن كان الجيش جيداً وان الحرب تسير بشكل حسن. «نعم بصورة حسنة» أجاب الجندي المرتبك الذي يقوم بواجبه.فأشبع الملك حب استطلاعه، وألح على اوريا أن ينتفع من فراشه وزوجته مادام في اورشاليم. ولازال اوريا مرتبكاً، ورفض اقتراح الملك وقال: «إن رفاقي يخيمون في ميدان المعركة، فكيف اذن، آكل أو أشرب مرتاحاً وأنام مع زوجتي؟»

وهكذا ثابر الجندي المخلص، ليلة إثر أخرى، على النوم على باب غرفة النوم الملكية مع الخدم، وكان في ذلك ترويع كثيرٌ للملك نفسه. ولم تستطع كمية كبيرة من خمر الملك أن تضعف تصميمه: شرب الجندي الشجاع حتى ثمل إلا أن لم يبتعد عن باب بيت الملك. وأخيراً تخلى الملك عن هدفه في الاغواء وأعاد أوريا الى ميدان القتال في خدمة خطة شريرة أكبر لحل مشكلة بتشابع الحاملة.

وفي الليل قبل عودة اوريا الى الجبهة، كتب الملك رسالة قصيرة الى يوآب، قائد جيشه في عمون، قال فيها: «ضع اوريا في المعركة حيث يكون القتال ضارياً، ومن ثم اطلب من رجالك أن يتراجعوا وبذلك يبقى وحده.» ولم تكن الرسالة خاطئة: كان المقصود أن يموت اوريا وحده على أيدي العدو. وختم داود الرسالة بنفسه، وسلمها الى اوريا وهو على ثقة تامة بأنه لن يحاول أن يفتحها ويقرأها، وأرسل الجندي المطيع الى الجبهة مع حكم بموته يحمله بيده.

«فلما كان الصبح كتب داود الى يوآب كتاباً وأرسله بيد اوريا. وكتب في الكتاب

قائلاً وجهوا اوريا الى حيث يكون القتال شديداً وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت.» (سفر صاموئيل 2-الملوك 2، 11: 14-15)

«وقال الرسول لداود: «وقتل أيضاً عبدك اوريا الحثي» فقال داود للرسول: كذا تقول ليوآب لايسؤك ذلك لأن السيف يأكل هذا وذاك. شدد قتالك على المدينة وأخربها..» (سفر صاموئيل2-الملوك2، 11: 23-25)

ومن ثم، عندما أرسل يوآب كلمة الى الملك داود أن أوريا قتل في القتال تحت جدران قلعة عمون، رسم داود تعبير حزن على ملامحه الوسيمة.

«لاتحزن على أوريا- لأن السيف يبيد بطريقة من الطرق، وأحياناً بطريقة غيرها». وطلب الملك من مراسله أن يخبر القائد لدى عودته الى الجبهة أن «شدد حصارك على المدينة وسويها بالأرض».

وقام القائد بفعل ما قيل له، وسقطت قلعة العمونيين في النهاية، وكانت الغنيمة في طريقها الى اورشاليم بعد فترة قصيرة. فتوج داود نفسه بتاج المنتصر-وأخذبتشابع، مع حملها، كآخر زوجة له. وباستثناء النبوءات المتشائمة للنبي ناثان، فان مستقبل داود وبيته بدت مجيدة بالفعل، مجيدة تماماً مثلما وعده الله بنفسه.

وكلما تفكر أمنون بالطريقة الحقيرة التي ضمن بها أبوه بتشابع كزوجة أخيرة له، عانى من غثيان بدا يتدحرج من معدته ويصعد الىحنجرته. فها هنا نجد زوجة جديدة في جناح حريم ملكي، وأيضاً ابن آخر في الحاضنة الصاخبة بالأصوات الملكية المطالبة بالغذاء. وقال أمنون في نفسه ان الرجل وحش لايشبع، ومغازل صفيق لايخجل ليس له مكاناً في العرش يقعد فيه. وعندما يموت الملك أخيرا - بطريقة أو بأخرى-ويأتي دوره في الحكم، قال أمنون لنفسه، سيميزه شعب اسرائيل ويمجده كرجل خير، وملك مستقيم.

واشتعلت مثل هذه الأفكار في رأس أمنون وهو يمضي الساعات الطوال واقفاً على نافذة المنزل المخصص له في المجمع الملكي. وطالما أن الملك أعطاه شيئاً آخر لكي يفعله، فقد راقب أمنون التابعين الذي يركضون الى الأمام تارة والى الوراء تارة أخرى عابرين باحة القصر التي تحف بها البيوت الملكية- قادة عسكريون، ورهبان، ونساخ بأعداد كبيرة، وأحياناً تجد سيداً صاحب أملاك واسعة

وهو في طريقه الى غرفة العرش حاملاً في يده التماساً أو عريضة. وتجد بين الحين والآخر موكباً من المحظيات يتوجه نحو القصر تحت حراسة جنود مسلحين. وتجد دائماً حشداً من الخدم والحشم يتزاحمون بصورة عشوائية.

وتابع أمنون النظر وكأنه في غشوة وتخيل اليوم الذي سيقومون بخدمته بدلاً من خدمة أبيه.

ووقع نظر امنون بين حين وآخر على رجل محدد لايمكن تجاوزه ببساطة حتى في وسط الازدحام، انه شكل ابشالوم، احد اخوته الكثيرين من أبيه، ابن احدى زوجات داود ماكاه.وكان أبشالوم أصغر من أمنون، إلا انه بدا أنه يفوق أخيه الكبير في أمور كثيرة أخرى.فأبشالوم كان أطول، وأجمل، وكان أقوى، ولبقاً أكثر، ولطيفاً أكثر، ولذلك كان محبوباً أكثر من جانب الحاشية. ولسوء حظ امنون فان أبشالوم اعتبر من قبل أكثر من مشتغل في قصر داود مرشحاً واعداً بأن يكون الملك التالي لاسرائيل أكثر من أمنون نفسه، الوريث الشرعي.

ولتخفيف توتر أعصاب أمنون لم يلتق مع أبشالوم إلا في المناسبات الرسمية، وهو لم يجدسبباًيدعوه للبحث عن أخيه من أبيه.

وأجبر على التفكير بالسبب الذي جعل أبشالوم يبدو دائماً ذا طبيعة خيرة وروح عالية،فقط حين رآه أمنون في باحة القصر المزدحمة ، في حين أنه هو نفسه، الملك المقبل لاسرائيل، وكان دائماً مغضباً جداً ويائساً.

وفي ذات يوم، حين كان أمنون ينظر من نافذته الى الباحة رأى أبشالوم والهيئة المألوفة المكافئة له هيئة تامار، حين خرجا من القصر واتجها لعبور باحة القصر في اتجاه بيت أبشالوم. وكانت تامار مثل أبشالوم ابنة ماكاه، وهي تشترك مع أخيها في الملامح الفاتنة والمشية الرشيقة. وكان أمنون قد شب في البيت نفسه مع الاثنين، إلا أن تامار ظلت على مقربة من ابشالوم وسمحت له أن يحميها من مداعبة أبناء الملك الآخرين اللعوبين. ومن ثم خصص لأبشالوم وأمنون منزلين من قبل الملك، ولم تكن تامار قد تزوجت، بل لازالت تعيش في القصر . لذا لم يلتق أمنون أخته من أبيه إلا في المناسبات الرسمية عندما يلتقي كل منهم لكي يصغي لحكايا الملك القديمة المضجرة.

وفي ذلك اليوم، من ناحية ثانية، وجد أمنون نفسه يحدق بتامار باهتمام

جديد. فقد راقبها من نافذته العالية وهي تمشي بخطوات واسعة وهي تعبر باحة القصر، ترفع نظرها الى فوق الى أبشالوم وتضحك من شيء قاله لها. ولاحظ امنون أنها أطول مما كان يتذكر، وأن شعرها أطول، وجسمها نسائياً أكثر. وكانت ترتدي عباءة أميرة ملكية- انيقة، وملونة، وحاجبة-غير أن الأكمام الطويلة والثنيات الواسعة للتنورة لم تخف تماماً عن عيني أمنون اغراء معيناً في أطرافها ووركيها. وبالفعل، لم يرفع أمنون عينيه عن أخته من أبيه حتى غابت في بيت أبشالوم في الطرف الأقصى من الساحة الملكية.

«وكان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها تامار فكان بعد ذلك أن امنون كلف لها.» (سفر صاموئيل2-الملوك2،1:13)

«وتدله أمنون حتى سقم في تامار أخته لأنها كانت عذراء فكان يعسر عليه أن يصنع شيئاً. وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعة أخي داود وكان يوناداب رجلاً ذكياً. فقال له مالي أراك يابن الملك تنحل يوماً فيوماً الا تخبرني. فقال له أمنون قد كلفت بتامار أخت أبشالوم أخي.» (سفر صاموئيل2-الملوك2، 13 :2-4)

شعر امنون عندما غابت تامار عن انظاره انه مريض بصورة مبهمة وقلقاً. وابتلع بصعوبة وكأن شيئاً كان يمسك بحنجرته- وهو احساس ليس لايشبه الاحساس الذي شعر به عندما تذكر مآثر أبيه مع بتشابع والرضيع الذي أخذ يكبر في رحمها. غير أنه كان واع لشيء آخر أيضاً: فقد تقطعت أنفاسه عندما تخيل حركة ساقي تامار الطويلتين وهي تسير عابرة الساحة، وتخيل ما يمكن أن تشبه، اذا مس شعرها الأسود الطويل أو لمس بشرتها برؤوس أصابعه.

وقطع عليه خادم سلسلة أفكاره، إلا أن أمنون لوح بيده مبعداً الطعام والشراب الذي قدم له. وبعد ذلك، بعد الظهرظهر الخادم مع وجبه أخرى. فلوح له أمنون لكي يبتعد مرة ثانية، وجمع صحن الطعام الذباب على أرض الممر امام غرفته. وأخيرا، نزع أمنون ملابسه وانزلق الى فراشه. ونهض في اليوم التالي مبكرا وأمضى نهاره على الشباك، على أمل الحصول على نظرة من تامار في باحة القصر. وفي اليوم الثالث لسهره كان الخدم قلقون بشكل كاف من سرعة أمنون المتعذر تفسيرها في ارساله للرجل الوحيد الذي يعرفون أنه صديقه، وهو ابن عمه يوناداب.

وقال يوناداب بشكلية ساخرة وهو يشق طريقه الى منزل أمنون: «ياابن الملك! لم تجلس كئيباً كل صباح. فقد نحلت كثيرا بسبب نقص الطعام! فما الخطب؟»

«إنها تامار» قال أمنون دون أن يلتفت مبعداً رأسه عن النافذة.

«تامار؟» كرر ابن عمه. «أختك؟» «ما بها؟»

فجلس أمنون صامتاً للحظة، ثم وقف وواجه ابن عمه.

«تامار» قال بصوت شديد «اخت أبشالوم»

« لذا قل لي ماذا بشأن تامار» وواصل يوناداب الكلام مثابراً «التي جعلتك تتصرف كما لو كنت مصاباً بالطاعون».

وقال أمنون ببطء: «أعتقد انني وقعت في غرامها.»

ضحك يوناداب بصوت عالٍ - ومن ثم، انقلب ضحكه الى نوبة سعال مفاجيء وابتعد بنظره بارتباك حين رأى التعابير الحزينة فوق وجه أمنون. وتمتم قائلاً لنفسه: «ان الطاعون أفضل من الوقوع في غرام اختك.»

وطلب أمنون: «حسن، وما المفروض بي أن أفعل؟ فأنا لاأستطيع ان آكل ولا أستطيع أن أنام. وكل ما أستطيع فعله هو التفكير بكيف أجلبها الى غرفة نومي!»

فكر يوناداب بهذه الكلمات الصادقة لفترة. فقد كان صديقاً حميماً لأمنون، وربما كان صديقه الوحيد، وأمنون سيصبح ملكاً في يوم من الأيام. وهكذا قرر يوناداب أن يتصرف كما ينبغي أن يتصرف صديق ملك المستقبل!

وقال: «ضع نفسك تحت الأغطية، وتظاهر أنك مريض.»

«أنا مريض» قال أمنون ببؤس.

«ونحن سنرسل كلمة الى أبيك بأنك متوعك» واصل يوناداب كلامه «وهو سيقلق، بالطبع، وبعدئذٍ، فان مرض الملك القادم لاسرائيل هو أمر بالغ الأهمية. وهو سيأتي ليراك -»

«فقال يوناداب اضطجع على سريرك وتمارض فإذا أتاك أبوك ليعودك فقل له لتجيء تامار اختي وتطعمني خبزاً وتعمل الطعام امامي لأرى وآكل من يدها.» (سفرصاموئيل2،الملوك2،13:5)

«وماذا بعد؟» قال أمنون «ان تامار هي التي أريد أن أراها، وليس والدي.»

«وعندما يأتي الملك ليراك» واصل يوناداب الكلام «ستطلب منه أن يرسل تامار لتعتني بك حتى تعود صحتك. وقل له أنك لاتثق بالخدم بصورة تامة في تحضير وجبات طعامك. وقل له أن سبب مرضك هو عدم استطاعتك الأكل.» لتأتي أختي المحبوبة تامار وتصنع لي صحنين من العجين العزيزة. يجب أن تقول الى الملك: «ومن ثم سأأكل من يدها.»

أثير أمنون عندما سمع أصوات مهدئة خارج مسكنه، واختلس النظر من تحت الأغطية ليرى ماذا كان يجري خارج الفراش. وسمع صوت مألوف واحد هو صوت خادمه و اثنين آخرين لم يميز أصواتهما. وكانت صاحبة أحد الصوتين امرأة- فأخذ قلبه يطرق على فكرة أن خطة يوناداب الجهنمية ربما نجحت عملياً في احضار تامار الى غرفة نومه. ومن ثم ترك رأسه يرتاح على الوسادة- وانتظر.

وكان مفاجئاً جداً لأمنون، أن الخطوة الاولى الحاسمة في خطة ابن عمه قد نجحت. فالملك داود نفسه حضر وسط عدد صغير من الحراس والمرافقين، وظهر لفترة قصيرة في اليوم السابق، ولم يمض أكثر من ثلاث دقائق مع أمنون. والملك بدا غير مهتم تماماً بصحة ابنه المريض، مثلما توقع أمنون، وبدا أنه أكثر اهتماماً بالمشهد من نافذة غرفة أمنون من اهتمامه بأمنون نفسه. ولكن الملك أصغى، على الأقل، لتقييم يوناداب الكئيب عن صحة أمنون المريض، وبقي لفترة طويلة يستمع لأمنون وهو يستظهر الأسطر التي لقنه اياها يوناداب. «لتأتي اختي وتعتني بي» طلب أمنون «وأنا سوف اقضم برفق ذلك الكعك على شكل قلب من يديها» وبعد أن غادر والده، اغتاظ من اختياره الكلمات ومن حماسه الصادق في قول-وربما كان الملك سيكتشف ماكان يريده حقاً من تامار.

«فاضطجع أمنون وتمارض فأتاه الملك يعوده فقال أمنون للملك لتأت تامار أختي وتعمل أمامي كعكتين وآكل من يدها.» (سفر صاموئيل2،الملوك2، 6:13»

«فأرسل داود الى تامار الى البيت وقال لها انطلقي الى بيت أمنون أخيك واصنعي له طعاماً. فمضت تامار الى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع فأخذت

دقيقاً وعجنت وعملت كعكاً امامه وقلت الكعك.» (صاموئيل2،الملوك13،2 ك7-8)

«هل تظن أن الحيلة تنجح؟» سأل أمنون عندما فرغ البيت من الزوار أخيراً.

«طبعاً ستنجح» أجاب يوناداب مبتهجاً. «وعندما تأخذ تامار بذراعيك، ياابن عمي العزيز، رجاء الا تنسى من وضعها هناك!»

وأخذ أمنون ينتظر، وتتقطع أنفاسه، ويطرق قلبه، اثناء اصدار الخادم ضجة مصطنعة عند الباب، وينظر خلسة الى داخل الغرفة المظلمة.

«ياسيدي، جاءت أختك تامار تعودك» قال الخادم همساً «هل ارسلها بعيداً؟»

جلس أمنون في فراشه وصاح بوضوح «كلا!» ومن ثم خاف أن يبدو صوته بصحة جيدة، فاستلقى ثانية وتكلم بهمس أجش «كلا، كلا ، لاترسلها-فأنا دائماً أسعد برؤية أختي العزيزة».

وبعد لحظة، هاهو يأتي أخيراً ذلك الشيء الذي شغله ساعات طويلة بالتفكير الحالم لعددمن الأيام. وهاهي تامار تقف أمامه، ففرح قلبه بتعبير الاهتمام وحتى بالتأثر الذي تخيل أنه رآه على وجهها.

وقال بصوت أجش: «شكرا لك، ياعزيزتي تامار لمجيئك من اجلي»

وألقت تامار، نظرة فاحصة طويلة على أمنون وكانت محبة للاستطلاع أكثر منها مهتمة.

وقالت: «أرسل الوالد مراسلاً ليطلب مني أن أذهب الى أمنون لأعد له بعض الكعك.»

وتوقفت تامار عن الكلام للحظة طويلة، وكأنها لكي تشيرالى أمنون كم كان الأمر غريباًبأن تستدعى الى بيته لمثل هذه الخدمة الغريبة. ومن ثم واصلت الكلام قائلة: «أمرني الملك أن آتي، وهاأنذا هنا!»

«وأخذت الطاجن وسكبت امامه فأبى أن يأكل. وقال أمنون أخرجوا كل أحد عندي فخرج كل أحد من عنده. فقال أمنون لتامار ادخلي الطعام الى المخدع فآكل من يدك. فأخذت تامار الكعك الذي عملته واتت به أمنون أخاها الى المخدع.» (سفر صاموئيل2-الملوك 13،2 :9-10)

« شكرا لك ياأختي العزيزة» قال أمنون «شكراً لحضورك أثناء مرضي».

«لايبدو أنك مريض جداً، ياأخي العزيز» قالت تامار وسكتت مرة ثانية قبل أن تضيف: «الحمد لله.»

«نعم، الحمد لله، فأنا أشعر أحسن بكثير الآن، ها أنت أخيراً هنا». قال أمنون وهو يراقبها بنظرة ثاقبة افقدتها رباطة جأشها. «وها أنا فجأة أرى نفسي جائعاً جداً، فهل لك أن تصنعي بعض الكعك لي حسبما طلبت؟»

«نعم، ياأخي» أجابت تامار «هذا ماجئت الى هنا من أجل صنعه». وأشارت تامار بيدها الى فتاة كانت تقف في الممر وهي تحمل بيدها سلة، وبدأت الخادمة بفك أجزاء الخليط للوجبة:حق من الطحين، وجرة من الماء، وقارورة صغيرة من الزيت، وبعض التتبيل مصرور عليه في زاوية قطعة قماش مربوطة بخيط، وقالب من غضار على شكل قلب. وبدأت الخادمة بالعمل على المدفأة الكبيرة عند النهاية القصوى للغرفة، ولم يلبث الماء حتى غلى. وكان أمنون يراقب بصمت تام ولكن بانتباه شديد، حين عجنت تامار الماء والطحين في عجينة، وكبست العجين الكثيف في القالب، وأفرغته في الماء الذي يغلي. ثم أخرجتها ثانية بملعقة خشبية طويلة أعطتها لها الخادمة. وهفت رائحة النباتات العطرة والمنكهات ورائحة خميرة العجين في كل أنحاء الغرفة المظلمة. وأخيراً، كومت تامار الكعك الذي يتصاعد منه بخار الماء فوق طبق وأعطته الى خادمتها، التي عبرت الغرفة ووقفت باستعداد تام الى جانب فراش أمنون.

وقالت تامار: «هاهو ماتريد، فتفضل وكل».

نظر أمنون الى طبق الكعك، ومن ثم نظر الى تامار، وأخيراً حدق في الآخرين الذين التفوا حوله في الغرفة- وكانوا أثنين من خدم تامار، وخادمه الخاص، وآخر من الصغار وكان قد أوقد النار في موقد المطبخ، وكان يجلس قرب الباب وينظر بعيون واسعة. وكان كل منهم يراقبه، وبدا أن كلاً منهم راغباً في مشاهدة نهاية المقابلة غير العادية بين أمنون وتامار.

«وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال تعالي اضطجعي ياأخية. فقالت له لاتذلني ياأخي لأنه لايفعل هكذا في اسرائيل فلا تفعل هذه الفاحشة. فأما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في اسرائيل. والآن فكلم الملك فانه لايمنعني منك.» (سفر صاموئيل2،الملوك2، 13 :11-12)

وصرخ «اخرجوا» ووجد فجأة أن صوته كان قاسياً على الخدم. «ليبتعد كل انسان عني!»

فتحرك كل منهم وانتشروا. وسلمت خادمة تامار طبق الكعك، وانتظرت لحظة لاشارة منها، ثم غادرت الغرفة. وكان خادمه الخاص آخر من غادر الغرفة، وفكر بجر الباب واغلاقه من خلفه.ولم يبق غير تامار، تقف بوقار قرب النافذة وتراقب أخاها بصمت من أقصى الغرفة.

ارتجف أمنون دون أن يقدر على التحكم بنفسه وهو يستلقي في الفراش، وشعر فجأة أنه في ثورة حمى، وكأنه كان مريض حقاً بعد كل ماجرى.

«اجلبي الطعام لي» صرخ أمنون، وكان صوته قوياً وغليظاً بصورة مفاجئة «بحيث أتمكن.من أن آكل من يدك.»

اقتربت تامار من الفراش حيث كان يستلقي أمنون، وألقت نظرة سريعة نحو الباب، وحملت طبق الكعك.

فتطاول أمنون وأمسك رسغ يدها اليمنى. ووقع الطبق على الأرض وتكسر الكعك وتدحرج في الغبار.وصرخت خائفة ومذهولة، إلا أن أمنون أحكم امساكها وسحبها بقوة لعنده.

ودمدم قائلاً: «هيا بنا، ياأخت، نامي معي!»

حدقت تامار بوجه أخيها، وأبعدت نفسها بوزن جسمها، إلا انه لم يسمح لرسغها أن يفلت منه. وبدأت بشرتها بالاحمرار وهو يلوي رسغها لاجبارها على الاقتراب أكثر. وألقت نظرة يائسة أخرى نحو الباب، ثم بكت.

«لا-ياأخي» أمرته وقالت: «أنا لن أنم معك!»

أصر أمنون بأسنانه بصورة مجنونة لدى سماعه كلمات تامار، وبدا كأنه أحبط في هجومه بصوتها الذي أعلن بصوتٍ عالٍ عن أفكاره السرية، فشدها نحوه بقوة جديدة.

«أخ وأخت مع بعض- مثل هذا الشيء لم يفعل في اسرائيل!» قالت تامار «لاترتكب مثل هذه الفاحشة!»

أرخى أمنون من قبضته قليلاً، ثم شد بقوة ذراعها، فهوت تامار في فراشه، رأسها قبل جسمها. فالتف الى فوقها، وأزاح ساقيها الطويلتين عن بعضهما

بساقيه وضغط على وركيها بوركيه. وبعد لحظة لم يعد حراً غير رأسها، فتلوت كالأفعى رافعة جسمها الى فوق أو مخفضة اياه الى تحت.

وردت عليه قائلةً: «ماالذي سأصبحه، ياأخي! وَالى اين آخذ نفسي بعد أن تذلني؟ وماذا بالنسبة لك، ياأخي العزيز - ستجعل من نفسك واحداً من السفهاء في اسرائيل، ولن تجد مكاناً تختبيء فيه من فعلتك.»

فكر أمنون بهذه الكلمات لفترة وجيزة قاتمة، وتحسست تامار الفرصة لكي تلح على أخيها المجنون وتحبط هجومه.

«ربما توجد طريقة، يا امنون!» همست في اذنه بالحاح، ولكن بحميمية، واصبح صوتها واثق من نفسه وآمرا: «تكلم مع الملك! اطلب منه يدي للزواج! والملك لن يمنعني عنك، أعدك!»

«فأما أنا فأين اذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في اسرائيل، والآن فكلم الملك فأنه لايمنعني منك. فأبى أن يسمع لكلامها ولكن تمكن منها وغصبها وضاجعها.» (سفر صاموئيل2،الملوك2، 13: 13-14)

وبدت كلمات تامار وكأنها تثيرأمنون أكثر من أن تهدأ من روعه، فهز رأسه هزاً عنيفاً لدى سماعه كلماتها:لن يمنعني الملك عنك.. وجدد أمنون هجومه على تامارعلىنحو مفاجيء.فمزق ثوبها، وأمسك بجسمها بكلتا يديه، واستخدم جسمه للتغلب عليها. وشق أمنون طريقه الى اخته بسلسلة من الهجمات التي تنم عن الغضب أكثرمن الرغبة. وانتهى كل شيء بعد لحظات. فترك أمنون اخته، والتفت مبتعداً وبدا وكأنه نائم. وتامار استلقت الى جانبة وكانت مسحوقة ونازفة وتفكر بما يجب أن تفعل الآن. واندهشت من أنها لم تكن تبكي،وتأملت باحساسها الخفيف بسائل ساخن قليلاً أخذ يبرد فوق فخذيها العاريين. وتساءلت بينها وبين نفسها هل كان ذلك دماً، أم شيئاً آخر؟

استيقظ أمنون بعد دقائق قليلة ونظر الى الفتاة المنتهكة التي تستلقي الى جانبه، ومعظم جسمها عار وعلامة كدمة كريهة بدأت منذ الآن بالتحول الىعلامة سوداء-وزرقاء. وفجأة انبجست من بطنه موجة اشمئزاز لاتختلف عن الغثيان، وخنقته. ومهما كان الشعور الذي شعر به ازاء تامار قبل دقائق قليلة- حب أو شبق أو عاطفة اخرى لاتوصف- تحول الآن الى نقيضه بقوة غاشمة.

وصار مجرد رؤية تامار تمرضه، وهكذا ثبت قدماً عارية على وركها العاري ورفسها الى خارج الفراش رفسة قوية. فتشقلبت تامار على الأرض واستلقت بين الكعك الذي قدمته له قبل دقائق معدودات.

وقال:«انهضي!» وهو يكافح ضد غيظ مكتوم لاتفسير له وكان له طعم مر في حلقه، «ابتعدي!»

كافحت تامار لكي تقف على قدميها، ووقفت مترجرجة امامه. وكان صدار ثوبها ممزقاً من الجانبين، كاشفاً عن ثدييها وعن وركيها السمينين، وينز الدم من أنفها ومن طرف أنفها ، ومن بين ساقيها.

«لاتبعثني الى الخارج وأنابهذه الحالة، ياأخي!» وقالت بصوت خفيض أخفى بوضوح غيظها الخطر. «إن اخراجي بهذا الشكل الى الشارع اسوأ حتى من-»

وسكتت تامار فجأة، وبدأ أمنون بالصياح طالباً خادمه.

وجأر قائلاً: «خذ هذا الشيء بعيداً عني! ضعها في الخارج! واقفل الباب وراءها!»

«ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً وكانت البغضة التي أبغضها إياها أعظم من الحب الذي أحبها إياه وقال أمنون قومي وانصرفي. فقالت له هل من سبب لطردك لي ان هذا الشر هو أعظم مما فعلته بي قبلاً. فأبى أن يسمع لها. ودعا الغلام الذي كان يخدمه وقال أخرج هذه عني الى خارج واغلق الباب وراءها. وكان عليها قميص موشى لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن اقمصة مثل هذه. فأخرجها خادمه الى الخارج وأغلق الباب وراءها.» (سفر صاموئيل2،الملوك2،13: 15-18)

«فجعلت تامار رماداً على رأسها ومزقت القميص الموشى الذي كان عليها ورفعت يدها على رأسها وذهبت وهي تصرخ. فقال لها أبشالوم أخوها هل كان آمنون أخوك معك. كفى الآن ياأخية إنه أخوك ولا يأخذ من نفسك هذا الأمر. فأقامت تامار في بيت أبشالوم أخيها واجمة.» (سفر صاموئيل2،الملوك2،13: 19-20)

اطاع خادم ملك المستقبل على اسرائيل سيده، ووجدت تامار نفسها ملقى بها في ساحة القصر خارج بيت أمنون. فكافحت ثانية لكي تقف على قدميها، ووقفت

الوقفة التي تناسب ابنة الملك. وغطت نفسها بقدر ماتستطيع بالثوب الممزق. إلا انها لم تتجه باتجاه القصر. وبدلاً من ذلك سارت باتجاه بيت أبشالوم، و تبكي بمرارة، وهي تسير عبر الحشد الغريب.

«وسمع داود الملك بجميع هذه الأمور فاغتاظ جداً ولكن لم يحزن نفس أمنون ابنه لأنه كان يحبه اذ كان بكره. فأما أبشالوم فلم يكلم أمنون بشر ولا خير لأن أبشالوم أبغض أمنون لأجل فضح تامار أخته.» (سفر صاموئيل2،الملوك2، 13 :21-22).

أستدعي ابشالوم من قبل خدام بيته الى المدخل حيث انهارت اخته. فحاول ان يهدئها بطريقته الخرقاء وهو يقودها الى غرفة نومها حيث ربما تجد العزلة والراحة.

«صه، ياأختي، اذ كان بالامكان أن يكون الأمر أسوأ- فعلى الأقل كان الفاعل أخوك وليس رجلٌ غريب» قال لها ذلك على سبيل المؤاساة «لاتتأثري تأثراً عميقاً.»

إلا أن كلماته بدت وكأنها تثيرها فقط، وقرر أن يتركها وحيدة مع حزنها لفترة. وعندما عاد، اندهش عندما رأى تامار وقد كومت الرماد فوق رأسها ومزقت عباءتها وكأنها في حالة حداد.

وارتدت تامار الملابس السوداء الخاصة بمن فقد أمه أو اباه ولم تخلعها ثانية، وأمضت باقي حياتها وحيدة تحت سقف بيت أخيها.

عندما سمع داود بالهجوم الذي ارتكب بحق ابنته من قبل ابنه الأكبر، أرعد ولعن وعلى العموم قدم عرضاً صحيحاً للمزاج الملكي أمام كل من كان حاضراً في اللحظة الحرجة -إلا أنه لم يفعل شيئاً أكثر من ذلك. وانتظر أبشالوم دون جدوى اليوم الذي يعاقب فيه ملك اسرائيل القوي الرجل الذي اغتصب ابنة الملك. إلا أن ذلك اليوم لم يأت أبداً، وظهر بعدئذٍ أن داود نسي كل الحادث المؤسف.

ولم يقل أبشالوم شيئاً عن الموضوع الى الملك أو الى أي شخص آخر، بمن فيهم اخته المهجورة. وباستثناء حقيقة انه رفض أن يتكلم كلمة واحدة مع امنون، جيدة او سيئة، ظهر أن أبشالوم، ايضاً، قد نسي ماحدث لتامار. ثم، وبعد

سنتين بالتمام والكمال، رتب أبشالوم لوليمة للاحتفال بجز القطيع في بعل حاصور. فأولم الملك داود وكل أبنائه، ومن ضمنهم امنون، لحضور الاحتفالات. وقبل كل الأمراء دعوة أبشالوم، وحتى أمنون الذي لم يشك أبداً، اعتبر الوليمة بمثابة دعوة حقيرة من جانب أبشالوم لكي يفوز بالحظوة عند ملك المستقبل بعد طول صمت مهين ولم يمتنع عن الذهاب الى بعل حاصور إلا الملك داود ولم يلتق بابنائه على المائدة.

وكانت خيبة أمل كبيرة لأبشالوم أن لايحضر أبوه. وكان أبشالوم يفضل أن يرى داود بأم عينيه كيف أعطى الأوامر الى رجاله المسلحين: «اقتلوا امنون!» وكان يفضل أن داود رأى كيف أن أمنون، وقد جن من الخمر، كافح بصورة مضحكة لكي يحمي نفسه من ضربات السيف. وكان يفضل أن داود رأى أن ابنه الأول ينزف حتى الموت، كعجل مذبوح. ثم فكر أبشالوم مع نفسه، أن كان داود أدرك كيف يجب على الرجل الجديد بالجلوس على عرش اسرائيل أن يتصرف.

الفصل الخامس عشر
اغتصاب تامار

سياسة الحب والكراهية في قصر الملك داود

الداودية

مؤامرة «كعك الشهوة الجنسية- ليبيدو» [1]

«مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً»

الاهتياج

«كان الحب لي رائعاً»

البركة واللعنة

«سوف لن يؤذوا ولن يحطموا»

---

(1) طاقة انفعالية أو نفسية مستمدة من الدوافع البيولوجية الأولية وذات هدف (المورد)

أن معظم سفر صاموئيل من عمل كاتب توراتي مجهول يبدو أنه حاز على معرفة أصيلة للتاريخ الرسمي والأسرار القذرة قليلاً عن الملك داود وعائلتها الملكية ومؤرخ القصر، حسبما يدعى أحياناً لم يكن مجرد رجل أرشيف أو كاتب في خدمة ملك حاكم قديم-وكان يطلق عليه اسم «المؤرخ الحقيقي الأول» (1) ويعتبر سفر صاموئيل كأحد أقدم أعمال الأدب والتأريخ وأبقاها في الجذور التاريخية الغربية. وتصور قصة تامار كيف استخدم مؤرخ القصر فضيحة أمنون الخاصة ضد اخته التي أطلقت حركة سلسلة ردود فعل لجرائم عامة جداً هزت عرش الملك داود، وفي بعض النواحي ، واصلت تطن طوال التاريخ.

ان انجاز الكاتب التوراتي وشجاعته ونظمه اقسام سفر صاموئيل (الملوك الأول والثاني) المعروف بين الأدباء باسم تاريخ قصر داود (أو تعاقب الرواية) كلها هو أكثر استثنائية لدى مقارنتنا قصص داود في سفر صاموئيل (الملوك الأول والثاني) وسفر الملوك (الملوك الثالث والرابع) مع ما مر في تاريخ الأماكن الأخرى في الشرق الأدنى القديم. وبدلاً من التصنيف الاعتيادي للوائح الملوك ولوائح المعارك، وقوائم جرد الأعداء المفلسين، والغنائم المستلبة، وأمجاد الملوك الحاكمين، في سجلاتهم، وكل طاقم الموظفين في الدعاية المدنية الذي مر في التاريخ الرسمي في الأزمنة المغرقة في القدم، فان مؤرخ القصر كتب بشجاعة عن التصدعات ومواقع ضعف الملك، والتحديات للسلطة الملكية، وفضائح القصر الملكي، ولحظات المجد القليلة في حياة الملك وزوجاته الكثيرات وأطفاله.

«انه تاريخ حقيقي قبل خمس مئة سنة من هيرودوتس، أبو التاريخ» حسب ماكتب سيغموند فرويد(2)

اعتبر داود في التوراة بمثابة ملك متهور لايتلكأ في استخدام سلطته الملكية

ليشبع شهواته الجنسية وغير الجنسية - ولم يتلكأ كاتب سفر صاموئيل (الملوك الأول والاني) في اخبارنا كذلك.ويكشف المؤرخ التاريخي، على سبيل المثال، ماحدث بالضبط عندما مجد غزوه لاورشاليم باحضار تابوت العهد، اقدس اثر باق في عقيدة اسرائيل القديمة، الى عاصمة المملكة الموحدة من يهودا واسرائيل[1] وقاد الملك داود مهرجان الثلاثين ألفاًمن الجنود، والرهبان، والموسيقيين، والراقصين الذين رافقوا التابوت في رحلته البطيئة والجليلة الى اورشاليم. وقام الملك بنفسه بالاستعراض وهو نشوان «يطفر ويرقص أمام الرب» (2صاموئيل-2ملوك 6:16)

وفي الواقع، كان الملك نشوان جداً- والمئزر الرهباني (الايغود) الذي ارتداه كان قصيراً جداً- الى حد أن داود انتهى الى عرض أعضائه التناسلية على الحشود التي احتشدت لتشاهد المشهد المقدس. وعندما وصل الملك أخيراً الى قصره، وبخ من قبل زوجته ميكال، ابنة الملك السابق، التي شهدت الاحتفالات من نافذة القصر ووبخته على عرضه الفاجر والاستفزازي.

واشتكت ميكال وهي تقول ساخرة: «ماكان امجدملك اسرائيل اليوم حيث تعرى اليوم في عيون إماء عبيده كما يتعرى أحد السفهاء» ورد داود ساخراً وهو غير آسف: «انما كان ذلك أمام الرب الذي اصطفاني على أبيك..! ولعبت أمام الرب. ولقد أتصاغر دون ذلك، وأكون دنيئاً في عيني نفسي، وبذلك أزداد مجداً في عيون الاماء التي ذكرتها» (2صاموئيل 6 :20-22).

وتميل هذه التفاصيل المختصرة الى صرفنا عن الهدف الحقيقي للكاتب التوراتي في رواية القصة في المقام الأول. ومن دون ريب، نحن معنيون بفهم أن داود ملك شبق وصعب المراس رفض أن تكبح نزواته الجنسية حتى عندما يجنح

---

(1) تقول التوراة لنا أن تابوت العهد كان صندوقاً يحتوي اللوائح الحجرية التي كتب عليها الله الوصايا العشرة. وكان التابوت مصنوعاً من خشب الأكاسيا وزين بشكلين لملاكين (ليس الملائكة السمينة في فن عصر النهضة بل وحشين مفترسين) وكانوا يتخيلون أن كانه العرش الذي جلس عليه الله أثناء زياراته الى الأرض. والتابوت حمل من قبل الاسرائيليين القدامى في تنقلهم في البراري وفي المعارك مع أعدائهم. ولكن داود كان أول من أحضر التابوت الى اورشاليم و ركبه سليمان في أعمق حرم في المعبد في اورشاليم، قدس الأقداس.واختفىالتابوت من التوراة والتاريخ-مع هدم معبد سليمان أثناء الغزو البابلي.

نحو الافتضاحية[1] وتعاطي الجنس الطاريء مع فتيات أرقاء. ولكننا معنيون أيضاً بفهم الآثار السياسية التالية للمشاحنة مابين الملك وزوجته: فقد كان داود، مغضباً ومغتاظاً، وظاهرياً رفض النوم مع ميكال، وماتت المرأة دون أن تلد طفلا .فليس هناك سليل لشاؤل، الرجل الذي حل محله داود كملك على اسرائيل، ليكافح من أجل العرش، في حين أن داود أنجب عدداً كبيراً من الأولاد من زوجاته الكثيرات الأخر. وسيكشف العديد من الشباب الطموحين هؤلاء عن أنفسهم كمشاكسين حقاً «اني مثير عليك الشر من بيتك» ثم أقسم الله لداود عندما كلف افراطه الجنسي حياة انسان بريء، ونفذ ابناؤه قسم العلي القدير (2اصاموئيل12:11)

يصدمنا استخدام العلاقات الجنسية غير الشرعيةوعواطف الحياة الخاصة لالقاء ضوء على مصير الأمة كتقنية لكتابة التاريخ بوصفها حديثة جداً بالفعل: كـ«حقائق تاريخية حقيقية برداء قوي الاسلوب» حسب وصف أحد الأدباء لتاريخ القصر(3) لذا فان بالامكان فهم محنة الأميرة الملكية التي اسمها تامار، الجميلة جداً والتي استخدمت بصورة سيئة جداً من قبل أبيها وأخيها، بوصفها نذير مبكر على انحطاط وسقوط أعظم ملك بعد جلوسه مباشرة على عرش اسرائيل القديمة وحكم على تامار بالمعاناة طوال حياتها، وبالذل واليأس بالفعل الوحشي الذي قام به أمنون- وأيضاً داود، من خلال ماسمح لنا مؤرخ القصر أن نفهم.

الداودية

ذكر اسم داود [2] أكثر من ألف مرة في التوراة (4) وصور داود بارزة جداً في تاريخ ومصير اسرائيل الى الحد الذي جعل أحد الأدباء يقترح صيغة «داودية»(5) في وصف نهج المبجل لعدد معين من كتاب التوراة حيال الملك المختص به. وعلى

---

(1) الافتضاحية، انحراف يتميز بنزوع نحو عرض العورة.

(2) افترض بعض الادباء أن «داود» لقباً أو اسم العرش أكثر من كونه اسم لشخص، مما قد يساعد على تفسير سبب قول صاموئيل لنا أولاً، أن شخصاً ما اسمه داود قتل جليات (صاموئيل1-ملوك1-17 :5) وفيما بعد نسب الى رجل اسمه الحانان نفس الفعل(صاموئيل 2 الملوك2 19:21)فهل كان داود والحانان شخص واحد وهو الشخص نفسه؟ واذا لم يكونا نفس الشخص، فقد تعثرنا بغموض توراتي آخر بصدد فعل شيء ما حقيقي بآخر.

خلفية الأسفار الأربعة صاموئيل والملوك، كمنت ملحمة (ساغا) حياة داود المروية للمرة الاولى، وما اغتصاب تامار إلا حادث طارئ، حتى وان كانت محنتها خدمت بمثابة أول ضربة من القدر لملكية داود وأول فعل تحدي للسلطة الملكية من قبل أحد ابنائه الطموحين.

ولقد رويت ترجمة داود الرسمية في الأسفار الأربعة لصاموئيل والملوك وفي سفري أخبار الأيام الأول والثاني، ولكن الأديب التوراتي البارز غيرهارد فون راد أصر على أن قصة داود هي ايضا «الأغنية المصاحبة» لكل الرواية التوراتية المنسوبة الى مصدر يدعى اليهوي. «فشخص داود، هو بطل التوراة العبرية أكثر من موسى بكثير»، حسب الحجج التي ساقها هارولد بلوم (6) وصور داود بصورة متميزة في الفن والأدب الغربيان، وفي كلا الجانبين المقدس والدنيوي، لفترة ألفي سنة. وتم تبجيل شخص داود من دونا تللو وميشال أنجيلو حتى د.اتش.لورانس ووليام فولكنر، أحياناً باحترام شديد، وأحياناً أخرى بشيء من السخرية. وعلى سبيل المثال، استشهد الأديب البريطاني في القرن السابع عشر جون درايدن، بالمثال الأخلاقي الملتبس للملك داود حين هجا فجور الملك شارل الثاني.

ثم، أن ملك اسرائيل، على غرار قلب السماء نفسها،
كانت أفعاله القوية والدافئة، تختلف في الافصاح
إن كان للزوجات أو للعبيد، وهي واسعة باتساع سيطرته،
نشرت صورة خالقه في طول الأرض وعرضها.(7)
ولازال من المستحيل تجاهل داود أو تجاوزه

وفي رواية جوزيف هيللر الهزلية الداكنة، بعنوان، الله يعرف، صور الملك داود وهو يقول عن نفسه: «عشت حياة طويلة وزاخرة، أليس كذلك؟ ويمكنك الاطلاع عليها. والله يعرف بالتأكيد أنني كنت دائماً قوياً وكريماً، وروحاً مغامرة، تفيض بعواطف حيوية ورغبة بالحياة.. وخضت حروباً وحصلت على خبرات دينية مبهجة، ورقصات فاحشة، وأشباح ، وجرائم، وفرار مرعب، ومشاهد ملاحقة مثيرة»(8)

وبالفعل فان ملحمة (ساغا) صعود داود الى السلطة هو من بين النصوص الأكثر ألفة في التوراة، وحتى لو أن ترجمة مدرسة الأحد تشدد بصورة ثابتة على

الايجابي وتترك الأحداث الافتضاحية، واختلاس النظر[1] والزنى، والتشويه المستديم، والجريمة. وكلنا يعرف داود كراع شاب وسيم كان يعزف على القيثارة ليهدىء الملك شاول المضطرب (صاموئيل1،الملوك1، 16 :22-23) والولد الشجاع المحارب الذي قتل جليات بحجر واحد بالمقلاع (صاموئيل1،الملوك1، 17 :48-49) ولكن ليس عدد كبير منا مطلعون على أن هجمات داود لفصل مئتي فلسطيني عن فلقاتهم كانت ثمناً للعروس ميكال (صاموئيل1،الملوك1، 18 :26-27) أو أن داود ورجاله وضعوا أنفسهم في خدمة ملك عدو كجيش قاطع طريق يسلب وينهب الريف ساعة يشاء ويقتل كل شخص يراه «لئلا يخبروا عنا» (صاموئيل1،الملوك1، 27:11)

وفتح داود ، وهو في ذروة قوته ومجده، مدينة اورشاليم وأقام عاصمته فوق الموضع المستقبلي للمعبد، وأخضع أعداء اسرائيل من كل الجهات، ووسع حدود امبراطوريته: «من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات» (سفر التكوين 18:15) وكان حكم داود أعلى علامة ارتفاع للسيادة في تاريخ اسرائيل الطويل- فلم يحدث سابقاً أن تمتع الاسرائيليون بمثل هذه النعم، وسوف لن يتمتعوا بها بعد وفاته.

وجاء داود لكي يعبر كشخص ممجد في كلٍ من الجذور التاريخية اليهودية والمسيحية، كنموذج الملك الذي يحكم بنعمة الله وفضله. ووصف من جانب صاموئيل بأنه أختير من قبل الله بمنزلة أعلى من الآخرين، «رجلاً على وفق قلبه» (أي قلب الله) (صاموئيل1،الملوك1، 14:13)ووصف داود نفسه «الرجل في العلاء، مسيح إله يعقوب» (صاموئيل 2،الملوك 2، 1:23) وبالرغم من الخلل في شخصه وضعفه أمام النساء، وتعطشه لسفك الدماء وسلوكه تجاه أصدقائه، فقد ظهر داود في الرواية التوراتية كحامل للنعمة الالهية، ونموجاً للملوك فوق الأرض، والرجل الذي انحدر من صلبه المسيح.

«إني أخذتك من المربض وراء الغنم، لتكون رئيساً على شعبي» قال الله الى داود في القسم الأكثر اشراقا لاهوتياً في سفر صاموئيل حسب قول أحد

---

(1) وخصوصاً من يشبع رغبته الجنسية عن طريق النظر الى الاعضاء التناسلية أو الى العمل الجنسي.

الأدباء(9) «وكنت معك حيثما سرت ووضعت جميع أعدائك من أمامك وأقمت لك اسماً عظيماً كأسماء العظماء على الأرض» (صاموئيل2،الملوك2،7،9:2)

ومع ذلك فان توقير داود في التوراة تقابله الصراحة وأحياناً الرواية القاسية لأعماله الشريرة .ووصف عبث داود مع بتشابع ومؤامرته لقتل زوجها بعين يقظة تواجهنا بجريمة الملك البشعة.وحتى دور داود في اغتصاب تامار الذي أعد من دون «تلفيق» يمكن توقعه من مؤرخ القصر: وعرض الملك على أساس أنه شريك في الجريمة، ربما كان غير متعمد، ولكنه كان شريكاً، وهو لم يفعل شيئاً لمعاقبة المغتصب، أو حماية الضحية بعد أن ارتكبت الجريمة.وفي الحقيقة، عكس الكاتب التوراتي بفن رفيع أعمال داود مع بتشابع في روايته عن اغتصاب امنون لتامار: فكلا القصتين تستهلان بنظرة شهوانية، تتصاعد الى ممارسة جنسية محرمة، وتبلغ الذروة بجريمة دموية يمكن أن يتم تجاهلها، ولكن لايمكن محوها من صفحات الكتاب المقدس.

مؤامرة « كعك الليبيدو»

ان اغتصاب تامار هو الأكثر بغضاً بالنسبة الى القاريء المعاصر لأنها اخت مغتصبها. إلا أن بعض المعلقين على التوراة، من القدامى والحديثين، حاولوا أن يطهروا جريمة أمنون البشعة بقولهم أنها كانت فعل غشيان المحارم، أيضاً، لأن تامار أخت من والده ، وطلب منا أن نصدق، بأن الاغتصاب ليس سفاح قربى. وواقع أن تامار عرضت موضوع الزواج يفترض ان العلاقة مابين الابناء من امهات أو آباء مختلفين لم تكن تقدر بأنها حميمة بشكل كاف الى حد تحريم الزواج. وعلى هذا الاساس، يدفع بعض المدافعين عن هذا الراي بحجة أن الهجوم الجنسي الذي تلاه ماتلاه يمكن اعتباره كاغتصاب ولكن ليس سفاح قربى (10)

وجاءت الالماحة الى اتحاد جنسي مقدس مابين أمنون وتامار على شفتي تامار نفسها: «أتضرع اليك أن تتكلم مع الملك» طلبت من أخيها في اللحظات الحرجة التي ادت الى الاغتصاب بـ«أنه لايمنعني منك» (2صاموئيل،2ملوك، 13:13) ويتمثل معظم المعنى المفروض لكلماتها – ومعظم الفاجعة، أيضا- في أن تامار كانت تحاول بوضوح أن تبعد أخاها عن اغتصابها بعرض أمل خفيف بالزواج، ان كان بعرض الزواج من أمنون، وهي تعرف حق المعرفة أن مثل هذا

الزواج سيكون مناقضا للشريعة الالهية-أو، حسب اقتراح أحد الأدباء، بأنها فعلت ذلك بـ«اعتقاد فطري بأن الملك يستطيع أن يعفى من الشرع» (11)- واستخدمت تامار السلاح المتوفر لها في تلك اللحظة، سلاح الكلمات. ومع ذلك، فان بعض الأدباء حاولوا أن يلطفوا جريمة الانتهاك الجنسي لأمنون ضد تامار بتقديم اشارة بأن الزواج مابين أخ وأخت كان بطريقة ما مقبولاً في اسرائيل القديمة. ولفعل ذلك، كان عليهم أن يعللوا حقيقة أن الاتصال الجنسي مع اخت أحدهم بشكل جلي لا لبس فيه بصورة متكررة محرم في الشريعة التوراتية: «وسوءة اختك ابنة أبيك أو ابنة أمك المولودة في البيت أو في خارجه لاتكشف سوءتها» جاء في سفر الأحبار 9:18 مستخدماً التورية التوراتية المألوفة عن الاتصال الجنسي. وحقيقة أن تامار هي اخت أمنون من أبيه لاتقيم أختلافاً في استحقاقية لوم أمنون في ظل الشريعة التوراتية، طالما أن سفر الأحبار يحرم (تابو) على وجه التخصيص الابناء من أحد الوالدين، أيضاً «وسوءة بنت زوجة أبيك المولودة من أبيك لاتشكف سوءتها انها أختك» (سفر الأحبار 11:18) على وجه الضبط في حالة أن أي امرء فقد الموضوع في الأحبار، يكرر القاعدة نفسها وحتى بصرامة أكبر في سفر تثنية الاشتراع: «ملعون من يضاجع اخته ابنة أبيه أو ابنة أمه.» (سفر تثنية الاشتراع 22:27)

ولازال بعض المدافعين يناقشون بأن اللغة البسيطة لهذه الوصايا واللعنات لاتنطبق على أمنون وتامار. وطبقاً لكرونواوجيا[1] التوراة الصارمة، أنزلت اللوائح التشريعية التي وجدت في سفر الأحبار وتثنية الاشتراع قبل وقت طويل من حكم الملك داود وبذلك تكون قد نصت على الزواج مابين الأخ والأخت. وتقترح الدراسات الحديثة، على العموم، أن نصي سفر الأحبار وتثنية الاشتراع كانا وجدا عمليا من قبل كتاب رهبانيين ومحررين بعد الفترة الموصوفة في سفر صاموئيل، وهكذا «لم يكن قد أقر تحريم الزواج مابين الأخ والأخت من أب واحد أو أم واحدة في محيط مدينة القدس في عهد داود» (12)

وناقش معلقون آخرون بأن اقتراح تامار الزواج يجب أخذه بصورة جدية بقوة

---

(1) كرونولوجيا تقسم الزمن الى فترات، والجدول الكرونولوجي:جدول يبين التواريخ الدقيقة للأحداث مرتبة بحسب تسلسلها الزمني.

الحدث الغريب في سفر التكوين عندما يقدم ابراهيم ساره على أساس انها اخته الى الملك جيرار. وكما رأينا فان سارة تنتهي الى فراش الملك، وتدخل الله بالذات في اللحظة الأخيرة وهو نفسه الذي منع الملك من النوم معها. وفيما بعد، اشتكى الملك لابراهيم من خداع ابراهيم له، أصر الأب (الباطريارك) على أنه قال فقط نصف كذبة: فسارة هي زوجته واخته «فعلى حقيقة هي أختي ابنة أبي، غير انها ليست ابنة أمي» (سفر التكوين 12:20). وطلب منا أن نصدق، بقوة احتجاجات ابراهيم الواهنة للملك جرار، أن في عهده وفي عهد متأخر كما في عهد الملك داود، كان بامكان الرجل أن يتزوج من اخته من أبيه أو أمه بدون استهجان.

ولاتتحدى الحجة المذكورة الشريعة التوراتية وحسب،«ملعون من يضاجع اخته..» بل تتحدى الفطرة السليمة أيضاً. وكذب ابراهيم على الملك جرار بقوله أن سارة اخته، في حين اننا نعرف من النص التوراتي، انها زوجته-وفقط زوجته. وعندما أضاف ابراهيم الخبر اللافت بأنها أيضاً أخته من أبيه، نزل الخبر على الملك جرار كمفاجأة، كما نزل علينا، باعتبار أنها في الواقع لم تذكر في أي مكان آخر في التوراة! وتقول القراءة المدركة لسفر التكوين (فحيثما دخلنا فقولي عني هو أخي)12:20 أن ابراهيم بقي يكذب حين أضاف قصة الطير-و- الثور عن كون سارة اخته من أبيه. وفوق ذلك،فان كل تمثيلية التحزير[1] «هي على اتفاق تام مع شخصية ابراهيم المحتل» حسب ما أشار أديب توراتي، وحقق كل من ابراهيم وسارة ثروة بالخداع حين منحهما الملك قطعان غنم وبقر، وخدم من الجنسين، وألف قطعة من الفضة (سفر التكوين 20 :2و16) «وعمل ابراهيم وسارة كفريق-ربما فريق من الفنانين المخادعين»(13)

وهكذا، أيضا، فعلت تامار تملقت أخاها باحضارها مشهد الزواج- إلا أن اقتراحها لم يكن غير خدعة يائسة هدفها وقف المغتصب. ولاشيء في التوراة يحمل أقل اهتمام من جانبها بأمنون، ولانستطيع أيضاً أن نأخذ أمنون حين عبر عن «حبه» لتامار حين كان يعد كميناً جنسياً مع ابن عمه. وواضح أن أمنون تلهف على اخته، إلا انه بالتأكيد لم يحبها، قبل أو بعد الاغتصاب. وأمنون خان

---

(1) وهي لعبة قوامها مشهد تمثيلي يصور مقاطع كلمة معينة يطلب الى المشترك في اللعبة أن يحزرها.

مشاعره الحقيقية ازاء تامار حين انتهى الاغتصاب وأمر بفظاظة خادمه أن يرميها الى خارج البيت. «أخرج هذه عني» هي الترجمة الحقيقية لما قاله أمنون(صاموئيل2،الملوك2، 17:13) ولكن ترجمة دقيقة أكثر للتوراة العبرية تكشف أنه اعتبر تامار كلاشيء أكثر من موضوع متعة عابرة وفاسدة. «ضع هذا الشيء بعيدا عني» هو ماقاله أمنون فعلا(14)

ان الذي حدث حقا في اللحظة التي سبقت الهجوم هو مناورة خادعة أويائسة من جانب تامار لانقاذ نفسها من الاغتصاب عن طريق المحادثات. والكلمات التي اختارتها مقصود منها اقتراح أن أمنون يمكن أن يحصل على مايريد فيما بعد، وبالوقت نفسه، تحذره من نتائج أخذ ما يريد غصبا عنها. «تكلم الى الملك» قالت تامار الى أخيها، وبذلك أشارت الى احتمال انها سوف تنام معه في ظل ظروف مختلفة، ومع ذلك ، ذكرته بأنه سيتحدى سلطة الملك ويخاطر باغضاب الملك بدفعها بالقوة الى فراشه وبالطبع، فان الكلمات التي قالتها تامار الى أمنون لم تثنيه عن تنفيذ خطته المرسومة لاغتصابها.كما تبين، فان الملك لم يمنع تامار من أمنون- فقد كان الملك هو الذي أمر تامار بالذهاب الى غرفة نوم أمنون في المقام الأول!- ولم يفعل داود أي شيء لكي يعاقب أمنون بعدئذ.

لم كان الملك سلبيا جدا في مواجهة اغتصاب وسفاح القربى داخل البيت الملكي؟ ربما بسبب أن داود كان يشعر بالاثم ازاء انتهاكاته الجنسية الخاصة بحيث انه يعاقب ابنه لقيامه بالفعل نفسه، سب افتراض أحد الأدباء(15) وربما كان السبب أن الملك أصر على تدليل ابنه البكر ووريثه الظاهر والتساهل معه- ولفائف البحر الميت تبين أن داود «لم يوبخ ابنه أمنون لأنه كان يحبه، باعتباره كان بكره»، وهذا خط في النص لم يظهر مطلقا في النص الماسوريتي (16) أو ربما، أن داود لم يفكر بانزال عقاب بأمنون لأن الملك نفسه لعب مثل هذا الدور الملتبس في اصراره على الصدام في المقام الأول، حسبما افترض بجراة بعض نقاد التوراة. وفي الحقيقة، بلغ بعض النقاد حد اتهام داود بالاشتراك في الجريمة وحتى بالتآمر على اغتصاب تامار، وهو أمر ربما ارتابت تامار نفسها به حين التمست اللجوء عند أخيها وليس عنه أبيها بعد ما فعل الفعل.

وطبقا لأحد قراء النص المبدعين، فان داود تزود بمعلومات عن الرغبات

الحقيقية لابنه من تامار حين وصف أمنون نوع الطعام الذي أراد من أخته أن تعده له. والكلمة المحددة التي استخدمها أمنون في طلبه الى الملك داود- ليبيبوت-التي تترجم عادة الى الانكليزية بـ«خبز» في ترجمة أو«كعك» في ترجمة أخرى أو «زلابية» (17) إلا أن الترجمة لم تحرز المعاني الاضافية الجنسية للكلمة العبرية: فليبيبوت هي «تورية جنسية» (18) تستخدم بدلاً من الكلمة العبرية «قلب» وتثير خيال الجنس والانفعال. وبالحقيقة، فان الطعام الشهي الذي كان أمنون يرغب بأن يأكله من يد أخته نقل في توراة أنكور «بزلابية أو عجين عزيز». ويمكن أن يكون حرفياً على شكل قلب(19) . ولنقل «المعنى الضمني الشهواني لمطلب أمنون من أخته، ترجم أحد نقاد التوراة ، بصورة فظة، الكلمة العبرية بـ«كعك الشهوة الجنسية- ليبيدو»(20) ويقول معلق آخر: «ان المطالبة بأن تعد تامار العجين» لأمنون كان يتعجل به بصورة سرية أكثر من استعادة صحته» (21)

هل كان داود يعرف حقاً مايريد أمنون من تامار؟ والأمر بالنسبة الى الحجة ضد الملك داود يتمثل بنفس الكلمات المستخدمة من قبل أمنون في وصف الطعام الذي طلب أخته لكي تعده له. ويقال أن أمنون بوصفه «العجين العزيز (القلبي)» الذي يشتهي في مثل هذه اللغة الشهوانية، يطلب بخبث السماح من داود أن يفعل مايريد مع أخته- و، بموافقته على ارسال تامار الى بيت أمنون، فان الملك ليس لايستحسن ضمنياً لقاء جنسياً من نوع ما مابين الأخ والأخت، وحسب، بل «سلمها الى يدي ابنه، مغتصبها»(22) ويجد الأدباء بالفعل أن من «الصعب الاعتقاد أن داود، وهو نفسه خالق مكائد خبيثة أكثر بكثير، أن يؤخذ بمثل هذه الخطط الواضحة» (23)

ومن أحدى السخريات الخادعة في سفر صاموئيل (الملوك 1و2) وهو عمل ساخر عميق ومثابر، واقع أن الهجوم على تامار قد تم في عهد ملك من المفترض أن يكون مستقيماً. ففي نهاية سفر القضاة، كما رأينا قبل قليل، يعرض الكاتب التوراتي الوعد الذي قطعه الملك على عرش اسرائيل أن يمنع نوع العنف الجنسي الذي مورس على سرية اللاوي المسافر في جبع(انظر الفصل الثالث عشر). إلا أن تامار اكتشفت أن حتى الملك الأكثر تمجيداً وقوة في تاريخ اسرائيل

لم يفعل شيئا لكي يمنع أو يندد بالهجوم الذي تعرضت له هي من قبل أخيها.

«ها ان رؤساء اسرائيل كانوا فيكِ لسفكِ الدم كل واحد على ما أطاقت ذراعه» والله فيما بعد طلب من النبي حزقيال أن يعدد «الفواحش» التي ارتكبت داخل «المدينة الدموية» للشعب المختار «واحد صنع مع امرأة غريبة ما هو رجس وواحد نجس كنته بفجور وواحد أذل فيكِ اخته بنت أبيه» (نبوءة حزقيال، 11:22)

«مركبة وخيل وخمسون رجلا»

اختفت تامار في بيت أخيها بعد الاغتصاب، ولم تعد تُرى أو تُسمع ثانية في شوارع القدس أو في صفحات التوراة. إلا أن تامار لم تختف من التاريخ _ فقد أطلق اغتصابها التحرك الى سلسلة من ردود الأفعال في الاغتيال، والعصيان المسلح، وحرب أهلية هددت بسقوط الملك داود عن عرشه واستمرت مؤلمةً البيت الملكي حتى اليوم الأخير من أيامه وصرنا نفهم أن اغتصاب تامار يمكن أن يكون محنة شخصية لصيقة بالمرأة نفسها، غير أنه كان جريمة تتضمن معاني اجتماعية وسياسية واضحة لباقي اسرتها ولأمة اسرائيل.

ويكشف أمنون نفسه، الولد البكر للملك ووريثه صاحب الحق في العرش ، عن عدم اهتمامه ازاء السلطة أو حتى ازاء غضب والده عندما انطلق لاستغلال تامار جنسيا. إن لامبالاته اشارة مبكرة على أن داود لم يعد يؤخذ على محمل الجد من قبل أولاده. ووضعت تامار موضع التنفيذ بصورة ملتوية التهديد بعقوبة ملكية في اللحظات السابقة على الاغتصاب-«تكلم مع الملك»- إلا أن أمنون تجاهل تذكير اخته الماكر بأنه سوف يتنافس مع أبيها اذا فعل مايجري تهديده لكي يفعله. ولم يعر أمنون انتباها لما كان سيفعله أبوه، وتقدم لارتكاب جريمة جنسية ضد أميرة ملكية بسلوك بدا محسوبا لكي يوضع الحادث موضع اهتمام الملك، والقصر الملكي، والشعب، بصورة واسعة: وأمنون الذي لم يكن مسرورا باغتصاب اخته، صنع مشهدا لأميرة محطمة بتوجيه أمر لكي ترمى الى الشارع.

واذا كان اغتصاب تامار قد بلغ درجة فحص سلطة الملك، اذن، فان داود فشل في الامتحان بصورة بائسة حين فشل في معاقبة أو حتى لوم ابنه المغامر. والدرس

الذي تعلمه آمنون وباقي القصر من العمل الخسيس بمجمله أن بإمكان ولي العهد أن يفعل أي شيء يطرأ في باله، ولايهم كم الفعل عدوانياً ووحشياً، لأن الملك كان سلبياً جداً، ومتردد جداً، ومتساهل جداً، ازاء وريثه مهما فعل. ومن لحظة اغتصاب تامار تميز الملك داود الذي كان ذات مرة قوياً كملك بانحداره انحداراً حاداً، وأثار ضعفه الجلي مطامح اولاده الآخرين.

ولوحظت سلبية الملك داود بدقة كبيرة من جانب أبشالوم، وهو الابن الثالث للملك والأخ من الام والأب لتامار، الذي عرض لكي يظهر طموحاً تماماً وحريصاً مثل والده. وبدا أن أبشالوم قد استنتج، على الأقل، نتيجتين منذرتين من اغتصاب تامار. الاولى، اذا كان اي شخص سينفذ الانتقام من أمنون لاغتصابه تامار، فان هذا الشخص يجب الأن يكون ابشالوم نفسه. والثانية، سيضع ابشالوم نفسه بقتل أمنون، على مسافة ملفتة من عرش أبيه. وما أن يصبح أمنون طيباً وميتاً، حتى يصبح من يقف مابين أبشالوم ومابين السلطة الخالصة، داود العاجز وغير الحازم- وأبشالوم، الذي أمضه تسامح الملك ازاء مغتصب اخته والطامح بالتاج، وكان راغباً تماماً بأن ينبري الى والده في عصيان مفتوح.

وبعد اغتيال أمنون في عيد جز الغنم في بعل - حاصور، وضع ابشالوم نفسه في مكان أبعد من وصول يد داود وذلك باللجوء الى قصر جده لأمه، ملك بلد مجاور يدعى جيشور. ومرت ثلاث سنوات، وداود ثاكل موت أحد ابنائه ونفي ابنه الآخر لنفسه، وكانوا يلحون عليه لكي يدعو ابشالوم الى اورشاليم، ومرت سنتان اخريتان قبل أن يعطي الملك موافقته على رؤية ابنه الهائم. وأخيراً، تم ترتيب توحيد حزين. «وسجد بوجهه الى الأرض بين يدي الملك» حسب ما قال لنا الكاتب التوراتي، «وقبل الملك أبشالوم» (صاموئيل2،الملوك2،14:33)

ولكننا، نلاحظ، مرة ثانية خبيراً فناناً وحجة يشتغل. وأبشالوم مثل فقط دور الابن النادم. مثلما تظاهر أمنون بالمرض أثناء تآمره لاغتصاب اخته، وتظاهر أبشالوم بالطاعة ازاء والده بينما كان يخطط للاطاحة به عن العرش. وأصبحت الخطة شائعة عندما اتخذ لنفسه «مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون بين يديه» (صاموئيل2،ملوك2،15:1)-حاشية مبهرجة جديرة بملك

وفعل استخفاف ازاء الملك داود. ومن دون ريب، خطط ابشالوم لكي يتوج كملك في الخليل (حبرون)، نفس المكان الذي مَسح فيه داود للمرة الاولى ملكاً على يهودا، وبذلك دخل في تمرد ضد والده. «وحالما تسمعون البوق» أصدر ابشالوم تعليماته الى المحرضين أو الجواسيس الذين نشرهم في كل أنحاء اسرائيل، عندئذٍ تقولون: «قد مَلَكَ ابشالوم في حَبرون» (صاموئيل2،الملوك2،15:10).

وغادر داود قصره برعب وذعر- وكان حرفياً حافي القدمين وباكياً وهو يفر الى جبل الزيتون- ويهرب من القدس الى البرية مع عدد قليل من الحاشية المخلصة وعصبة من المرتزقة الاجانب لكي يحموه من ابنه ومن شعبه.وقام ابشالوم في تلك الأثناء، بعرض شعبي جداً لملكيته بمضاجعته عشرة من محظيات داود في خيمة أقيمت خصيصاً على سطح القصر الملكي «على مشهد جميع اسرائيل» (صاموئيل 2،الملوك 2، 16:22) وبذلك تحقق المصير الذي رسمه العلي القدير لداود بأن يعاقبه على خياناته العهد مع بتشابع وقتله اوريا.

وكان الله قد أقسم قبل قليل من خلال النبي ناثان أن «سآخذ أزواجك وادفعهن الى غيرك فيدخل على أزواجك في عين هذه الشمس. أنت فعلت ذلك سراً وأنا أفعل هذا الأمر على عيون جميع اسرائيل وأمام الشمس» (صاموئيل2، 12 :11-12).

وجند داود جيشاً وذهب للحرب ضد أبشالوم لاسترداد عرشه. وبدأ داود يسترد شجاعته، وشخصيته(كاريزماه)، وتمتع بحظ جيد وبارك الله مرة جهوده في الحرب والسياسة. وأنزل جنوده هزيمة منكرة بجيش أبشالوم وقتل نحو عشرين الف رجل في غابة أفرائيم، حيث كان داود قادراً على وضع خبرة شبابه كمقاتل أنصار، باستخدام جيد للتضاريس الوعرة(24) «وافترست الغابة من الشعب أكثر مما افترس السيف في ذلك اليوم»(صاموئيل2،الملوك2،18:8) وحتى في حالة الانتصار، عموماً، كان داود عاجزاً عن التعامل بفظاظة مع ابنه المتمرد، وأصدر داود تعليماته الى قادته العسكريين قائلاً: «ترفقوا لي بالفتى أبشالوم» (صاموئيل2،18:5) .

إلا أن أبشالوم، حسب ماحدث، كان مقدراً له أن يموت بسبب نزوة عابرة وهو في طريقه الى أرض المعركة. وقال لنا الكاتب التوراتي أن أبشالوم مثل اخته، كان

جميل المنظر «ولم يكن في جميع اسرائيل رجل جميل كثير المدحة كأبشالوم» (صاموئيل2،14:25) وكان مجده المتوج، حسبما يقولون، رأساً من شعر طويل مترف، وكان كثيفاً بحيث انه كان يزن مئتي شاقل (نحو رطلين انكليزيين أو ثلاثة) عندما قص شعره. وكان شعر ابشالوم هو الذي غدر به- وكان بغله يحمله تحت شجرة بلوط كبيرة، وتعلق رأسه بأغصان واطئة. «فرفع بين السماء والأرض» وكتب الكاتب التوراتي، ناقلاً المشهد الهزلي الخفيف بلغة مفخمة «والبغل الذي كان يحمله واصل السير» (ومر البغل من تحته) (صاموئيل2، 9:18)

وعثر على أبشالوم يوآب، نفس القائد العسكري الذي رتب جريمة قتل أوريا بأمر من داود. وكان أبشالوم لازال حيا، إلا أن يوآب تحدى أمر الملك بأن يبقيه- فطعنه يوآب في قلبه ثلاث طعنات برمح خفيف ثم وجه عشرة من حاملي أسلحته ضد أبشالوم الجريح والعاجز وبذلك أوصل حياة ابشالوم المتوج القصيرة الى نهاية حقيرة. وعلى مايبدو فان يوآب كان أقل عاطفية من داود بالنسبة الى موضوع الأولاد المتمردين، وبالنسبة الى شعوره الميكيافيلي ازاء الأخلاقية العامة (25) فقد قرر القائد العسكري على جعل أبشالوم مثالاً، على الاقل بالنسبة لردع الطامحين بالتاج. ولدى علم داود بموت أبشالوم، لم يوبخ يوآب لتجاوزه أمره بالابقاء على ابشالوم، إلا أنه أعلن علناً حزنه «يابني يابني أبشالوم!» (صاموئيل2، 32:18)

ويبدو موت أبشالوم مثيراً للمشاعر اكثر عندما نتذكر أن اخته بقيت في بيته في القدس، أمرأة مهجورة بحاجة الى حام ومعيل. إلا أن التوراة سمحت لنا بالماحة مثيرة للاهتمام عن مصير تامار. فقد قيل لنا أن ابشالوم أب لأربعة أطفال، ثلاثة صبيان وبنت واحدة. وكانت ابنته، مثل اخته «امرأة جميلة المنظر» (صاموئيل2،14:27) وكلا المرأتين سميتا على شرف تامار الاولى، الجدة البعيدة التي كتبت اسمها بجرأة وشجاعة في التاريخ (انظر الفصل السادس). والتاريخ لم يقل لنا ماذا حل بهاتين المرأتين، إلا أن بامكاننا ان نتخيل بأن كل منهما كانت صديقة الاخرى وتدبرت بطريقة ما أن تعيش بالرغم من المصير المؤسف الذي حل بهما.

الحرارة

بدأ سقوط الملك داود مع بتشابع و أعمال الزنى التي أدت الى ولادة سليمان، إلا اننا لم نواجهها مرة ثانية حتى أواخر حكم الملك، عندما أصبح كهلاً وضعيفاً ولم يعد يهتم كثيراً بمسرات الجسد. فقد دخلت بتشابع بجسارة غرفة نوم الملك حتى عندما كانت محظية شابة لدنة اسمها ابيشاج «تلبي» حاجات الملك. ونحن لا نعرف تماماً ماكانت أبيشاج تفعل، إلا أن الكاتب التوراتي سمح لنا أن ندرك أن «خدماتها» لم تثر غيرة بتشابع لأن الملك الكهل كان عنيناً.

«دعها تستلقي في حضنك، لأن سيدي الملك يمكن أن يحصل على الحرارة» طلبت الحاشية الموسوسة التي جندت ابيشاج للخدمة في غرفة النوم الملكية. ولكن الملك داود الذي كان قوياً أخذت شهواته الجنسية بالذبول، وقيل لنا: «ولكن الملك لم يعرفها» (الملوك1، الملوك3، 1 :2و4).

ودخلت بتشابع الرواية التوراتية مرة ثانية في لحظة حاسمة من ملحمة الملك داود -بالفعل- كانت حقاً اللحظة الحاسمة في تاريخ القصر، التي كانت تدعى أحياناً برواية الخلافة بسبب ماتم بعدئذ. فقد توسلت الى داود لكي يمسح ابنها، سليمان، كخليفته المختار على عرش اسرائيل. وأبلغت داود أن ولداً آخر من أولاده الكثيرين، وهو أدونيا، أعلن نفسه قبل قليل ملكاً وهو يدور حول القدس الآن مع نفس النوع من الحاشية التي استخدمها ذات مرة أبشالوم لأعلان تنصيب نفسه ملكاً - عربة وخيل وخمسون رجلاً.

«والآن، هوذا أدونيا قد ملك» قالت بتشابع الى الملك المقصر «وأنت لم تعلم» (الملوك1، الملوك3، 18:1)

وبينما كانت بتشابع والنبي ناثان يقنعون داود في صالح سليمان، كان أدونيا ينظم حلفائه، ومن ضمنهم القائد العسكري الذي غالباً مالعب دور الرجل الملكي الضارب، والمخلص يوآب. إلا ان بتشابع نجحت في استخلاص ماتريد من داود-«بالتأكيد أن سليمان ابنك سيحكم بعدي» قال الملك السئيم «وهو سيجلس فوق عرشي في مكاني -» وانحنت بتشابع حتى بلغت الأرض امتناناً. وقالت: «ليعش سيدي الملك داود الى الأبد».

ولم تكن كلمات بتشابع ذات نفع. فداود عاش مايكفي لكي ينصح سليمان

بمن يثق ومن يجب أن يقتل حين يموت داود. وفي مشهد لاحق منسوخ بشكل فني في العراب أصدر داود تعليماته بصورة غير امينة الى سليمان لكي يرتب امر قتل يوآب، مثلما رتب يوآب ذات مرة قتل اوريا وأبشالوم. وقال داود: «لاتسمح لرأس الشائب بأن ينزل الى القبر بسلام.» ومن ثم، وبعد حكم دموي لمدة أربعين عاماً، انتهت أخيراً الحياة اللافتة للملك العجوز «ثم اضطجع داود مع آبائه» حسبما أورد راوي قصة صاموئيل والملوك الذي لايضاهى (الملوك1،الملوك3، 2 :6و10)

إلا أن سليمان لم يكن مضموناً على عرش داود، ورواية الخليفة لم تنته بعد. فقد جدد أدونيا مطالبته بالتاج عن طريق سؤال بتشابع، بصورة وقحة، أن تتوسل من الملك سليمان تذكاراً صغيراً واحداً من والدهما- أي المحظية المغرية ولكن غير الملموسة أبيشاج. ووافقت بتشابع في الحال، وان كانت مخادعة الى حدما، على حمل رسالة أدونيا إلى سليمان، وهي تعرف حق المعرفة أن ابنها لن يخطيء في فهم المراد الحقيقي من وراء طلب أدونيا. ومثلما اسند أبشالوم مطالبته بتاج داود بالنوم مع محظيات الملك العشرة على سطح القصر، أكد أدونيا حقه في الحكم كملك على اسرائيل بسعيه للزواج من آخر زوجات الملك. وقد أصغى سليمان الى الرسالة التي جلبتها أمه اليه، واعتبر أدونيا عدو لدود، وقرر ألا يسمح لراسه الأشيب أن ينزل بسلام الى القبر «وحلف سليمان» أن أدونيا انما تكلم بهذا الكلام لمساءة نفسه» (الملوك1،الملوك3، 2:23)

وتنتهي رواية الخلافة بنفس السخرية الجنسية التي دقت في بداية البداية. ومابدا أنه شبق رجل واحد لامرأة جميلة-أولاً اغواء داود ليتشابع، ثم اغتصاب أمنون لتامار، وأخيراً مطالبة أدونيا بأبيشاج-كان عرضاً لكي يكون فعلاً بمعان سياسية لافتة ونتائج سياسية كارثية. وواصل سليمان نفسه اطلاق العنان لشهواته الجنسية العملاقة- فقد كدس نحو سبعمائة زوجة وثلاث مائة محظية- وتم اغوائه لعبادة آلهتهن والاهاتهن الوثنية، مع نتائج مأسوية أبعد على البيت الملكي لداود. وبنى سليمان المعبد في اورشاليم، وبذلك توج انجازات أبيه، إلا أن المملكة المتحدة ليهودا و اسرائيل بدات بالتصدع- وامبراطورية الملك داود بدات تسقط منفصلة اثر موت سليمان.

«كان حبك لي رائعاً»

إن الوصف الصريح للعاطفة الانسانية في النزع الأخير الذي حفظ في سفر صاموئيل أغفل معظمها من قبل قراء التوراة الأتقياء، الذين بدا أنهم يفضلون مزامير داود على مغامراته الجنسية. وحتى أن بعض الأدباء التوراتيين لم يرتاحوا لصراحة الكاتب التوراتي بشأن ما دعاه أحد المعلقين بنعومة «فشل داود في مجال التقييد الأخلاقي» (26) وعلى سبيل المثال، فان كتاب «أساطير اليهود» للويس جينزبيرغ وهي مقتطفات أدبية من الاسطورة الحاخامية بلغت سبعة مجلدات ضخمة ، يترك فقط جملتين معزولتين [1] لتامار ومعاناتها على يدي أخيها من أبيها . ويجادل الحاخاميون أن «تامار لايمكن أن ندعوها أحد أبناء داود، لأنها ولدت قبل أن تعتنق أمها الديانة اليهودية. وبالتالي فان علاقتها بأمنون ليست من طبيعة خطيرة جداً بالمعنى الدقيق للكلمة» (27)

ومن ثم، أيضاً، فان المعاني الاضافية الجنسية الشاذة في قصة حياة داود تم تجاهلها بشهادة كاذبة من قبل نقاد التوراة الى ماقبل فترة قصيرة. ويحتفل المعلقون الأتقياء منذ فترة طويلة بالصداقة الحميمة مابين داود ويوناتان «كنموذج للصداقة الذكورية» (28) على سبيل المثال، إلا أنهم رفضوا التسليم بامكانية قيام علاقة ودية فيزيولوجية إضافة الى العلاقة الروحية مابين هذين الرجلين. وتقول لنا التوراة بصراحة تامة أن «تعلقت نفس يوناتان بنفس داود» (صاموئيل1،الملوك1،18:1) ففي عشية المعركة «خلع يوناتان الرداء الذي عليه ووهبه لداود مع سائر ثيابه حتى سيفه وقوسه ومنطقته» (الملوك1، 4:18) والبس داود ملابسه الخارجية بصورة رقيقة كعربون صداقة. وعندماقتل يوناتان فيما بعد، غالبا ما تكلم داود بصراحة تامة في مرثاته الممجدة التي غالباً مايستشهد بها، عن رباطهما «لقد كنت شهياً الي وكان حبك عندي أولى من النساء» (صاموئيل2،1،26).

ولازال يعرض احتشام معين، بصورة لافتة، من قبل بعض الأدباء المعاصرين ازاء الافراط الجنسي في التوراة، وخصوصاً، قصة داود. وعلى سبيل المثال، تعرض

---

(1) يقول بيان حاخامي مذهل أن ما اسقطه جينزبيرغ هو تفسير لمَ انقلب «حب» أمنون لتامار بصورة مفاجئة الى كراهية أن أمنون، حسبما يفترض التلمود، تكبد تورطاً وأذى مؤلماً حين وجد نفسه واقعاً في شرك شعر عانة تامار أثناء الاغتصاب.

التوراة بتشابع كغاوية سعت للفت نظر الملك، وفكر، على الأقل أديب واحد بأن «أكثر من بتشابع واحدة من القاطنين في المناطق المجاورة للاقامة الملكية أخذت تستحم على أمل أن يكون بالامكان رؤيتها من سطح بيت الملك.» وتشتكي الناقدةج تشيرلي أكزوم بأنها صدمت بقصة داود وبتشابع «وعناصر الأدب الاباحي» المشابهة في الروايات التوراتية لعدوان جبع واغتصاب تامار. وطبقاً لأكزوم، فان بتشابع- ليست غير مشابهة لتامار. فقد«اغتصبت بالقلم» لأن قراء التوراة كانوا مدعوين لأن يضعوا أنفسهم «في موقع المشاهدين» ويراقبوا ماحدث لبتشابع عندما لفتت نظر الملك اثناء استحمامها على سطح البيت.وتقول أكزوم هذه ليست قصة حب. والمشهد مكافيء توراتي لـ«لصوت دوي، شكراً لك ياسيدتي: فهو الذي أرسل، وهو الذي أخذ، وهي التي أتت، وهو الذي اضطجع، وهي التي عادت » (29)

والحقيقة، أن بعض كتاب التوراة أنفسهم لم يكونوا مرتاحين بالعرض الصادق في سفر صاموئيل (الملوك1و2) والملوك (الملوك 3و4) لذا فقد أعطينا ترجمة ثانية لحياتي داود وسليمان في أخبار الأيام الأول والثاني، اللذين يظهر أنهما نوع من تخاطر الأفكار في نهاية التوراة العبرية تماماً. ولم يذكر سفري أخبار الأيام حب داود ليوناتان ، وأعمال الزنى والاجرام التي قام بها داود مع بتشابع، واغتصاب تامار، وتمرد أبشالوم. وتمت مراجعة حوادث أخرى في عهد داود بصورة جزئية، وأعيدت كتابتها لكي تخدم التقويم الديني للمؤلف- والشرع والعمر المديد للسلالة الداودية. وعلى سبيل المثال، كتب بصورة صريحة في السفر الثاني لصاموئيل(الملوك2) أن داود أمر من الله أن يجري احصاء للاسرائيليين. وهو أمر اعتبر قبيحا من قبل الاسرائيليين القدماء لأن الاحصاء كان الخطوة الاولى نحو فرض الضرائب والتجنيد الالزامي- ومن ثم، على العكس تقريبا، دار الله من حول الموضوع وعاقب داود والاسرائيليين حين أذعن الملك (صاموئيل2،الملوك2،24 :1و15) غير أن الدعائي الذي صاغ أخبار الأيام محا تماما اسم الله وكتب اسم الشيطان لدى اعادة قصه نفس القصة «ونهض الشيطان على اسرائيل» (أخبار الأيام الأول 1:21)

وبالطبع، فقد كان الامر دقيقاً لأن القصص المحرمة في التوراة جعلت عدداً

كبيرا من الناس غير مرتاحين بصورة دائمة الى حد شعورهم بأنهم يراقبون ويضطهدون او يتم تجاهلهم بكل بساطة. ولكن اذا قرأنا التوراة- وخصوصاً قصة داود- بعينين مفتوحتين، سنرى في الحال أن الكتّاب التوراتيين اعتبروا الكائن البشري المصدوع بعمق مثل داود جدير بأرفع التبريكات من العلي القدير. ولذا يثبت في النهاية أن داود، رجل حرب، سيكون سلف أمير السلام.

البركة واللعنة

وصفت أربعة عهود محتومة مابين الله والنوع الانساني في التوراة العبرية. الاتفاق الأول عقد مع نوح: «واقيم عهدي معكم فكل ذي جسد لاينقرض أيضاً بمياه الطوفان، ولايكون أيضاً طوفان ليتلف الأرض» (سفر التكوين9:11). والاتفاق الثاني هو الاتفاق مابين الله وابراهيم، الذي كتب عليه أن يكون «أبا جمهور أمم» و«أعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً مؤبداً» (سفر التكوين17 :4و8). والاتفاق الثالث هو قسم الله الى موسى بأن يجعل الاسرائيليين «مملكة أحباروشعباً مقدساً» (سفر الخروج19 :5و6) اذا هم وافقوا على تنفيذ وصاياه التي بلغت 613 في الصفحات الأخيرة للأسفار الخمسة لموسى. والاتفاق الرابع هو الاتفاق بين الله وداود، وهو وعد أصبح يدرك من اليهود والمسيحيين على قدم المساواة، كوعد جليل من الله أن يحرر عالمنا من المعاناة مرة واحدة والى الأبد.

«واذا تمت أيامك واضطجعت مع آبائك وأقمت من يليك من نسلك الذي يخرج من صلبك وأقرر ملكه.. وأما رحمتي فلا تنزع عنه..بل يكون بيتك وملكك ثابتين الى الدهر أمام وجهك وعرشك يكون راسخاً الى الأبد.» (صاموئيل2،7:12).

والواقع، أن البيت الملكي لداود حكم المملكة القديمة يهودا لنحو أربعمائة سنة (30) وهي سلالة ذات طول واستقرار غير مسبوقين، وخصوصاً في الشرق الأدنى القديم. وقد تم تذكر وعد العلي القدير لداود في كل مرة صعد أحد خلفائه الى العرش في يهودا: «وبيتك وملكك ثابتين الى الدهر» (صاموئيل2، 7:16) وطبقا لتقليد قديم، فان كل ملك جديد في السلالة الداودية كان يمسح بالزيت المقدس أثناء الاحتفال بالتتويج. ولهذا السبب، كان يعتبر كل ملك في

سلالة داود ك«شخص ممسوح بالزيت»- والكلمة العبرية المستخدمة ماهياتش ، إلا أننا أكثر تآلفاً مع الكلمة اليونانية التي تنقل نفس الكلمة مسيح.

ولكن الوعد الالهي لداود لم يحفظ. فالخط السلالي الداودي للملوك استمر حتى عام 587-586ق.م.ب، عندما غزا البابليون المملكة الجنوبية يهودا وهدموا المعبد الذي بناه سليمان في اورشاليم. وطبقاً لسفر الملوك، كان آخر وريث لداود يجب أن يجلس على عرش اسرائيل في القدس هو صدقيا ، وكان شاباً خدم بالبدء كملك خائن لوطنه وعين من قبل نبوخذ نصر، ملك بابل، ولكنه، فيما بعد، ثار على سيده. وفشل تمرد صدقيا، وكان آخر منظر سمح له أن يراه هو ذبح أطفاله. ثم اقتلعت عيناه، وحمل مكبلاً بالسلاسل الى بابل، حيث تم تشغيله كرقيق في طاحون(الملوك2،الملوك7:25،4) ولم يأخذ أي وريث لداود العرش في القدس ثانية.

ولبيان لِمَ أخلف الله ظاهرياً بوعده المقدس لداود، تحجج ناقد توراتي متأخر أن الله اشترط على نسله الملكي، صيانة صارمة للشريعة الالهية. والحقيقة أن الملوك الداوديين، بدءاً من سليمان انخرطوا في عبادة وثنية وفي باقي «الشناعات» مما يفسر لِمَ لم يعتبر الله نفسه ملزماً بالسير وفق مانصت عليه الصفقة مع داود. والواقع، أن سفر الملوك يقدم لنا مشهداً يفسر فيه داود لسليمان أن عهد الله أتى مع «اذا» كبيرة.

«لكي يحقق الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلاً
إن حفظ بنوك طريقهم وسلكوا أمامي بالحق
من كل قلوبهم وكل نفوسهم
لاينقطع لك رجل عن عرش اسرائيل.» (الملوك1،الملوك3، 4:2)

اذن فالأمر أمر انعدام الثقة باسرائيل، وليس نقضاً للعهد من جانب الله، الذي أدى الى خراب اسرائيل، طبقاً للترجمة المنحرفة للعهد مابين الله وداود. والحقيقة، شغل الأنبياء أنفسهم الى درجة سعار اللوم في جهودهم لاقناع الاسرائيليين بأن محنتهم الطويلة في الغزو، والاحتلال، والشتات هي أخطاؤهم هم «الحكام انحرفوا ضدي» اشتكى الله الى النبي ارميا، «وكل عائلات بني اسرائيل» (ارميا2 :4و8؟)

«كيف أصفح لك عن هذه
وقد تركني بنوك وحلفوا بما ليس إلهاً
وحين أشبعتهم فسقوا
والى بيت الزانية تبادروا
صاروا حصناً معلفة هائمة
كل يصهل على امرأة قريبة .
أفلاأفتقد على هذه يقول الرب
ولاتنتقم نفسي من أمة مثل هؤلاء؟» (نبوءة ارميا 5 :7-9)

إن الانحراف الذي نجده في ثنايا صفحات التوراة ربما كان من عمل الرهبان والنساخ الذين عاشوا حوالي عهد الملك يوشع، وهو سليل داود وكان مصلحاً لاهوتياً قوياً في اسرائيل القديمة. وفي عام 622ق.م.ب اكتشف بصورة غامضة كتاب مقدس في المعبد باورشاليم، وكان هذا الكتاب سفر تثنية الاشتراع، طبقاً لدراسة توراتية متأخرة، أو كان على الأقل، قطعة سميكة منه. وجسد سفر تثنية الاشتراع لاهوتاً جديداً صارماً وضع كل اللوم على ماأصاب اسرائيل القديمة من بلاء على نقض الله لعهده مع موسى، وبين كاتب سفر تثنية الاشتراع أن الاسرائيليين بعبادتهم للآلهة والآلهات الغريبة، تحدوا القانون والنظام «للشريعة الالهية»، وأنهم سوف يخسرون البركات التي وعد الله بها الشعب المختار، وبدلاً من ذلك يستنزلون على أنفسهم اللعنات التي نشرت أخيراً بتفصيل مروع في سفر تثنية الاشتراع. قال موسى في سفر تثنية الاشتراع: «وقد شهدت عليكم اليوم السماء والأرض بأني قد جعلت بين أيديكم الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا أنت وذريتك.» (سفر تثنية الاشتراع (19:30

وذو مغزى، تأثير سفر تثنية الاشتراع الذي يمكن تتبعه في أسفار عديدة أخرى في التوراة: يشوع، والقضاة، وصاموئيل الأول والثاني(الملوك 1و2)، والملوك الأول والثاني (الملوك 3و4)، وكل مايعرف بين الادباء باسم تاريخ الاشتراع. ويعرض المشرع جدول عمل ليس ذكياً جداً في هذه الاسفار العديدة للتوراة: وسعى أيضاً لجعل البيت الملكي لداود شرعياً كشرعية حكام اسرائيل أيضاً، إلا أنه

سعى أيضا لتبيان المصير البائس لاسرائيل بلوم أحفاد عديدين لداود لارتكابهم «الفواحش» في انتهاك شريعة الله. والح المشرع على أن «الملك بعد الآخر فعل ماكان شرا في عيني الرب» وهذا هو سبب سحب الله لبركته من شعبه المختار.

قدم تاريخ أحفاد الملك داود المؤسف والمهين للمشرع الكثير من الأمور التي اشتكى منها. فلم يكن داود بلا أخطاء، كما رأينا، وارتكب سليمان الإثم الأكبر بعبادة الآلهة والآلهات الوثنية بطريقة أو بأخرى حسب المشرع. وفقط ملك داودي واحد استثني من عدم الكفاءة المفرط(31) -وهو الملك يشوع المصلح الديني المتحمس الذي حول الممارسات الدينية لاسرائيل القديمة في أوائل القرن السابع ق.م.ع.الى أن يحرز يشوع تقدما، والى أن يكتشف سفر تثنية الاشتراع، فان الممارسات الدينية في اسرائيل القديمة شملت عبادة بعل وأشيراه، وعبادة الشمس والقمر والنجوم، وحتى التضحية بالاطفال للإلهة المعروفة باسم مولوتش (الملوك2،الملوك4، 23). ولفرح المشرع، فقد أقسم يشوع على تطهير امة اسرائيل من كل شيء باستثناء العبادة الصحيحة.

ولقد جرى رسم شخصية يشوع من قبل نقاد معاصرين- كداود مبعوث من جديد-وامتدح الملك الغامض الآخر بسخاء أكبر من السخاء في امتداح داود من قبل الكتاب التوراتيين من أجل الجهود التي بذلها في تنقية عقيدة اسرائيل القديمة وارتبط اسم الملك يشوع بتطهير المعبد من الممتلكات التي كانت تستخدم لعبادة بعل واشيراه. فهدم «بيوت اللواطيين» حيث كانت النساء يعملن في مثل هذه الأبنية، ومنع عبادة الآلهة والآلهات الوثنية على المذابح و«الأماكن المرتفعة» في اورشاليم وفي الأماكن الأخرى حول اسرائيل القديمة، وقتل الرهبان المرتدين الذي يشرفون على مثل هذه الاحتفالات، وطمر مواقع عبادة الأوثان «تحت عظام الناس» (الملوك2،الملوك4،4:20) ووصف الملك يشوع، بسبب الجهود التي بذلها ، بحماس لم يحفظ مثله المشرع إلا لرجل آخر في التوراة كلها- وهو النبي موسى مانح الشريعة. وكتب الكاتب التوراتي عن يشوع، وهو يردد صدى ذات الكلمات والعبارات التي استخدمت في وصف موسى».

«ولم يكن قبله ملك مثله أقبل الى الرب بكل قلبه وكل نفسه وكل قدرته بحسب كل توراة موسى ولا قام بعد مثله» (الملوك2،الملوك4،23:25).

ولأن يشوع وحده تمتع بمثل هذا التملق الصريح فان دراسة توراتية معاصرة تفترض أن أسفار التوراة المعروفة باسم تاريخ التشريع، قد صيغت للمرة الاولى اثناء جلوس يشوع على العرش. وبالفعل، فان سفر تثنية الاشتراع نفسه كان يدعى «الدجال التقي» لأن سفر قدم كأحد الأسفار الخمسة لموسى- «هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع اسرائيل في عبر الاردن» (سفر تثنية الاشتراع1:1)- عندما صيغ سفر تثنية الاشتراع بصورة واضحة من قبل كاتب مختلف (وأخير) غير الآخرين الذين صاغوا الأسفار الأربعة (33) وكرم كتاب تاريخ التشريع الملك يشوع، الملك الغامض والمختلف الذين عاشوا وعملوا في ظل حكمه-، لأنهم صادقوا على سياسته في مركزة وتوحيد عبادة يهوه، وفي اقصاء الآلهة والآلهات الأخرى التي بدا أن الاسرائيليين وجدوها مغرية جداً.

لذا فان التوراة، حسبما عرفناها، حفظت لقطة (فوتوغرافية) لسياسيي القصر وللأولوية الرهبانية في لحظة واحدة في التاريخ الطويل لاسرائيل القديمة. إلا أن الأفعال «التي كانت شريرة في عيني الرب» من جانب الاسرائيليين والملوك الذين حكموهم لم تنته مع يشوع. فالملوك الذين جاؤوا بعد يشوع لم يكونوا أفضل من اولئك الذين جاؤوا قبله، طبقاً لكاتب سفر الملوك، والسلالة الداودية التي وصلت الى النهاية الأخيرة والمؤسفة بالغزو البابلي وهدم المعبد. وكما ظهر، فان سليلاً من نسل داود لن يأخذ العرش ثانية. لذا فان كتاب التوراة وجدوا أنفسهم أمام سؤال مربك بلا اجابة: اذا كان الله وعد الملك داود بأن نسله سيجلسون على عرش يهودا «الى الأبد» فمتى وكيف سيفي الله بوعده؟

«سوف لن يلحقهم الأذى ولن يتحطموا»

كان سليمان شخص غير مرغوب فيه لكي يخلف داود في ملكية المملكة ليهودا واسرائيل. وبرغم كل ذلك كان ابن زواج بوساطة من خلال الزنى والاغتيال، وكان يقف ليس أقرب من عشرة في صف الخلافة. ومالت رواية الخلافة لأن تعرض كيف أن الحرب والسياسيين، والخداع والتآمر، واراقة الدماء والخيانة، اجتمعوا لجلبه الى عرش اسرائيل. وينزل يهوه مرة ثانية الى منزلة وظيفة «إله منح الموافقة» (34) قلما رؤي أو سمع. وسمح لنا مؤرخ القصر أن نرى داود ومعاصريه

كـ«أنـاس لـم يعـودوا يسـيرون وفـق ايمـان بـالرموز الدينيـة الطائفيـة في الماضي» حسـب مـاكتب أحـد النقـاد، «بـل يتبـارون علـى السـلطة الزمنيـة وحريـة التعبـير الذاتية في العالم الدنيوي» (35) دنيوي ارضي.

ومع ذلك، حسبما تبين، فان العالم الدنيوي لم يكن لطيفاً مع بيت داود أو مع المملكة المتحدة التي أوجدها، وأجبرت اسرائيل القديمة في الحال على الحرب الأهليـة، والغـزو، والاحتـلال، والنفـي. والاسـرائيليون الذيـن واجـهوا الحقـائق الأليمة في تاريخهم بدأوا في اعادة تأويل الوعد الالهي في طريقة جديدة خطيرة. وطالما ان عرش داود كان فارغاً ولم يكن ثمة خليفة مضمون، فان الملك التالي في السلالة الداودية أصبح يفهم كواحد سيظهر في لحظة غير معروفة في المستقبل ويرشـد في عـهد سـلام تـام وانسـجام- منقـذ، ومفتـدى، ومخلـص الـ«الممسـوح بـالزيت»-المسـيح- كـان محـولاً ببـطء وبرقـة مـن أيضـاً لحـم ودم ملـك آخـر الـى شخص غامض واعجازي سينفذ وعد الله الأصلي الى الملك داود.

«لأنه قد ولد لنا ولد» بين النبي أشعيا في فقرة توراتية معروفة تشتعل تماماً بالاشواق المسيحانية للناس المضهدين. «ولـد أعطـي لنـا فصارت الرئاسـة علـى كتفه.»

ولسلام لا انقضاء له،

على عرش داود، ومملكته

ليقرها ويوطده

بالانصاف والعدل

من الآن والى الأبد(نبوءة أشعيا9 :5-7).

وهنـا نبلـغ مفـترق الطـرق حيـث تمضـي اليهوديـة والمسـيحية في اتجـاهين مختلفـين، مأسـويين وبعواقـب دمويـة. ويعتـبر التقليـد اليـهودي المسـيح كمسـيح مقـدس ولكنـه شـخص مـن البشـركلياً سـوف «يجـري الحكـم والعـدل في الأرض» (نبـوءة ارميـا5:23)- وبصـورة قاطعـة، تشـير الديانـة اليهوديـة الـى اننـا لانـزال بانتظار وصول المسيح. ويعتبر التقليد المسيحي المسيح بمثابة أبن الله ومصدر الخـاص السـماوي- وتـؤول الديانـة المسيحية كلمـات أشـعيا والأنبيـاء الآخريـن في التوراة العبريـة في تعريـف عيسـى النـاصرة ك ال مسـيح، وهـي كلمـة ترجمـت الـى

اليونانية Christos ونقلت الى الانكليزية كـ«christ» التي ترجمت الى العربية بـ(المسيح، يسوع المسيح، عيسى بن مريم)[1] ومن هذا الاختلاف الاساسي في الرأي في تعريف الوريث الأخير لداود، أوجدت الكراهية، والظلم، والمعاناة لأكثر من الفي سنة، وطغى الموت، ولم تر حتى الآن نهاية لكل ذلك.

وأكثر من تهكم مر في هذه النصوص التوراتية الهامة له تأثير فعال. فداودعلى غرار قلب الله «ومع ذلك فان الله ليس باد للعيان كثيرا في سفر صاموئيل (الملوك 1) وخصوصا، في اغتصاب تامار، ومحنتها، واحدة من أكثر الروايات الحقيقية في التوراة ترويعا، استخدمت من قبل الراوي التوراتي لينذر السياسة الواقعية لقصر الملك داود، وهو مكان يئز تماما بالخداع المكيافيلي وبالسياسيين السلطويين الكلبيين. وواقع أن داود كان مشاركا مهملا في اغتصابها- ويبقى المزعج أكثر، واقع أنه لم يفعل شيئا لكي يحميها أو يعاقب المغتصب- وكان الحدث مهملا تماما من قبل العلي القدير.

ولكن، من ثم، سمح لنا سفر صاموئيل أن ندرك أن الله لم يكن يهتم كثيرا بالجرائم الخطيرة وبالمصائب الجنسية للملك داود. وعندما قرر العلي القدير اولا، ان يعاقب داود بسبب الزنى مع بتشابع ودوره في قتله الفاحش لزوجها فان رضيعا بريئا حمل الوطأة الاولى من غضب الرب! أما بالنسبة الى وحشية داود في السياسة والحرب- فرش سبيله الى العرش بجثث الموتى من منافسيه وأعدائه- والعقاب الوحيد من الأعلى كان أن سليمان، أكثر من داود، له شرف بناء المعبد في اورشاليم.» فقد قال الله: «انت لاتبني بيتا لاسمي لأنك رجل حروب وقد سفكت الدماء» (سفر أخبار الأيام الأول 28:3) ونسي كل شيء، وغفر كل شيء، ومع الوقت منح الله بركته الأبدية الى داود وسجل أن سلالته ستجلب في النهاية أمير السلام، المسيح.

وتفاخر داود قائلا: « كافأني الرب بحسب بري وبحسب طهارة يدي اثابني» (صاموئيل2،الملوك2، 21:22)

إن أعظم (وأقسى) تهكم هو واقع أن دما غزيرا سفك طوال قرون كثيرة على

---

(1) وان كان هذا الاشتقاق يمت بصلة وثيقة الى crux الصليب ومنها crusader الصليبي أحد المشتركين في الحروب الصليبية، و crusade احدى الحملات الصليبية.

وجه الدقة لأننا لانستطيع أن نوافق على ماقالت التوراة وماكانت تعنيه بالنسبة الى مجيء المسيح. ويشترك كل من المسيحيين واليهود باعتقاد عام، عموماً،بأن المسيح سيكون (أو كان) سليلاً لداود- «ويخرج قضيب من جِذرِ يسّى» حسب ماكتب أشعيا، مشيراً الى والد داود (نبوءة أشعيا 1:11) لذا فان من واجبنا ان نصلي، مسيحيون ويهود على قدم المساواة، بأن كل كلمات النبوءة تدرك في زمان ومكان يقيم فيه الأعداء الألداء السلام، و لايبقى الأطفال لوقت أطول في خطر، في عالم لاتحتاج فيه تامار الى الخوف من أمنون،ولايحتاج أمنون الى الخوف من أبشالوم، ولايحتاج أبشالوم الى الخوف من داود.

فيسكن الذئب مع الحمل

ويربض النمر مع الجدي

ويكون العجل والشبل والمعلوف معاً،

وصبي صغير يسوقها.

وترعى البقرة والدب معاً، ويربض أولادهما معاً،

والاسد يأكل التبن كالثور.

ويلعب المرضع على جحر الأفعى

ويضع الفطيم يده في نفق الأرقم

لايسيئون ولايفسدون

في كل جبل قدسي (نبوءة أشعيا 11 :6-9)

والى كل من يقرأ التوراة، مسيحيون أو يهود أو مسلمون، ولاادريون، أو ملحدون، ينبغي أن يكونوا قادرين على قول كلمة: آمين.

الفصل السادس عشر
رواية الله المشوقة

وجه الله

ماذا يريد الله؟

ميدراش

رواية الله

عندما تتخيل رجلا أو امرأة باهتمام، بامكانك دائما أن تبدأ من الشعور بالتعاطف- وتلك كانت خاصية صورة الله المحمولة معها. وعندما ترى الخطوط عند زوايا العيون، وشكل الفم، وكيف نما الشعر، فان من المستحيل أن تكره. والكراهية على وجه الدقة فشل في التخيل.

غراهام غرين

السلطة والمجد

روى جاك كيرواك قصة على الطريق عن منحرف شاب أطلق سراحه للتو من سجن أمضى فيه فترة بسبب سرقةكبيرة. ولتحاشي الجلوس على أرض الزنزانة الحجرية الباردة أثناء تمدده الطويل وحيداً، استخدم توراة من اصدار السجن كنوع من وسادة. إلا أن السجانين اعترضوا على عقوقه (أو، الأكثر احتمالاً، على ارتياحه) واستبدلوا الكتاب السميك بـ«كتاب كبير جداً بحجم مصغر» حسب ماقال المحدث اللبق.

وقال الشاب عن إلهامات سجنه: «لأنني لم استطع أن أجلس عليه، فقد قرأت كل الانجيل والعهد القديم. وكما تعرف فان ثمة أشياء ساخنة حقيقية في تلك التوراة» (1)

وبالطبع، فان ماهو «ساخن» لأول وهلة بالنسبة الى القصص الممنوعة في التوراة هي الصدمات والمفاجآت التي تنتظر القارىء الذي يتوقع أن يجد مواد مدرسة الأحد- روايات الخداع الصريحة والتي لاتخضع للقياس nonjudgemental، والافتضاحية، واختلاس النظر من ثقب الباب (وبخاصة من يشبع رغبته الجنسية عن طريق النظر الى الأعضاء التناسلية او الى العمل

الجنسي) والزنى، وغشيان المحارم، والاغتصاب، والقتل. ومن الصعب أحياناً أن نفهم معنى المثال الأخلاقي الذي أراد المؤلفون للتوراة منا أن نراه في هذه الروايات عن الرغبة الانسانية. ولهذا السبب فان القصص التي اسكتشفناها هنا قد روقبت، ومنعت، واسيئت ترجمتها، أو تم تجاهلها كلياً بواسطة مبشرين وأساتذة وجدوا من الصعب تعريفها.

إلا أن هذه القصص «ساخنة» بمعنى آخر تماماً. وكما رأينا، فان التوراة شوشت بالمصنوعات اليدوية وبقايا العقائد القديمة والممارسات التي جاءت بمثابة مفاجأة لأي انسان سبق له أن تعلم أن عليه أن يعتبر التوراة بمثابة بيان أخلاقي مخلص للتوحيد. وتصوير الله كعابثٍ ومؤذٍ وفي بعض الأحيان يوقع الذعر في نفس أي انسان يتخيل العلي القدير كأبٍ سماوي «وملك للكون»، لطيف ورحيم، بطيء في الغضب وسريع في الغفران وفي الوقت الذي ننهي فيه قراءة وتأمل هذه القصص المزعجة، نترك بادراك مضطرب بأن شيئاً ممجوجاً جداً كان يجري في اسرائيل القديمة قبل أن يأتي الرهبان والنساخ وينظفوا النص التوراتي-ولدينا فقط إلماحة خفيفة وان كانت مغضبة لما كان عليه التنظيف.

لذا فان النقط الساخنة الدينية في التوراة انقلبت لكي تكون حتى أكثر اضطراباً من الاحداث الناتجة عن سوء تصرف الأشخاص. وبينما يبدو فضائحياً في كلٍ من التاريخين اليهودي والمسيحي إعتبر داود كـ«رجلٍ على غرار قلب الله»، النموذج الحقيقي للملك العادل والمستقيم، وسلف المسيح. ويصبح الأمر صعباً أكثر لدى شرح واقع أن ابنه وخليفته، سليمان الحكيم، قدم ضحايا للآلهة الكنعانية المسماة عشتروت، من ضمن ألوهيات وثنية أخرى. ومع ذلك لم يعاقب على «فواحشه». وذنوب داود مجرد عيوب بشرية، إلا أن فعل ارتداد سليمان يتحدى ماتعلمناه لكي يعتبر كتعليم اساسي في التوراة وفي الأديان الثلاثة التي تعتبر التوراة كتاباً مقدساً: وكتبت «لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي» حرفياً، على الحجر، بإصبع العلي القدير (سفر تثنية الاشتراع 7:5)

وهكذا فان بامكاننا أن ندرك من قراءة واعية للنصوص المحرمة في التوراة أن الحقيقة الجوهرية هي أن لاوجود لحقيقة جوهرية. وبدلاً من ذلك، دعينا الى

أن ننضم الى باقي البشرية في بحث لايكل ولايمل لرؤية نظام أخلاقي معين في كون تعمه الفوضى. ونحن مدعوون من قبل التوراة بالذات لأن نشخص من الله وماذا يريد- وهذا أكثر الكشوف إرباكاً على الاطلاق. والحقيقة البينة أن التوراة تقدم كثيراً من الرؤى لله، والكثير من التفسيرات لارادة الله، والكثير من التنبؤات لمصير الكائن البشري، والمطلب الحقيقي هو تمييز تلك الرؤى المفهومة والمعقولة والتي تبدو حقيقية، وتلك التي تتمسك بالوعد بالسلام في عالم مرتبك وخطير.

وجه الله

«ثقب بشكل الله» بهذه الكلمات وصف الفيلسوف الفرنسي الوجودي جان بول سارتر ذات مرة الحنين الى الالهي الذي يتوق توقاً موجعاً في قلوب وعقول الكائنات البشرية في كل العصور والأماكن. وصورت الآلهة والآلهات في الفن المقدس لكل ثقافة، بدءاً من أشكال العصا الخام لرسوم الكهف وانتهاء بالصور المجيدة التي تزين كنيسة سيستين. إلا أن التنوع الخيالي لهذه الصور يبين لم لانستطيع أن نوافق على الخطوط الخارجية لتلك الحفرة أو الثقب ذي الشكل الالهي في روح الانسان. وحتى التوراة لم تطرح على نفسها السؤال عن من يكن الله، وماذا يشبه، ولِمَ تصرف الله على النحو الذي تصرف به، أو ماذا يريد منا الله.

وبالانطلاق من الكلمات الاولى في التوراة بالذات، فان الكتاب التوراتيين لايستطيعون الموافقة أبداً على كيف يصفون ويصورون الله الوحيد الحقيقي، وان أعطينا ترجمتين لما جرى «في البداية».

تصور الرواية الأولى للخلق في سفر التكوين الله كشيء كوني أو غيره وحسب، ونوع من الألوهية المجردة يتوسل اليها علماء الفيزياء الفلكية حين يحدقون في مستسعر[1] فائق ويصفون مارأوا كـ«وجه الله» و«كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرف على وجه الماء». وعندما يتوقف الله غير المشكل في سفر التكوين لكي يخلق الرجل والمرأة «يخلقهما في سفر التكوين على صورته» (سفر التكوين 27:1) وانجز العمل بأوامر لفظية من دون ملامسة. والواقع، اننا عندما نقرأ الرواية الاولى للخلق في سفر التكوين، لانستطيع،

(1) المستسعر نجم يتعاظم ضياؤه فجأة ثم يخبو في بضعة شهور أو بضع سنين (المورد)

بالحقيقة، أن نقول أن لدى الله أيدي «لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها» رسم الله «وكان ذلك» أضاف الكاتب التوراتي (سفر التكوين1:24)

وتعرض ألوهية مختلفة تماماً في الرواية الأخرى للخلق، حيث يجري تعريفنا على ترجمة أرضية مثيرة عن الله الذي يتجول في طين ووحل كوكب خلق حديثاً وينحت الرجل الأول من الطين بيديه: «وإن الرب الاله جبل الانسان تراباً من الأرض ونفخ في انفه نسمة حياة فصار الانسان نفساً حية» (سفر التكوين 2:7) وفيما بعد، فان إله التكوين2 سريع الغضب وشديد الحساسية يرى وهو يتجول في جنة عدن «عند نسيم النهار» ويتحد مع الرجل والمرأة اللذين خلقهما بيديه (سفر التكوين 3 :8و9) ومن الملاحظ، أن كل من عرف يهوه ، وكل من رآه لم ير ولم يعرف أين آدم وحواء أو ما هو المطلوب منهما أو لِمَ ارتديا فجأة أوراق تين تلك الشجرة.

«أين أنت» نادى الله على المخلوقان البشريان اللذين كان قد خلقهما وشعر انه مليء بأسئلة ملحة. «قال فمن أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي نهيتك عن أن تأكل منها؟» «فقال الرب الاله للمرأة ماذا فعلت؟» (سفر التكوين 3: 9و 11و13) وتواصل التوراة استحضار رؤى لاتحصى لله. وكان العلي القدير يظهر احياناً متشرداً بأقدام تغطيها طبقة من الغبار وبامتنان يتناول وجبة من شرائح اللحم واللبن الخاثر (سفر التكوين 18:8) وكان يظهر أحياناً عمود من السحاب في النهار، وعمود من نار في الليل (سفر الخروج13:22) وكان يظهر في «الأيام الخوالي» ملكاً سماوياً بشعر أبيض فوق عرش ناري، تقف على خدمته حاشية ملائكية عددها «ألوف الوف» (نبوءة دانيال7: 9و10) وكان أحيانا يتغير من كائن بشري عادي في لحظة، وهو يسير مجهداً عبر الصحراء على أقدامه، وبعد لحظة يرعد الجبال، «وأمطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء» (سفر التكوين 19 :23و24)

وذات مغزى الرؤية التوراتية لله، التي غالباً ماتستحضر من قبل رجال الدين في هذه الأيام وهو على هيئة مراوغ أو منحرف، كنوع من ألوهية مابعد الحداثة تترفع على البريق والابهار الذي عرضه في سفر الخروج أو على الأبهة والاحتفال اللذين يحيطان به في نبوءة دانيال. وظهرت الرؤية الوجودية لله في السفر الأول

للملوك (الملوك3)، حيث يصف الكاتب التوراتي كيف وافق العلي القدير على أن يظهر نفسه للنبي إليا على القمة االصخرية للجبل في اسرائيل القديمة.

«فاذا الرب عابر وريح عظيمة وشديدة تصدع الجبال وتحطم الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت نسيم لطيف.» (سفر الملوك 1، (3)19: 11-14)

واليوم، نحن نكافح لكي نسمع ذلك الصوت اللطيف وسط تنافر النغمات التي حضرت مولد الألفية الجديدة. وثمة أصوات كثيرة جديدة تصيح معلنة رؤاها عن مايريد الله منا أن نعتقد، وأن نعرف، وأن نفعل. إلا أن كامل الغاية من التوراة هي أن الله لايفهم ادراكه كبيان واحد يقصي كل الآخرين. ان الله قادر على التصرف بطرق نجدها مربكة ومزعجة، وحتى لاتحتمل. واذا كان المبدأ الأول للتوراة المستند الى الأديان هو الأمجية Imago Die[1] أي الطموح الانساني لجعل انفسنا أعلى في خيال الله- ثم يجب علينا ان نستعد لأن نتحمل سلسلة من السلوك الانساني يذهب الى ماوراء يقينيات غير حريفة يجري تعليمها في صف مدرسة الأحد. فالله والانسانية ببساطة ووضوح ليسا شيئاً واحداً.

وكتب جاك ميلر في الله: سيرة ذاتية ان من الغريب أن نقول أن الله ليس قديساً، وكثير مما تقوله التوراة عنه قلما يبشر به من المنبر لأنه قد تم فحصه بدقة كبيرة، واصبح عارا (2)

ماذا يريد الله؟

تشتمل التوراة على الكثير من الشرائع والشعائر والوصايا المتناقضة التي نجد أنفسنا أمامها مضطرون على التقاط وانتقاء التعليمات الأخلاقية التي نجدها الزامية اكثر وبالطبع فان ثمة العديد من الناس الراغبون بالقيام بالانتقاء من أجلنا، ويشكل ذلك أحد الأسباب التي جعلت التوراة كتاباً غير مستساغ للكثير جداً من الناس- فالكثيرون منا يتكلون على معلمين وكهنة يقولون لنا ما هي المسائل الهامة في التوراة وما يمكن أن يهمل.

وكان الناس يميلون عبر قرون من السنين، ليس أقل مما نحن عليه الآن، نحو

---

(1) الأمجية :صورة ذهنية متميزة بالتقديس والاعجاب عن شخص ما، وعن النفس أحياناً.

التقدم باضطراد باتجاه التعاليم الأخلاقية الألطف والأرق التي يمكن ايجادها في التوراة. «وما يطلب منك الرب؟» كتب النبي ميخا رسالة ملزمة لأنها متعاطفة جدا وبسيطة جدا «إنما هو أن تجري الحكم وتحب الرحمة وتسير بتواضع مع إلهك» (نبوءة ميخا 8:6)

إلا أن العقيدة البسيطة لاتنجح نجاحا عظيما بشكل كاف، بل خيضت الحروب (ولازالت تخاض)، وعذب الرجال والنساء(ولازالوا يعذبون)، وضاعت حيوات (ولازالت تضيع) بصدد موضوع ماهو حق وماهو رحمة. وتاريخ الأديان المستندة الى التوراة هو أيضا تاريخ كتاب التحريم وكتاب الحرق، ومحاكم التفتيش والعزل والحرمان الكنسي، والحرب المقدسة، والحرب الصليبية، والاستشهاد، والابادة الجماعية والمخلعة[1] وفعل الايمان[2] والاستشهاد والقتل. و«التعصب الديني» الذي ولد -حسبما لاحظ فرويد «بصورة محتومة مع الايمان بإله واحد»(3) والتحدي الحقيقي للتوراة، اذن، هو الوصول الى فهم عام عن كيفية ترجمة مادة ايمان الى فعل واقعي ملموس للسلوك الانساني- وهذا هو سبب ظمئنا الى تعليمات أخلاقية من العلي القدير لملء ثقب سارتر لشكل الله في روحنا، بكلمات يمكن فهمها وتفعيلها، ليس في السماء، بل هنا على الأرض والآن.

ولقد أعير دائما انتباه كبير الى الممارسة الدينية الخارجية، إلا أن التوراة صورت الله وكأن لديه اهتمام قليل في مثل هذه المسائل. والاحتفالات المتقنة للعبادة، بصرف النظر عن مقدار جلالها واحترامها، هي بلا معنى في عيني الله اذا لم يتكن مقرونة بالرحمة والعدل، حسبما قيل لنا من قبل النبي أشعيا. «رؤوس شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسي. صارت علي ثقلا وقد سئمت احتمالها. فحين تبسطون أيديكم أحجب عيني عنكم وإن أكثرتم من الصلاة لا أستمع لكم لأن أيديكم مملوءة من الدماء.» (نبوءة اشعيا 1 :14و15) وفي فقرة من نبوءة اشعيا تقول بصوت عالٍ في حشود يهودية معاصرة في يو الصوم، يوم الغفران، يوم التكفير عن الذنوب (الكفارة) وهو أقدس يوم في التقويم اليهودي، تقول مباشرة،

---

(1) الخلعة أداة تعذيب قديمة يمط عليها الجسم

(2) فعل الايمان: الاحتفال الذي يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرئ متهم بالهرطقة والذي يتبع بتنفيذ الحكم من جانب السلطات المدنية.

ويصيغة محددة:

أن تكسر للجائع خبزك

وأن تدخل البائسين المطرودين بيتك،

واذا رأيت العريان أن تكسوه،

وأن لا تتوارى عن لحمك (نبوءة أشعيا 7:58)

وربما كان أساسياً أكثر في عالمنا المريض والمدلهم التعليم التوراتي الجوهري الذي يقترح أن التوراة نفسها يجب الا تستخدم كسلاح لمعاقبة شخص ما تختلف عقائده أو يختلف لون جلده أو قوميته عن عقيدتنا أو لون جلدنا أو قوميتنا. واذا كان كتاب التوراة قادرون على احتمال مثل هذا الطيف المتسع من السلوك البشري، ومثل هذه التصورات الكثيرة المختلفة عن الله، فان علينا أن نحتمل ذلك. والقول بصوت خفيض عن إله رحيم، فان التعليم غالباً مايكون صعباً سماعه في عالمنا المفعم بالضجيج. إلا أن الارشاد الأخلاقي الحضاري الذي نجده في سفر الخروج الذي يجب أخذه الى القلب، ليس أقل الحاحاً في لندن أو لوس أنجيلوس من بلفاست أو سراييفو أو القدس.

«والغريب فلا تظلمه ولا تضايقه فإنكم كنتم غرباء في أرض مصر» يذكرنا العلي القدير في سفر الخروج.فإن «صرخوا إلي فإني أسمع صراخهم» (سفر الخروج: 20-23) .

والحق أن الله يطلب منا أن نفعل شيئاً أكثر من احترام وحماية الغريب. وكما رأينا الآن، فان التوراة غالباً ما تعتبر الغريب الـ(غير) كمسألة خوف واشمئزاز. وفي لحظات بشعة معينة ، كأن تشق إبادة جماعية طريقها ضد الغريب. ومع ذلك، يلحظ بشكل كاف، أن التوراة تأمرنا أن نحب الغريب، كحقيقة كانت تقمع تماماً مثل اي قصة في هذا الكتاب في الألفي سنة الماضية.

وثلاث مرات فقط في كل التوراة أمرنا بالحب. «فأحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك.» (سفر تثنية الاشتراع 5:6) «وقريبك أحببه كنفسك» (سفر الأحبار 18:19) إلا أن سفر الأحبار 34:19 يرفع حب الغريب الى درجة الواجب المقدس:

« وليكن عندكم الغريب الدخيل فيما بينكم كالصريح منكم وكنفسك تحبه.»

ان الوصية بالحب للغريب لم تدخر بلا تردد في مستقبل مسيحاني مبهم وبعيد- وهي تعني أن تطاع هنا على الأرض والآن. وبالتأكيد فان كتاب التوراة أشبعوا رغباتهم في تحليقات للخيال وبتأمل مبهم جامح، إلا أن معظم ماقيل وأرشد به في التوراة العبرية يراد به حيوات هذه الأيام للناس الحقيقيين. وصعد موسى جبل سيناء وخبر «مجد» الله بطريقة معينة لاسبيل الى معرفتها تتحدى الكلمات المجردة والتصورات- إلاأن موسى نزل من الجبل حاملاً لوائح من الحجر، والشرائع المعطاة من الله تعني الرجال والنساء العاديين.

«إن هذه الوصية التي أنا آمرك بها اليوم ليست فوق طاقتك ولا بعيدة منك. لاهي في السماء فتقول من يصعد لنا الى السماء فيتناولها يسمعنا ايها فنعمل بها.» (سفر تثنية الاشتراع 30 :11و12)

ألح موسى، الى حد ما، على أننا كلنا قادرون على تنفيذ الوصايا هنا بالضبط والآن بالضبط: «بل الكلمة قريبة منك جداً وفي قلبك لتعمل بها.» (سفر تثنية الاشتراع 14:30) وفعل العدل مع الغريب، وحتى حب الغريب، ليس صعباً علينا، حتى لو أن خمسة آلاف سنة من تاريخ البشر وافتتاحيات صحف هذه الأيام طلبت منا غير ذلك.

ميدراش

عانى سلمان رشدي، وهو كاتب معاصر، من محاكمة بالتعذيب[1] تعود الى القرون الوسطى بمثابة عقوبة لقيامه بتأليف كتاب، استشهد به ذات مرة بثقب سارتر «الذي يشبه الله» في محاولة منه لبيان لم واصل بذل جهوده. وقال رشدي موضحاً: «أنني، أيضاً، أمتلك ذات الثقب الذي يشبه الله. وقد حاولت، وانا غير قادر على قبول الأساسيات الدينية التي لاتناقش، أن أملأ الثقب بالأدب» (5)

والمغامرة التي يصفها رشدي- السعي لفهم الله من خلال الأدب- خاض غمارها ليس فقط الكتاب المدنيون (الدنيويون) في أواخر القرن العشرين، بل أيضاً مؤمنون حقيقيون في كل الأزمنة. والتوراة ثبتت في شكلها الراهن في نقطة

---

(1) كانت المحاكمة بالتعذيب وسيلة بدائية كانت تصطنع لمعرفة ماذا كان المتهم بريئاً أو مجرماً وذلك باخضاعه لضروب من الامتحان الخطر أو المؤلم كان الناس يحسبونها خاضعة لسيطرة قوى خارقة للطبيعة.

في الماضي البعيد لا سبيل الى معرفتها، إلا أن تقليد التفسير والتدقيق حول التوراة، الذي واصل سيره حتى أثناء كتابتها، لم يتوقف أبداً ولا للحظة واحدة. وميدراش هي الكلمة العبرية التي تصف التقليد القديم والمشرف لرواية القصص بغية كشف المعنى الداخلي للنصوص المقدسة.

وتترجم كلمة ميدراش بصورة تقريبية كـ«تفسير» وعرِفت بصورة واسعة كـ«انعكاس للتأمل في التوراة» التي فيها «تم تبني الرسالة التوراتية لكي تلائم الحاجات المعاصرة» (6)وكان أقدم أصحاب هذه المهنة هم الحكماء القدماء الذين جمعت تعليقاتهم في مقتطفات أدبية واسعة في الأدب الحاخامي المعروف باسم التلمود والمدراش. وغالباً ما أعتمد هؤلاء المعلقون والمثقفون الأتقياء على تراكم الأساطير وعلى المعرفة التقليدية التي تعرف بشكل عام باسم هاغاداه بغية تصوير المعاني التي تتبعوها في النص التوراتي. وأدركوا أن رواية القصص، هو مايجعل التوراة و التعليق التوراتي يبعث حياً تماماً.

ويمكن وجود التقليد نفسه في كتب توراة مكتوبة مرة ثانية: مثل «الأدب التوراتي القديم» لبسيدو-فيلو(انظر الفصل الحادي عشر) أو المشاهد والحوار المدخلين بجراة في الترجمات الآرامية المبكرة للتوراة المعروفة باسم الترجوقة (اي الترجمة الآرامية لجزء من التوراة). وبالفعل فان السفر الأول والثاني لأخبار الأيام، وهما سفران في التوراة العبرية يقولان في ترجمة منظفة من ملحمة داود وسليمان، ويعتبران من قبل بعض الأدباء كمدراش (تفسير) للسفر الأول والثاني لصاموئيل (الملوك 1و2) وسفر الملوك الأول والثاني(الملوك3و4). ولذا يثبت في النهاية أن المعلمين المبشرين للتقليد اليهودي-القديم، والوسيط، والحديث- جلبوا تصوراتهم الحية الخاصة لكي تتكيء على الكتاب المقدس ويشعرون بمطلق الحرية في إعادة قص قصص التوراة بطرق ملونة وأحياناً بطرق مثيرة.

وهكذا فان الأساطير والمعرفة التقليدية التي تدعى هاغاداه أصبحت المادة الخام للتأملات الورعة التي كانت مطلوبة ليس فقط للأرشاد والالهام بل للتسلية أيضا. ويبين أحد أدباء التوراة المعاصرين أن الهدف الأسمى للهاغاداه هو الارشاد والتهذيب الديني والأخلاقي، إلا أن كتابها كانوا مدركين بأن التقاط وامساك (القاريء) يتوجب جعلها مثيرة، وليس دون منزلتها أن تكون مسلية.

وعلى وجه الدقة فان القصة المعادة هي مرتبطة فقط بالتوراة بصورة مهلهلة، وتحمل طابع المعلم أو الراهب الفردي ويصور التقليد بـ«تنوع حر». وبكلمات أخرى، ليس ثمة شيء» اسمه هاغاداه أرثوذكسية (قويمة) (7)

واليوم، فان صيغة «مدراش» جاءت لكي تقدم لأي جهد جدي لادراك وشرح التوراة، وغالباً ماتستخدم هذه الأيام في وصف قصص التوراة المعاد قصها بطرق جديدة وخيالية بغية القاء الضوء على النصوص القديمة. والحاجة الى الكائنات البشرية «لتسمع وتقص القصص» حسبما كتب زينولدز برايس، تبين سبب انجرارنا نحو القصاصين، والثقب «بشكل الله» في القلب والروح الانسانيين، حسبما كتب سارتر، يفسر ذلك لِمَ أن القصص التي تساعدنا في معرفة من الله وماذا يريد الله هي الزامية بشكل خاص.

وبالنسبة الى بعض القراء، فان التوراة هي من عمل التأليف البشري الذي يمكن أن يكون الهاماً إلهياً إلا أنه لم يرتق الى كتاب مقدس. وأصر هارولد بلوم على القول في كتاب ج: «أنا نفسي لا أؤمن بأن التوراة كلمة الله الموحاة اكثر أو أقل من كوميديا دانتي، أو الملك لير لشكسبير، أو روايات تولستوي، وكل الأعمال الأدبية المماثلة الرفيعة» (8) وبصرف النظر عن تأليفها، و من ناحية ثانية، فان التوراة ذاتها ألهمت دائماً الكائنات البشرية على استخدام ايديها في شرح مايجدون في صفحاتها المقدسة. ولذا، اذا أمكنني أن أردد صدى كلمات بلو، فأنا لاأعتقد أن التلمود والمدراش أكثر أو اقل تنويراً من تعقيب على التوراة من جوزيف واخوته لتوماس مان، والله يعرف لجوزيف هيلر، والله:سيرة ذاتية لجاك ميلز، أو كتاب بلوم عن ج «وكل الأعمال الأدبية المماثلة السامية.»

رواية الله

وأحد المؤلفين الذين يمكن ادراك عمله الذي قام به طوال حياته على أساس أنه مدراش معاصر هو اسحاق باشيفيس سينغر، القصاص السيد الذي كتب كتبه وقصصه الاولى كلها في البدء باللغة اليديشية، وكانت جائزة نوبل قد كرمته في عام 1978. وعندما كنت شاباً طمحت ان أكون ما أحب سينغر أن يطلق عليه اسم «المخربش». وصدف لي أن لقيت مقالة لخص فيها عقيدته بوصفه كاتباً، وهي قطعة من كتابة اعترافية رأت في الله نفسه دعابة، وتهكم، وبراعة

الروائي. وكتب سينغر «نعم، إن الله كاتباً، ونحن الأبطال والقراء في آن معاً» (9)

نحن نعرف أن ليس لدى الملائكة إلا الاطراء يغنون في اليوم ثلاث مرات: السمو (والكمال (والعظمة) والامتياز) إلا أنه يجب أن يوجد بعض النقاد الغاضبين أيضاً. يشتكون قائلين: إن روايتك، ياإلهي، طويلة جداً، وقاسية جداً: و فيها قليل جداً من الحب، وكثير جداً من الجنس. وينصحون باحداث قطع.. إلا أننا جميعاً متفقون على أن في رواية الله تشويق.

لذا فان سينغر، الذي كانت رواياته غالباً ما تنشر على نحو متسلسل في اللغة اليديشية في الدورية اليهودية الدورية الى الأمام قبل أن تنشر باللغة الانكليزية ، شجعتنا على اعتبار كل ما في الحياة حوادث عرضية يومية في مسلسل يبدأ بسفر التكوين: ويستنتج سينغر أن المرء «يواصل فيه القراءة ليل نهار، والخوف من الموت لاشيء، إلا انه يخاف من الاضطرار لاغلاق كتاب الله»(11)

وما أدركه كل من سينغر والكتاب التوراتيون هو أن الرجال والنساء العاديين ليسوا قديسين وقديسات من جص. فالحياة الحقيقية تتضمن لحظات عاطفة وألم، واثم وعار، تماماً مثل تلك التي نجدها في النصوص الممنوعة والمنسية في التوراة. وبالفعل، فان المنظر الطبيعي الموصوف في التوراة مغر جداً- والتوراة نفسها خصبة جداً وطويلة الأناة جداً- على وجه الدقة لأنها أسكنت برجال ونساء جديرون بكل من الفرح والحزن، وبالأعمال الخيرة إضافة الى الأعمال الشريرة جداً وبأفعال الشفقة وأفعال القسوة.

والممر عبر الأرض التوراتية ليس مستقيماً وضيقاً، ولايؤدي دائماً الى مدينة فوق هضبة حيث الطيبة كلها والنور. وبالاحرى، كما رأينا، فان طريق التوراة يتلوى خلال بعض الأماكن الخطيرة وحتى المعذبة حيث تدفن كل من الهياكل العظمية والكنوز. وتختفي مابين هذه كلها المزامير والأمثال، و«الانجاب» و«يجب الا» تختفي كروم السحر وحقول وميادين القتل -إلا أن هذه الأماكن ليس سهلاً ايجادها، وقليل من المرشدين سيشيرون الى الطريق اليها. وعلينا، أحياناً، ونحن نسافر باتجاه حقيقة روحية مضيئة تومىء في الأفق البعيد، أن نكون حذرين من أن نغض الطرف عن المشاهد الخادعة والمنورة التي يمكن رؤيتها على جانب الطريق.

الملحق
من، كتب التوراة حقاً؟

الدَرج [1] والكتاب

التوراه Torah والعهد الجديد

لائحة الأسفار المعترف بها

المؤلف !

هل كتبت التوراة امرأة؟

الصياح

الشهود

ليكن نورٌ

(1) الدَرج: لفيفة من الرَق أو ورق البَردي تدون عليها وثيقة.

تعتبر التوراة بالنسبة الى بعض المؤمنين الحقيقيين في وقتنا الراهن كلمة الله الموحاة، وليس ثمة حاجة الى أي شيء يقال بصدد تأليفها. وبالنسبة الى مؤمنين آخرين، فان الأسفار الخمسة الاولى للتوراة العبرية نقلت بتمامها وكمالها «من فم الله الى يد موسى» طبقاً لكلمات الصلاة التي لازالت تلقى في الكنس في هذه الأيام. وتم تأليف الأسفار المقدسة الباقية من التوراة، طبقاً للتقاليد، من قبل العديد من الأنبياء والملوك: ويعتقد ان صاموئيل، وأشعياء، وارميا، ودانيال، على سبيل المثال، هم كتاب الأسفار التي تحمل أسماءهم. وكتب الملك سليمان نشيد الأنشاد، وكتب داود المزامير، وهكذا.

وترى دراسات توراتية حديثة العهد شيئاً آخر. وتعتبر التوراة من جانب معظم الدارسين والنقاد في هذه الأيام، بمثابة مزج للاسطورة وللمعتقد الديني، وللشريعة كتبها، قبل أكثر من ألف سنة أو نحوها في الماضي البعيد، مؤرخون ومشرعون ورواة قصص مجهولون لايعدون، أجيزت من قبل حاخاميين قدماء منذ اواخر العهد التوراتي.

وهكذا، فاننا اذا ماعتبرنا مانجده في التوراة بمثابة الهام الهي، فان الكلمات نفسها تتكلم بصوت عالٍ بوساطة أصواتٍ بشرية ، وكتبت بأيد بشرية. وأكثر من ذلك، فان خلق التوراة حسبما تتصور الثقافة المعاصرة، قلما كان أقل اعجازاً من الرواية التي يؤمن بها المؤمنون الأرثوذكس من طوائف مختلفة. ونحن مدعوون لأن نتخيل القدماء في لحظة قصية في التاريخ من المتعذر استعادتها: تذكروا ونقلوا قصصهم المقدسة من جيل الى جيل، ولكن بشكل قصائد وأغاني حفظت عن ظهر قلب. وبعض هذه القصص قديم جداً بحيث أن أحداً لايذكر متى ولم

تمت حكايتها، وأخذبعضها من عقائد وفولكلور الرحالة والجوالين، والحلفاء والأعداء، والغزاة والفاتحين ولفق بعضها من قبل شعراء الملاحم، ولم تكن دوافعهم تختلف عن دوافع هوميروس أو شكسبير، ومارك توين، أو روديارد كيبلينغ.

واتسعت تقاليد قص القصص عبر القرون وانتشرت وأحكمت من قبل كهان ونساخ كان هدفهم صياغة القصص وجعلها ملائمة لعقيدة اسرائيل القديمة الرسمية. ونشر الكهان أنفسهم مجموعة القوانين وفرضوا الشعائر المتقنة للأيام المقدسة وللحياة اليومية. وبدأ المؤرشفون والمؤرخون، في الوقت نفسه، وهم في خدمة الملوك القدماء، بكتابة الروايات الرسمية للولادات الملكية والوفيات، والانتصارات والهزائم في الحروب، والتجارة الدولية والمعاهدات في أيام السلم.ثم، جاء على عجل، في وقت الأزمات، العرافون والوعاظ الذين ندعوهم انبياء، وأضيفت رؤاهم ونواهيهم الى الأدب المقدس لاسرائيل القديمة.

وكتبت فوق رقعة العديد من القرون، بدءا من نحو 1000ق.م.ع وانتهاء بوقت ما بعد عام 200ع.م.كل هذا النسيج الكث للقصص المروية، والشعر، والغناء، والشرائع المقدسة، والشعائر الرهبانية، وتاريخ القصر. وجمعت، وضمت الى بعضها بعضا ، وقدمت الى شعب اسرائيل القديمة والى الأجيال القادمة كلها في شكل كتاب نعرفه باسم التوراة.واليوم، فان الانتاج النهائي لنهج العهد القديم لازال يعتبر من قبل الأديان الثلاثة ككتاب مقدس، ليس بحماس أقل مما كان عليه الحال في أي زمن سابق في التاريخ الطويل للتوراة.

الدرج والكتاب

اشتقت كلمة «الانجيل» من الكلمة اليونانية **biblion** التي تعني «كتاب» أو «البردي **papyrus**» وهو النبات الذي صنع منه الورق للمرة الاولى. والحقيقة أن الكلمة اليونانية اشتقت من اسم المدينة الفينيقية بيبلوس في الشرق الأدنى القديم، حيث ظهرت لأول مرة صناعة الورق. ونقول، بالمعنى الضيق للكلمة أن «انجيل» تعني بصورة أدق «كتبا صغيرة» لأن الانجيل يتضمن بالفعل كتابات منفصلة كثيرة جدا، وليس أي منها طويل جدا، وجاء كل منها لكي يعبر كنص مقدس عند الاديان الثلاثة المستندة الى الانجيل: اليهودية، والمسيحية،

والاسلام.

لم تكن التوراة العبرية كتاباً في الماضي البعيد. وبالاحرى نسخت الكتابات المقدسة عن قطع البرشمان[1] من قبل ناسخ استخدم قلم الريش وحبراً من صنع اليد، وضمت القطع الى بعضها بعضاً ولفت في لفائف. ولم يحل الكتاب أو«المخطوطات» محل اللفائف كسبيل عام لحفظ ونقل كل أنواع الكتابات، ومن ضمنها الكتابات المقدسة، قبل العهد المسيحي. ولأن حمل الكتاب، وحفظه، واستخدامه، كان أسهل من حمل اللفائف وحفظها واستخدامها، فان حلول الكتب مثل ثورة تقنية في العالم القديم- وكان المسيحيون الأولون بين أوائل من استخدم التقنية الجديدة في جعل نصوصهم المقدسة واسعة الانتشار.

وفي العصور الوسطى، فضل كل من المسيحيين واليهود الكتاب في الاستخدام اليومي لكتاباتهم المقدسة، وكان أول كتاب يطبع بالآلة الطابعة أواخر القرن الخامس عشر انجيل غوتنبرغ. ولازال الرعايا اليهود في الكنس القائمة في كل أرجاء العالم يقرؤون، حتى في هذه الأيام، وبصورة عامة، الأسفار الخمسة في الانجيل-التوراه- من لفيفة نسخت باليد على البرشمان بالطريقة نفسها تماماً التي قام بها النساخ في اسرائيل القديمة قبل ألفي أو ثلاثة آلاف عام.

التوراه والعهد الجديد

تعرف التوراة العبرية في الاستخدام اليهودي باسم التاناخ، وهي اللفظة الأوالية(اي مركبة من أوائل حروف كلمات أخرى) من الاسماء العبرية لأقسام رئيسية ثلاثة: توراه (وتدعى أيضاً أسفار موسى الخمسة)، ونيفيئيم (الانبياء)، وكيثوفيم(الكتابات).

وعرفت الأسفار الخمسة الاولى في التوراة العبرية من قبل معظم القراء في العالم الحديث بعناوينها التي اشتقت من الترجمات اليونانية واللاتينية القديمة: التكوين، والخروج، والأحبار، والعدد، وتثنية الاشتراع. وطبقاً للتقليد اليهودي، تعنون الأسفار الخمسة ذاتها بكلمات تظهر في النص العبري ذاته، وهكذا، على سبيل المثال، يعرف التكوين في الاستخدام العبري ببيريشيت، وهي كلمة عبرية تعني «في البدء».وتعرف الاسفار الخمسة مجتمعة باسم توراه، وهي

(1) البرشمان ورق نفيس شبيه بالرقوق (المورد)

كلمة عبرية تعني «تعليم» او تشوماش، وهي كلمة عبرية مشتقة من الرقم خمسة. وتدعى الأسفار الخمسة نفسها في الاستخدام المسيحي والتعليمي باسم بنتراتوش Pentrateuch وهي كلمة يونانية تعني «اللفائف الخمسة» أو الكتب الخمسة لموسى، بسبب الجذور التاريخية التي تنسب التأليف الى موسى عن طريق املائها من قبل العلي القدير فوق جبل سيناء.

وتعرف التوراة العبرية طبقاً للاستخدام المسيحي والدنيوي باسم العهد القديم وتدعى الكتابات المقدسة للمسيحية باسم العهد الجديد، المراد منها أن تميز مابين العهد الأصلي والعهد الجديد الذي قدمه يسوع الناصرة. وعندما يشير القراء والعلماء الى «الانجيل» فهم يقصدون بصورة عامة، كلا العهدين القديم والجديد. وعلى كل حال، فان عبارة «العهد القديم» لاتستخدم في الدوائر اليهودية بسبب مضامينها اللاهوتية، وهذا هو سبب استخدامي عبارة «الانجيل أو التوراة العبرية» أكثر من استخدامي صيغة «العهد القديم» في هذا الكتاب.

وجمعت الأسفار الاحدى والعشرين في التوراة العبرية تحت اسماء الأنبياء، أو نيفيئيم وتضم هذه الأسفار أسماء الأنبياء السابقين (يشوع، والقضاة، وصاموئيل الأول والثاني، والملوك الأول والثاني، والأنبياء اللاحقين(أشعيا، وارميا، وحزقيال)، والأنبياء الاثنى عشر الأصغر(هوشع، يوئيل، وعاموس، وعوفديا، ويوناه، وميكاه، وناحوم، وحبقوق، وزفانيا، وهاجي، وزكريا، وملاخي.)

وجمعت الأسفار الثلاثة عشر الباقية في التوراة العبرية تحت عنوان الكتابات، او كيتوفيم: المزامير، والأمثال، وأيوب، ونشيد الأنشاد، وراعوث، والمراثي، والجامعة، وطوبيا، ودانيال، وعزرا، وناحميا، وأخبار الأيام الأول والثاني.

وتقدم الأناجيل المسيحية بصورة عامة أسفار التوراة العبرية بترتيب مختلف عن التقديم المستخدم في الأناجيل العبرية. وعلى سبيل المثال، يأتي سفر راعوث مباشرة بعد سفر القضاة في معظم الأناجيل المسيحية، في حين يظهر سفر راعوث في التوراة العبرية في قسم يدعى الكتابات الى جانب سفر استر، ونشيد الأنشاد، أو الأعمال الأخرى ويتبع ترتيب الانجيل المسيحي في الممارسة العملية الترجمة اليونانية المبكرة للتوراة التي يطلق عليها اسم السبعينية، التي تختلف

عن التوراة العبرية في انتقاء وترتيب الأسفار المقدسة (انظر مايلي).

والأناجيل المستخدمة من قبل الكنائس البروتستانتية و تضم أيضاً العديد من الكتابات القديمة لا تعتبر في الجذور التاريخية اليهودية جزءاً من الكتاب المقدس، ومن ضمنها الأسفار في العهد الانجيلي المتأخر مثل طوبيا، ويهوديت، وسيراخ، وباروخ، وحكمة سليمان، والعديد من الأسفار الأخرى. وتعرف هذه الأسفار بصورة عامة باسم الابوكريفا Apocrypha [1] في الاستخدام البروتستانتي، وسفر تثنية الاشتراع في الاستخدام الكاثوليكي، إلا أن أي منها لايدخل في التوراة العبرية.

اغلاق لائحة الأسفار المعترف بأنها تؤلف الكتاب المقدس

جاءت كلمة canon من الكلمة اليونانية التي تعني عصا القياس، واستعملت الكلمة في الدراسات التوراتية لوصف مجموعة الكتابات التوراتية التي أصبحت تعتبر مقدسة. واختتمت عند نقطة معينة في التاريخ القديم أو«أجيزت» في صيغتها الدارجة- فبعض الأسفار اعتبرت مقدسة لعدد من القرون، وبعضها أضيفت الى لائحة الأسفار المعترف بها في تاريخ متأخر نسبياً، وأقصي البعض برمته من قبل حاخاميين تصرفوا وكأنهم حراس على التوراة. والحق، أن الأدب الحاخامي حفظ بعض المناقشات الساخنة حول أسفار محددة وحول جدارتها في دخول التوراة، وحول دخول نشيد الأنشاد، وهي مجموعة من الشعر الغرامي الشهواني الذي وجد بطريقة ما سبيله الى التوراة، وأثار جدلاً ساخناً هاماً مابين الحكماء القدامى.

وطبقاً لتقليد شعبي صنفت التوراة في اجتماع حاخامي عقد في المدينة الساحلية جبنة في فلسطين عام 90 بعد ع .م إلا أن دراسة حديثة ترى أن منهج التصنيف قد دام لقرون عديدة.فالأسفار الخمسة لموسى ربما اعتبرت ككتاب مقدس ليس أقدم من 400 ق.م.ع وتم قبول الأنبياء بصورة عامة حوالي عام 200 ق.م.ع في زمن اجتماع جبنة، وكانت المشكلة التي واجهت الحاخاميين هي الالتقاط والاختيار، وسط تشكيلة واسعة من الكتابات الأكثر حداثة عن

---

(1) وهي أربعة عشر سفراً تلحق أحياناً بـ«العهد القديم» من الكتاب المقدس، ولكن البروتستانت لايعترفون بصحتها.

المواضيع المقدسة ،ومن ضمنها تكاثر التعليقات على الأسفار المقدسة الأقدم ، وعدد مما سمي كتابات سفر الرؤيا التي صورت نهاية العالم، والتعاليم المسيحية الجديدة. وهكذا، تمثل الفعل الأخير للسلطة الحاخامية في جبنة باغلاق لائحة الأسفار اليهودية مرة واحدة والى الأبد. وبقيت الأسفار المسيحية، بالطبع، مفتوحة لاستقبال الكتابات المقدسة التي نعرفها باسم العهد الجديد.

المؤلف(

بدأ بعض القراء النابهين بملاحظة احداث غريبة الأطوار ولافتة في النص التوراتي مباشرة بعد تصنيف التوراة العبرية. ويمكن ايجاد أول هذه الأمور «في بداية» التوراة ، حيث قدمت، كما رأينا في الفصل السادس عشر، ترجمتين مختلفتين لخلق الرجل الأول والمراة الاولى في سفر التكوين(تكوين1:27و2: 7و22). ونجد في بضع آيات فقط في التكوين الأخير ترجمتين للقصة المعروفة عن نوح والفلك. ففي احدى الترجمتين، طلب من نوح من قبل العلي القدير أن يجلب زوجان من كل شيء حي الى ظهر السفينة، أحدهما ذكراً والآخر انثى من كل نوع من الأنواع(تكوين6:19). ثم تلقى نوح على نحو مفاجيء مجموعة أخرى من التعاليم الالهية: فالله أمره أن يجلب سبعة أزواج من جميع البهائم «الطاهرة» وزوجاً واحداً فقط من البهائم «غير الطاهرة» (تكوين7:2) وقيل لنا في البدء أن الطوفان دام 40 يوماً (تكوين 7:17) وقيل لنا بعدئذ انه دام 150 يوماً (تكوين 7:24). وفي احدى الحالتين أرسل نوح طيراً للبحث عن ارض يابسة(غير مبتلة)، في الحالة الاولى كان الطير غراباً وفي الحالة الثانية كان حمامة(تكوين 8: 7و8).

ونجد مثل هذا التكرار لنفس القصة بترجمتين مختلفتين (واحياناً بصورة متناقضة) في صفحات التوراة، ويطلق على ذلك من قبل الأدباء اسم «الازدواجية». وبالفعل، فاننا أحصينا قبل قليل احدى «الثلاثيات» النادرة الحدوث في التوراة: فقد رويت قصة الأب(الباطريارك) الذي حاول أن يسوق زوجته كاخت له ثلاث مرات، مرتين عن ابراهيم وسارة، ومرة عن اسحاق وراحيل. (انظر الفصل الثالث). ولم يكن هذا التكرار غير المفسر هو اللغز الوحيد في النص التوراتي. فقد لاحظنا، على سبيل المثال، أن الله يسمى أحياناً يهوه،

ويسمى أحيانا أخرى ايلوهيم. وقيل لنا أن موسى كتب الأسفار الخمسة الاولى في التوراة-إلا أن السفر الأخير في هذه الأسفار، وهو تثنية الاشتراع، وصف في الواقع موت مؤلفه! ومثل هذه العيوب والتناقضات تنتهي الى أن تكون أول المفاتيح الأساسية في البحث عن جواب على سؤال من في الحقيقة كتب التوراة.

وبذلت جهود في تفسير هذه الخروقات من قبل أدباء أتقياء في العهود القديمة المتأخرة، وفي القرون الوسطى، في كل من اليهودية والمسيحية. ولكن، مع مرور القرون ومع تنامي التطلب عند قراءة التوراة، لم تعد التوضيحات المشوهة للدفاعات القديمة كافية وألح توماس هوبز وسبينوزا من ضمن آخرين كثيرين على الاشارة الى الاستنتاجات البينة وان كانت ابتداعية (هرطيقية) قليلاً التي يجب استخلاصها من مثل هذه الحقيقة. فقد بين سبينوزا «أن.. من الواضح أكثر من الشمس في رائعة النهار أن أسفار موسى الخمسة لم تكتب من قبل موسى، بل كتبت من قبل شخص عاش بعد موسى بفترة طويلة»(1)

واقترح الادباء الرواد التوراتيون في القرن التاسع عشر، ومن ضمنهم شخصيات مرموقة مثل كارل هنريخ غراف وجوليوس ويلهاوزن، سبيلاً لتبيان التضارب الظاهر الذي أصبح مقبولاً كمبدإ أولي في دراسة التوراة. واعتقد هؤلاء أن التوراة أخذت من مصادر عديدة، وكتبت بأيد مختلفة، وتمت مراجعتها عبر القرون من قبل منقحين عديدين، وكان كل منهم يجري تقويماً رهبانيا مختلفا عن الآخر، ويضع إطاراً تاريخيا محدداً للمراجع ولما بين السطور، ويستخدم اسلوبا أدبياً متميزاً. وما نعتبره كتاباً مقدساً هوخليط مزخرف كيفته أيد بشرية، ويمكننا أن نتعلم تمييز الأساليب المستخدمة من قبل المساهمين في انجاز هذه العمل.

ونحن، بالطبع، لانستطيع أن نعرف معرفة يقينية هويات كتّاب التوراة-اسماءهم، وأماكن سكناهم، وتواريخ ولاداتهم ووفاتهم. ونحن لانستطيع حقاً أن نعرف إن كان الرجال أو النساء الذين ألفوا وحرروا التوراة قاموا بالعمل فرادى، او كانوا أعضاء في «مدرسة» أو «معهد». وتتبعت الدراسات التوراتية بدقة طبقة وراء طبقة من الاضافات والمتابعات، والمراجعات والتنقيحات، وهكذا فان من المحتمل أن يكون النص التوراتي قد كتب وأعيدت كتابته بأيد لاتعد ولاتحصى

عبر القرون. ومازال يجري تعريف الخيوط المختلفة للتأليف في الكتابات الأدبية وكأنها كانت من عمل أفراد محددين.

«ي» او «يهوه»

ينسب أقدم خيط في رواية التوراة الى مؤلف نادى الله باسمه الشخصي، يهوه، الذي ظهر في التوراة العبرية بأربعة أحرف هي:ي ه و ه. وباعتبار أن الأدباء الذين سبقوا الآخرين في دراسة موضوع تأليف التوراة في القرن التاسع عشر كانوا ألمانا، وباعتبار أن كتابة اسم الله باللغة الألمانية يقرأ جاهفهJahveh ويستخدم في تعريف مؤلف التوراة الذي يدعى الله بالاسم-فقد تم اختصار الاسم الى J التي ترمز الى يهوه. واعتقد الادباء أنه (او أنها) عمل في مملكة يهودا الجنوبية في وقت ما بعد عهد الملك داود، ربما في القرن التاسع أو العاشر من ع.م.ع. ونسبت بعض المواد الأكثر ثراء ودقة الى J أي «ي»، ومن ضمنها كثير من القصص التي جمعت ورويت من جديد في هذا الكتاب.

«أي» أو «ايلوهيم»

وينسب خيط مواز من رواية التوراة الى مؤلف مختلف يعرف باسم اي E، أو ايلوهيم، وهو ميل الى الاشارة الى الله بالصيغة العبرية ايلوهيمElohim الذي اعتبر مرجعا هاما لموسى ولخط من الرهبان الذين ينحدرون من صلب موسى، وربما خط الكاهن اللاوي في المملكة الشمالية لاسرائيل الذي اشتغل لفترة متأخرة قليلا في تاريخ J /ي، في عام 900 او 800ع.م.ع. وكان الايلوهي، على سبيل المثال، الذي عرض علينا هارون- شقيق موسى ومنافسه أيضا- وهو يصنع عجلا ذهبيا وناقش أولوية موسى كنبي الله المختار، مما أدى الى نتائج كارثية انعكست عليه وعلى الاسرائيليين الذين تبعوا مثاله.

«م» أو «المشرع»

ينسب سفر تثنية الاشتراع، الذي يقف منفصلا عن باقي التوراة باسلوبه الأدبي المتميز وباهتماماته الرهبانية، الى مؤلف (أو مجموعة من المؤلفين) تعرف بـ«م» أو المشرع. وطبقا لدراسة ريتشارد اليوت فريدمان الفخمة عن تأليف التوراة بعنوان، من كتب التوراة؟ ربما كان النبي ارميا هو المشرع، ويعتقد ان سفر تثنية الاشتراع هو «سفر الشريعة» الذي وجد بصورة غامضة نوعا ما في المعبد

في اورشاليم في عهد الملك يشوع في القرن السابع ع.م.ع(2 الملوك = الملوك 4، 8:22) ولهذا السبب، فان بعض العلماء اعتقدوا أن تثنية الاشتراع «حيلة بارعة» لفقت لتبرير اصلاحات يشوع التي كانت معلماً لمقدار هائل من المتغيرات في طبيعة العقيدة الدينية والممارسة في اسرائيل القديمة. وعلى سبيل المثال، فان الاعلان عن موت موسى، الذي يظهر الآن في نهاية سفر تثنية الاشتراع، ربما تمت استعارته من سفر العدد من قبل «م» بغية تعزيز الثقة بالسفر الذي يختلف بصورة بينة عن الأسفار الأربعة الأخرى في التوراة.

ويعتبر سفر تثنية الاشتراع أيضاً من قبل العلماء كحجر الزاوية في رواية توراتية أطول تعرف باسم تاريخ تثنية الاشتراع، التي تتضمن، ليس فقط، تثينة الاشتراع وحسب، بل أيضاً اسفار يشوع، والقضاة، وصاموئيل الاول والثاني(الملوك الأول والثاني) والملوك الأول والثاني(الملوك الثالث والرابع). ويعرف جميع المؤلفين والمحررين الذين أوجدوا تاريخ تثنية الاشتراع، بصورة جماعية، كمؤرخين مشرعين، ويعتقد انهم جمعوا، وتعاونوا، وحرروا القصص المختلفة، والتعاليم والتواريخ، في وقت ما قبل وقت قصير من المهجر البابلي أو أثناءه.

«ر» أو «المصدر الرهباني»

يعرف المؤلفون التوراتيون الذين تركز عملهم بصورة واسعة على الشريعة المقدسة وعلى المسائل الشعائرية بشكل عام بـ«ر» أو المصدر الرهباني. وينسب قليل من فقرات سفر الأحبار الى المصدر الرهباني، ومن المرجح أن «ر» كان مسؤولاً أيضاً عن ضم روايات ي/J و ي/E الى النص التوراتي بحيث انها أصبحت مألوفة لدينا اليوم. ويلحظ أن المصدر الرهباني يعوزه الهزل- في ترجمة «ر» لقصة الخلق التي تصور الله منعزلاً وباهتاً يدعو الانسان الى الوجود (التكوين 27:1)، بينما يتخيل «ي» الله كنحات مقدس يعكف، وهو في الطين، على صنع الانسان الأول بيديه(تكوين 7:2) ويكرس «ر» انتباهاً كبيراً لتفاصيل الملاحظات الشعائرية و المعدات، ولكننا لانجد حيوانات تتكلم، ولا أحلاماً، ولا ملاكاً واحداً في النص التوراتي يعزى الى المصدر الرهباني- ويتميز «ر» بأنه لم يستخدم ولا لمرة واحدة الكلمة العبرية «شفقة».

«م» أو «المنقح»

جمع رهبان ونساخ مختلفون في مرحلة متأخرة نسبياً في تاريخ التأليف التوراتي كثيراً من خيوط وقطع التأليف التوراتي، وركبوها في سلاسل من الروايات المتتابعة، وأضافوا تعليقاتهم الخاصة، وفصول اضافية، وروابط.ويعرف المحررون الموهوبون الذين ضموا التوراة الى بعضها بعضاً بـ«م» او المنقح، مع أن من المحتمل أن «م»، مثل «ر» تمثل عمل مدرسة أومعهد أكثر من تمثيلها لمؤلف أو منقح وحيد. ويبدو أن المنقح وضع «جدولاً» للفقرات القديمة في خدمة برنامج عمل رهباني وسياسي محدد. وعلى سبيل المثال، فان النهج القاسي وأحياناً الوحشي تجاه الزواج الداخلي وعبادة الأصنام التي يمكن ايجادها في أماكن في النص قدتعكس تلهف المنقحين الرهبانيين الذين كانوا يكافحون ضد تهديدالاستيعاب في الفترة غير المستقرة بعد نهاية النفي البابلي وعودة الاسرائيليين الى كنعان.

كتّاب آخرون للتوراة

افترضت دراسة التوراة وجود كتّاب آخرين يمكن تتبع عملهم في التوراة العبرية. وتشير أقسام من سفر صاموئيل الثاني وسفر الملوك الأول (الثالث)، على سبيل المثال، الى مصدر يعرف بصورة متباينة باسم رواية متعاقبة أو تاريخ قصر داود، ويدعى المؤلف أحياناً مؤرخ القصر لأنه قد يكون مؤرخاً رسمياً للقصر الملكي لداود ويعرض اهتماماً دقيقاً في اعلاء منزلة شرعية السلالة الداودية.

والمثال الآخر هو سفر أشعيا، حيث أن معظم النص الذي يعتبر تقليدياً بمثابة عمل للنبي أشعيا، الذي عاش في اورشاليم في القرن الثامن ع.م.ع ، إلا أن الفصول من 40 الى 66 تنسب من قبل أدباء الى مؤلف (متأخر جداً) جرى تعريفه باسم «أشعيا الثاني» ربما عاش وكتب اثناء فترة النفي البابلي.

ويسمى، بين فترة وأخرى، كما رأينا، مرشحين جدد مدهشين، من قبل أدباء شجعان لتأليف أقسام هامة من التوراة.وقرر سيغموند فرويد، وهو يضع دراسة لعصره، بعنوان موسى والتوحيد أن «العاملين في مجال البحث الحديث يعتقدون أن باستطاعتهم تمييز القديس ابجيتار، وكان معاصراً للملك داود»، على أساس أنه يهوه (2) ويفترض الأديب التوراتي آردين جانيس بليدستين أن

المشرع (في تثنية الاشتراع) ربما كان نبية اخرى غامضة اسمها هولداه عاشت أثناء عهد الملك يشوع (انظر الفصل الثالث عشر).

أسفار التوراة المفقودة

تشير التوراة نفسها الى أعمال أسرة عديدة مفقودة الآن بالنسبة لنا، ومن ضمنها سفر ياشار، وسفر معارك يهوه، وسفر مؤرخي ملوك اليهودية. ويمكننا التأمل وحسب بما تتضمن هذه الأسفار. وبسبب عدم حفظها مع أسفار التوراة والعديد من الكتابات غير المصنفة وبقيت حية مثل سفر الرؤيا، فان من الواضح أن الكتاب التوراتيين عرفوا واستخدموا هذه المصادر الاخرى.

هل أن امرأة كتبت التوراة؟

ربما كانت النصوص المقدسة في التوراة تحت حراسة رهبانية اسرائيل القديمة، وهي طبقة اجتماعية تقتصر على الذكور. ولهذا السبب، زعم أدباء التوراة بصورة عامة أن التوراة هي من عمل كتاب ذكور، ومحررين ذكور. وتقدم التوراة نفسها، على أية حال، بعض المفاتيح التي تفترض أن كتاب بعض النصوص التوراتية، على الأقل- من ضمنها الفقرات الأكثر اثارة للاهتمام والأكثر تأثيرا- كتبتها نساء.

وعلى سبيل المثال، تنسب، بصورة مقنعة، ما يمكن أن تكون القطعة القديمة الوحيدة في التوراة، أي أغنية ديبوراه (سفر القضاة 5) الى النبية ديبوراه. وفي الحقيقة ان الدور الهام المنسوب الى امرأة في انتصار الاسرائيلين على أعدائهم يفترض ان القطعة من عمل كاتبة. (انظر الفصل الثالث عشر) وعلى مستوى أوسع بكثير، من ناحية ثانية، فان خيط الرواية التوراتية المنسوب الى ي- الذي يشكل قسما اساسياً من التكوين والذي يمكن ايجاده في مكان آخر من التوراة- قد يكون من عمل امرأة أيضا.

والكاتب التوراتي المعروف بـ«ي» كتب كمية كبيرة عن النساء، اللواتي صورن دائما بطريقة متألقة، ومتبصرة، وغالباً بضوء مفرح. وبالفعل، فان الامهات كن في أغلب الأحوال أكثر دينامية من أزواجهن، الذين بدوا بالمقارنة، شاحبين الى حد ما. وعرض «ي» «مزاج النساء» بمعرفة حميمة ومريحة عندما أشارت التوراة الى الطمث، وقدمت لنا الرواية عن كيف أن والد راحيل بحث في خيمتها

عن تماثيله البيتية الضائعة- وكانت قد خبأتهم في سرج الجمل الذي كانت تجلس فوقه أثناء عملية البحث، وأقنعت أباها بالعدول عن النظر تحت السرج بادعائها انها كانت تحيض (التكوين 3 :30-35). وفي قصة تامار ويهوذا، تحدت امرأة شجاعة وعنيدة إرادة أب (باطريارك) بغية المطالبة بما هو حق لها في ظل الشريعة التوراتية. (انظر الفصل السابع). وركز كل من هذين النصين على أن «ي» يمكن أن تكون امرأة.

وقدمت الحجة بصورة مقنعة في كتاب الـ« ي/J » لهارولد بلوم ودافيد روزنبرغ. وبين بلوم رقة مشاعر المرأة وهي تعمل في الرواية التوراتية المنسوبة الى «ي» التي شخصها كأم يهودية أصيلة. وكتب أن «نهج «ي» إزاء يهوه لايشبه كثيرا شيئاً مثل حنو الام الى حد ما، إلا أنها لاتزال تقف ضاحكة بفخر أمام ابنها المفضل» (3) وانتقدت استنتاجات بلوم تهكمياً من قبل نساء نشرن تعليقاتهن باعتبار أن الاستنتاجات جنسية، ومع ذلك فقد جعل بلوم القضية استفزازية وكيدية بسبب الإلماحة الى أن «ي» جفوراه «سيدة عظيمة» بدوائر القصر «بعد السليماني، وهي نفسها من دم داودي، بدأت كتابة عملها الكبير في السنوات الأخيرة لسليمان، وكانت على علاقة وثيقة، وتتبادل التأثير مع صديقها الطيب مؤرخ القصر، الذي كتب معظم ما نسميه الآن سفر صاموئيل الثاني»(4)

صوت «القرقعة»

بالرغم من أن أقدم قطع التوراة قد صيغت بالبدء بشكل أغان وقصائد منذ الألف الثامنع.م.ع ، فان أقدم نسخ التوراة المكتوبة تأخرت أكثر من ذلك بكثير. والحق، يعود تاريخ أقدم نسخة تامة للتوراة العبرية في أواسط القرن العشرين الى القرنين التاسع والعاشر في التأريخ الحديث، ويعود تاريخ أقدم نسخة كاملة للانجيل المسيحي الى بضع مئات من السنين قبل ذلك. اذن، فمع اكتشاف ما تسمى لفائف البحر الميت في مكان يدعى قمران قرب البحر الميت في عام 1947، وجد العلماء التوراتيون أنفسهم فجأة في حوزة مخطوطات توراتية يعود تاريخها الى القرن الثاني ع.م.ع أو نحوه.

وطبقاً للقصة الطريفة التي ربطت نفسها بلفائف البحر الميت، فان راع

بدوي كان يلقي بتكاسل حصى الى داخل كهف صحراوي عندما سمع «قرقعة» وصوت انكسار جرة. وكان في داخل الكهف- وكما ظهر بعدئذ، في داخل عدد من الكهوف القريبة - عدد من الجرار الخزفية القديمة المخبوءة وهي تحتوي على بقايا مكتبة مقدسة للطائفة اليهودية المعروفة باسم الأسينية. وهذه الكتابات هي لفائف البحر الميت.

ووجد فقط سفرا واحداً تاماً من التوراة، وهو سفر أشعيا، بصورة سليمة في قمران. ووجدت، بصورة عامة، قطع من كل سفر من التوراة العبرية ماعدا سفر استير، مابين لفائف البحر الميت. ويرتدي أهمية خاصة تبيان لفائف البحر الميت كم كان قليلاً التغير الذي طرأ على نص التوراة في الألفي سنة الأخيرة أو نحوها. ومع أن بعض الكلمات والعبارات في قطع المخطوطة التي وجدت مابين لفائف البحر الميت تختلف عن نص التوراة الذي نعرفه هذه الأيام، فان الاختلافات قليلة في عددها ومعتدلة في أهميتها. وفي الحقيقة، فان نص سفر أشعيا حسبما حفظ في لفائف البحر الميت يماثل من حيث الجوهر مانجده في التوراة الحديثة.

الشهود

ان أحد أكثر المواضيع اثارة للاهتمام في تبيان العديد من مصادر التوراة هو واقع وجود ترجمات كثيرة- أو «شهود» حسبما كتب نقاد التوراة- على النص التوراتي القديم. ومع أن بعض العلماء يتصورون أن كل الترجمات الكثيرة للتوراة منقولة عن نص أصلي واحد-أي مايسمى نص اور- فان نصاً من هذا النوع (أصلياً) لم يعثر عليه حتى الآن. وبالاحرى، يبدو أكثر احتمالاً أن عددا كبيرا من الترجمات للنصوص المقدسة تكاثرت في العالم القديم ووجدت تعبيرات مختلفة مابين الشعوب والثقافات المتنوعة التي حفظتها ونقلتها من جيل الى جيل. ومهما كان السبب، فان الحقيقة الباقية تقول، أن أكثر من ترجمة للتوراة بقيت حية لقرون. وتبقى النصوص المبحوثة لاحقا ضمن الاستخدام العام في كل انحاء العالم.

النص الماسوريتي

يعتبر التقليد اليهودي أن مايدعى النص الماسوريتي أكثر النصوص المترجمة

عن التوراة العبرية ثقة. واشتقت كلمة «ماسوريت» من الكلمة الآرامية التي تعني «تقليد». والماسوريتيون كانوا أدباء حاخاميين ونساخ كرسوا أنفسهم لحفظ تمامية النص التوراتي بتبني ترجمة قياسية واحدة بغية استخدامها في صنع نسخ من التوراة. وبالانطلاق في وقت ما نحو 500ع.م.ع والمواصلة لفترة خمسة قرون أو نحوها، صحح الماسوريتيون ما اعتبروه أخطاء نساخ، وجعلوا الكلمات والعبارات في النص نفسه باللغة الفصحى، وعملوا على تثبيت اللفظ من أجل الاستخدام اليهودي.

وتبنى الماسوريتيون نظاماً من الرموز يشير الى الحروف الصوتية في الكلمات العبرية في التوراة. وباعتبار أن اللغة العبرية تكتب بحروف ساكنة فقط، فقد أدخلوا أيضاً ممارسة تقسيم النص التوراتي الى آيات، وأصبح هذين الابداعين لاينفصلان عن قراء التوراة وأدبائها. (وقد تم تقسيم النص الى فصول في القرن الثالث عشر من قبل أسقف انكليزي نجح في النهاية من تمكين الناس من الاقتباس من التوراة بذكر «الفصل والآية» لأول مرة في التاريخ القديم).

والتوراة التي استخدمتها في هذا الكتاب هي ترجمة أوائل القرن العشرين عن النص الماسوريتي، باستثناء ما أشرت اليه. وذكرت ترجمات أخرى للتوراة من حين لآخر، من أجل الاشارة الى الاختلافات بصورة عامة- وكانت هذه الاختلافات احياناً قليلة إلا انها هامة من حيث المعنى- مابين النص الماسوريتي و«الشهود» الآخرين على النص التوراتي الموصوف أدناه.

السبعونية •

كتبت التوراة بالأصل باللغة العبرية الكلاسيكية، مع ان قليلاً من الفقرات نقلت الى اللغة القديمة الأخت التي تسمى الآرامية. إلا أن تكرار شتات الشعب اليهودي من الأراضي المقدسة ادى الى تنامي عدد المجتمعات في المنفى حيث يتكلمون ألسنة أخرى مثل اليونانية وغيرها بدلاً من العبرية في الحياة اليومية. ولهذا السبب، فان ترجمة النص العبري أصبحت أساسية في حفظ التوراة، لكل من الاستخدامين اليهودي والمسيحي.

والترجمة الأكثر أهمية وتأثيراً عن التوراة العبرية هي الترجمة اليونانية المساة السبعينية. والاسم مشتق من الكلمة اللاتينية التي تعني «سبعين»، وهي

تشير الى جذر تاريخي يقول أن سبعين أديباً حاخامياً اشتركوا في القيام بالترجمة. ولهذا السبب، تعرف السبعونية في الكتابة الأدبية بـLXX(اي الرقم 70 بالارقام اللاتينية). وتروى قصة عن أن كل الحاخاميين عملوا بصورة منفصلة، إلا انهم توصلوا بإعجوبة الى نفس الترجمة!

وتعود أقدم أقسام السبعونية الى القرن الثالث ق.م.ع عندما تمت أول ترجمة للاستخدام من قبل المجتمع اليهودي المنفي الى الاسكندرية والى أماكن أخرى في عالم المتكلمين باللغة اليونانية. ومن ناحية ثانية، فان السبعينية تم تفضيلها أيضا من قبل اوائل المسيحيين، الذين تبنوا اليونانية كلغة لكتاباتهم المقدسة. ولهذا اخذت معظم المقتطفات من التوراة العبرية التي ظهرت في العهد الجديد من السبعينية أكثر من أخذها من النص العبري الأساسي. ولهذا السبب، أيضاً، استخدمت السبعونية كأساس للعديد من الترجمات المسيحية للتوراة الى اللاتينية والى لغات أخرى. وطالما ان السبعينية تبنت نظاماً للأسفار غير النظام المستخدم في النص الماسوريتي، وتضمنت العديد من الأسفار الأبوكريفية (الأربعة عشر الملحقة أحياناً بـ«العهد القديم»)، فقد وجدت هذه العناصر سبيلها الى الأناجيل المسيحية.

وتقدم لنا السبعونية أيضاً بعض التقسيمات المعروفة للنص التوراتي الى زوجين اثنين من الأسفار. فسفر صاموئيل، على سبيل المثال، يمكن أن يوضع فوق لفيفة واحدة عندما يكتب بالعبرية التي تحتوي حروف ساكنة فقط، ويأخذ النص نفسه في لغة تحتوي كل من الحروف الساكنة والمتحركة مساحة أقل بكثير فوق قطعة ورق أو بارشمان . والسبعونية على العكس، تتطلب لفافتين تتسعان للترجمة اليونانية لسفر صاموئيل. لذا قسم المترجمون النص الى مايعرف اليوم باسم السفر الأول والثاني لصاموئيل. واتبعت التقنية ذاتها في الأعمال التوراتية الأخرى التي قسمت بصورة اصطلاحية الى مجلد أول وثان في الأناجيل الحديثة.

الترجومات[1] والترجمات القديمة الأخرى

حلت الآرامية محل العبرية في أواخر العهد التوراتي كلغة يومية في الاراضي

---

(1) مفردها الترجومة وهي ترجمة آرامية لجزء من التوراة

المقدسة، ولهذا ترجم النص العبري الأصلي الى الآرامية. وكل ترجمة من العديد من الترجمات الآرامية المعروفة باسم ترجومة Targum بقيت حية من الماضي البعيد، كاشفة عن أن المترجمين الأوائل شعروا بحرية التأويل والتفسير للنص التوراتي، أحياناً لتحاشي الفقرات المربكة او صعبة التفسير، واحياناً لالقاء ضوء قوي على وجهة نظر دينية أو أخلاقية خاصة. واعتبر بعض الادباء الترجومة بمثابة نوع من «التوراة التي أعيدت كتابتها» أكثر من كونها نقل أمين للنص العبري الأصلي. ولازال الاحساس بالحرية التي جلبها المترجمون الآراميون الى أعمالهم باديا في افتراض أن التوراة لم تكن معتبرة مقدسة الى أبعد حد بحيث لاتمكن كتابتها بخيال واسع وتعاد ترجمتها.

وترجمت التوراة أيضاً الى لغات الشرق الأدنى القديم الأخرى، ولازالت بعض هذه الترجمات تعتبر بمثابة ترجمات رسمية من قبل العديد من الكنائس في زماننا هذا. وحفظ السامريون، وهم شعب انشق عن الاسرائيليين في الماضي البعيد، ترجمتهم الخاصة لأسفار موسى الخمسةPentateuch، متضمنة نصاً عبريا أصلياً والعديد من الترجمات الى الآرامية، والعربية، واليونانية. ولازالت تستخدم من قبل الكنائس الارثوذكسية والمارونية ترجمة قديمة للتوراة الى اللغة الآشورية، وهي فرع من الآرامية ، كما لا زالت تستخدم من قبل الكنيسة الأرثوذكسية القبطية ترجمة للتوراة الى اللغة القبطية.وتبين هذه الترجمات وغيرها من الترجمات الاولى للتوراة أن النص التوراتي قد حفظ بأشكال مختلفة جدا- و أحصى أحد العلماء، على سبيل المثال، نحواً من ستة الاف اختلاف نصي مابين النص الماسوريتي و نص أسفار موسى الخمسة المستخدمة من قبل السامريين.

Vulgate الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية

كانت الـVulgate الترجمة اللاتينية أول ترجمة للتوراة الى اللغة اللاتينية انجزها القديس جيروم تحت اشراف أسقف روما في أوائل القرن الخامس ع.م وأعتمد النص اللاتيني لهذه الترجمة من قبل بعض المترجمين الأوائل للتوراة الى اللغات الأوربية، ومن ضمنها اللغة الانكليزية. وليس قبل احياء اللغات

القديمة واسترجاع الكتابات القديمة اثناء عصر النهضة، عاد الأدباء الاوربيون الغربيون الى النصوص الأصلية للتوراة بالعبرية واليونانية بغية وضع ترجماتهم.

ترجمة الملك جيمس

وجدت الكلمات والعبارات المعروفة التي تصدم القراء مثل «توراتي» في ما تسمى ترجمة الملك جيمس، وهي ترجمة بانكليزية العصر الشكسبيري للتوراة من قبل خمسين اكليركي انغليكاني أتموا عملهم برعاية الملك جيمس الأول في عام 1611. وتمت مراجعة ماتدعى ت.م.ج بصورة شاملة عبر القرون- وحلت محلها ترجمات معاصرة في الكثير من الكنائس- إلا أن العبارات الطنانة للنص الأصلي لازالت توجد في الكثير من الأناجيل باللغة الانكليزية، ومن ضمنها ترجمة جمعية النشر اليهودية للنص الماسوريتي التي استخدمتها كـ«نص قياسي» في هذا الكتاب.

ومع أن ترجمة الملك جيمس عمل أساسي في الأدب الغربي، فقد أصبحت تعتبر بمثابة زي عتيق وغير صحيحة سياسياً في كثير من الدوائر في وقتنا الراهن. ويبدي بعض المترجمين الحديثين استعداداً أكبر لتقديم معلومات حول العناصر «الممنوعة» في التوراة أكثر مما قدمته ترجمة الملك جيمس. ويقدم انجيل انكور الفخم، على سبيل المثال، ترجمات أنيقة وشفافة لكل من الأسفار العبرية والمسيحية للتوراة وتشرح المعاني الحقيقية للنص التوراتي بحواش لكل سطر. ومع ذلك، فان الترجمات التوراتية الأحدث التي حلت محل ترجمة الملك جيمس القديمة الجليلة لم تضارع عظمة لغتها وزخرفها. والترجمات الجديدة أكثر دقة في الدراسة ، وأكثر استعداداً لتحقيق استكشافات في التاريخ، واللغات، واللاهوت، إلا أنها تضحي بذلك أحياناً. وهاهنا مقارنة لسفر التكوين 1 :1-3 كما ظهرت في نسخة عام 1909 من ترجمة الملك جيمس ، وترجمتين أحدث عن النص العبري.

ترجمة الملك جيمس 1909	الانجيل الانكليزي 1970	ترجمة ب-س الجديدة 1985
في البدء خلق الله	في بدء الخلق، عندما	عندما بدأ الله في خلق

السماوات والارض، كانت الأرض خربة، وعلى وجه الغمر ظلام، وروح الله يرف على وجه المياه. قال الله، ليكن نور، فكان نور(6)

أقام الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة والغمر مع الظلمة فوق وجه الأرض، وهبت ريح قوية على وجه المياه. قال الله «ليكن نور» فكان نور، فرأى الله أن النور كان حسناً، ففصل النور عن الظلمة(7)

السماوات والأرض- لم تكن الأرض مبنية والغمر، مع الظلمة فوق وجه الغمر. وهبت الريح من الله فوق المياه -قال الله، «ليكن نور» فكان نور(8)

وباعتبار أن المناقشة حول المقارنة للترجمة التوراتية قديمة، مثيرة للنزاع، وهي ذات تقنية عالية، فأنا لم أفرضها هنا، بل أدعو القارىء لكي يفكر في أي من قراءات التكوين يجدها القارىء أو تجدها القارئة معقولة أكثر وذات مغزى.

ليكن نور

دفع المراقبون الشجعان الذين كانوا أول من افترض أن التوراة كتبت من قبل كائنات بشرية، دفعوا ثمناً غالياً جداً. وحرم سبينوزا كنسياً من قبل المجتمع اليهودي، وسبق للعمل الجريء الذي كتبه أديب توراتي قديم اسمه أندرياس فان مايس أن منع من قبل الكنيسة الكاثوليكية، وحرقت كتابات الكالفيني الفرنسي واسمه اسحاق دولابيرير. ويرفض بعض المؤمنين الحقيقيين حتى الآن أن يمعنوا الفكر بفكرة أن رجالاً ونساء -من المخلوقات البشرية حتى لو أنهم ألهموا الاهياً- هم الذين كتبوا الكلمات فوق البرشمان والورق و أن كثيراً من الباحثين عن الحقيقة في كل أرجاء العالم يعتبرونها مقدسة.

وما حاولت أن أقترحه في هذا الكتاب هو أن بعض الفقرات الأكثر جلالاً في التوراة، وبعض الأمثلة الأخلاقية الأكثر تنويراً- يمكن ايجادها في القصص التي روقبت وطمست تماماً لأنها تروي قصصاً بشرية بصورة مؤثرة. وكانت السلطات الدينية المقامة بعدئذٍ في كل الأزمنة، وكل العقائد مرتاحة أكثر بكثير الى الإلماحة بأن التوراة تتألف فقط من بيانات رسمية وأخلاقية غير فاسدة وليست

بوحا من رجال ونساء حقيقيين يكافحون ضد أكثر تحديات الحياة على الأرض اتساما بالفوضى.

والحمد لله من جهة ثانية، أنه لم يعد يعتبر استكشاف التأليف البشري للتوراة هرطقة-وأنا، أعتقد، أن ممارسة قراءة التوراة هي الأرقى والأسهل منالا اذا قمنا بها. «فالكتاب المقدس» حسبما أقرت الكنيسة الكاثوليكية قبل أكثر من نصف قرن، يمكن أن يعتبر بصورة صحيحة (وحتى دينياً) بمثابة «أداة حية ومعقولة لروح القدس» (9) والأكثر حداثة، حسبما رأينا قبل قليل، أن هارولد بلوم كتب الفكرة نفسها باستخدام دينوي أكثر، حين صور التوراة بأنها «كلمة الله الموحاة» لاأكثر ولا أقل من دانتي، أو شكسبير، أو تولستوي.

وهكذا، فإننا نبدو جميعا بأننا ننطلق من نفس النقطة: التوراة/الانجيل، حتى لو كنا لانوافق على الأبعاد الخارجية للالهام الالهي حين يؤون أوان كتابة الكتب بواسطة رجال ونساء دنيويين.

كرونولوجيا: تقسيم الزمن الى فترات

ان تأريخ الكثير من الأحداث والأعمال في التاريخ التوراتي القديم هو موضوع خلافات كثيرة مابين الأدباء، لذا فان كل تأريخ هو تقريبي وفي كثير من الشواهد، تحزري. وأخترت أنا دلالة قبل عصر المشاعة(ق.ع.م) بدلاً من التأريخ المألوف قبل المسيح (ق.م) بغية الاشارة الى الأحداث التي حدثت قبل مولد يسوع، والدلالة عصر المشاعة(ع.م) بدلاً من بعد الميلاد(«في سنة ربنا» أو ب.م)

قبل عصر المشاعة

	الأحداث التوراتية	قصص في كتاب عاهرة على جانب الطريق
1700-1800	تجوال الآباء (ابراهيم، واسحاق، ويعقوب) والامهات (رفقة، وراحيل، وليا) وتجوال الاسرائيليين القديم في كنعان.	لوط وابنتيه (الفصل الثاني) اغتصاب دينا (الفصل الرابع) تامار ويهوذا (الفصل السادس)
1600-1700	يوسف في مصر، استيطان واسترقاق الاسرائيليين في مصر.	
1280	خروج الاسرائيليين من مصر بقيادة موسى.	صفورة وموسى (الفصل الثامن)
1200-1240	غزو أرض كنعان من قبل الاسرائيليين.	يفتاح وابنته (الفصل العاشر) المسافر ومحظيته (الفصل12)
1000-1020	عهد الملك شاؤول	
960-1000	عهد الملك داود	تامار وأمنون (الفصل الرابع عشر)

	أحداث توراتية	تأليف التوراة
960- 920	عهد الملك سليمان	مؤرخ القصر اثناء عمله
922	تقسيم مملكة داود وسليمان المتحدة الى مملكة شمالية (اسرائيل) ومملكة جنوبية (اليهودية).	-
900		يهوه (ي) أثناء العمل.
800		ايلوهيم (اي) أثناء العمل
722	غزو المملكة الشمالية لاسرائيل من قبل الآشوريين وتشرد «القبائل العشر الضائعة».	
700-600		المشرع «م» أثناء العمل.
622		اكتشاف سفر تثنية الاشتراع.
587-586	هدم المعبد في اورشاليم، سقوط المملكة الجنوبية ليهودا، وبدء النفي البابلي.	
500		المصدر الرهباني (ر) اثناء عمله.
538	نهاية النفي البابلي وعودة الاسرائيليين الى القدس.	
520-515	بناء المعبد الثاني في القدس/اورشاليم	
400		المنقح «م» في عمله
250-100		ترجمة التوراة العبرية الى اليونانية (السبعونية).
100	البقاء الأقدم للنصوص	

العبريـــة للتـــوراة في قمـــران
(البحر الميت) (اكتشفت عام
1947)

عصر الشاعية «ع.م»

هدم المعبد الثاني في القدس | التصنيـــف النـــهائي للتـــوراة العبرية.

عـرفان

استندت في تحرير كتابي عاهرة على جانب الطريق (قصص محرمة في التوراة)، وتاثرت بعدد كبير من الناصحين والملهمين، وكانت الاولى بينهم زوجتي آن بنيامين كيرتش، التي لمحت بشير نجاح كتاب عن التوراة في حديث قدمته عن قصة يهوذا وتامار قبل عدد من السنوات. وكما اكتشفت حين قابلتها للمرة الأولى وكانت في الرابعة عشرة من عمرها، أن كل الأشياء الخيرة تبدأ معها.

شجعتني آن وساندتني مع ولدينا، آدام بنيامين كيرتش وجنيفر راشيل كيرتش، على القيام بهذا العمل، واستخدموا في سبيل ذلك سبلاً لطيفة لاتعد ولاتحصى طوال سنوات البحث والكتابة. فابتكرت شاشة صائنة على شرف المشروع، وانتصبت رسالة تذكرني بلطف في كل وقت اشتغل فيه الكمبيوترا

والشاب آدام كيرتش الذي قرأت له قصص توراتية قبل أن أنام (انظر الفصل الأول)، هو الآن كامل النضج، وكاتب موهوب في اختصاصه، استفدت من مساندته المستندة الى الخبرة في انجاز البحث عن عاهرة (قصة محرمة). وباعتماده على المجموعات في مكتبة أندوفر-هارفارد الدينية، ومكتبة نيويورك الشعبية، ومكتبة يوسي إ آ للبحث، بحث آدم واسترجع، وفي بعض الحالات ترجم أعمالا علمية عدت اليها اثناء كتابة هذا الكتاب.

ومن ضمن الذين أخصهم بالشكر وكيلي وملاكي الحارس، لوري فوكس من وكالة مكتبة تشستر، وهي كائن متألق اتعلق بها كصديق وأعجب بها كزميلة كاتبة قبل وقت طويل من عرضها شرح كتابي. وأتوجه بالشكر أيضاً الى ناشرة كتابي في دار كتب بالانتاين، كلير فيرارو، التي كان عليّ أن اشهد رؤاها، وطاقاتها، وحكمتها، وحزمها، كمراجع للكتب قبل أن أسعد بأن أكون أحد كتابها.

وأنا عميق الامتنان، أيضاً، للفرصة التي سمحت لي بالعمل مع فيرجينيا فابر، محررتي في بالانتاين، التي تمكنت بعينها الفاحصة وببراعة قلمها الرشيق أن ترفع من قيمة الكتاب الى أعلى الدرجات، ومع بينرا تشستر التي تعلو فوق المقارنة التي جلبت خليطاً فريداً من التناسق، والذكاء، والتألق لعملها بوصفها وكيلة أدبية.

وثمة صديقة أخرى لها وقفة طويلة وأصبحت زميلة في هذا الكتاب، انها ليز

وليامز، مديرة بالانتاين للنشر في الساحل الغربي، انها امرأة ذات روح عالية، وروحية رائعة، وذات مزاج رائق وأفكار طيبة، وهي منافحة لاتكل ولا تمل من أجل الكتب والمؤلفين.

وفي الحقيقة، اصبح المشروع برمته واعداً بسبب الناس الموهوبين والمتألقين الذين عملت معهم، ويضم هؤلاء الناس إلين اركر، ومارك بلومفيلد، وهيلاريا كوهين، وبيتسيه إلياس، وجانيت فليتشر، وجيم جيرافتي، وكاثلين فريديلا، وراشيل لوغال، وأليس كيسترسون، وستيفن اوبنهايم، ونات بين، ولويس روبنسون، في بالانتاين، وجونا بولسيني، وغاري جاف في الوكالة الأدبية للبندا تشيستر، وجوديث كيندرا في كتب ريدي في لندن: وليندا ميكاول وتيريزا كافانو في الوكلاء الأدبيين العالميين لليندا ميكاول المحدودة.

وشجعني على القيام بهذا العمل جاك ميلز، وهو زميل وصديق طيب، باعتباره ناقداً أدبياً في صحيفة لوس انجيلوس تايمز، منذ سنوات عديدة وعراب كتابي في بحثه في التوراة، إن كان بناء على رغبته في الاشتراك بمعرفته الواسعة، أو بتقديم الأمثلة المشعة من رائعته عن الحكماء التوراتيين بعنوان الله: سيرة ذاتية.

وتوني كوهين، ناشر في أكروبيت بوكس، هو رجل الأدب الذي وضع كتابتي قيد الطباعة إن كان في نشر أو تسويق كتابي كتاب كيرتش لقانون النشر- أو بتشجيعه لي لكي أتسلق جبل راوي قصة التوراة، أيضاً.

وأنا سعيد الحظ أيضاً بصداقة وزمالة دينيس ميتشيل، شريكي القانوني وصديقي العزيز، كان لتشجيعه ودعمه اساس لعملي كمحام وكاتب.وسررت بالعمل مع باقي اصدقائي وزملائي في ممارسة المحاماة- جودي وو، وآنجي يون، وغولدلي، وستيفاني هاكر، ولاري زيرنير، وسكوت باكر، وغريغ هومر.اما راي بيرك، وكانداك بيرك الفنانان التشكيليان الموهوبان، والقارئان المتحمسان، والباحثان الحيميمان، الصديقان الثابتان، فقد أصغيا لقراءة الروايات المحرمة الكثيرة في التوراة في العديد من المأدبات مع آن ومعي، وشهدا عاهرة على جانب الطريق (قصص محرمة في التوراة) وقد أصبحت عملاً معرفياً في وقتنا الراهن.

جوناثان كيرتش

لوس انجيلوس 16 شباط/فبراير 1997

تعريف

الكلمات في لائحة التعريف أدناه كلها من مصادر عدت اليها في عمل البحث وفي كتابة عاهرة على جانب الطريق (قصص محرمة في التوراة). ويجب عليَّ أن أذكر بشكل خاص، عدداً قليلاً من الأعمال التي وجدتها ذات فائدة بصورة خاصة . وهي كتب انصح بها كل قارىء راغب في التعلم أكثر من التوراة.

إن قاموس انجيل انكور دقيق وسهل التناول، وشامل وضروري لكل قارىء للانجيل. ومع انه في ستة مجلدات، فهو كتاب مهم لعمل طموح وبارع، و يتضمن مواداً قدمها علماء كبار في مجال الدراسات التوراتية.

والموسوعة اليهودية موسوعة عامة بشأن المواضيع اليهودية، وجدتها نافعة بشكل خاص في حل بعض التعقيدات في التاريخ والتأويل التوراتي، ليس في الجذور التاريخية اليهودية وحسب، بل أيضاً في المصادر المسيحية والاسلامية.

وكتاب من كتب التوراة؟ لريتشارد فريدمان يشكل مقدمة رائعة للدراسة المتاخرة في مجال التأليف التوراتي. فقد قدم فريدمان بحثه وتحليله الأصيلين الراقيين جداً، على شكل قصة غامضة، وذكر شكوكه الأكثر احتمالاً بصدد تأليف سفر تثنية الاشتراع.

وقدمت ثلاثة كتب الله بمثابة شخصية أدبية أو تاريخية هامة أكثر منها شخصية دينية . وكانت هذه الكتب الثلاثة أساسية في عملي، بالمعنى العميق للكلمة، وساعدت في حفزي على كتابة هذا الكتاب بالدرجة الاولى.

كتاب ل/ي لهارولد بلوم ودافيد روزنبرغ الذي يتألف من ترجمة روزنبرغ الأصيلة والغنائية لخط الرواية التوراتية المنسوبة الى المصدر المسمى ي. ودراسة بلوم الأدبية المثيرة لـ«ي»، هي التي تصور الكاتب امرأة راقية المحتد، عاشت وعملت في قصر يهودا الملكي في الماضي البعيد.

وكتاب الله: صورة ذاتية لجاك ميلز، الحائز على جائزة بولتزر، دراسة لله كشخصية أدبية في التوراة. والكتاب ليس اقل من رائعة معاصرة في التأويل التوراتي. والفصل عن سفر أيوب بقلم ميلز يشكل نجاحاً متوجاً، إلا أن العمل بمجمله أساسي وضروري لأي قارىء راغب بتناول التوراة كعمل أدبي، اضافة الى كونها كتابا دينيا وكتاب تعليم اخلاقي.

واذا كان كتاب من الكتب قد دعاني لأن أعود الى التوراة بعد سنوات من الانقطاع عن القراءات التوراتية، فهو كتاب جوزيف هيلر الله يعرف، وهو رواية فكهة تروي قصة الملك داود على لسان الشخص الأول داود نفسه ، مع مداخلات تعبر عن وجهات نظر كثيرة في بيت هاذر. وهيلر، مثل هارولد بلوم، وجاك ميلز، كاتب معاصر بعث حياة جديدة في كتاب قديم جدا.

تعريف الأناجيل

استخدمت عند الاستشهاد من ترجمات معينة للتوراة مختصرات في النص للتعريف بالمصدر الذي أخذت منه الاستشهاد. وهذه المختصرات أقدمها في اللائحة أدناه، مع ذكر العنوان التام والمعلومات التعريفية بالأناجيل المختلفة. وتتبع لائحة المختصرات لائحة بالترجمات الأخرى للتوراة التي استندت اليها. واذا لم يشر الى مصدر محدد في النص، فان المقتطف مأخوذ من نسخة عام 1962 الصادرة عن جمعية النشر اليهودية المسماة الكتاب المقدس طبقاً للنص الماسوريتي (ج.ن.ي).

ج. ن. ي (JPS) الكتاب المقدس طبقاً للنص الماسوريتي. فيلادلفيا: جمعية النشر اليهودية 1961.

ت. م. ج (KJV) الانجيل المقدس ويحتوي العهدين القديم والجديد في ترجمة الملك جيمس، ناشفيل: الناشرون توماس نلسون 1985.

ا. ا. ج (NAB) الانجيل الاميريكي الجديد. مؤسسة أميركا للانجيل الكاثوليكي. تشيكاغو: المنشورات الكاثوليكية 1971.

(NEB) الانجيل الانكليزي الجديد مع الأبوكريفا. الطبعة الثانية. نيويورك: جامعة اوكسفورد، المنشورات الجديدة. 1970

التاناخ، الكتاب المقدس: الترجمة الجديدة JPS طبقاً للنص العبري التقليدي.فيلادلفيا: جمعية النشر اليهودية 1985.

ت. م. ا (RSV) انجيل اوكسفورد الجديد مع الحواشي ومع الأبوكريفا. ترجمة مراجعة أصوليا، تحتوي الطبعة الثانية من العهد الجديد. حررها هربرت ج. ماي و بروس ا. مترنمر. نيويورك«منشورات جامعة اكسفورد 1973».

ا. م. س (KJS) انجيل مرجع سكوفيلد. ترجمة تحت اشراف الملك جيمس. نيويورك: منشورات جامعة اوكسفورد1945.

ENDNOTES

See *Recommended Reading and Bibliography* for complete citations.

CHAPTER ONE

1. Susan Niditch, "The Wronged Woman Righted," *Harvard Theological Review* 72, nos. 1–2 (January–April 1979): 149:

2. Marvin H. Pope, "Euphemism and Dysphemism in the Bible," in *The Anchor Bible Dictionary*, 6 vols., ed. David Noel Freedman (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1992), vol. 1, 725.

3. Pope, *ABD*, vol. 1, 725.

4. G. Vermes, "Baptism and Jewish Exegesis," *New Testament Studies* 4 (1957–1958) (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1958): 314.

5. Ralph Klein, "Chronicles, Book of, 1–2," in *ABD*, vol. 1, 997.

6. Robert Gordis, *The Biblical Text in the Making* (Philadelphia: Dropsie College for Hebrew and Cognate Learning, 1937), 30.

7. Pope, *ABD*, vol. 1, 721.

8. Pope, *ABD*, vol. 1, 722.

9. Leonard J. Greenspoon, "Rahab (Person)," in *ABD*, vol. 5, 611.

10. Murray L. Newman, "Rahab and the Conquest," in *Understanding the Word*, ed. James T. Butler, Edgar W. Conrad, and Ben C. Ollenburger (Sheffield, England: JSOT Press, 1985), 180, fn. 34, citing John L. McKenzie, *The World of the Judges* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1966), 48.

11. Jack Miles, *God: A Biography* (New York: Alfred A. Knopf, 1995), 125. "The word *kabod* can have a spiritual meaning—its usual translation is 'glory'—but also a visceral one: It is the standard word for 'liver.' According to the eminent linguist and Bible

scholar Marvin H. Pope, *kabod* probably alludes to male genitalia at Job 29:20, where 'glory' is still the correct translation, even though genitalia are to be understood."

12. Roland E. Murphy, "Song of Songs, Book of," in *ABD*, vol. 6, 153–54.

13. Sid Z. Leiman, "The Canonization of Hebrew Scripture," *Transactions* 47 (February 1976): 72.

14. Murphy, *ABD*, vol. 6, 153–54.

15. Julian Pitt-Rivers, *The Fate of Shechem, or The Politics of Sex* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), 156.

16. Pitt-Rivers, 146.

17. Pitt-Rivers, 126.

18. "Potiphar," *Joseph and the Amazing Technicolor Dreamcoat*, copyright 1969 The Really Useful Group plc (PRS). Rights in the United States administered by Colgems-EMI Music, Inc. (ASCAP).

19. Mordechai Richler, *St. Urbain's Horseman* (New York, Alfred A. Knopf, 1972), 242–43.

20. Michael Ventura, "Letters at 3 A.M.," *LA Village View* (December 24–30, 1993): 5.

21. Reynolds Price, *A Palpable God* (San Francisco: North Point Press, 1985), 3.

CHAPTER THREE

1. Larry R. Helyer, "The Separation of Abraham and Lot," *Journal for the Study of the Old Testament* 26 (June 1983): 77.

2. Louis Ginzberg, *The Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia, Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 5, 240, n. 171. See also T. Desmond Alexander, "Lot's Hospitality," *Journal of Biblical Literature* 104, no. 2 (June 1985): 289–91.

3. Haim Z'ew Hirschberg, "Lot," in *Encyclopaedia Judaica*, 7 vols. (Jerusalem: Keter Publishing House), vol. 11, 507.

4. Ginzberg, vol. 5, 243, n. 188.

5. "Minyan" in *EJ*, vol. 12, 67.

6. Ginzberg, vol. 1, 252.

7. George W. Coats, "Lot," in *Understanding the Word*, ed. James T. Butler, Edgar W. Conrad, and Ben C. Ollenburger (Sheffield, England: JSOT Press, 1985), 120.

8. Sharon Pace Jeansonne, "The Characterization of Lot in Genesis," *Biblical Theology Bulletin* 18, no. 4 (October 1988): 123, citing Bruce Vawter, *On Genesis: A New Reading* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1977), 235–36.

9. Jeansonne, 126.

10. Jeansonne, 123, citing Claus Westermann, John Skinner, and Bruce Vawter.

11. Coats, 129.

12. J. H. Hertz, ed., *The Pentateuch and Haftorahs*, 2d ed. (London: Soncino Press, 1981), 67, n. 8.

13. Raphael Patai, *The Arab Mind* (New York: Charles Scribner's Sons, 1976), 85–86.

14. Patai, 84, 133–135.

15. R. E. Clements, "The Relation of Children to the People of God in the Old Testament," *Baptist Quarterly* 11, no. 5 (January 1966): 196. See also Neh. 5:1–5, 2 Kings 4:1–7, and Exod. 21:7–8.

16. Roland de Vaux, *Ancient Israel* (New York: McGraw-Hill, 1965), vol. 1, 41.

17. Jeansonne, 124, citing John Skinner, *A Critical and Exegetical Commentary on Genesis* (Edinburgh: T. & T. Clark, 1930), 307.

18. Gerhard von Rad, *Genesis*, rev. ed. (London: S. C. M. Press, Ltd., 1972), 218.

19. L. Hicks, "Lot," in *Interpreter's Dictionary of the Bible* (New York: Abingdon Press, 1962), vol. K–L, 163.

20. Jeansonne, 127, citing Gen. 34 (see chapter four), Gen. 38 (see chapter six), Judg. 19 (see chapter twelve), and 2 Sam. 13 (see chapter fourteen).

21. C. J. H. Wright, "Family," in *The Anchor Bible Dictionary*, 6 vols., ed. David Noel Freedman (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1992), vol. 2, 767–68. "[T]here is much in the [Old Testament] to indicate that love, joy, care and honor were to be found in the Israelite home."

22. Jeansonne, 124.

23. Coats, 123–24.

24. Warren Kliewer, "The Daughters of Lot," *ILIFF Review* 25, no. 1 (winter 1968): 27.

25. Alexander, 291.

26. Gerald A. Larue, *Sex and the Bible* (Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1983), 91.

27. Larue, 91–92.

28. Edmund Leach, "Why Did Moses Have a Sister?" in *Structuralist Interpretations of Biblical Myth*, ed. Edmund Leach and D. Alan Aycock (Cambridge [England] and New York: Cambridge University Press, 1983), 59–60, fn. 35.

29. Larue, 95.

30. Larue, 93.

31. E. A. Speiser, tr., intro., and notes, *Genesis*, Anchor Bible (Garden City, N.Y: Doubleday, 1986), 91–93.

32. Von Rad, 167.

33. Julian Pitt-Rivers, *The Fate of Shechem, or The Politics of Sex* (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1977), 151–152, citing Speiser, de Vaux, and von Rad.

34. Speiser, 92–93.

35. Speiser, 93.

36. Anson Rainey, "Concubine," in *EJ*, vol. 5, 862.

37. Ginzberg, vol. 1, 264.

38. Speiser, 155, n. 9.

39. Coats, 123.

40. Larue, 99. "Expulsion because of jealousy seems too harsh. . . . [E]xpulsion because of molestation seems more natural."

41. von Rad, 217.

42. von Rad, 217.

43. Carol A. Newsom, "Angels," in *ABD*, vol. 1, 249.

44. Speiser, 139, n. 11.

45. Bernard J. Bamberger, "Angels and Angelology," in *EJ* vol. 2, 957.

46. Karen Armstrong, *Jerusalem* (New York: Alfred A. Knopf, 1996), 27–28.

47. Joseph Blenkinsopp, "Abraham and the Righteous of Sodom," *Journal of Jewish Studies* 33, nos. 1–2 (spring-autumn 1982): 119, n. 1.

48. T. S. Eliot, *The Waste Land*, in *The Harper Anthology of Poetry*, ed. John Frederick Nims (New York: Harper & Row, 1981), 574–575.

49. Speiser, 142.

50. Hermann Gunkel, *The Legends of Genesis* (New York: Schocken Books, 1964), 34.

51. D. Alan Aycock, "The Fate of Lot's Wife" in *Structuralist Interpretations of*

Biblical Myth, ed. Edmund Leach and D. Alan Aycock (Cambridge [England] and New York: Cambridge University Press, 1983), 116.

52. Ginzberg, vol. 1, 255.

53. Aycock, 118.

54. Aycock, 115.

55. The young woman whose dance so charmed Herod that he granted her wish and gave her John the Baptist's head on a platter is not named in the New Testament (Matt. 14:6–8; Mark 6:22–25), but the ancient historian Josephus gives her name as Salome. RSV, 1189–90, n. 14.1–12.

56. Ginzberg, vol. 5, 243, n. 188.

57. Ginzberg, vol. 5, 243, n. 188.

58. von Rad, 223.

59. Clements, 201.

CHAPTER FIVE

1. Mishael Maswari Caspi, "The Story of the Rape of Dinah," *Hebrew Studies* 26, no. 1 (1985): 29, citing *Midrash Rabbah Genesis*.

2. Louis Ginzberg, *Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 1, 395.

3. Ita Sheres, *Dinah's Rebellion* (New York: Crossroad, 1990), 6–7.

4. Meir Sternberg, *The Poetics of Biblical Narrative* (Bloomington: Indiana University Press, 1985), 446.

5. Martin Kessler, "Genesis 34—An Interpretation," *Reformed Review* 19, no. 1 (September 1965): 4, fn. 6, citing Gerhard von Rad.

6. E. A. Speiser, tr., intro., and notes, *Genesis*, Anchor Bible (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1986), 262.

7. Sheres, 1.

8. Sternberg, 446.

9. Danna Nolan Fewell and David M. Gunn, "Tipping the Balance," *Journal of Biblical Literature* 110, no. 2 (summer 1991): 207.

10. Fewell and Gunn, 196, n. 4.

11. Julian Pitt-Rivers, *The Fate of Shechem, or The Politics of Sex* (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1977), 146–47.

12. Gila Ramras-Rauch, "Fathers and Daughters," in "Mappings of the Biblical Terrain," ed. Vincent L. Tollers and John Maier, *Bucknell Review* 33, no. 2, 1990, 161, citing the work of Samuel Sandel.

13. James Kugel, "The Story of Dinah in the *Testament of Levi*," *Harvard Theological Review* 85, no. 1 (1992): 2.

14. Fewell and Gunn, 200; Sheres, 86.

15. Sheres, 83, 85–86.

16. Caspi, 41.

17. Sheres, 86–87, 89.

18. Kugel, 16.

19. Kugel, 14, citing David Weiss Halivni, *Midrash, Mishnah, and Gemara: The Jewish Predilection for Justified Law* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1986), 30–34.

20. Victor H. Matthews, *Manners and Customs in the Bible* (Peabody, Mass.: Hendrickson Publishers, 1988), 14.

21. Susan Niditch, "The Wronged Woman Righted," *Harvard Theological Review* 72, nos. 1–2 (January–April 1979): 145.

22. Ramras-Rauch, 162. "[A]s a defiled woman she is doomed to a life of disgrace if she is returned home unmarried, while as the wife of the converted Shechem she would have some status."

23. Pitt-Rivers, 147–48.

24. Roland de Vaux, *Ancient Israel* (New York: McGraw-Hill, 1965), vol. 1, 26.

25. Cynthia Ozick, *Metaphor and Memory* (New York: Alfred A. Knopf, 1989), 278–79.

26. Clinton Bailey, "How Desert Culture Helps Us Understand the Bible," *Bible Review* 7, no. 4 (August 1991): 20. "All males are obliged to defend and avenge each other, just as they are all liable to suffer revenge for the misdeeds of the one. This not only gives 'strategic depth' to any isolated Bedouin, it also deters one Bedouin from attacking another, lest he cause hardship to the members of his clan."

27. Sternberg, 470.

28. Fewell and Gunn, 207, fn. 24, citing Walter Brueggemann, *Genesis: A Bible Commentary for Teaching and Preaching* (Atlanta: John Knox Press, 1982), 278.

29. Kugel, 3–5.

30. Sternberg, 472–74.

31. Haim Hillel Ben-Sasson, "Self-Defense," in *Encyclopoedia Judaica*, 17 vols. (Jerusalem: Keter Publishing House), vol. 14, 126.

32. Menachem Begin, *The Revolt*, rev. ed. (Los Angeles: Nash Publishing, 1977), xxv.

CHAPTER SEVEN

1. Susan Niditch, "The Wronged Woman Righted," *Harvard Theological Review* 72, nos. 1–2 (January–April): 148.

2. Karen Armstrong, *Jerusalem* (New York: Alfred A. Knopf, 1996), 39–40.

3. Robert Alter, "A Literary Approach to the Bible," *Commentary* 60, no. 6 (December 1975): 76.

4. Elaine Adler Goodfriend, "Prostitution (OT)," in *The Anchor Bible Dictionary*, 6 vols., ed. David Noel Freedman (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1992), vol. 5, 505 et seq.; and Karel Van Der Toorn, "Prostitution (Cultic)," in *ABD*, vol. 5, 511 et seq.

5. Eugene J. Fisher, "Cultic Prostitution in the Ancient Near East? A Reassessment," *Biblical Theology Bulletin* 6 (June–October 1976): nos., 2–3, 226.

6. Mayer I. Gruber, "Hebrew Qedeshah and Her Canaanite and Akkadian Cognates," *Ugarit-Forschungen*, band 198 (1996): 134.

7. Fisher, 230.

8. Gruber, 134.

9. Robert Alter, *The Art of Biblical Narrative* (New York: Basic Books, 1981), 9. See also Nachman Avigad, "Seal, Seals," in *Encyclopaedia Judaica*, 17 vols. (Jerusalem: Keter Publishing House), vol. 14, 1072–73; and Bonnie S. Magness-Gardiner, "Seals, Mesopotamian," in *ABD*, vol. 5, 1062–63.

10. J. A. Emerton, "Judah and Tamar," *Vetus Testamentum* 29, no. 4 (October 1979): 412.

11. Francis I. Anderson and David Noel Freedman, tr., notes, and comm. *Hosea*, Anchor Bible (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1986), 225.

12. Anderson and Freedman, 224.

13. "Cosmetics," in *EJ*, vol. 5, 980.

14. Niditch, 145.

15. Niditch, 144.

16. Niditch, 144–46, fn. 8.

17. Harold Bloom and David Rosenberg, *The Book of J* (New York: Grove Weidenfeld, 1990), 222. See also George W. Coats, "Widow's Rights," *Catholic Biblical Quarterly* 34, no. 4 (October 1972): 463.

18. Deut. 25:5–10. See also Coats, 463.

19. Anderson, 36.

20. Deut. 25:5–10. See also Coats, 463.

21. Gerhard von Rad, *Genesis*, rev. ed., (London: S.C.M. Press Ltd., 1972), 356.

22. Coats, 464.

23. Calum M. Carmichael, "A Ceremonial Crux," *Journal of Biblical Literature* 96, no. 3 (September 1977): 321–36.

24. Coats, 462.

25. Julian Pitt-Rivers, *The Fate of Shechem, or The Politics of Sex* (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1977), 169.

26. Louis Ginzberg, *The Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 2, 35–36, and "Tamar," in *EJ*, vol. 15, 783.

27. Thomas Mann, *Joseph the Provider* (New York: Alfred A. Knopf, 1944), 214.

28. Mann, 200.

CHAPTER NINE

1. B. P. Robinson, "Zipporah to the Rescue," *Vetus Testamentum* 36, no. 4 (October 1986): 450, fn. 9.

2. Robinson, 449.

3. Julian Morgenstern, "The 'Bloody Husband' (?) (Exod. 4:24–26) Once Again," *Hebrew Union College Annual* 34 (Union of Hebrew Congregations, 1963): 38, 43. Morgenstern suggests that Exodus 4:24–26 reflects a primitive form of marriage in the ancient Middle East in which the husband's task is simply to impregnate his wife, who remains in the household of her own family. By taking it upon herself to circumcise her son, Morgenstern argues, Zipporah is performing a task traditionally assigned to a woman's eldest brother in such marriages.

4. Trent C. Butler, "An Anti-Moses Tradition," *Journal for the Study of the Old Testament* 12 (May 1979): 9, 11.

5. Morgenstern, 52.

6. G. Vermes, "Baptism and Jewish Exegesis: New Light from Ancient Sources," *New Testament Studies* 4 (1957–1958) (Cambridge, England: Cambridge University Press, 1958), 310, 312–13.

7. Robinson, 457.

8. Louis Ginzberg, *The Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 2, 295. Satan also appears in place of Yahweh as the attacker in the Book of Jubilees, a biblical-era work that was excluded from the Hebrew Bible but appears in the Apocrypha. Vermes, 314–15.

9. Moshe Greenberg, *Understanding Exodus* (New York: Burman House for the Melton Research Center of the Jewish Theological Seminary, 1969), 110.

10. Greenberg, 113.

11. New JPS, 90.

12. Marvin H. Pope, in *The Anchor Bible Dictionary*, 6 vols., ed. David Noel Freedman (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1992), vol. 1, 721.

13. Morgenstern, 45–46.

14. G. Johannes Botterweck and Helmer Ringgren, ed. *The Theological Dictionary of the Old Testament* (Grand Rapids: William B. Eeirdmans Publishing Company, 1978), 270 et. seq.

15. Greenberg, 114, fn. 1.

16. Ginzberg, vol. 2, 329.

17. Lawrence Kaplan, " 'And the Lord Sought to Kill Him' (Exod. 4:24): Yet Once Again," *Hebrew Annual Review* 5 (Department of Judaic and Near Eastern Languages and Literatures, Ohio State University, 1981): 66. See also Robinson, 456, fn. 17.

18. Nahum M. Sarna, *Understanding Genesis* (New York: Schocken Books, 1970), 131.

19. Roland de Vaux, *Ancient Israel*, vol. 1 (New York: McGraw-Hill, 1965), 46–47.

20. Morgenstern, 41.

21. Vermes, 309.

22. Robinson, 448.

23. Vermes, 314–15, fn. 1.

24. J. H. Hertz., *The Pentateuch and Haftorahs*, 2d ed. (London: Soncino Press, 1981), 219, fn. 10.

25. R. E. Clements, "The Relation of Children to the People of God in the Old Testament," *Baptist Quarterly* 11, no. 5 (January 1996): 198.

26. Robinson, 459.

27. Edmund Leach, "Why Did Moses Have a Sister?" in Edmund Leach and D. Allan Aycock, *Structuralist Interpretations of Biblical Myths* (Cambridge [England] and New York: Cambridge University Press, 1983), 34–35, 47.

28. Leach, 35.

29. Ilana Pardes, *Countertraditions in the Bible* (Cambridge: Harvard University Press, 1992), 89–92.

30. Cheryl Anne Brown, *No Longer Be Silent* (Louisville, Ky.: Westminster-John Knox Press, 1992), 26, 27.

31. Leach, 39. See also Pardes, 89.

32. Pardes, 90.

33. Pardes, 91–92.

34. Pardes, 87, citing Daniel Boyarin, *Intertextuality and the Reading of Midrash* (Bloomington: Indiana University Press, 1990), 98.

35. Harold Bloom and David Rosenberg, *The Book of J* (New York: Grove Weidenfeld, 1990), 273.

36. Julian Morgenstern, "The 'Bloody Husband' (?) (Exod. 4:24–26) Once Again," *Hebrew Union College Annual* 34 (Union of Hebrew Congregations, 1963): 43–44, fn. 27, citing the work of A. J. Reinach and Hugo Gressmann.

37. The notion that Exodus 4:24–26 depicts the symbolic deflowering of Zipporah by a lusty god or demon has also been embraced by other Bible scholars, including

Eduard Meyer, Georg Beer, and Elias Auerbach. See Hans Kosmala, "The Bloody Husband," *Vetus Testamentum* 12 (January 1962): 16.

38. Morgenstern, 1963, 43, fn. 27.

39. Hans Kosmala, 16–17. See also Morgenstern, 44, fn. 27 ("[S]o far-fetched and groundless . . . , so arbitrary and utterly without proof, that it would hardly merit presentation . . . were it not put forth by a scholar of high repute") and Martin Buber, *Moses* (New York: Harper & Row, 1958), 57, where Buber cites these readings of Exodus 4:24–26 as evidence of "the devastation which the excessive enticement and allure of ethnology has effected in the history of religion."

40. Sigmund Freud, *Moses and Monotheism* (New York: Vintage Books, 1967), 39, citing Eduard Meyer.

41. Sarna, 29.

42. Sarna, 158.

43. Northrop Frye, *The Great Code* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1982), 184.

44. Morgenstern, 1963, 36.

45. Sarna, 158.

46. Morgenstern, 1963, 36.

47. Hertz, 201.

48. René Girard, *Violence and the Sacred* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1977), 4.

49. Sarna, 157, 159.

50. Kaplan, 67, citing J. Blau, "Hatan Damim," *Tarbiz* 26 (1956): 1–3.

51. Kaplan, 68.

52. Greenberg, 117, n. 1.

53. Kosmala, 21.

54. Buber, 58.

55. Buber, 58. (Emphasis added.)

CHAPTER ELEVEN

1. Leila Leah Bronner, "Valorized or Vilified? The Women of Judges in Midrashic Sources," in *A Feminist Companion to Judges*, ed. Athalya Brenner (Sheffield, England: Sheffield Academic Press, 1993), 73

2. J. Cheryl Exum, "The Tragic Vision and Biblical Narrative," in *Signs and Wonders*, ed. J. Cheryl Exum (Society of Biblical Literature, 1989), 64, citing Y. Zakovitch.

3. Louis Ginzberg, *The Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 4, 43.

4. Gila Ramras-Rauch, in "Fathers and Daughters," in "Mappings of the Biblical Terrain," ed. Vincent L. Tollers and John Maier, *Bucknell Review* 33, no. 2 (1990): 165.

5. I. Mendelsohn. "The Disinheritance of Jephthah in the Light of Paragraph 27 of the Lipit-Ishtar Code," in *Israel Exploration Journal* 4, (1954): 116.

6. Mendelsohn, 116, 118–19.

7. Exum, 1989, 73.

8. Robert G. Boling, tr. and intro., *Judges*, Anchor Bible (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1975), 208.

9. Exum, 1989, 67, fn. 4.

10. Barry G. Webb, "The Theme of the Jephthah Story," *The Reformed Theological Review* 45, no. 2 (May–August 1986): 40.

11. Daniel Landes, "A Vow of Death," in *Confronting Omnicide*, ed. Daniel Landes (Northvale, N.J.: Jason Aronson, 1991), 11.

12. Exum, 1989, 66, citing the work of Phyllis Trible.

13. Exum, 1989, 66.

14. Exum, 1989, 78.

15. Amos Oz, "Upon This Evil Earth," in *Where the Jackals Howl and Other Stories* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1981), 217.

16. Cynthia Baker, "Pseudo-Philo and the Transformation of Jephthah's Daughter," in *Anti-Covenant*, ed. Mieke Bal (Sheffield, England: Almond Press, 1989), 197.

17. Ben Zion Bokser, *The Jewish Mystical Tradition* (New York: Pilgrim Press, 1981), 9–10.

18. Bokser, 50, 107.

19. Landes, 7.

20. Boling, 211.

21. Ginzberg, vol. 4, 44.

22. Anne Michele Tapp, "An Ideology of Expendability," in *Anti-Covenant*, ed. Mieke Bal, 174, fn. 10.

23. Exum, 1989, 71, fn. 6.

24. Webb, 40.

25. Joseph M. Davis, "On the Idea of Covenant," *Conservative Judaism* 41, no. 4 (summer 1989): 26–27.

26. Landes, 8.

27. Landes, 8–9.

28. Northrop Frye, *The Great Code* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1982), 185.

29. *Biblical Antiquities* 39.11, cited in Cheryl Anne Brown, *No Longer Be Silent* (Louisville, Ky.: Westminster-John Knox Press, 1992), 97.

30. Ginzberg, vol. 4, 43–44.

31. Ginzberg, vol. 4, 44.

32. Ginzberg, vol. 4, 44.

33. Boling, 197.

34. J. Cheryl Exum, "On Judges II," in *A Feminist Companion to Judges*, ed. Brenner, 140.

35. Peggy L. Day, "From the Child Is Born the Woman," in *Gender and Difference in Ancient Israel*, ed. Peggy L. Day (Minneapolis, Minn.: Fortress Press, 1989), 69, fn. 14, citing the work of Gustav Bostrom.

36. Boling, 209. Boling finds the suggestion "doubtful."

37. Frye, 185.

38. Ramras-Rauch, 167.

39. David Penchansky, "Staying the Night," in *Reading between Texts*, ed. Danna Nolan Fewell (Louisville, Ky.: Westminster-John Knox Press, 1992), 84. But Penchansky goes on to disassociate himself from his own speculations: "They all have serious flaws and lack any strong textual or artifactual support" (85).

40. Adrien Janis Bledstein, "Is Judges a Woman's Satire of Men Who Play God?" in *A Feminist Companion to Judges*, ed. Brenner, 46.

41. Exum, 1989, 70.

42. Richard Elliott Friedman, *Who Wrote the Bible?* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1987), 34–35.

43. Stephen L. Harris, *Understanding the Bible*, 2nd ed. (Palo Alto, Calif.: Mayfield Publishing Company, 1985), 83.

44. Martin Noth, *The Old Testament World* (Philadelphia: Fortress Press, 1966), 177–78.

45. E. A. Speiser, tr., intro., and notes, *Genesis*, Anchor Bible (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1986) 7, n. 26.

46. Harris, 3–4.

47. Gerald Cooke, "The Sons of (the) God(s)," *Zeitschrift für die Alttestamentische Wissenschaft*, band 76 (1964): 24.

48. Raphael Patai, *The Hebrew Goddess* (New York: Avon Books, 1978), 9.

49. Patai, 9.

50. Patai, 13.

51. Patai, 113–14.

52. Patai, 12.

53. Carole Fontaine, "The Deceptive Goddess in Ancient Near Eastern Myth," *Semeia* 42 (1988): 86.

54. Patai, 13.

55. Ben Zion Bokser, *The Jewish Mystical Tradition* (New York: Pilgrim Press, 1981), 21.

56. *Bib. Ant.* 40.5–6, in Brown, 110.

57. *Bib. Ant.* 40.4, in Brown, 106.

58. Baker, 202.

59. Murphy, *Pseudo-Philo* (New York: Oxford University Press, 1993), 267.

60. *Bib. Ant.* 40.4–7, in Baker, 206–7 (Translation by D. J. Harrington).

61. *Bib. Ant.* 40.6, in Brown, 110.

62. *Bib. Ant.* 40.4, 40.6, in Brown, 106, 110.

63. *Bib. Ant.* 40.5–6, in Brown, 110.

64. *Bib. Ant.* 40.6, in Brown, 110 (Format has been slightly adapted).

65. Brown, 94.

66. Tapp, 172.

CHAPTER THIRTEEN

1. Jean-Jacques Rousseau, *Oeuvres Complètes*, ed. Bernard Gagnelin and Marcel Raymond (Paris: Gallimard, 1964), vol. 2, 1214–15. Original translation by Adam Kirsch.

2. David M. Gunn, "Joshua and Judges," in *The Literary Guide to the Bible*, ed. Robert Alter and Frank Kermode (Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1987), 119.

3. Stuart Lasine, "Guest and Host in Judges 19," *Journal for the Study of the Old Testament* 29 (June 1984): 40.

4. Elizabeth Cady Stanton, *The Woman's Bible* (New York: European Publishing Company, 1898; reprint, New York: Arno Press, 1972), 12, 36.

5. Stanton, 7.

6. Carole Fontaine, "The Deceptive Goddess in Ancient Near Eastern Myth," *Semeia* 42 (1988): 84–85.

7. Johanna W. H. Bos, "Out of the Shadows," *Semeia* 42 (1988): 38, fn, 1, citing the work of Naomi Steinberg.

8. Esther Fuchs, "The Literary Characterization of Mothers and Sexual Politics in the Hebrew Bible," *Semeia* 46 (1989): 154.

9. Joseph Heller, *God Knows* (New York: Alfred A. Knopf, 1984), 5.

10. Gila Ramras-Rauch, "Fathers and Daughters," in "Mappings of the Biblical Terrain," ed. Vincent L. Tollers and John Maier, *Bucknell Review* 33, no. 2 (1990): 168.

11. Ramras-Rauch, 160.

12. Robert G. Boling, tr. and intro. *Judges*, Anchor Bible (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1975), 273–74.

13. Phyllis Trible, *Texts of Terror* (Philadelphia: Fortress Press, 1984), 66–67.

14. J. Cheryl Exum, *Fragmented Women* (Sheffield, England: JSOT Press, 1993), 177.

15. Anson Rainey and Ben-Zion (Benno) Schereschewsky, "Concubine," in *Encyclopaedia Judaica*, 17 vols. (Jerusalem: Keter Publishing House), vol. 5, 862–65.

16. Trible, 66.

17. Trible, 79–80.

18. Anne Michele Tapp, "An Ideology of Expendability," in *Anti-Covenant*, ed. Mieke Bal (Sheffield, England: Almond Press, 1989), 173.

19. Tapp, 171. (I have used the word "stories" in place of the technical term "fabulae" that appears in the original passage. "Fabulae" is defined by Tapp as "a series of logically and chronologically related events that are caused or experienced by actors," a definition that she credits to leading feminist Bible scholar Mieke Bal.)

20. Adrien Janis Bledstein, "Is Judges a Woman's Satire of Men Who Play God?" in *A Feminist Companion to Judges*, ed. Athalya Brenner (Sheffield, England: Sheffield Academic Press, 1993), 34.

21. David Penchansky, "Staying the Night," in *Reading between Texts* (Louisville, Ky.: Westminster-John Knox Press, 1992), 84–85. (As previously noted, Penchansky raises but disassociates himself from these intriguing scenarios.)

22. Richard Elliott Friedman, *Who Wrote the Bible?* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1987), 103.

23. Friedman, 117.

24. Bledstein, 53.

25. Boling, 1109.

26. Leila Leah Bronner, "Valorized or Vilified?", in Brenner, 78.

27. Barnabus Lindars, "Deborah's Song," *Bulletin of the John Rylands University Library of Manchester* 65, no. 2 (spring 1983): 173.

28. Danna Nolan Fewell and David M. Gunn, 1990, 394.

29. Bledstein, 52.

30. Susan Niditch, "Eroticism and Death in the Tale of Jael," in *Gender and Difference in Ancient Israel*, ed. Peggy L. Day (Minneapolis, Minn.: Fortress Press, 1989), 46, citing Robert Alter, "From Line to Story in Biblical Verse," *Poetics Today* 4 (1983): 633.

31. Niditch, 45–46, 52.

32. Niditch, 47.

33. Bronner, 89.

34. Niditch, 47–50.

35. Bledstein, 41–42, fn. 4.

36. Lindars, 174.

37. Louis Ginzberg, *The Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 4, 198, fn. 85.

38. Niditch, 45. (Emphasis added.)

39. Yairah Amit, "Literature in the Service of Politics," in *Politics and Theopolitics* in

the Bible and Postbiblical Literature, ed. Henning Graf Reventlow, Yair Hoffman, and Benjamin Uffenheimer (Sheffield, England: JSOT Press, 1994), 28.

40. Amit, 31.

CHAPTER FIFTEEN

1. Jared J. Jackson, "David's Throne," *Canadian Journal of Theology* 11, no. 3 (1965): 183.

2. Sigmund Freud, *Moses and Monotheism* (New York: Vintage Books, 1967), 51.

3. Leonhard Rost, *The Succession to the Throne of David* (Sheffield, England: Almond Press, 1982), 104.

4. David M. Howard, Jr., "David," in *The Anchor Bible Dictionary*, 6 vols., ed. David Noel Freedman (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1992), vol. 2, 41.

5. Martin Noth, *The Old Testament World* (Philadelphia: Fortress Press, 1966), 376–81.

6. Harold Bloom and David Rosenberg, *The Book of J* (New York: Grove Weidenfeld, 1990), 40–41.

7. Raymond-Jean Frontain and Jan Wojcik, ed., *The David Myth in Western Literature* (West Lafayette, Ind.: Purdue University Press, 1980), 4.

8. Joseph Heller, *God Knows* (New York: Alfred A. Knopf, 1984), 5–6.

9. David M. Howard, Jr., "David (Person)," ABD, vol. II, 44.

10. J. P. Fokkelman, *Narrative Art and Poetry in the Books of Samuel*, vol. 1 (Assen, The Netherlands: Van Gorcum, 1981), 103.

11. Charles Conroy, *Absalom, Absalom!* Analecta Biblica (Rome: Biblical Institute Press, 1978), 17–18, fn. 3.

12. Conroy, 17–18, fn. 3.

13. Susan Niditch, "The 'Sodomite' Theme in Judges 19–20," *Catholic Bible Quarterly* 44, no. 3 (July 1982): 370.

14. George Ridout, "The Rape of Tamar," in *Rhetorical Criticism*, ed. Jared J. Jackson and Martin Kessler (Pittsburgh: Pickwick Press, 1974), 77.

15. John H. Otwell, *And Sarah Laughed* (Philadelphia: Westminster Press, 1977), 23.

16. Phyllis Trible, *Texts of Terror* (Philadelphia: Fortress Press, 1984), 53.

17. P. Kyle McCarter, tr., intro., notes, and comm., *II Samuel*, Anchor Bible (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1984), 322.

18. Trible, 58, n. 16.

19. McCarter, 322.

20. Fokkelien van Dijk-Hemmes, "Tamar and the Limits of Patriarchy," in *Anti-Covenant*, ed. Mieke Bal (Sheffield, England: Almond Press, 1989), 140, citing a translation by Jonneke Bekkenkamp.

21. McCarter, 322.

22. Dijk-Hemmes, 140–41.

23. Jackson, 189.

24. McCarter, 405.

25. McCarter, 410.

26. John J. Davis, *The Birth of a Kingdom* (Grand Rapids, Mich.: Baker Book House, 1970), 149.

27. Louis Ginzberg, *Legends of the Jews*, 7 vols. (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1909–1938), vol. 4, 118.

28. Frontain and Wojcik, 5.

29. J. Cheryl Exum, 1993, 174–75.

30. Stephen L. Harris, *Understanding the Bible*, 2d ed. (Palo Alto, Calif.: Mayfield Publishing Company, 1985), 94.

31. Richard Elliott Friedman, *Who Wrote the Bible?* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1987), 110.

32. David M. Gunn, "In Security: The David of Biblical Narrative," in *Signs and Wonders*, ed J. Cheryl Exum (n.p.: Society of Biblical Literature, 1989), 143, fn. 6.

33. Friedman, 102.

34. David M. Gunn, "Joshua and Judges," in *The Literary Guide to the Bible*, ed. Robert Alter and Frank Kermode (Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1987), 1987, 119.

35. Jackson, 185.

CHAPTER SIXTEEN

1. Jack Kerouac, *On the Road*, Penguin Classics (New York: Viking Penguin, 1991), 256.

2. Jack Miles, *God: A Biography* (New York: Alfred A. Knopf, 1995), 6–7.

3. Sigmund Freud, *Moses and Monotheism*, (New York: Vintage Books, 1967), 21.

4. As rendered in English in Sidney Greenberg and Jonathan D. Levine, ed., *The New Mahzor for Rosh Hashanah and Yom Kippur (Mahzor Haddash)* (Bridgeport, Conn.: Prayer Book Press, 1978), 557.

5. Salman Rushdie, "The Book Burning," *The New York Review of Books*, vol. 36, no. 3, March 2, 1989, 26.

6. Geza Vermes, *Scripture and Tradition in Judaism* (Leiden: E. J. Brill, 1961), 7.

7. Vermes, 2–3, citing G. F. Moore, *Judaism in the First Centuries of the Christian Era*.

8. Harold Bloom and David Rosenberg, *The Book of J* (New York: Grove Weidenfeld, 1990), 11.

9. Isaac Bashevis Singer, "If You Could Ask One Question about Life, What Would the Answer Be? 'Yes,'" *Esquire* 82, no. 6 (December 1974): 95 et seq. Copyright © 1974 Isaac Bashevis Singer.

10. Singer, 95 et seq.

11. Singer, 95 et seq.

APPENDIX

1. Richard Elliott Friedman, *Who Wrote the Bible?* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1987), 21.

2. Freud, 50.

3. Harold Bloom and David Rosenberg, *The Book of J* (New York: Grove Weidenfeld, 1990), 26.

4. Bloom and Rosenberg, 19.

5. Stephen L. Harris, *Understanding the Bible*, 2d. ed. (Palo Alto, Calif.: Mayfield Publishing Company, 1985), 89.

6. Scofield KJV.

7. NEB.

8. New JPS.

9. Friedman, 27.

الفهرس

الفصل الأول:	5
حكايا محرمة في التوراة	
الفصل الثانى:	23
لوط وابنتاه	
الفصل الثالث:	43
الحياة ضد الموت: الزنى المقدس لابنتى لوط	
الفصل الرابع:	75
اغتصاب دينا	
الفصل الخامس:	91
انظر اي بلاء يلقى فوق كراهيتك: الأمر الغريب لدينا وشكيم	
الفصل السادس:	121
تامار ويهوذا	
الفصل السابع:	145
المرأة التي أقحمت نفسها في التاريخ: تامار كمومس على جانب الطريق	
الفصل الثامن:	169
صفورة وموسى	
الفصل التاسع:	181
عريس الدم:صفورة كإلهة منقذة لموسى	
الفصل العاشر:	211
يفتاح وابنته	
الفصل الحادى عشر:	233
إلهة اسرائيل:الطائفة المحرمة لابنة يفتاح	
الفصل الثانى عشر:	265
المسافر وسريته	
الفصل الثالث عشر:	277
الله واسادية النسائية: بطلات وشهيدات في سفر القضاة	

الفصل الرابع عشر: 301
تامار وأمنون
الفصل الخامس عشر: 319
اغتصاب تامار:سياسة الحب والكراهية في قصر
الملك داود
الفصل السادس عشر: 347
رواية الله المشوقة
الملحق: 361
من كتب التوراة حقاً؟
كرونولوجيا: 382
تقسيم الزمن الى فترات
عرفان 385
تعريف 387
ملاحق مراجع أجنبية 389

في أكبر تظاهرة روائية يعيد (جوناثان كيرتش) رواية القصص المحرمة في كتابه هذا - واضعا كل قصة ضمن اطارها الزمني والسياسي والاجتماعي منقبا في أحدث الدراسات الإنجيلية بغية إعطاء الجواب عن سبب منع أو تحريم كل قصة من هذه القصص وألقى ضوءاً كاشفاً عن الزمان والمكان اللذين شهدا أول كتابة للقصة، وعن السبيل الذي شقته إلى التوراة. وبيّن الكاتب أن لدى كل قصة من هذه القصص شيئاً هاماً يمكن أن تقوله إلى القراء المعاصرين.

(التايمز)

الجنس، والعنف، الفضائح. هذه كلمات قلما قاربناها من النصوص المقدسة في التوراة - الانجيل. إلا أن (جوناثان كيرتش) يقول لنا في هذا الكتاب المدهش أن العهد القديم مليء ببعض أكثر القصص ترويعاً وجلاء في الأدب الغربي.....، كُتمت بقوة السلطات الدينية طوال التاريخ لأنها قصص صادمة. (هل تعني أن كل ذلك وارد في الانجيل؟)..... هذا هو السؤال الذي يمثل رد فعل القارىء المعاصر على القصص التي يعيد (كيرتش) قصها واكتشافها.

الـ(واشنطن بوست)

نينوى
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة